أعلام

من الأسرة النبوية

أعلام

من الأسرة النبوية

فوزي آل سيف

الطبعة الأولى
٢٠٢٠م

أطياف للنشر والتوزيع
Atiyaf For Pub. & Dist.
المملكة العربية السعودية - القطيف - تلفاكس : 00966138549545
atyaf.qatif@gmail.com

الإخراج الطباعي

mojaded@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

■ يتناول هذا الكتاب سيرة ثمانية عشر ممن يرتبطون بالأسرة الهاشمية نسباً أو سبباً وهو يأتي في سياق الحديث عن سيرة رسول الله ﷺ وشؤونه، ليتكامل مع آخر حول شخصية (سيد الكائنات) ويثلثهما مصنّف حول أصحاب النبي والذين كانوا معه ولم يغيروا طريقتهم السليمة بعده.

إن تاريخ النبي المصطفى وسيرته لا تزال بحمد الله مصدر إلهام لمئات الملايين من المسلمين، بل ومن غيرهم ممن يتطلعون إلى الكمال، ويحبون الإنسان في أعلى صوره.

والنظر إلى تلك السيرة وتكوين رؤية صحيحة حولها، ومنها فيما بعد للحياة هو الجانب المهم الذي يفرض على علماء المسلمين ومفكريهم أن يسعوا إليه ويبذلوا جهداً فيه، ذلك أن أصول السيرة كمواد خام موجودة في الغالب في مصادر المسلمين، لكنها بصورتها تلك قد لا تكون عظيمة الفائدة لاختلاط غثها بسمينها وسقيمها بسليمها. ثم في الرؤية التي تستخلص منها بعد ذلك لو سلمت تلك المصادر.

سِيَر هذه الشخصيات مثلت حلقات كانت حول سيد الأنبياء والمرسلين،

بعضهم لم يعاصر بعثته ونبوته كجده ووالديه، وبعضهم الآخر عاصرها وناصره وكان له دور كأعمامه وبني عمومته، فيما كان بعض تلك الشخصيات في داخل حياته وجزءًا منها كما هو الحال في زوجاته.

- الترتيب في هذه الشخصيات غالبا يلاحظ الجانب التاريخي، لتأتي الصورة واضحة من عدة جهات فربما تداخلت بعض المعلومات، أو تكررت بنحو من الأنحاء، وملاحظة الجانب التاريخي نعني به بدايات معاصرة الشخصية للنبي ﷺ.
- قد لا يكون عنوان أسرة النبي أو الأسرة النبوية أو الهاشمية، عنوانا جامعاً ولا مانعاً، ففي الكتاب من لا ينتسب للنبي بل ولا لبني هاشم كحاضنة النبي ومرضعته وزوجاته وزيد حِبّه، وهناك من بني هاشم من لم يتم الحديث عنهم أو ذكرهم. وإنما الغرض من هذا العنوان هو: الاسرة بالمعنى الاجتماعي، والتي يتفاعل الشخص معها بنحو من الأنحاء من خلال علاقة نسبية قريبة أو متوسطة القرب، أو علاقة سببية بحيث توجد مناسبة معينة تصنع ارتباطا بينه وبين تلك الشخصيات. وبالنحو الأول يدخل من تم ترجمتهم من بني هاشم، وبالنحو الثاني يدخل من لم يكن من بني هاشم ولكن كان لهم نحو ارتباط خاص مع النبي ﷺ.
- هناك شخصيات قريبة كل القرب من النبي ﷺ، مثل أهل الكساء الأربعة لم يتم الحديث عنها في هذه الصفحات ونسأل الله أن يوفق للكتابة عنهم وعن باقي المعصومين عليهم السلام. وهكذا الحال بالنسبة لبعض زوجات النبي.

ينبغي أن نشير إلى أن أصل هذا الموضوع كان قد ألقي بصورة محاضرات في شهر رمضان المبارك، وتفضلت بعض الأخوات المؤمنات مشكورات بتفريغه من

الأشرطة، ونشر على موقعنا الالكتروني al-saif.net باسمائهن في رأس كل محاضرة. وأما الكتاب الذي بين يديك فهو بالإضافة إلى كونه إعادة صياغة كاملة للمواضيع هو يحتوي على ما لا تحتويه تلك المحاضرات، فضلا عن تحقيقه بقدر المستطاع.

■ أسأل الله سبحانه أن يُشرك في ثواب هذا العمل ـ إن كان ـ والديّ المرحومين، وزوجتيّ الفاضلتين (أم محمد وأم هادي) حيث كانتا نعم المعين بتهيئة الجو المناسب للكتابة. ووُلدي حفظهم الله، ومن ساهم بنحوٍ من الأنحاء في إنجاز هذا الكتاب. وأسأل الله للجميع أن يحشرنا مع النبي المصطفى وآله الكرام. وأن لا يفرق بيننا وبينهم إنه ولي ذلك والقادر عليه.

فوزي بن المرحوم محمد تقي آل سيف
تاروت القطيف
ربيع الثاني ١٤٤١ هـ

حقوق الأسرة النبوية أهل الكساء

﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1].

تتناول هذه الصفحات أسرة النبي المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ في بعض شخصياتها، وهو موضوع حري بالاهتمام فهذه الأسرة الشريفة بدأ الخير معها على هذه الأمة ولاتزال أمتنا تجد أثار هذا الخير إلى يومها الحاضر.

ويهدف تناول هذا الموضوع إلى تحقيق أمور منها:

١ . فهم سيرة النبي محمد ﷺ:

لا يعيش الإنسان منفصلا أو معزولا عن محيطه بل الغالب أنه يعيش ضمن أسرة وفي وسط اجتماعي قريب منه يتفاعل معه ويؤثر فيه ويتأثر به.

ولكي تُكوَّن صورة واضحة عن الشخص وأعماله نحتاج لمعرفة البيئة

(١) الشورى / ٢٣.

الاجتماعية والأسرية التي عاش فيها هذا الإنسان. كيف كان أبواه وأجداده؟ كيف كان أقاربه؟ كيف تعاملت أسرته معه؟.

نسعى في هذه الصفحات أن نتعرف على بيئة النبي المصطفى ﷺ الأسرية. لأنه تفاعل معها وتأثر بنحو من الأنحاء بها، فإن كونه صلوات الله عليه يتيم الأب في وقت مبكر وفقده أمه في ما بعد ذلك في وقت قريب، وكفالة جده عبد المطلب إياه، ثم كفالة عمه أبي طالب، وحياته الزوجية، بما يلحظ فيها من زيجات متعددة، وكيفية تعامله معهن. إن معرفة هذه كلها سوف تسهم في تعميق معرفتنا برسول الله ﷺ.

وهذا لا يعني ما يذهب إليه بعضهم من تاريخية السنة والسيرة النبوية وأنها تتأثر بالظروف الاجتماعية التي عاشها رسول الله وبالتالي فهي كأحكام وتشريعات مرهونة بظروفها التاريخية ومتوقفة عندها لأنها كما يقول بعضهم خطأ كانت استجابة لظروف خاصة وتنتهي بنهاية تلك الظروف.[١]

٢. السعي للاقتداء بالنبي المصطفى:

وبعد أن نتعرف على سيرة النبي ﷺ ننتقل الى مرحلة العمل والاقتداء، فنحن المسلمون نحتاج إلى نموذج ومثال ينظر إليه في مختلف مجالات الحياة.

نحتاج الى نموذج ومثال لمن يقاوم ضغوط الأسرة والأقارب الذين قد يؤثرون بشكل سلبي على إيمان الإنسان وتمسكه بعقائده. فقد يحيط به من أقاربه من هو

(١) لمن اراد التفصيل في الفرق بين سنة النبي وأحكامه التي تتصف بأنها إلى يوم القيامة، وتلك الأخرى (الولائية والتدبيرية) التي تنطلق من كون النبي ﷺ حاكما لبلد وقاضيا بين الناس فهو يقرر قوانين ناظرة إلى وقائع شخصية كما في القضاء أو حتى اجتماعية كما هو في الادارة والتدبير. يراجع فصل (هل النبي له حق التشريع ؟) في قصة تشريع العبادات)للمؤلف.

مؤمن او متردد او حتى جاحد مواجه لخط الإيمان. حتى نقول لهذا الإنسان في مجتمعنا المعاصر أيها الإنسان ربما تجد من إخوانك او أقاربك من يكون مخالفا لخط التدين والإيمان فاقتدِ في هذا برسول الله فقد كان لديه أعمام وبنو عمومة على غير خطه وليسوا على منهجه. وقد واصل نهجه بشعار (فاستقم كما أمرت).

نحتاج في الأسرة إلى مثال الزوج العادل بين النساء، والنبي الكريم كان عنده تسع نساء وكان بعضهن على درجة من الحدة وبعضهن الآخر على نفس الدرجة الغيرة ومع ذلك تعامل معهن الرسول بأقصى ما يمكن لبشر من الأخلاق وحسن الإدارة إلى الحد الذي ثمّن الله سبحانه في الكتاب مواقف النبي في صيانته لأسرته[1]، وتحمله للمشاكل من أجل استقرار الحياة الزوجية. نحتاج إلى هذا النموذج والمثال لنقدمه لأبنائنا وبناتنا ولمجتمعنا عموما وهو يشهد تصاعدا مخيفا في ارتفاع نسب الطلاق يتعاكس مع سخافة الأسباب الموجبة لانهدام الحياة الزوجية.

فإن (أسرة النبي) يمكن أن تقسم بحسب الآثار والأحكام المترتبة الى ثلاث دوائر:

صغيرة، ومتوسطة، وكبيرة.

الدائرة الصغيرة: وهي الأكثر حقوقاً وواجبات على الخلق وهم الخمسة أهل الكساء (النبي محمد وأمير المؤمنين علي وفاطمة والحسن والحسين) ثم من يلحق بهم حُكماً من المعصومين (التسعة من ذرية الحسين بن علي عليهم السلام.)

وهم المقصودون أولاً بالحديث عنهم في القران الكريم حيث ذكروا بعناوين مختلفة مثل:

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ التحريم / ١.

أ.القربى ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

ب.الأقربين ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

ج.أهل البيت ﴿إنّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهل البيت ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾

وأما الروايات الشريفة فعنونتهم بأهل البيت تارة وآل محمد أخرى. وقد تحدثت الروايات عن فضائلهم ومقاماتهم ومناقبهم بحيث ألفت كتب في هذه المقامات عموما[١]، أو في بعض الفضائل على وجه الخصوص. ومن تلك الروايات في فضائلهم، ما نقل عن الإمام علي عليه السلام: «لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الاَمّة أحد، ولا يُسوَّى بهم مَن جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساسُ الدين، وعمادُ اليقين، إليهم يفيءُ الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقِّ الولاية، وفيهم الوصية والوراثة».[٢]

وقد ترجمت تلك الروايات والنصوص إلى ما يعادلها من الواجبات والأحكام، فمنها:

١. واجب الإطاعة ولزوم الإتباع، فيلزم على كل مسلم وليس على شيعة أهل البيت فقط ان يطيع أوامرهم ويجتنب نواهيهم. باعتبار أنهم امتداد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأوضح دليل على ذلك هو الحديث المعروف بين الفريقين بحديث الثقلين: (إني تاركٌ فيكم الثَّقَلَين، كتابَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وعِتْرَتي، كتاب الله حَبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أَهْلُ بيتي، وإن اللطيف الخبير أَخبرني أَنهما لَن يفترقا

(١) راجع كتاب أهل البيت في الكتاب والسنة / للشيخ محمد محمدي الريشهري.

(٢) الإمام علي: نهج البلاغة ١/ ٤٧ ط دار الكتاب اللبناني.

حتى يَرِدا عليّ الحوض)[١] وصيغة الحديث تؤدي إلى معنى واحد وهو أن النجاة من الضلال، يرتبط بالتمسك بهما معا، وأن أحدهما لا يكفي عن الأخر، فَلَو جاء أحدهم وقال (حسبنا كتاب الله) يقال له هذا خلاف للحديث الشريف. وكذلك لو فرض أن قال أحدهم يكفيني أئمة أهل البيت ولا أُريدُ القران يقال له هذا مخالفة لأمر رسول الله، فإن أئمة أهل البيت لا ينفصلون عن القران!

ولعله لهذه الجهة صرح الإمام محمد الباقر ﷺ: «إِذَا حَدَّثْتُكُمْ بِشَيْءٍ، فَاسْأَلُونِي عَنْ كِتَابِ اللهِ ثُمَّ قَالَ فِي حَدِيثِهِ: «إِنَّ اللهَ نَهى عَنِ الْقِيلِ وَالْقَالِ، وَفَسَادِ الْمَالِ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ». فَقَالُوا: يا بن رَسُولِ اللهِ، وَأَيْنَ هذَا مِنْ كِتَابِ اللهِ؟

قَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً﴾ وَقَالَ: ﴿لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾»[٢].

---

(١) تعددت صيغ الحديث في مصادر الفريقين ولعل ذلك راجع إلى تعدد المناسبات التي قال فيها النبي هذا الحديث، وتعدد الأصحاب الذي سمعوه منه:. ففي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي جاء بهذه الصيغة: إني تاركٌ فيكم الثَّقَلَين، كتابَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وعِتْرَتي، كتاب الله حَبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أَهْلُ بيتي، وإن اللطيف الخبير أَخبرني أَنهما لَن يفترقا حتى يَرِدا عليّ الحوض، فَانْظُرُوني بِمَ تَخلُفُوني فيهما.

وفي صحيح الترمذي بإسناده عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «إنّي تارك فيكم ما إنْ تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الاخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الارض وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتّى يردا عَلَيّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» وفي نص ثالث: إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي اهل بيتي. ولتفصيل البحث في ألفاظ الحديث ورواته يمكن مراجعة كتاب: حديث الثقلين، دراسة في السند والمتن لمؤلفه السيد رعد المرسومي، وكذلك حديث الثقلين للشيخ نجم الدين العسكري .وهما موجودان على شبكة الانترنت، وغيرهما من الكتب.

(٢) الكليني؛ محمد بن يعقوب: الكافي ١٠/ ٢ ٥٠ ط دار الحديث:(وَعِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَبِيهِ جَمِيعاً، عَنْ يُونُسَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سِنَانٍ وَابْنِ مُسْكَانَ، عَنْ أَبِي الْجَارُودِ، قَالَ: قَالَ

يريد الإمام الباقر عليه السلام أن يقول نحن (أهل البيت) لا نتكلم من عندنا، إنما نستند في ذلك إلى القرآن الكريم.

إذن. حُصر الأمن من الضلال باتباع القرآن وأهل البيت عليهم السلام وهو يشابه الحديث الشريف الآخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق).[١]

فقد حصرت النجاة والأمن من الغرق بوسيلة واحدة وهي اتباع أهل البيت عليهم السلام والتشبيه بسفينة نوح فيه دعوة للتأمل لما كانت تمثل تلك السفينة. فإنه في زمان نوح عليه السلام لم يكن هناك شيءٌ عاصمٌ من الغرق إلا هذه السفينة، حتى لو صعدت الجبل المرتفع وهو بحسب الظاهر أعلى من السفينة وأكثر أماناً. لا عاصم يعصمك من الغرق، رغم أن صعود بناية تتكون من ٣٠ طابقا لتفادي السيل حسب المقاييس العادية أولى من ركوب سفينة وسط الأمواج العاتية!! اذ يمكن أن تنكسر تلك السفينة، لكن العاصم اليوم من أمر الله ليس إلا من رحم بركوب السفينة.

إذنْ. أوجب القرآن الكريم والنبي العظيم على الخلائق إتباع هذه الأسرة (أهل الكساء) ومن في حكمهم من الأئمة المعصومين من ذرية الحسين عليه السلام ووجوب طاعتهم يقتضي ان تكون أقوالهم وأفعالهم حججاً شرعية، يصح الاستدلال بها، والعمل على وفقها.

فإنه لا معنى لأن تقول اتبع فلاناً لكن كلامه ليس بحجة!! تماما مثل ما كان الأمر

أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام. أصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله (إن الله يبغض القيل والقال. الخ) أو نهى الرسول عن القيل والقال. موجود في كتب الفريقين، ومقدمته عن الإمام الباقر كما هو مبين، وفي السند أبو الجارود، وفيه نقاش لكن الإمام الخوئي في معجم الرجال صرح بوثاقته.

(١) نقله الميلاني في نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار ٤ / ٨٥ عن عدد من مصادر مدرسة الخلفاء.

باتباع النبي وطاعته في القرآن مقتضيا لحجية أقواله ولزوم الأخذ بها، وإلا كان عبثا.

مع كل ذلك فإن بعض المسلمين وللأسف رفضوا حجية أقوالهم وأفعالهم، وتعاملوا معهم كرواة محدثين أو علماء مجتهدين، بل في بعض الحالات امتنعوا[١] حتى عن الرواية عنهم.

٢. ومن الحقوق الثابتة لهذه الأسرة والواجبات المفروضة على المسلمين هي الصلاة عليهم (محمد وآل محمد) فمن الثابت أنه بعد نزول الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٢] جاء نفر إلى رسول الله وسألوه عن كيفية الصلاة عليه؟ (قلنا أو قالوا: يا رسول اللَّه أمرتنا أن نصلي عليك وأن نسلم عليك، فأما السلام فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك؟ قال قولوا: اللَّهمّ صلّ على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد.[٣]

---

(١) قال الشيخ جعفر السبحاني في كتابه بحوث في الملل والنّحل ٦ / ٤٨٢: (والعجب انّ الإمام البخاري، احتجّ بمثل مروان بن الحكم، وعمران بن حطّان وحريز بن عثمان الرحبي وغيرهم ولم يرو عن الإمام الصادق عليه السلام.

أمّا الأوّل فهو الوزغ ابن الوزغ، اللعين ابن اللعين على لسان رسول اللّه، وأمّا الثاني فهو الخارجي المعروف الذي أثنى على ابن ملجم بشعره لا بشعوره، وأمّا الثالث فكان ينتقص عليّاً وينال منه ومع ذلك لم نجد رواية للبخاري عن الإمام الصادق.)

(٢) الأحزاب / ٥٦.

(٣) صحيح مسلم ٢ / ٤٦ باب الصلاة على النبي عن عن أبي مسعود الَانصاري، قال: أتانا رسول اللّه صلى الله عليه وآله ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا اللّه تعالى أن نصّلي عليك، يا رسول اللّه: فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول اللّه صلى الله عليه وآله حتى تمنينا انّه لم يسأله. ثمّ قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: (قولوا: اللّهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين انّك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم). وفي: إمتاع الأسماع ٥ / ٣٩٥ للمقريزي، نقل أقوال من قال بوجوبها؛ إما في الصلاة اليومية أو مطلقا، ومن

وكما وجدنا بعض المسلمين للأسف يستكثرون على أئمة أهل البيت حتى الرواية عنهم، كما سبقت الاشارة، فقد استكثر هؤلاء أيضا عليهم أن تغدو الصلاة عليهم وتروح فقاموا ببتر الصلاة، أو تحويرها، فهم إما يفردون النبي ﷺ بالصلاة دون أهل بيته، أو إذا أرادوا أن يثبتوا الآل فلا يبقون أحداً في الدنيا إلا وأدخلوه في الصلاة، فهي على النبي وآله وأصحابه وزوجاته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين!!مع أنه من الواضح وجود خصوصية للآل كما يشير إليه تعليم النبي الصلاة الإبراهيمية.

فعن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال: سمع أبي رجلا متعلقا بالبيت وهو يقول: اللهم صل على محمد، فقال له أبي عليه السلام: لا تبترها، لا تظلمنا حقنا، قل: اللهم صل على محمد وأهل بيته.[1]

وإذا كان هذا على مستوى الأفراد، فقد صار في بعض الفترات سياسة سلطانية عامة، صريحة كما صنع عبد الله بن الزبير،[2]أو غير صريحة كما وجدنا في فترات التاريخ الأخرى، فإن أهل البيت يُغيَّبون ويحذفون من ذاكرة المسلمين، فلا غرابة أن تجد مسلماً وقد عاش ثلاثين سنة من عمره ثم لا يجد لهم حقاً، ولا يرى بينهم وبين غيرهم فرقاً!

وإذا ثبت لهم شيء تأتي سياسة تغيير المصداق، فيكون عند بعضهم أن أهل البيت هم زوجاته أو عامة أمته!!

قال بالاستحباب وأشار إلى مواضعها ومصادر تلك الأقوال.

(١) العاملي؛ الحر: وسائل الشيعة ٢٨ / ٢٠٢.

(٢) في تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٦١ «وتحامل عبد الله بن الزبير على بني هاشم تحاملا شديدا، وأظهر لهم العداوة والبغضاء، حتى بلغ ذلك منه أن ترك الصلاة على محمد في خطبته، فقيل له: لم تركت الصلاة على النبي؟ فقال: إن له أهل سوء يشرئبون لذكره ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به.»

والحق: إنما أهل البيت هم بتعيين رسول الله وتنصيصه هم الذين ورد ذكرهم في حديث الكساء[١] المشهور والذين قال فيهم رسول الله ﷺ:(اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وخاصتي وحامتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا).[٢]

ولا غرابة ان يجعل لهم هذا التكريم والاحترام، ولا غرابة أن يصلى عليهم ليلاً ونهاراً، لأنه بهم قامت الصلاة وتشيد الدين فلولا سعيُ رسول الله وجهاده وجهوده ولولا سيف أمير المؤمنين ونداءات فاطمة الزهراء وشهادة الإمام الحسين لكان هذا الدين في الأمة أثراً بعد عين.

---

(١) في مصادر مدرسة الخلفاء ورد الحديث في أكثر من مصدر، فمنها «صَحِيح مُسْلِم» عَنْ عَائِشَةَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ غَدَاةً وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ فَجَاءَ الْحَسَنُ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَدْخَلَهَا، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً. ومنها التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَنْ عُمَرَ بن أبي سلمة قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى النَّبِي: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ دَعَا فَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَجَلَّلَهُمْ بِكِسَاءٍ وَعَلِيٌّ خَلْفَ ظَهْرِهِ ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا». ولقد أجهد بعضهم نفسه بتكلفات وتعسفات لصرف الحديث والآية عن المذكورين في كلام رسول الله، ولكن لم يأت بشيء إلا بمقدار ما دل على موقفه السلبي من آل محمد! .وفي تفسير الطبري. عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فجلل عليهم كساءً خيبرياً فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرّجس وطهرهم تطهيرا، قالت أم سلمة: ألست منهم؟ قال: إنك إلى خير).

(٢) الفصول المهمة في معرفة الائمة ١/ ١٢٦علي بن محمد المالكي المكي (ليس فيه حامتي) وإنما هي في مصادر الإمامية.

الحق المالي للأسرة النبوية

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾.[1]

بعد أن تحدثنا عن آل رسول الله وأهل بيته في الدائرة الأخص وهم (أهل الكساء ومن يلحق بهم حكما من الأئمة المعصومين التسعة من ذرية الحسين بن علي) وحقهم على الناس في وجوب طاعتهم واتباع أوامرهم، وأنهم لا يفترقون عن القرآن ولا يفارقهم حتى يرد الناس على الحوض يوم القيامة، وأن مقتضى ذلك حجية أقوالهم وأفعالهم وبذلك تكون جزء من السنة التشريعية، تماما مثل ما هي أقوال جدهم رسول الله ﷺ وأفعاله.

بالإضافة إلى اظهار احترامهم وإبراز مودتهم بمقتضى ما دل من أنه ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾.[2] ننقل بالحديث إلى الدائرة الأكبر من أسرة النبي المصطفى، التي وإن لم يثبت كل ما سبق إلا أنه يثبت لصالحهم ومؤمنهم

---

(١) الأنفال / ٤١.

(٢) الشورى/ ٢٣.

لزوم الإحترام لحرمة النبي ﷺ، كما يثبت لهم ـ في الجملة ـ حق مالي، كما سيأتي.

وهذه الدائرة الكبرى تشمل أعمامه المؤمنين به والصالحين، وزوجاته سواء من اقترن بهم بعقد النكاح أو بملك اليمين، بل ومن يتصل به كحاضنته في صغره ومربيته. وفي هذه الدائرة يشترط بالإضافة إلى الإيمان برسول الله حسن العمل والصلاح.[١]

وينبغي أن يلاحظ أنه كما يتم تكريم واحترام أسرة النبي وأقاربه الصالحين على صلاحهم واستقامتهم فإنه بنفس المقدار يعاَتب ويلام المسيء منهم في ذلك، مثلما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام: إن علي بن الحسين عليهما السلام كان يقول: لمحسننا كفلان من الاجر ولمسيئنا ضعفان من العذاب).[٢]

وأما الحديث عن الحق المالي للأسرة النبوية، فإنه يقرر فقهاء الإمامية[٣]ومعهم جمع من علماء المذاهب الأخرى،[٤]بأن من يشترك مع النبي ﷺ في النسب

(١) سيأتي أن الحق المالي في الخمس هو لبني هاشم ولا يشمل غيرهم.

(٢) الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: عيون أخبار الرضا ٢/ ٢٣٢

(٣) في منهاج الصالحين قال السيد الخوئي ومثله باقي الفقهاء ـ: يقسم الخمس نصفين، نصف للإمام عليه السلام خاصة، ويسمى (سهم الإمام) ونصف للأيتام الفقراء من الهاشميين والفقراء وأبناء السبيل منهم، ويسمى (سهم السادة)، ونعني بالهاشمي من ينتسب إلى هاشم جد النبي الأكرم ﷺ من جهة الأب، وينبغي تقديم الفاطميين على غيرهم.

(٤) قال ابن رشد في بداية المجتهد ١ / ٣١٤: واختلفوا في القرابة من هم ؟ فقال قوم: بنو هاشم، وقال قوم: بنو عبد المطلب وبنو هاشم.

وسبب اختلافهم: في هل الخمس يقصر على الأصناف المذكورين أم يعدى لغيرهم هو: هل ذكر تلك الاصناف في الآية المقصود منها تعيين الخمس لهم أم قصد التنبيه بهم على غيرهم فيكون ذلك من باب الخاص أريد به العام ؟ فمن رأى أنه من باب الخاص أريد به الخاص قال: لا يتعدى بالخمس تلك الاصناف المنصوص عليها وهو الذي عليه الجمهور، ومن رأى أنه من باب الخاص أريد به العام قال يجوز للإمام أن يصرفها فيما يراه صلاحا للمسلمين.

الهاشمي يثبت له حق مالي في (الغنيمة) وهو بمقدار الخمس على تفاصيل عندهم.

وبينما يخصص فقهاء مدرسة الخلفاء الغنيمة بخصوص الحربية، مستفيدين من سياق الآية القرآنية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١] التي جاءت في آيات القتال في سورة الأنفال، يقرر الإمامية شموله لكل ما يكتسبه المسلم ويزيد عن مؤونته، مستفيدين من أصل الوضع اللغوي للكلمة الذي لا يختص بالغنيمة الحربية، وباستعمالات القرآن والمعصومين الكثيرة في المعنى العام[٢] وبتفسير الأئمة المعصومين للآية بأنها شاملة لكل الفوائد والأرباح.[٣] وبأن الحرب في الإسلام ليست هي القاعدة الدائمة وإنما الاستثناء والضرورة، فكيف يربط أمر فئة اجتماعية كبيرة وهي بنو هاشم في معيشة فقرائها ومساكينها بهذه الحالة الاستثنائية التي قد تحدث وقد لا تحدث، وقد يغنم فيها المسلمون وقد يخسرون ؟

وأما من قال: القرابة هم بنو هاشم وبنو المطلب فإنه احتج بحديث جبير بن مطعم قال: قسم رسول الله ﷺ سهم ذوي القربى لبني هاشم وبني المطلب من الخمس قال: وإنما بنو هاشم وبنو المطلب صنف واحد، ومن قال بنو هاشم صنف فلانهم الذين لا يحل لهم الصدقة.

(١) الأنفال/ ٤١

(٢) راجع مادة غنم في معاجم اللغة، وآيات القرآن مثل (فعند الله مغانم كثيرة). وفي أقوالهم: الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة، ورحم الله امرء قال خير فغنم أو سكت فسلم. وللتفصيل يمكن مراجعة كتاب الخمس في عصر الغيبة . للعلامة الاشكوري. وكذلك محاضرة المؤلف في هذا الموضوع: التأسيس النظري لمسألة الخمس. https://www.youtube.com.watch?v=G25KDdohjUA&t=13s

(٣) يمكن مراجعة فصل (تشريع الخمس) في قصة تشريع العبادات للمؤلف. موجود على الموقع الالكتروني: http://www.al-saif.net.?act=av&action=view&id=2126

والمعروف من أبناء عبد المطلب بن هاشم[١] حيث كان له عشرة أن من بقي لهم نسل معلوم أربعة على المشهور وهم الذين يشتركون مع الرسول ﷺ في النسب و سيكون لأحفادهم نصيب في الخمس بما عرف عندنا الإمامية بحق السادة[٢] في الخمس.

هؤلاء الأربعة هم:

١. الحارث بن عبد المطلب.

٢. العباس بن عبد المطلب وهو جد الأسرة العباسية.

٣. أبو لهب عم النبي فإنه وإن كان كافرا ولكن ذريته المؤمنة لو كانت موجودة تستحق هذا الحق المالي.

٤. أبو طالب بن عبد المطلب والد الإمام علي عليه السلام.

وبالنسبة إلى عبد الله والد النبي ينحصر الأمر في نسل النبي ﷺ، وحيث أن نسله لم يكن في جهة الأبناء الذكور إذ قضوا في أيام حياته، فيكون نسله من خلال ابنته فاطمة ويتحد مع أبناء أمير المؤمنين علي عليه السلام، وهذا لعله أحد وجوه ما نقل عنه من أن ذرية كل نبي من صلبه وذريته من صلب علي بن أبي طالب.[٣]

(١) الإمام الخوئي؛ منهاج الصالحين ١/ ٣٤٩ المراد من بني هاشم من انتسب إليه بالأب، أما إذا كان بالأم فلا يحل له الخمس وتحل له الزكاة، ولا فرق في الهاشمي بين العلوي والعقيلي والعباسي وإن كان الأولى تقديم العلوي بل الفاطمي.

(٢) يطلق في الاصطلاح الشيعي لفظ (السيد) على من كان هاشمي النسب، وجمعه (سادة) ولا يعلم على وجه التحديد متى تم الاتفاق على هذا الاصطلاح ولكن يقول باحثون إنه كثر استعماله في القرن الخامس الهجري، وهو يساوي اصطلاح (الشريف) في المجتمعات غير الشيعية تقريبا. وكان قد تم تأسيس (نقابة الطالبيين) التي تنتهي إلى نفس المعنى في زمان المستعين العباسي المتوفى سنة ٢٥٢ هـ. بغرض احصاء وإثبات أنساب الهاشميين والطالبيين.

(٣) مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لابن المغازلي ١ / ٩٥ عن جابر بن عبد اللّه الأنصاريّ قال:

وبالنسبة لحمزة بن عبد المطلب فقد استشهد ولم يخلف ذكورا بحيث يمتد نسبه بهم.

والملاحظ أن الآية المباركة تقسم الحق المالي هذا إلى أقسام: فأما سهم الله فهو تشريف وابتداء وبيان اهتمام وإلا فإن كل ما في الكون هو لله سبحانه، ثم للرسول لا بالمعنى الشخصي وإنما بما هو وال على الأمة وقائد لها، ويخلفه في ذلك الإمام الحق حيث تحتاج القيادة إلى إمكانيات مالية لتسيير أمورها. ويبقى النصف الآخر وهو لقرابة الرسول ممن ذكرناهم آنفا من بني هاشم وعبد المطلب، من أبنائهم وأحفادهم، فقيرهم ومسكينهم وابن سبيلهم وذوي حاجتهم من الرجال والنساء. لا سيما وقد حرم الله عليهم الصدقة الواجبة، وكره لهم أخذ الصدقة المستحبة.[1]

هذا عند الإمامية، وأما أتباع مدرسة الخلفاء فقد اختلفت الأقوال عندهم، ولكن الجامع بينها أن بني هاشم وعبد المطلب لا ينالون من الخمس شيئا بعد وفاة الرسول ﷺ، فصار حال فقيرهم ومسكينهم أسوأ من أي أحد، فإذا كان مسكين غيرهم وفقيره يعطى من الصدقات فهؤلاء لا تحل لهم بحسب الفرض (لا سيما على رأي بعضهم ممن يحرمون على الآل الصدقة الواجبة والمستحبة!!)، فلا

قال رسول اللّه ﷺ: إنّ اللّه جعل ذرّيّة كلّ نبيّ من صلبه، وإنّ اللّه -عزّ وعلا- جعل ذرّيّة محمّد من صلب عليّ بن أبي طالب عليهما السّلام. واليوم الذرية النبوية وسادات أهل البيت هم من هذا الفرع الهاشمي حيث احتفظوا بأنسابهم المسجلة والموثقة، ولهم بذلك (مشجرات نسب) يثبتون من خلالها صحيح النسب، ويمنعون أدعياء النسب، وهناك نسابة متخصصون يرجع إليهم باعتبار خبرتهم.

(١) وسائل الشيعة ٩/ ٥٠٩. عن زكريا بن مالك الجعفي، عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه سأله عن قول الله عزّ وجلّ: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) ؟ فقال: أمّا خمس الله عزّ وجلّ فللرسول يضعه في سبيل الله، وأمّا خمس الرسول فلأقاربه وخمس ذوي القربى فهم أقرباؤه، واليتامى يتامى أهل بيته، فجعل هذه الأربعة أسهم فيهم، وأمّا المساكين وابن السبيل فقد عرفت أنّا لا نأكل الصدقة ولا تحلّ لنا فهي للمساكين وأبناء السبيل.

ينالون منها، ومن جهة أخرى حرموا من الخمس!![١]

فبينما كان الحديث عن أسرة النبي وقرابته وأنه لا يسأل الناس أجراً على رسالته إلا المودة في قرباه، وأن المطلوب هو تكريم لهذه الأسرة لمكانها من رسول الله، و مقتضى التكريم أن تزيد في عطائهم وأن يكون ذلك العطاء بحيث لا يكون المستلم في موقع الذلة والمهانة، وإنما بما هو حق ثابت له في المال، وأنت واسطة الايصال. بل لقد أنف النبي ﷺ لذريته أن يكونوا محط بقايا عطايا الناس بما يرافق ذلك عادة من الامتهان للآخذ. فقد نقل[٢] السيوطي[٣] عن مُسلم وَابْن سعد عَن الْمطلب بن ربيعَة بن الْحَارِث قَالَ جِئْت انا وَالْفضل بن الْعَبَّاس فَقُلْنَا يَا رَسُول الله جِئْنَا لتؤمرنا على هَذِه الصَّدقَات فَسكت ورفع رَأسه الى سقف الْبَيْت حَتَّى أردنَا ان نكلمه فَأَشَارَتْ إِلَيْنَا زَيْنَب من وَرَاء حجابها كَأَنَّهَا تَنْهَانَا عَن كَلَامه وَأَقْبل فَقَالَ ان الصَّدَقَة لَا تحل لمُحَمد وَلَا لآل مُحَمَّد وانما هِيَ اوساخ النَّاس.[٤]

(١) قال في بداية المجتهد ١/ ٣١٣: ناقلا الاختلاف والاقوال، منها: أنه يقسم اليوم ثلاثة أقسام، وأن سهم النبي وذي القربى سقطا بموت النبي ﷺ. والقول الرابع: أن الخمس بمنزلة الفئ يعطى منه الغني والفقير، وهو قول مالك وعامة الفقهاء. والذين قالوا يقسم أربعة أخماس أو خمسة اختلفوا فيما يفعل بسهم رسول الله ﷺ وسهم القرابة بعد موته. فقال قوم: يرد على سائر الاصناف الذين لهم الخمس. وقال قوم: بل يرد على باقي الجيش.

(٢) في الخصائص الكبرى ٢/ ٤٠٩.

(٣) عبد الرحمن بن كمال الدين الأسيوطي المشهور باسم جلال الدين السيوطي، عالم شافعي المذهب، صوفي التوجه، يعد من حفاظ الحديث، كثير المصنفات حتى قيل بأنه صنف نحو ٥٠٠ عنوان ما بين كتاب ورسالة في التفسير والحديث والفقه والسير والتاريخ، منها: الاتقان في علوم القرآن، ومنها رسائل متعددة في نجا والدي النبي، ومنها: في الفضائل؛ إحياء الميت بفضائل أهل البيت والثغور الباسمة في مناقب سيدتنا فاطمة، وله شروح على أكثر المصادر الحديثية الأساسية في مدرسة الخلفاء .أهم شيوخه ابن حجر العسقلاني. توفي سنة ٩١١ هـ.

(٤) وقد أوضح المرجع الديني السيد علي السيستاني حسبما جاء في تقريرات بحثه: الرافد في الأصول / ٧٠ ما هو المقصود بأنها أوساخ الناس كالتالي عند الحديث عن الفرق بين الاعتبار القانوني والاعتبار الأدبي في الخطابات الشرعية:. التعبير في بعض النصوص عن الزكاة بأنها «اوساخ أيدي

ولأجل ما تقدم من عدم اختصاص الغنيمة بالحربية، وإنما تشمل ما يدخل على المؤمن من أرباح مكاسبه ويزيد عن حاجته ومؤونته السنوية (له ولعائلته) فإن خمس هذا الزائد يكون من مصاديق الآية المباركة، واستقر رأي الفقهاء المعاصرين على أنه ينقسم إلى قسمين متساويين: أطلق على الأول منهما حق (سهم) الإمام، وبتعبير أوضح هو حق الموقع القيادي الذي كان لرسول الله ﷺ، وبعده للإمام المعصوم، ثم للمرجع الديني. والقسم الآخر ويسمى بحق (سهم) السادة الفقراء والمساكين وأبناء السبيل منهم.

والسادة المعروفة أنسابهم في هذا العصر حيث يهتم بها آباؤهم وأجدادهم ويحتفظون بمشجرات تنتهي بأنسابهم إلى من يتصل برسول الله هم أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ويفترض أيضا أحفاد وذرية العباس بن عبد المطلب، كما ذكر في بعض مناطق العالم الإسلامي، فإن صح نسبهم وكانوا مع ذلك فقراء فإنهم يستحقون من هذا السهم (سهم السادة).

(يذهب بعض الفقهاء المعاصرين إلى أن أمر سهم السادة أيضا راجع إلى الإمام

الناس»، وقد وقع الإشكال في ذلك من بعض الأدباء والأقلام المعاصرة بأن الزكاة حق للفقراء في أموال الاغنياء فكيف يعتبر الإسلام هذا الحق من الاوساخ، مع أن لازم ذلك احتقار الفقراء واهانتهم وحدوث الطبقية بينهم وبين الاغنياء ما دام الإسلام يعتبر حقوقهم من الفضلات والأوساخ.

ولكن الجواب الصحيح عن ذلك أن يقال: بأن هذا التعبير لون من ألوان الاعتبار الأدبي لا الاعتبار القانوني، بلحاظ أن الاعتبار الأدبي حقيقته كما ذكرنا سابقاً إعطاء حد شيء لشيء آخر بهدف التأثير في احاسيس المخاطب ومشاعره، وفي المقام عندما أقبل بنو عبد المطلب للرسول وطلبوا منه أن يجعلهم من عمال الصدقات حتى ينالوا نصيباً منها أراد الرسول إبعادهم عن ذلك، ولعله بسبب أن لا تكون جميع وظائف الدولة الإسلامية بيد بني هاشم، لأن ذلك عامل منفر ومؤلب للقلوب عليهم بأنهم استبدوا بجميع الوظائف والمراكز، فحاول الرسول استخدام تعبير يبعدهم عن الوظيفة المعينة فقال لهم بأن الصدقات أوساخ ما في أيدي الناس، وهو تعبير أدبي كما قلنا قصد منه تنفير نفوسهم واحاسيسهم عن العمل المذكور لا أنه تعبير قانوني.

وهو يتصرف فيه ولو خارج هذا العنوان بعد كفاية حاجات السادة وأنه هو الولي عليه؛ ففي زمان المعصوم يكون هو وليه وفي زماننا يكون الفقيه الجامع للشرائط هو المتصرف فيه).

الرافضون تكريم الأسرة الهاشمية

يلاحظ الناظر في تاريخ المسلمين أنه كان يوجد اتجاه في زمان الرسول ﷺ يعارض وجود مبرر لتكريم أسرة النبي ومن يقرب منه! بل ربما يتعمد اظهار أن نسبهم مع النبي لا ينفعهم ولا يعطيهم أي قيمة، واستمر هذا الاتجاه قائما في ما بعد زمان النبي وإلى أيامنا هذه. والمشكلة أن هذا الاتجاه الذي كان عبارة عن (آراء) فردية تحول فيما بعد ليصبح نظرية في العقائد، وأحكاما في الفقه!! تجد لها تنظيرا شرعيا واستدلالا فقهيا!!.

ومن أمثلة ذلك ما نقله المحدثون عن ابن عباس قال: توفي ابن لصفية، عمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبكت عليه وصاحت، فأتاها النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال لها: «يا عمة، ما يبكيك ؟ « قالت: توفي ابني. قال: «يا عمة، من توفي له ولد في الإسلام فصبر بنى الله له بيتا في الجنة « فسكتت.

ثم خرجت من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاستقبلها عمر بن الخطاب فقال: يا صفية، قد سمعت صراخك، إن قرابتك من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لن تغني عنك من الله شيئا. فبكت فسمعها النبي - صلى الله عليه وسلم - وكان يكرمها ويحبها فقال: «يا عمة، أتبكين وقد قلت لك ما قلت؟ «قالت:

ليس ذاك أبكاني يا رسول الله، استقبلني عمر بن الخطاب فقال: إن قرابتك من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لن تغني عنك من الله شيئا. قال: فغضب النبي – صلى الله عليه وسلم – وقال: «يا بلال، هَجِّر بالصلاة «. فهجر بلال بالصلاة، فصعد المنبر النبي – صلى الله عليه وسلم – فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال أقوام يزعمون أن قرابتي لا تنفع ؟ كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي، فإنها موصولة في الدنيا والآخرة. [١]

فتارة بهذا النحو ينفون أن يكون الانتساب للنبي نافعاً، وأخرى بأن يشيعوا فكرة أن النبي ممتاز لكن أسرته وأهله سيئون، وأنه بين أهله بمنزلة الريحانة بين النتن!!

فعن عبد الله بن عمر قال إنا لقعود بفناء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرت امرأة فقال بعض القوم هذه بنت محمد! فقال أبو سفيان إن مثل محمد في بني هاشم كمثل الريحانة وسط النتن أو قال التبن فانطلقت المرأة إلى رسول الله فأخبرته فخرج ويعرف في وجهة الغضب فقال ما بال أقوام يؤذونني في أهلي ثم قال إن الله خلق السماوات سبعا فاختار العليا فسكنها[٢]وأسكن سائر سماواته من شاء من خلقه وخلق الأرضين سبعا فاختار العليا واسكنها من شاء من خلقه ثم خلق الخلق واختار من الخلق بني آدم فاختار من بني آدم العرب واختار من العرب مضر واختار من مضر قريشاً واختار من قريش بني هاشم واختارني من بني هاشم فأنا من خيار إلى خيار.[٣]

---

(١) مسند ابن عباس ح ٣٧٠٧ ومجمع الزوائد ٨/ ٢١٦

(٢) هذا على ما يذهب إليه ظاهريو مدرسة الخلفاء واضح، حيث يعتقدون بأن الله في السماء! وأما على ما يراه الامامية فإن أمكن حمله على محمل كنائي ومجازي (كما في مثل الرحمن على العرش استوى) وإلا فهو غير صحيح.

(٣) الطبراني؛ المعجم الأوسط ٦ / ٢٠٠

ونجد تجليا وظهورا لهذا الاتجاه في السياسة والخلافة، فعندما هُدد أمير المؤمنين علي عليه السلام بأنه إن لم يبايع فسيقتل قال: إذاً تقتلون عبد الله وأخا رسوله، قالوا له: أما عبد الله فنعم وأما أخو رسوله فلا![1]

فنحن نلاحظ أن هذا الاتجاه حاول أن يذم الأسرة المتعلقة بالنبي من خلال التركيز على أن النبي ريحانة في وسط النتن! فلا ارتباط بينه وبينهم! وعلى فرض وجود هذا الارتباط والنسب فلا ينفعهم ذلك في شيء. وان الانتساب إلى النبي والانتساب لغيره شيء واحد يوم القيامة! وصولا إلى نفي هذا الارتباط بين الإمام وبين النبي في الوقت الذي كانوا هم ينتصرون على الأنصار ويتقدمون عليهم في السقيفة بأنهم رهط النبي وقومه وشجرته!

وفي مرحلة تالية خاض أنصار هذا الخط معركة طاحنة لنفي أن يكون الحسن والحسين ابني رسول الله! وتولى كبْرَ هذا الأمر الأمويون ولا سيما عاملهم الحجاج الثقفي[2] وعاقب من يثبت ذلك! ويعتقد أنه تم حذف الصلاة على آل رسول الله

(١) الإمامة والسياسة ص: ٣٠ وفي عدد من المصادر الشيعية. ولعله لهذا السبب استبقى رسول الله عليا ولم يؤاخ بينه وبين أحد من المسلمين، لتكون المؤاخاة بينه ﷺ وبين علي، وقد اشتهر هذا عنه حتى قال في ليلة زفاف فاطمة؛ أين أخي علي فقالت له أم أيمن كما سيأتي ببساطتها المعروفة: أخوك وتزوجه ابنتك ؟

(٢) نقل في كثير من المصادر بين ايجاز وتفصيل في القصة ومنها شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار للقاضي أبي حنيفة النعمان المغربي ج :٣ عن الشعبي أن الحجاج .أحضروا الشيخ .فأتوا به، فاذا هو يحيى بن يعمر العدواني، فاغتممت غما شديدا، وقلت في نفسي: وأيّ شيء يقول يحيى مما يوجب قتله.

فقال له الحجاج: أنت تزعم أنك زعيم العراق؟

قال يحيى: الزعم كذب ولكني أقول إني فقيه من فقهاء أهل العراق.

قال: فمن أيّ فقهك؟ زعمك الحسن والحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟

قال: ما أنا زاعم لذلك بل أنا قائله بحق.

قال: وبأيّ حق قلت ذلك؟

قال: بكتاب الله عزّ وجلّ.

فنظر إليّ الحجاج، فقال: اسمع ما يقول فإن هذا مما لم يكن سمعته عنه أتعرف أنت في كتاب الله عزّ وجلّ دليلا بأن الحسن والحسين من ذرية محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فجعلت افكر في ذلك لم أجد في القرآن شيئا يدلّ على ذلك، وفكر الحجاج مليا، ثم قال ليحيى: لعلك تريد قول الله عزّ وجلّ (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ) وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج للمباهلة ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين.

قال الشعبي: فكأنما أهدى الى قلبي سرورا، وقلت في نفسي: قد خلص يحيى، وكان الحجاج حافظا للقرآن. فقال له يحيى: والله إنها الحجة في ذلك البالغة، ولكني ليس منها أحتجّ لما قلت.

فاصفرّ وجه الحجاج، فأطرق مليا، ثم رفع رأسه الى يحيى، وقال له: إن جئت من كتاب الله عزّ وجلّ بغيرها فلك عشرة آلاف درهم، وان لم تأت بها فأنا في حلّ من دمك.

قال: نعم.

قال الشعبي: فغمني قوله وقلت في نفسي: لما كان في الذي نزع له الحجاج ما يحتجّ به يحيى ويرضى بأنه قد عرفه، وسبقه إليه، ويتخلص منه حتى ردّ عليه، فأفحمه، فإن جاءه بعد هذا بشيء لم آمن أن يدخل فيه عليه من القول ما يبطل به حجته، لأنه يريه أنه قد علم ما قد جهله هو.

فقال يحيى للحجاج: قول الله عزّ وجلّ (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ) من عنى بذلك؟ قال الحجاج: إبراهيم.

قال يحيى: فداود وسليمان من ذريته؟

قال [الحجاج]: نعم.

قال يحيى: ومن نصّ الله عزّ وجلّ عليه بعد هذا أنه من ذريته؟

فقرأ الحجاج. (وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

قال يحيى: ومن؟

فقرأ الحجاج: (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى).

قال يحيى: ومن أين كان عيسى من ذرية إبراهيم ولا أب له من صلبه؟

قال: من قبل أمه.

قال يحيى: فمن أقرب رحماً مريم من إبراهيم أم فاطمة من محمد أم الحسن والحسين منه أم

ضمن هذا الاتجاه، فمع أن الوارد هو الصلاة عليه وعلى آله، إلا أن هذا لا يروق لأصحاب هذا الاتجاه، فتم بالتدريج إفراد النبي بالصلاة وتجريد الصلاة عن أهل بيته، حتى أصبحت اليوم هي الصلاة الرسمية في العالم الإسلامي! وأن من يقرنهما في الصلاة يتهم بالتشيع! وأحيانا مع التصريح من اتباع هذا الاتجاه أن الوارد في الروايات هو الصلاة على النبي والآل لكن لما صارت عنوانا للتشيع استحسن تركها!!

هذا مع أنه (لا يقاس بآل محمد أحدٌ) كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

ولو أردنا أن ننقط الحديث لقلنا:

١. في المرحلة الأولى قيل إنه لا تنفع القرابة والانتساب للنبي ولا تغير من الأمر شيئا وأن حال المنتسب وغير المنتسب واحد!

٢. على فرض أن الانتساب والقرابة تنفع، لا يوجد قرابة بين النبي وبين علي وأبنائه!

٣. تم حذف الآل من الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٤. يترتب على هذا أن لا يحتج هؤلاء بالقرب من النبي في أمور الخلافة.

٥. بل في موضوع الخلافة تمت صياغة نظرية جديدة!! هي أنه لا تجتمع الخلافة والنبوة في بيت واحد! وتحولت هذه (الميزة) التي كانت لدى الأنبياء في الأمم السابقة أن الله سبحانه اصطفى (عوائل، وأسر، وبيوت). وكان ينبغي أن تكون هذه شاهدا على خطأ ما صنعوه من نظرية للفصل بين النبي وعترته

عيسى من إبراهيم.

قال الشعبي: فكأنما لقمه حجرا.

فقال: اطلقوه قبحه الله وادفعوا إليه عشرة آلاف درهم لا بارك الله له فيها.

وبين النبوة والإمامة، إلا أنهم جعلوا (الميزة) مثلبة! فها هو أحد منظري هذا الاتجاه يرى أن من (أن محنة الرافضة محنة اليهود قالت اليهود لا يصلح الملك إلا في آل داود وقالت الرافضة لا تصلح الإمامة إلا في ولد علي).(١)

ومن العجيب أنه بينما يقول النبي ﷺ (كتاب الله وعترتي) مبينا فيه ولايتهم وإمامتهم، يأتي من يزعم أنها فكرة يهودية! والأعجب منه أنهم بينما قالوا في البداية لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد بعد عصر النبي مباشرة! قبلوا ذلك بعد ٢٥ سنة من الزمان حينما بايعوا علياً أمير المؤمنين، مما يعني أن هذه النظرية إنما صيغت لتمشية أمرٍ في ذلك الوقت لا أنها حقيقة ثابتة عندهم، وإلا كان الإشكال باقياً! فإذا كانت لا تجتمع فالمفروض أن لا يكون أحد من أقارب النبي خليفة إلى الأخير! فماذا تصنعون بخلافة الإمام علي أو كما تقولون الخليفة الرابع؟

٦. يضاف إلى ما سبق أنه تم «تجفيف» منابع التفضيل الثابت لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله (دائرة أهل الكساء) فقد منعوا وبالذات أيام الأمويين تفسير آيات القرآن (٢)التي يوجد فيها تفضيل لهم وتُأول فيهم وهكذا

(١) ابن تيمية؛ أحمد في كتاب منهاج السنة ج ٢ قال :أن محنة الرافضة محنة اليهود قالت اليهود لا يصلح الملك إلا في آل داود وقالت الرافضة لا تصلح الإمامة إلا في ولد علي.

(٢) الخرسان، السيد محمد مهدي؛ موسوعة عبد الله بن عبّاس ٧ / ١٧٤ في حوار معاوية وابن عباس. قال معاوية: فإنّا قد كتبنا في الآفاق ننهى عن ذكر مناقب عليّ وأهل بيته، فكفّ لسانك يا بن عباس وأربع على ضلعك!. فقال له ابن عباس: أفتنهانا عن قراءة القرآن؟ قال: لا. قال: أفتنهانا عن تأويله؟

قال: نعم؛ قال: فنقرأه ولا نسأل عمّا عنى الله به؟ قال: نعم.

قال: فأيّما أوجب علينا قراءته أو العمل به؟

قال معاوية: العمل به.

قال: فكيف نعمل به، حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا؟

قال: سل عن ذلك مَن يتأوله على غيرما تتأوله أنت وأهل بيتك.

قال: إنّما أنزل القرآن على أهل بيتي، فأسال عنه آل أبي سفيان؟ أو أسأل عنه آل أبي معيط؟ أو

أحاديث رسول الله المادحة لهم، وهدد من يرويها بعقوبات شديدة مثل القول أنه برئت الذمة ممن يروي فضائل أبي تراب [١]، ومعنى برئت الذمة في الاصطلاح الحديث أن تسلب وثائقه الشخصية، ومعها تنتفي حقوقه على الدولة كاملة.

ولم يتوقف الأمر على الأمويين بل أصبح منهجا رسميا للحاكمين، فحتى في زمان العباسيين والذين يفترض أن يكونوا أقرب رحما إلى أهل بيت النبي، وأن عليا هو ابن عمهم! إلا أن ذلك لم ينفع. فكما يقول أبو فراس الحمداني

كانت مـودة سلمان له نسبا   وَلَمْ يَكُنْ بَينَ نُوحٍ وَابنِهِ رَحِمُ

فهذا علي بن نصر الجهضمي،[٢]في زمان المتوكل حدث بالحديث المعروف

اليهود؟ أو النصارى؟ أو المجوس؟

إلى أن قال معاوية: فأقرأوا القرآن وتأوّلوه، ولا ترووا شيئاً ممّا أنزل الله فيكم من تفسيره، وما قاله رسول الله فيكم وأرووا ما سوى ذلك.

قال ابن عباس: قال الله في القرآن: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

(١) للتفصيل في هذا الموضوع يشار إلى الكتاب القيم للسيد محمد هاشم المدني منظومة حقوق العترة النبوية بين التطبيق والنظرية وقد نقل التالي .يخبرنا المؤرخ المعروف المدائني في كتابه" الأحداث" قال) :كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة :أن برئت الذمّة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر، يلعنون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته.

ثم قال: ولا تتركوا خبراً يرويه أحدٌ من المسلمين في أبي تراب إلاّ وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحبّ إليّ وأقرّ لعيني، وأدحض لحجّة أبي تراب وشيعته، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله.ثم كتب معاوية إلى عمّاله نسخة واحدة قال لهم فيها: انظروا من قامت عليه البيّنة أنه يحب علياً وأهل بيته، فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفّع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكّلوا به واهدموا داره).

(٢) حقوق العترة النبوية عن تاريخ بغداد١٣ / ٢٨٧، ح ٧٢٥٥، ترجمة نصر بن علي الجهضمي.

عن النبي ﷺ (من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة)، فأمر المتوكل بأن يجلد ألف سوط، ولما تشفعوا فيه وأخبروه أنه لا يقول بالتشيع وليس من أتباع أهل البيت حتى تركه!

وعبئ الجو بهذا الاتجاه المتطرف الرافض لفضائل آل محمد، إلى حد أن النسائي[١] وهو المحدث المشهور دفع حياته ضحية ذلك التطرف الاجتماعي! فقد ذكروا أنه ألف كتابا بعنوان (خصائص الإمام علي)، فلما صار في دمشق، قالوا له لِمَ لا تحدث بفضائل معاوية ؟ قال: إنه لم يصح له غير حديث لا أشبع الله له بطناً، فقاموا إليه يخبطونه في بطنه إلى أن أصيب بالفتق وبعدها توفي.[٢]

هذا في العصور الأولى. وأما ما بعدها فقد اتخذ أصحاب هذا الاتجاه طريقاً آخر بالإضافة السابق وهو كتمان مناقبهم وتغطية فضائلهم، وهذا الاتجاه الجديد، ينتهي إلى اتهام كل من يروي فضائلهم بالتشيع والتشيع تهمة تخل بوثاقة المحدث أو الراوي. هذا لو لم يفضل أهل البيت وخصوصا إمامهم عليا عليه السلام على من سبقه من الخلفاء، وأما لو فضله عليهم فهذا ليس شيعياً بل رافضي! وهو ساقط الحديث عندهم ولا ينظر في سطر مما قال.[٣] فتحاشى العلماء والمحدثون الرواية في فضل أهل البيت إما بشكل نهائي أو قللوا منها لدرجة كبيرة!

---

(١) النسائي؛ أحمد بن شعيب (٢١٥ هـ - ٣٠٣ هـ)، أحد أئمة الحديث النبوي له كتب متعددة فيه منها السنن الكبرى المعروف بسنن النسائي، ومنها كتاب «الخصائص» في خصائص الإمام علي فضرب في دمشق وتوفي على أثر ذلك .يعد البخاري ومسلم والترمذي من شيوخه كما يعد الطبراني والنيسابوري من تلامذته.

(٢) الذهبي شمس الدين؛ سير أعلام النبلاء ١٤/ ١٢٥.

(٣) نقل السيد المدني في كتابه حقوق العترة النبوية، مقالة الحافظ البربهاري (ت / ٣٢٩هـ) في كتابه «شرح السنة»:(قال طعمة بن عمرو وسفيان بن عيينة: من وقف عند عثمان وعلي فهو شيعي لا يعدل ولا يكلم ولا يجالس، ومن قدم علياً على عثمان فهو رافضي قد رفض أثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم).

ونتج عن هذا بمرور الزمان أن الراوي الشيعي لا يؤخذ بخبره في مناقب وفضائل أهل بيت النبي باعتبار تشيعه فاختفى عن الأمة تلك الأحاديث، ومن جهة أخرى اخفى الرواة غير الشيعة تلك المناقب حتى لا يتهموا بالتشيع أو الرفض فترد كل أحاديثهم! فأصبح الإنسان المسلم لا يستطيع أن يجد إلا أقل القليل من فضائل آل محمد. هذا في العصور المتأخرة وهو يضاف إلى ما قامت به السلطات الأموية والعباسية في عصورها.

وهذا ما أشرنا إليه آنفا بتعبير «تجفيف منابع الفضائل والمناقب» لأهل البيت في الحديث والسنة النبوية.

٧. تم نحْت وترويج اصطلاحات بديلة وجعلها محل الاصطلاح القرآني النبوي (أهل البيت) فتم إحلال مصطلح الصحابة، وقريش، وتم العمل على وضع الأحاديث المشيرة لهذه الاصطلاحات الجديدة، فكأنهم يقولون إذا كان لديكم أهل البيت فلدينا صحابة النبي وهم أكثر!!

فصار الطريق الصحيح هو (ما عليه أنا وأصحابي) بدلا من (كتاب الله وعترتي) وكأن الصحابة على طريقة واحدة وكأنهم لم يختلفوا ولم يتقاتلوا ولم يتضاربوا ولم يتلاعنوا!! وأعجب من ذلك تقديس قريش! وكأنّ ذلك كان مكافأة لها على أن طاردت النبي من أول يوم في دعوته إلى أن جيشت عليه الجيوش ولاحقته إلى المدينة. ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾(١) ولم يوقفهم إلا فتح النبي لمكة وغلبته عليها!

العجيب أنهم يقدمون قريشا اليوم باعتبار أنها «اختارت لنفسها»(٢) في الخلافة

(١) التوبة / ٤٨.
(٢) المعتزلي؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١٢/ ٥٣: يا بن عباس، أتدري ما منع الناس منكم؟ قال:

فجاءت خيرة الله عليها! ثم يزعمون أن النبي قال في مدح قريش ما قال! [١] بينما هذا أمير المؤمنين علي عليه السلام يبين حقيقة قريش واستمرار تآمرها على آل محمد: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ ومَنْ أَعَانَهُمْ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وأَكْفَئُوا إِنَائِي وأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقّاً كُنْتُ أَوْلَى بِه مِنْ غَيْرِي.» [٢]

٨. من الطبيعي ضمن هذا الإطار والمقدمات أن ينتهي الرأي الفقهي في هذا

لا يا أمير المؤمنين! قال: لكني أدري! قال: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فيجخفوا جخفا (تكبرا) فنظرت قريش لنفسها فاختارت ووفقت فأصابت!.

فقال ابن عباس: أيميط أمير المؤمنين عني غضبه فيسمع! قال: قل ما تشاء قال أما قول أمير المؤمنين: إن قريشا كرهت، فإن الله تعالى قال لقوم ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾.

وأما قولك: (إنا كنا نجخف) فلو جخفنا بالخلافة جخفنا بالقرابة ولكنا قوم أخلاقنا مشتقة من خلق رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قال الله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) وقال له (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين).

وأما قولك (فإن قريشا اختارت) فإن الله تعالى يقول: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾ وقد علمت يا أمير المؤمنين أن الله اختار من خلقه لذلك من اختار، فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لها لوفقت وأصابت قريش.

(١) زعموا أن النبي قال: قدموا قريشا ولا تقدموها، وتعلموا من قريش ولا تعلموها، ولولا أن تبطر قريش لأخبرتها ما لخيارها عند الله تعالى. ونقل كذلك: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم».

وفي هذا الإطار قالوا للنبي عندما استشارهم في مواجهة قريش عندما أقبلت جيوشها لغزو المدينة، قال بعض أصحاب رسول الله وقالوا: هذه قريش ما ذلت مند عزت وما هزمت مند نصرت فاغضب ذلك رسول الله. (لأنه بالإضافة إلى عدم صحته لم يكن هذا القول مناسبا لذلك المقام حيث فيه ضرب للروح المعنوية للمسلمين).

(٢) الإمام علي: نهج البلاغة ١/ ٣٣٦ - ط دار الكتاب اللبناني. وأستعديك يعني أستعينك عليهم. نعم ربما ورد من طريق الإمامية أيضا أن الأئمة من قريش، لكن هذا ليس مدحا بمقدار ما هو تحديد وتعريف، مثلما أن تقول أن النبي محمدا هو من العرب. فلا يشكل ذلك فضيلة بالضرورة للعرب. أو قد يكون له وجه آخر وهو الاشارة إلى المنتخبين من هذه القبيلة مثل بني هاشم، فالمدح ليس لكل من تعنون بالقرشي وإنما لهذه الفئة الخاصة. من باب إطلاق العام وإرادة الخاص.

الاتجاه إلى منع الحق المالي للأسرة الهاشمية، وعترة النبي. وهذا ما حصل فعلا كما تبين في الصفحات السابقة من حذف حقهم في الخمس بعد وفاة سيدهم وسيد الخلق محمد المصطفى ﷺ.

عبد المطلب بن هاشم
زعامة روحية وقيادة مدنية

عن الإمام جعفر الصادق ﵇ انه قال: (يُحشر عبد المطلب أُمّة وَحده في يوم القيامة عليه سِيماء الأنبياء وبهاء الملوك).[1]

نتناول في هذه الصفحات سيرة جد رسول الله ﷺ، عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ويكفي في عنوان هذه الصفحات أن إماماً معصوماً وهو جعفر بن محمد الصادق ﵇ يصفه بأنه سيحشر في يوم القيامة أمة لوحده وعليه سيماء الأنبياء وبهاء الملوك، فهذا يناسب ما نعرفه من شخصية عبد المطلب الذي كان يملك زعامة روحية وقيادة مدنية

لنبدأ في رسم الصورة من زمان أبيه هاشم وأمه سلمى.

هاشم بن عبد مناف والد عبد المطلب الذي ينسب الهاشميون له، فيقال بنو هاشم والهاشميون، لم يكن اسمه الأصلي ذلك وإنما كان اسمه عَمْرو، لكن غلب عليه الإسم الآخر الذي قيل إنه كان مشيراً إلى كثرة عطائه، وفيه قال قائلهم:

---

(١) الكليني؛ محمد بن يعقوب: الكافي ١ / ٤٤٧.

عمرو العُلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف[١]

فقد قيل إنه مرت سنة قحط على أهل مكة بحيث لم يجد أكثر الناس فيها ما يسدون رمقهم، فأخرج عمرو الذي سمي فيما بعد (هاشماً) ما كان يملك من دقيق وسمن وغير ذلك وصنعه خبزاً وطبخ لهم لحماً وجعل المائدة عامة لأهل البلد ولذلك سمي بهاشم باعتبار ان الخبز والثريد يحتاج الى هشم وتقطيع.[٢]

كان هاشم شخصية كبيرة في زمانه وهو صاحب الإيلاف الرومي، وقد جاء ذكر الإيلاف في القرآن الكريم في سورة قريش. والإيلاف في ذلك الزمان يشبه اليوم المعاهدات والاتفاقيات التي يوقعها الزعماء والدول لتأمين الاوضاع ومقاومة الفساد والسرقة وقطع الطريق وما شابه ذلك[٣].وإذا كانت تلك الدول فيها ملوك أو سلاطين معروفون وسلطة واضحة وجيوش فإنها في مثل القبائل لا بد أن تعتمد على المكانة المعنوية التي يمثلها الشخص الذي يوقع هذه الاتفاقيات، حيث لا يوجد ملك أو سلطان رسمي. وكان هذا الاعتبار والمكانة موجودا لدى هاشم مما مكنه أن يأخذ الإيلاف من ملوك الروم.

وكان هاشم من التجار ويرى بعض الباحثين أن هاشماً وبنيه كانوا يعتمدون التجارة بعدما كان الغزو والنهب، وهو أمر ممدوح عند بعض القبائل العربية وطريق (مشرف)للغني والثراء فيها، عند هاشم وأبنائه محرماً أخلاقياً، والعمل اليدوي والعضلي كان علامة امتهان يأنفه العرب، لذلك كانت التجارة هي الطريق السالكة عندهم للثراء والمعاش. نعم هو لم يكن تاجراً كبيراً ولعل هذه حالة عامة موجودة

---

(١) هشم الثريد: كسره وقطعه، والثريد هو الخبز الذي يصب عليه اللحم والمرق. مسنتون: أصابهم القحط والجدب ومثله عجاف في مقابل سمان.

(٢) الطبري؛ محمد بن جرير: تاريخ الطبري ٢/ ١٢.

(٣) الشريف المرتضى؛ علي بن الحسين:الأمالي ٤ / ١٧٩.

في أسرة النبي، لو استثنينا حفيد هاشم: العباس بن عبد المطلب فقد كانوا تجاراً متوسطي الحال. وقيل إن عمدة تجارته كانت في الجلود، وكان يتردد على بلاد الشام فيأخذ اليها ما كان ينتجه المكيون ويبادله هناك ببضائع يحتاجها أهل مكة وقريش ويأتي ليبيعها، و كان مضرب المثل في بأخلاقه.

إيلاف الروم عند هاشم

وانتشرت سمعة هاشم حتى قيل إنها وصلت إلى قيصر الروم هناك وحدثه جلاسه أن هنا شخصا يذبح في كل يوم شاة ويهشم الخبز الكثير ويرش المرق عليها، ويدعو من حضر للطعام. وأنه في غاية السخاء والتهذيب!

طلب قيصر الروم وكان في فلسطين في ذلك الوقت ان يلتقي هاشم بن عبد مناف، نظرا لأن الصورة النمطية الموجودة عندهم عن العرب أنهم ليسوا سوى أهل السلب والغارة. أما أن يكون أحدهم مضرب المثل في الكلم الطيب والتعامل الحسن فكان نادرا فاستدعاه اليه للقائه فلما تحدث معه زاد اعجابه به ورأى انه أمام عقلية كبيرة ورجل ناضج. فقال له سلني ما حاجتك لأقضيها. وبينما المعتاد في مثل هذه الحالات أن يطلب البعض حاجات شخصية فإنه ترك ذلك وطرح عليه فكرة الإيلاف وتأمين الطريق ما بين مكة وفلسطين بحيث ما كان يتبع الروم يؤمنه الرومان، وما كان في الجهة العربية والقبائل يؤمنه هاشم، وهذا بالطبع سوف تكون له آثار اجتماعية واقتصادية مهمة أقلها في تسهيل وسرعة التبادل التجاري ورخص أسعار السلع وتنشيط الحركة بين المنطقتين! وهذا سيجعل البضائع الرومية تصل إلى كل المنطقة العربية وبالعكس! إضافة إلى تأمين الطريق إلى بيت الله الحرام من اللصوص وقطاع الطريق!

وبالطبع رأى حاكم الشام الرومي أن هذا أمر مهم وعلى الفور وافق عليه وأعطى هاشم حبلاً كعلامة على هذا الميثاق وأنه لا ينقض، وسار هاشم بنفس الفكرة في طريق القبائل العربية يخبرهم بذلك وأن من مصلحتهم تأمين كل رأس قبيلة دائرة منطقته حتى تنتعش أسواقهم ويأمنوا في مناطق غيرهم.[1] وهكذا حصل فعلا ليتم هذا على يده ثم يتوفاه الله بعد هذا الاتفاق والإيلاف بسنة في غزة الفلسطينية التي ستسمى فيما بعد بغزة هاشم.

زواج هاشم من سلمى أم عبد المطلب

في رجوع هاشم من فلسطين الى مكة، وفي طريق العودة مر على المدينة

---

(١) البغدادي؛ محمد بن حبيب في كتابه المنمق ص ٤٢. نقل ما نصه:

إن قريشا كانت تجارا وكانت تجاراتهم لا تعدو مكة، إنما يتقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترون منهم ثم يتبايعونه بينهم ويبيعون من حولهم من العرب، فكانت تجارتهم كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقيصر واسم هاشم يومئذ عمرو، فكان يذبح كل يوم شاة فيصنع جفنة ثريد ويدعو من حوله فيأكلون، وكان هاشم فيما زعموا أحسن الناس عصبا وأجمله فذكر لقيصر وقيل: ها هنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم، وإنما كانت الأعاجم تضع المرق في الصحاف ثم تأتدم بالخبز فلذلك سمي عمرو هاشما، وبلغ ذلك قيصر فدعا به، فلما رآه وكلمه أعجب به وكان يرسل إليه فيدخل عليه، فلما رأى مكانه منه قال له هاشم: أيها الملك! إن لي قوما وهم تجار العرب فان رأيت أن تكتب لهم كتابا تؤمّنهم وتؤمّن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فيكونوا يبيعونه عندكم فهو أرخص عليكم.

فكتب له كتابا بأمان من أتى منهم فأقبل هاشم بذلك الكتاب فجعل كلما مر بحي من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافا والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف وإنما هو أمان الناس وعلى أن قريشا تحمل لهم بضائع فيكفونهم حملانها ويردون إليهم رأس مالهم وربحهم، فأخذ هاشم الإيلاف ممن بينه وبين الشام حتى قدم مكة، فأتاهم بأعظم شيء أتوا به فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم يجوّزهم ويوفيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب، فلم يبرح يوفيهم ذلك ويجمع بينهم وبين أشراف العرب حتى ورد بهم الشام وأحلهم قراها، فمات في ذلك السفر بغزّة من الشام.

المنورة (يثرب حينئذ) حيث كانت تقع قبل مكة للقادم من الشام، بالإضافة أنها كانت سوقا تجارية، فعطف عليها هاشم و دخل السوق وبدأ يتاجر فرأى امرأة ذات شخصية قوية تدير عدداً من الغلمان في تجارتها وكانت الى ذلك ذات جمال باهر فسأل عنها، قالوا له هذه سلمى بنت عمرو من بني النجار من أهل المدينة وعندما أظهر رغبته في الاقتران بها، أخبروه أنها لا بد أن تلتقيه فإن قبلته في ذلك اللقاء واطمأنت إليه وإلا فسترفضه، ولهذا فلم تتزوج حتى الآن فجلس معها وما خرج من ذلك المكان الا وهي معقودة له فتزوجها ودخل بها وحملت منه.

موت هاشم في فلسطين

سافر هاشم بزوجته الى مكة ليعود بها إلى أهلها في المدينة عندما أصبحت قريبة العهد بوضع حملها، ويواصل مشواره إلى غزة فلسطين، ويتوفى فيها، فتضع زوجته سلمى مولودها الذي سيسمى فيما بعد بشيبة الحمد ويعرف بعبد المطلب، من دون أن يراه أبوه.

بقي الولد شيبة الحمد في رحاب أقاربه من طرف أمه في المدينة مدة سبع سنوات حتى جاء له عمه المطلب، وقد قيل إن العرب كانت تنتهي حضانة[1] الأم عندهم للولد بعد سبع سنين.

---

(١) السيستاني: السيد علي؛ منهاج الصالحين ٣/ ١٢١: حضانة الولد وتربيته وما يتعلّق بها من مصلحة حفظه ورعايته تكون في مدة الرضاع أعني حولين كاملين من حق أبويه بالسوية، فلا يجوز للأَب ان يفصله عن أُمّه خلال هذه المدة وان كان انثى، والأَحوط الأَولى ان لا يفصله عنها حتى يبلغ سبع سنين وان كان ذكراً. وإذا مات الأَب بعد اختصاصه بحضانة الولد أو قبله فالأُم احق بحضانته الى ان يبلغ من الوصي لأبيه ومن جدّه وجدّته له وغيرهما من أقاربه سواء أتزوّجت أم لا.

عبد المطلب وشيبة الحمد.

بعد السنوات السبع التي قضاها في المدينة مع أخواله وأقارب أمه أخذه عمه (المطلب) الى مكة لكي يتربى وينمو بين أعمامه فأردفه خلفه على الدابة فلما وصل إلى مكة، تصور الناس ان عمه (المطلب) قد اشترى عبدا من العبيد وجاء به معه فقيل هذا (عبد) المطلب بينما كان اسمه الأصلي شيبة او شيبة الحمد لكن اشتهر اسم (عبد) المطلب عليه بهذه المناسبة وبقي هذا الاسم ملازما له.

عبد المطلب وصي أو من الحنفاء.

هل كان عبد المطلب وصياً من الأوصياء المستحفظين على الكتب أم انه كان من الحنفاء[١] على دين النبي إبراهيم عليه السلام كحال كثير من بني هاشم ذلك الوقت، متقدما فيهم وذا معرفة اكثر ؟

هما رأيان: ـ يذهب بعض الباحثين الى ان عبد المطلب كان من حملة الكتب وعنده مواريث كتب الأنبياء السابقين وهو وصي من الأوصياء، ويستشهدون على هذا الرأي بوجوه:

الوجه العقائدي: وحاصله ما يعتقده الإمامية وشهدت به الروايات أن الارض لا تخلو من حجة، فإما أن يكون كذلك ولا يوجد أجدر وأولى من عبد المطلب

---

(١) الحنفاء: جمع حنيف، بمعنى مائل عن الضلال إلى الهدى وقد وصف القرآن ابراهيم بأنه حنيف وأمر النبي أن يعلن أنه حنيف وأعلن النبي أنه جاء بالحنيفية السمحاء، وقبل الإسلام كان هذا اللفظ يشير إلى من كان مستقيما على ملة ابراهيم فاختتن وحج البيت الحرام واعتزل عبادة الأوثان واغتسل عن الجنابة وتحريم الخمر والانتهاء عن أكل ما ذبح للأوثان وعلى النصب، وكأنهم كانوا على الإسلام في صورته الأولية، أي المبادئ الابراهيمية. ولعله لهذا وصف ابراهيم بأنه كان (حنيفا مسلما وما كان من المشركين).

بذلك، أو تنخرم القاعدة والفرض أنها تم البرهنة عليها في علم الكلام.

الوجه الروائي: وهو مديح الائمة المعصومين له؛ فإنه يساعد على هذه الفكرة ففي رواية معتبرة في الكافي، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (يحشر عبد المطلب يوم القيامة أمة وحده، عليه سيماء الأنبياء وهيبة الملوك). ولا ريب أن كون الإنسان يوم القيامة «أمة» وحده يشير إلى منزلة عظيمة لدى الشخص وهي تفرد ذلك الشخص بميزة لا يمتلكها غيره كما ورد في حق النبي إبراهيم. وأنه أيضا عليه سيماء الأنبياء حيث قد يستفاد منه نوع من أنواع المشابهة بينه وبينهم مما يشير الى احتمال كونه وصيا. بل ذكر في كتاب الدرّ النظيم نقلا عن كتاب مدينة العلم قال الصادق عليه السّلام: يحشر عبد المطّلب يوم القيامة أمّة واحدة عليه سيماء الأنبياء و هيبة الملوك، وقال:انّ عبد المطّلب حجّة و أبو طالب وصيّه[١].

ومن ذلك ما اشارت إليه الروايات بعنوان سنن عبد المطلب، وأنه سن في الجاهلية سننا فلما جاء الإسلام، أقر تلك السنن وأمضاها.[٢]

الوجه الأخلاقي: طريقة تعامل عبد المطلب ونمط أحاديثه وكلماته لاسيما مع ابرهة في قضية الكعبة تشير إلى أن لديه علماً خاصاً فإنه بينما خرج القرشيون الى

---

(١) القمي؛ الشيخ عباس: سفينة البحار ٦/ ٨٧.

(٢) في الخصال للشيخ الصدوق ١/ ٣١٣ عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال في وصيته له: يا علي إن عبد المطلب سن في الجاهلية خمس سنن أجارها الله له في الإسلام، حرم نساء الآباء على الأبناء فأنزل الله عز وجل «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء» ووجد كنزا فأخرج منه الخمس وتصدق به، فأنزل الله عز وجل: «واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه»- الآية «ولما حفر زمزم سماها سقاية الحاج، فأنزل الله «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر»- الآية وسن في القتل مائة من الإبل فأجرى الله عز وجل ذلك في الإسلام، ولم يكن للطواف عدد عند قريش فسن فيهم عبد المطلب سبعة أشواط، فأجرى الله ذلك في الإسلام. يا علي إن عبد المطلب كان لا يستقسم بالأزلام، ولا يعبد الأصنام، ولا يأكل ما ذبح على النصب.

مختلف الاماكن وصعد بعضهم الى الجبال بقي عبد المطلب وبعض ولده كأنه كان ينتظر شيئا حتى قيل انه أرسل بعض ولده لكي يخرج وراء الجبل ينظر هل جاء من جهة البحر شيءٌ أو لا، حتى إذا أذن الله بنزول العذاب على ابرهة وجيشه جاء ابنه مسرعاً وقال اني أرى طيوراً صغيرة سودا! فقال عبد المطلب نزل العذاب بهم.

إن مثل هذه المعلومات وكذا كلامه عندما قال أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه وذهب بالدعاء الى جوار الكعبة عند الحطيم ورفع يده قائلاً:

لاهُمَّ ان المرء يمنع رحله فمنع رحالك

لا يغلبن صليبهم، ومِحالهم عدواً محالك

إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمرٌ مّا بدا لك[١]

كذلك فإن أصحاب هذا الرأي لهم أن يستفيدوا من تسمية عبد المطلب لحفيده نبينا محمداً ﷺ يشير الى معرفته الواضحة بأن هذا المولود سيكون النبي المبعوث وقد أخبر ابنه أبو طالب عن هذا الأمر فقال ولقد كان ابي عبد المطلب يقول (يبعث نبيٌ من صلبي في مكة) وهذا يشير الى معرفته بنبوة النبي ﷺ ومثل هذه المعرفة التفصيلية لا تتيسر لشخص ليس له اتصال له بعالم الغيب!

هذا النمط من الأحاديث يشير في رأي هؤلاء الى أن عبد المطلب كان لديه شيء اخر غير موجود لدى سائر الناس وما ذلك الا كونه وصياً من الأوصياء.

عبد المطلب والحنيفية

والرأي الآخر يرى أن كل ما سبق لا يدل على كونه وصيا من الأوصياء، نعم كان

(١) المجلسي ؛ محمد باقر : بحار الأنوار ١٥ / ٧٠ و(لاهم (يعني اللهم مخففة.

على دين جده النبي إبراهيم ومن الحنفاء ومن أفاضل المؤمنين بربهم، ولا يوجد ما يثبت وصايته، بل يصرح الإمام علي عليه السلام أنه كان على دين إبراهيم. ففي الحديث المروي عن الإمام علي والذي ذكر فيه سنن إبراهيم،[1] قال (ويقول: أنا على دين أبي إبراهيم عليه السلام.).

«محمد» ليس اسم نبينا فقط في قريش

ولم يكن الوحيد الذي سمى حفيده بمحمد ، بل يوجد عدد من الافراد في قريش تم تسميتهم بهذا الاسم وقد قيل ان هنالك ثلاثة اشخاص وقيل ستة شخصاً سُموا بمحمد. والسبب في ذلك أنه من زمان عبد المطلب وما بعد تواترت الاخبار والأنباء من قبل الأحبار والرهبان وغيرهم بأن زماننا هذا زمان يبعث في مكة فيها رجل اسمه محمد صلى الله عليه وآله سمى بعضهم ابنه بمحمد لزعمهم أنه لعله يكون كذلك![2]

عبد المطلب في فترة الشباب

تجاوز عبد المطلب في شبابه أقرانه بحكمته وبلاغته وحسن تدبيره حتى أصبح شخصية من الشخصيات الكبيرة في المجتمع المكي وأصبح الناس يحتكمون إليه ويقبلون أحكامه، وكان لديه ممارسات عبادية والتزامات اخلاقية فائقة لم

---

(١) الخصال ١/ ٣١٣.

(٢) المقريزي: إمتاع الأسماع ٢ / ١٤٠: لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله (صلى اللّه عليه وسلم) إلا ثلاثة طمع آباؤهم حيث سمعوا بذكر محمد وبقرب زمانه وأنه يبعث بالحجاز، أن يكون ولدا لهم، ذكرهم ابن فورك في كتاب الفصول، وهم: محمد ابن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر، والآخر: محمد بن أحيحة بن الجلاح ابن الحريش بن جمحي بن كلفة بن عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس، والآخر: محمد بن حمران بن ربيعة. ونقل عن القاضي عياض أنهم ستة لا سابع لهم.

تكن معهودة لدى القرشيين، وهي ليست بعيدة عما نعهده في الإسلام، وقد تمت الاشارة لبعضها بعنوان سنن عبد المطلب التي أقرها الإسلام فيما بعد.

يقول الدكتور جواد علي في كتابه المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام حاكيا عن عبد المطلب «كان مَفزَع قريش في النوائب، وملجأهم في الأمور، وأنه كان من حلماء قريش وحكمائها، وممن حرم الخمر على نفسه، وهو أول من تحنث بغار حراء والتحنث: التعبد الليالي ذوات العدد. وكان إذا دخل شهر رمضان، صعده وأطعم المساكين، وكان صعوده للتخلي من الناس؛ ليتفكر في جلال الله وعظمته. وكان يُعظِم (يستبشع)الظلم بمكة، ويكثر الطواف بالبيت.

وذكر أنه كان يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويحثهم على مكارم، الأخلاق، وينهاهم عن دنيات الأمور، وكان يقول: لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه، وإن وراء هذه الدار دارًا يجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته».[١]

إيلاف اليمن عند عبد المطلب

بالإضافة إلى ما سبق ذكره من صفاته مما جعله يتبوأ موقع القيادة الروحية في قريش، فإنه أكمل ما بدأه والده هاشم في قضية الإيلاف والاتفاقيات الدولية، فقد أكد الإيلاف الرومي الذي عقده والده وأكده ووثقه، وقام بالمبادرة لعقد الإيلاف اليمني والتي جاءت الاشارة إليهما في سورة قريش، باعتبار رحلة الشتاء لليمن والصيف للشام. ﴿ لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾[٢].

(١) علي؛ دكتور جواد: المفصل في تاريخ العرب ٧/ ٧٤.
(٢) قريش / ١ـ٢.

قال المؤرخون أن عبد المطلب ذهب إلى اليمن للاجتماع إلى ملوك حمير وسبأ، وكان مهيب الطلعة نوراني الوجه، وبليغ الكلام والحجة. فاستطاع أن يعقد معهم ما تم عقده مع الروم فأصبحت مكة وقريش مؤمَّنة من الشمال والجنوب في طرقها وتجارتها.

عبد المطلب محارباً لنفوذ الأغنياء

وبالطبع لم تكن تلك الخطوات تجري بسلاسة، فإن بعض أصحاب القوة والمال والسلطة كانوا يريدون التصرف كما يشاؤون من دون أن يخضعوا لنظام اجتماعي يحدد من مشتهياتهم واعتداءاتهم. فلم يجد عبد المطلب بُدّاً من مقاومتهم ومحاربة نفوذهم في التعدي على النظام والأمن الاجتماعي، والمؤرخون هنا ينقلون أن حَرْباً جد بني أمية، وكان في طبقة عبد المطلب بل قيل كان نديماً له وصديقاً له لكن ذلك لم يمنع عبد المطلب من مواجهته عندما أمر حربٌ غلمانه بقتل يهودي ثري في مكة والاستيلاء على أمواله، باعتبار انه يهودي وغريب عن مكة، وبينما سكت سائر القرشيين، إذ المقتول ليس من عشائرهم ولا حليف لهم، وهم يخافون سطوة حرب الا عبد المطلب فقد اعترضه ورأى ذلك ظلماً وأن عليه أن يرد المال لذوي المقتول ويدفع ديته فتنافرا وهدده عبد المطلب بإعلان الحرب عليه وأخيراً رضخ حرب وأرجع اموال اليهودي واعطى ديته فحملها عبد المطلب الى ابن عم ذلك اليهودي.

عبد المطلب وبئر زمزم

في تكملة للجانب الاقتصادي بعد تأمينه للاتفاقات السياسية مع اليمن والروم كانت هناك حاجة في قريش للماء. لا سيما في وقت مجيء الناس لزيارة

بيت الله الحرام ووقت الحج (حيث كان منسك الحج باقيا عند الناس من بقايا الديانة الإبراهيمية). فظل يفكر في أي مكان يمكن أن يكون بئر زمزم الذي نبع لجده اسماعيل؟ واستولى عليه هذا الفكر. الى ان رأى في المنام ثلاث مرات انه يحفر في مكان قريب من الركن العراقي جهة الحجر الاسود، وبالفعل فقد حفر في هذا المكان، فرأى البئر قد طمر، على يد قبيلة جرهم، عندما غزت مكة وأفسدت وعاثت فيها فساداً. وكان من ذلك أن طمرت بئر زمزم.

فبدأ يحفره عبد المطلب بمعونة أبنائه الى ان استنبط الماء من جديد وكان ثجّاجاً كثير الماء فاستراح الناس به من تلك الآبار الوشلة والآسنة والمالحة.

وبعدما كانت له الرفادة وهي اطعام الحجيج، صار له سقاية الحجيج وسماه زمزم.

سن قوانين مدنية وأنظمة اجتماعية

بدأ عبد المطلب بعد ذلك بسن قوانين جديدة يمكن ان نسميها بـ(القوانين المدنية والانظمة الاجتماعية) أو تطبيق ما كان معروفا منها بصورة نظرية، وإلزام المجتمع القرشي بالأخذ بها، وقد ذكرها المحدثون[١] بعنوان سنن عبد المطلب وهي خمس سنن.

بينما أشار المؤرخون[٢] إلى سبعة عشر. ولا أرى تنافيا بين الأمرين، فقد يكون بعضها من ابتكاره من دون أن يسبق إليه، والباقي ربما كانت قبله ولكن لم تكن تطبق فسعى لتطبيقها في المجتمع.

١ .حرّم نساء الآباء على الأبناء

(١) مرت آنفا عن الشيخ الصدوق في كتاب الخصال.

(٢) نقل الشيخ السبحاني ذلك في كتابه مفاهيم القرآن ٥ / ٢٦٥ عن تاريخ اليعقوبي.

وقد كان هذا موجوداً في الجاهلية، فإذا تزوج شخص زوجتين ومات عنهما كان لابنه أن يتزوج زوجة أبيه غير أمه! فنهى عبد المطلب عن ذلك ومنع منه وجاء الإسلام فيما بعد ليؤكده بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.[1]

٢.سنة الخمس في الكنز

في الرواية ان عبد المطلب وجد كنزاً فأخرج منه الخمس وتصدق به، وكأنّه نوع من الضريبة الاجتماعية حيث اعتبر ان هذا الكنز الذي حصل له من غير جهد خاص فيه يشترك المجتمع معه فيه فيأخذ الحاصل على الكنز أربعة أخماس ويعطي للطبقات المحتاجة في المجتمع الخمس الخامس.

وينبغي أن يلحظ أن معنى فأنزل الله هو الإمضاء حين جاءت الرسالة لا أنه بمعنى (أنزل يعني انه على أثر هذا الأمر) وذلك لما هو مذكور في محله ان كثيراً من التنظيمات الاجتماعية في الإسلام هي إمضائية[2] وليست تأسيسية.

٣. قانون في دية القتل

سنّ عبد المطلب في القتل مئة من الإبل كدية وقد أغرم كما ذكرنا حرباً على اثر قتل غلمانه لليهودي مئة من الإبل فأجرى الله عز وجل ذلك في الإسلام ما يعادل مئة بعير يساوي دية الإنسان.

وقد ذكر اليعقوبي قوانين أخر، سنها أو ألزم بها عبد المطلب المجتمع العربي

---

(١) النساء ٢٢.

(٢) الإسلام لم يأت ليقول للناس بيعوا واشتروا واستأجروا فإن مثل هذه المعاملات كانت قبل ان يأتي الإسلام. وانما يرى الدين هذه المعاملات فيقول هذا كله صحيح فيحل البيع أو يقول هو محرم كالربا او يقول هناك شروط ليصح كالمضاربة.

آنئذ مثل أن لا تؤتى البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموؤدة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا والحد عليه، والقرعة، وأنّ لا يطوف أحد بالبيت عرياناً، وإضافة الضيف، وأن لا ينفقوا إذا حجّوا إلاّ من طيب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذوات الرايات(العاهرات).

بل حتى في ما يرتبط بالكعبة والطواف بها حيث أنه لم يكن لهم في الطواف رسم معين فسن فيهم عبد المطلب أنه سبعة اشواط فأجرى الله له ذلك.

عبد المطلب ومواجهة ابرهة الحبشي

كان ابرهة الحبشي القائد العسكري في اليمن عاملا للملك النجاشي في الحبشة، وكلاهما مسيحيان قد ابتنى كنيسة كبرى وفخمة اسماها القليس، ويذكر المؤرخون في أوصاف بنائها وزينتها وتذهيبها وزخرفتها الشيء الكثير. وكانت هذه الكنيسة وما حصل لها في رأي هؤلاء المؤرخين السبب في هجوم عسكري كبير على مكة ومحاولة هدم الكعبة:

- بعض المؤرخين ذكروا أنها تعرضت لتدنيس من قبل عرب حيث نجسوها في قبلتها كما قيل، فكان هذا منشأ لانتقام الأحباش المسيحيين من الكعبة التي يقدسها العرب في ذلك الزمان.
- والبعض الآخر يرى أن الكنيسة تعرضت لتدمير وحرق (كلي أو جزئي) متعمد أو غير متعمد من قبل العرب أيضا، عندما أشعلوا ناراً بالقرب منها ولم يطفئوها حتى هبت ريح ساقت تلك النار للكنيسة فاضطرمت وانهدمت، فكان ذلك هو السبب في تجهيز ذلك الجيش.
- بينما يرى د. جواد علي أن الأمر أبعد من ذلك وهو سياسي اقتصادي، وأنه

هذه الأمور لو كانت فإنما هي ذريعة لقضية أكبر، وهي «خطة ترمي إلى ربط اليمن ببلاد الشام، لجعل العربية الغربية والعربية الجنوبية تحت حكم النصرانية، وبذلك يستفيد الروم والحبش وهم نصارى، وإن اختلفوا مذهباً، ويحققون لهم بذلك نصرًا سياسيًّا واقتصاديًّا كبيرًا، فيتخلص الروم بذلك من الخضوع للأسعار العالية التي كان يفرضها الساسانيون على السلع التجارية النادرة المطلوبة التي احتكروا بيعها لمرورها ببلادهم؛ إذ سترد إليهم من سيلان والهند رأساً عن طريق بلاد العرب، فتنخفض الأسعار ويكون في إمكان السفن البيزنطية السير بأمان في البحار العربية حتى سيلان والهند وما وراءهما من بحار»(١).

وأيّاً ما كان السبب فقد جهز الجيش، وسار يقطع الصحراء حتى وصل إلى مكة، بعدما تنحت عنه القبائل العربية التي كانت في طريقه إذ لا طاقة لها على مواجهته، وبالطبع كانت أخبار الجيش هذا تصل قبل وصوله، فلما وصلت مكة، صعد القرشيون إلى الجبال وبعضهم ذهب إلى مزارعه في الطائف، وكان هذا الجيش يسلب كل ما وجد في الطريق لتموين جنوده، فكان مما أخذ عدد من الإبل لعبد المطلب كانت ترعى أطراف مكة.

وبعدما استقر ابرهة الحبشي في مكة حيث لم يواجهه أحد، طلب عبد المطلب لقاءه فلما قابله أعظمه ابرهة وملأ عبد المطلب عينيه، فأجلسه إلى جانبه وسأله الترجمان عن حاجته فأخبره: «.فقال الترجمان: جاء في إبل له ساقوها، يسألك ردها فقال ملك الحبشة لأصحابه: هذا رئيس قوم وزعيمهم جئت إلى بيته الذي يعبده لأهدمه وهو يسألني إطلاق إبله!! أما لو سألني الامساك عن هدمه لفعلت، ردوا عليه إبله، فقال عبد المطلب لترجمانه: ما قال لك الملك؟ فأخبره، فقال

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦ / ٢٠٨.

عبد المطلب: أنا رب الإبل و لهذا البيت رب يمنعه، فردت إليه إبله وانصرف عبد المطلب نحو منزله».[١]

إن هذه الثقة التي كانت لدى عبد المطلب بأن رب البيت سيحميه ويمنعه لا يمكن أن تفهم إلا بوجود علم غير اعتيادي بأن هذا الأمر سيحصل، وهذا ما ربما تشرحه تتمة الرواية المعتبرة السابقة عن الإمام الصادق عليه السلام، من أن عبد المطلب قال «لبعض مواليه عند ذلك: اعلُ الجبل فانظر ترى شيئا؟، فقال: أرى سوادا من قبل البحر، فقال له: يصيبه بصرك أجمع؟ فقال له: لا ولأوشك أن يصيب، فلما أن قرب، قال: هو طير كثير ولا أعرفه يحمل كل طير في منقاره حصاة مثل حصاة الخذف[٢]أو دون حصاة الخذف فقال عبد المطلب: ورب عبد المطلب ما تريد إلا القوم، حتى لما صاروا فوق رؤوسهم أجمع ألقت الحصاة فوقعت كل حصاة على هامة رجل فخرجت من دبره فقتلته، فما انفلت منهم إلا رجل واحد يخبر الناس، فلما أن أخبرهم ألقت عليه حصاة فقتلته».[٣]

وانتهت هذه الحملة العسكرية كما تحدث عنها القران: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأصحاب الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾

عُمر عبد المطلب ووفاته

يختلف المؤرخون في مقدار عمر عبد المطلب والسنين التي عاشها بين من قائل إنه عُمّر حتى بلغ ١٢٠ سنة، ومقل يقول إنه توفي وعمره ٨٨ سنة ولكنهم لا

(١) الكليني؛ محمد بن يعقوب: الكافي- ط الإسلامية ١ / ٤٤٨.
(٢) حصاة الخذف التي ترمى بها الجمار، تكون قدر الأنملة تقريبا.
(٣) المصدر السابق: نفس الجزء والصفحة.

يختلفون في حياطة عبد المطلب لحفيده النبي محمد صلى الله عليه وأنه كان يرى له المنزلة الاستثنائية، وأنه النبي الموعود، وأنه لو أدرك بعثته لآمن به ونصر رسالته. فعن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال: كان عبد المطلب يفرش له بفناء الكعبة لا يفرش لاحد غيره وكان له ولد يقومون على رأسه فيمنعون من دنا منه، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو طفل يدرج حتى جلس على فخذيه، فأهوى بعضهم إليه لينحيه عنه، فقال له عبد المطلب: دع ابني فإن الملك قد أتاه.[١]

وفي وصيته ابنَه أبا طالب أكد عليه أمر الحفاظ على حفيده النبي محمد وأنه سيكون المبعوث وأنه لو أدرك أيام بعثته لآمن به وآزره؟

---

(١) المصدر السابق: نفس الجزء والصفحة.

والد النبي هل هو ثاني الذبيحين؟

روي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: (إن الله عز وجل حرم النار على صلب أنزلك وعلى بطن حملك وعلى حجر كفلك)[١]

تتناول هذه السطور تعريفا بوالد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

وهل أنه كان ثاني الذبيحين ؟

يذكر المؤرخون أنه: «ولد عبد المطلب بن هاشم عشرة نفر وست نسوة: العباس وحمزة وعبد الله وأبا طالب - واسمه عبد مناف - والزبير والحارث وجحلا، والمقوم وضرارا، وأبا لهب - واسمه عبد العزى»[٢]والذين تتردد أسماؤهم عند الحديث عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله هم حمزة ووالد النبي المكرم عبد الله والعباس جد العباسيين وأبو طالب والد أمير المؤمنين عليه السلام وأبو لهب وهذا ضمن الإطار

(١) الكليني؛ محمد بن يعقوب : الكافي- ط دار الحديث ٢/ ٤٥٦.

(٢) السهيلي؛ الروض الانف (شرح سيرة ابن اسحاق وابن هشام) ١ / ٢٦٤.

المخالف لدعوة النبي ﷺ.

أما بقية الأبناء كالحارث وضرار والمقوم ونوفل وجحل فلا يوجد لهم مناسبة لذكرهم ولَم يدركوا شيئاً من الدعوة الإسلامية المحمدية ولَم يكن لهم شيء مميز حتى يذكروا.

الهاشميون الأحناف والتجارة

سبق أن ذكرنا أن هاشمًا قد توفي في احدى سفراته إلى الشام للتجارة. وهذا يستوقفنا حيث أن كثيرا من الهاشميين الذين كانوا على ديانة إبراهيم الحنيفية كانوا يتاجرون ويقيمون حياتهم ومعاشهم من خلال ذلك.

ونشير هنا إلى نقطة مهمة هي أن التجارة كانت ولا تزال المصدر الأهم لتنمية المال، وأن ما ورد في أحاديث المعصومين من الاهتمام و(أن تسعة أعشار الرزق في التجارة)[1] تؤيده الأوضاع المعاصرة الْيَوْمَ فالتجار الذين يعملون في المجالات المختلفة يؤسسون حياتهم المرفهة ويربحون الأموال الكثيرة مع بذل مجهود أقل مما يبذله أمثالهم، فإن العامل اليدوي يبذل طاقات كبيرة وجهودا عظيمة ولا يحصل على عشر معشار ما حصل عليه التاجر الذي يوظفه!!، والموظف الحكومي او الخاص يجهد ليل نهار من أجل أن يستفيد التاجر رب العمل ويسجل النجاح باسمه!! إن الفكرة التي يبينها الحديث الشريف: «تسعة أعشار الرزق في التجارة»

(١) البروجردي؛ السيد حسين: جامع آحاديث الشيعة ١٧ / ١٢٦؛ في باب استحباب اختيار التجارة من أسباب الرزق عن النبي ﷺ: ﷺ الرزق عشرة اجزاء تسعة منها في التجارة. وعن سالم قال سأل أبو عبد الله عليه السلام يوما «وانا عنده عن معاذ بياع الكرابيس فقيل ترك التجارة فقال: عمل الشيطان عمل الشيطان ان من ترك التجارة ذهب ثلثا عقله أما علم أن رسول الله ﷺ قدمت عير (قافلة) من الشام فاشترى منها واتجر فربح فيها ما قضى دينه.

لا تحتاج الى برهان فأمامك السوق وأصحاب الثروات.

لذلك يفتي كثير من العلماء بأن من المستحب شرعاً أن ينشغل الإنسان بالتجارة.

فإذا كنت ستبذل جهدا وقوة، ابذلها في أمر تجاري، لا تكن «بُرغيا» في مصنع! كن نفس المصنع، لا تكن ريالا في جيب غيرك كن ولو قرشا في جيب نفسك!

والنقطة الأخرى هي أن هؤلاء الأحناف الذين كانوا على ديانة إبراهيم كانوا يعيشون في مكة، رفضوا طريقة الأعراب البداة ونمط حياتهم القائم على الغزو والسلب والاخذ وافتخار الواحد منهم أنه «نهاب ليل وهاب نهار» وكانوا يتفاخرون بذلك [١]حتى أن (أيام العرب ووقائعهم) التي يتفاخرون بها ما كانت في الغالب إلا غارات سرقة ونهب!

هذا الأمر لم يكن وارداً بالنسبة للحنفاء[٢]كانوا يعتبرون الإغارة سرقة محرمة ولا تجوز، ومن جهة أخرى هم سكنة مكة وهي وادٍ غير ذي زرع ولا ضرع وبيئتها المناخية غير مساعدة على الزراعة. فلم يبق أمامهم طريق مناسب إلا التجارة.

---

(١) يشير إلى ذلك الكاتب د.علي القاسمي في مقال له على الانترنت فيقول «يقوم شيخ القبيلة بالسلب والنهب بمؤازرة أبناء قبيلته الذين يأتمرون بأمره، ويؤازرونه ويحيطون به ويدعمونه في جريمته. وهذا دليل على أن السرقة لم يُنظر إليها خلة أو عاراً، ولا يتبرأ كثير من العرب في الجاهلية منها، بل على العكس يفتخر اللص بفعلته، كما ورد في بيت شعر لم أقف على قائله:

وكم بيتٍ دخلتُ بغير إذنٍ   وكم مالٍ أكلتُ بغير حلِّ!

ومعظم أيام العرب في الجاهلية التي شاركت فيها كثير من القبائل العربية، كان سببها غزو بعضهم البعض بقصد السلب والنهب. فيوم الرغام، مثلاً، كان في الأساس " إغارة بني ثعلبة من قبائل تميم على طوائف من بني كلاب لسرقة إبلهم. وبعد أن سرقوها، لحقت بهم بنو كلاب فأدركتهم ووقع القتال بين الطرفين. ووقع يوم جِزع ظلال بعد أن أغار بنو فزارة على بني عبد مَناة، " وملأوا أيديهم غنائم وإبلاً ونساءً". ويوم ذات الأثل كان بسبب غزو بني سُليم لبني أسد من خزيمة ونهب إبلهم.".

(٢) تقدم الحديث عنهم.

وكان من أبناء عبد المطلب عبد الله وهو الأخ الشقيق لأبي طالب ووالد النبي المصطفى، وأمهما فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرِو. وهو الذي توفي مبكراً في عز شبابه وعمره ٢٥ سنة تقريبا، وقد ذكر أصحاب السِّيَر أنه كان يشارك أباه عبد المطلب في رحلاته التجارية، وأنهما تزوجا من أسرة واحدة، كان منها الأم الفاضلة لرسول الله ﷺ آمنة بنت وهب الزهرية فقد ذكر بن سعد في الطبقات[1]بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام، في قصة التزويج ما يلي:«كَانَتْ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلابٍ فِي حِجْرِ عَمِّهَا وُهَيْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ. فَمَشَى إِلَيْهِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بن هاشم بن عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيٍّ بِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَبِي رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَخَطَبَ عَلَيْهِ آمِنَةَ بِنْتَ وَهْبٍ فَزَوَّجَهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَخَطَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ ابْنَتَهُ هَالَةَ بِنْتَ وُهَيْبٍ عَلَى نَفْسِهِ فَزَوَّجَهُ إِيَّاهَا.

فَكَانَ تَزَوُّجُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ وَتَزَوُّجُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ.

فَوَلَدَتْ هَالَةُ بِنْتُ وُهَيْبٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وولدت آمنة لعبد الله النبي محمدا.

عبد الله صاحب النور

ينقل المؤرخون حادثة في شأن عبد الله الوالد الماجد للنبي المصطفى، تشير إلى مدة طهارة هذا البيت، وأن ما هو معروف عند الإمامية من أنهم من (أصلاب شامخة وأرحام مطهرة) قد اصطفاهم الله وأنبت نبيه فيه (فَأَخْرَجَه مِنْ أَفْضَلِ

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٧٦.

الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وأَعَزِّ الأَرُومَاتِ (الأصول) مَغْرِساً، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَه، وانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَه). [١]

وعبد الله هو صاحب قصة الفداء التي ذكرت في كتب التاريخ وأن والده نذر لله إن رزقه الأولاد سيذبح أحدهم، وسيأتي نقاش حول ما إذا كانت صحيحة أو محلا للتأمل!!

لكن الذي لا تأمل فيها هو استقامته التي جعلته يكون مؤهلا لأبوة أشرف الخلق، فإنهم ينقلون أنه بعدما صار من أبناء الرابعة والعشرين أو حواليها، واكتمل نموه، كان في غاية الجمال، فإنه وإن كان بعض المؤرخين يقول بأن بني هاشم كانوا ذوي اجسام طويلة وأنهم كانوا (دُلُماً) أي سُمرا، [٢] إلا أنه يظهر أن عبد الله كان فيه لمعة اشراقة اكثر من بقية بني هاشم، أشير إليها بأن في وجهه نور، قال أبو نعيم: (كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَحْسَنَ رَجُلٍ رُؤِيَ قَطُّ، خَرَجَ يَوْمًا عَلَى نِسَاءِ قُرَيْشٍ مُجْتَمِعَاتٍ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: أَيَّتُكُنَّ تَتَزَوَّجُ بِهَذَا الْفَتَى، فَتَصْطَبُّ النُّورَ الَّذِي بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَإِنِّي أَرَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ نُورًا). [٣]

وكذلك ينقلون في شأن المرأة التي تعرضت له ليصيب منها، فقد وصف في بعض الروايات بأن كان بين عينيه غرة كغرة الفرس، وأخرى بعنوان أن في وجهه نوراً ساطعاً وثالثة بأن في وجهه نور النبوة، وكلها تشير إلى أن والد النبي كان جميلاً

---

(١) الإمام علي عليه السلام؛ نهج البلاغة / ٢١٣.

(٢) الجاحظ في رسائله ١/ ٢٠٩: وكان ولد عبد المطلب العشرة السادة دُلمًا ضخمًا، نظر إليهم عامر بن الطفيل يطوفون كأنهم جمال جون، فقال: بهؤلاء تمنع السدانة. وكان عبد الله بن عباس أدلم ضخمًا، وآل أبي طالب أشرف الخلق، وهم سود وأدم ودلم.

(٣) أبو نعيم الاصفهاني؛ دلائل النبوة ١/ ١٣٣.

ومميزاً.[١]

ولعل هذا أحد العوامل التي جعلت المرأة تطلب منه أن يقاربها[٢] بالإضافة إلى ما قيل من انها كانت تريد أن ينتقل إليها نور النبوة، وسيأتي الحديث فيه.

إننا نعتقد في مذهب الإمامية أن آباء الأنبياء وأمهاتهم لم يكونوا مجرد أوعية، وإنما كانوا أوعية مختارة وحلقات منتخبة (أصلاب شامخة وأرحام مطهرة)،

---

(١) في السيرة الحلبية ١/ ٨٥: كان عبد اللّه كما تقدم أحسن فتى يرى في قريش وأجملهم، وكان نور النبي صلى اللّه عليه وسلم يرى في وجهه كالكوكب الدري: أي المضيء المنسوب إلى الدر، حتى شغفت به نساء قريش، ولقي منهن عناء، ولينظر ما هذا العناء الذي لقيه منهن. قيل إنه لما تزوج آمنة لم تبق امرأة من قريش من بني مخزوم وعبد شمس وعبد مناف إلا مرضت: أي أسفا على عدم تزوجها به.

(٢) في طبقات ابن سعد، وتاريخ الطبري وغيرهما ورد: (واللفظ للطبقات) ذكر المرأة التي عرضت نفسها على عبد الله بن عبد المطلب وقد اختلف علينا فيها فمنهم من يقول كانت قتيلة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي أخت ورقة بن نوفل ومنهم من يقول كانت فاطمة بنت مر الخثعمية قال أخبرنا محمد بن عمر بن واقد الأسلمي قال حدثني محمد بن عبد الله بن أخي الزهري عن عروة قال وحدثنا عبيد الله بن محمد بن صفوان عن أبيه وحدثنا إسحاق بن عبيد الله عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم قالوا جميعا هي قتيلة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل وكانت تنظر وتعتاف فمر بها عبد الله بن عبد المطلب فدعته يستبضع منها ولزمت طرف ثوبه فأبى وقال حتى آتيك وخرج سريعا حتى دخل على آمنة بنت وهب فوقع عليها فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجع عبد الله بن عبد المطلب إلى المرأة فوجدها تنظره فقال هل لك في الذي عرضت علي فقالت لا مررت وفي وجهك نور ساطع ثم رجعت وليس فيه ذلك النور وقال بعضهم قالت مررت وبين عينيك غرة مثل غرة الفرس ورجعت وليس هي في وجهك.

والبعض سماها قتيلة وقيل إنها من خثعم.

وفيما أثبت الشيخ السبحاني في كتابه سيد المرسلين ١/ ١٩٢، وجود النور في وجه عبد الله والد النبي ﷺ، عد التفاصيل الأخرى من المختلقات، وذكر علائم الاختلاق في القصة، كما قال، وانتهى إلى القول: ولكن الأستاذ «النجار» أخطأ في تشكيكه في النور النبويّ الساطع في جبين «عبد اللّه» حيث قال معقبا على كلامه السابق: «ولكنها مسألة النور في وجهه يريدون إثباتها ورسول اللّه غني عن هذا كله» فان ذلك ممّا رواه جميع المؤرخين بلا استثناء، فلا داعى ولا وجه للتشكيك فيه

ولا يتصور أن يكون النبي هو سيد الكائنات ولكن والديه كافران مثلا أو ملوثان بالمعاصي! ذلك أن الولد مهما كان يتأثر بنحوٍ مّا بوالديه، فلا بد من انتخاب له، بحيث يتحقق ما قاله الله تعالى عن النبي موسى (ولتصنع على عيني).

وهذا يفسر لنا ما روي عن النبي ﷺ: (لم يكن بيني وبين آدم سفاح قط ولم يلتق أحد من آبائي على سفاح قط) ؟

إنه مما لا ريب فيه أن عبد المطلب كان يتحنث ويربي أولاده على الحنيفية الإبراهيمية، وهي التي تتمثل فيها التعاليم الأساسية للإسلام في عقائده وأحكامه وكان عبد الله ابنه يتأثر بأبيه ويسلك مسلكه.

ثم إنه لو فرضنا صحة ما نقل في قصة عبد الله والد النبي واحترازه عن الاستجابة للإغراء الجنسي من قبل المرأة الخثعمية، فإن هذا ليعطينا درساً في غاية الأهمية من أن التدين إنما يظهر أثره الحقيقي حين الامتحان، وإن من أصعب الامتحانات أمام الشباب هو الامتحان الجنسي ففيه يعرف استقامة الشاب، وانحرافه بحسب موقفه من الارتكاب والاجتناب، وقد لا يكون الامتحان في الصلاة والشعائر الدينية صعبا مثلما هو الامتحان السلوكي.

هل هو الذبيح ؟

يذكر المؤرخون قصة في شأن عبد الله والد النبي، تشير إلى أن والده عبد المطلب كان قد نذر لله لئن وهبه عشرة من الولد ليذبحن أحدهم قربانا له! ولما حصل ذلك وقعت القرعة على عبد الله وأشير عليه ليتقي ذبحه، أن يفدي عنه بالإبل. حتى استقرت على المائة من الإبل، وهكذا نجى عبد الله.

ولنذكر النص كما نقله مؤرخون عن سيرة ابن اسحاق.[١] قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فِيمَا يَزْعُمُونَ نَذَرَ حِينَ لَقِيَ مِنْ قُرَيْشٍ مَا لَقِيَ عِنْدَ حَفْرِ زَمْزَمَ لَئِنْ وُلِدَ لَهُ عَشَرَةُ نَفَرٍ ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ليذبحن أَحَدَهُمْ للَّه عِنْدِ الْكَعْبَةِ. فَلَمَّا تَكَامَلَ بَنُوهُ عَشَرَةً وَعَرَفَ أَنَّهُمْ سَيَمْنَعُونَهُ وَهُمُ. الْحَارِثُ. وَالزُّبَيْرُ. وَحَجْلٌ. وَضِرَارٌ. وَالْمُقَوَّمُ. وَأَبُو لَهَبٍ. وَالْعَبَّاسُ. وَحَمْزَةُ. وَأبو طالب. وَعَبْدُ اللَّهِ. جَمَعَهُمْ ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ بِنَذْرِهِ وَدَعَاهُمْ إِلَى الْوَفَاءِ للَّه عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ فَأَطَاعُوهُ وَقَالُوا كَيْفَ نَصْنَعُ؟

قَالَ لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ قِدْحًا ثُمَّ يَكْتُبُ فِيهِ اسْمَهُ ثُمَّ ائْتُونِي فَفَعَلُوا ثُمَّ أَتَوْهُ، فَدَخَلَ بهم على هبل فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ وَكَانَتْ تِلْكَ الْبِئْرُ هِيَ الَّتِي يُجْمَعُ فِيهَا مَا يُهْدَى لِلْكَعْبَةِ، وَكَانَ عِنْدَ هُبَلَ قِدَاحٌ سَبْعَةٌ وَهِيَ الْأَزْلَامُ الَّتِي يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهَا إِذَا أَعْضَلَ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ مِنْ عقل أو نسب أو أمر مِنَ الأمور جَاءُوهُ فَاسْتَقْسَمُوا بِهَا فَمَا أَمَرَتْهُمْ بِهِ أَوْ نَهَتْهُمْ عَنْهُ امْتَثَلُوهُ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ لَمَّا جَاءَ يَسْتَقْسِمُ بِالْقِدَاحِ عِنْدَ هُبَلَ خَرَجَ الْقِدْحُ عَلَى ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ وَكَانَ أَصْغَرَ وَلَدِهِ وَأَحَبَّهُمْ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِيَدِ ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ وَأَخَذَ الشَّفْرَةَ ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ إِلَى إِسَافٍ وَنَائِلَةَ لِيَذْبَحَهُ فَقَامَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنْ أَنْدِيَتِهَا فَقَالُوا: مَا تُرِيدُ يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ؟ قَالَ أَذْبَحُهُ فَقَالَتْ له قريش وبنوه إخوة عبد الله وَاللَّهِ لَا تَذْبَحُهُ أَبَدًا حَتَّى تُعْذِرَ فِيهِ لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يجيء بِابْنِهِ حَتَّى يَذْبَحَهُ فَمَا بَقَاءُ النَّاسِ عَلَى هَذَا.

وَذَكَرَ يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ أَنَّ الْعَبَّاسَ هُوَ الَّذِي اجْتَذَبَ عَبْدَ اللَّهِ مِنْ تَحْتِ رِجْلِ أَبِيهِ حِينَ وَضَعَهَا عَلَيْهِ لِيَذْبَحَهُ فَيُقَالَ إِنَّهُ شَجَّ وَجْهَهُ شَجًّا لَمْ يَزَلْ فِي وَجْهِهِ إِلَى أَنْ مَاتَ ثُمَّ أَشَارَتْ قُرَيْشٌ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْحِجَازِ فَإِنَّ بِهَا عَرَّافَةً لَهَا تَابِعٌ فَيَسْأَلُهَا عَنْ ذَلِكَ ثُمَّ أَنْتَ عَلَى رَأْسِ أَمْرِكَ إِنْ أَمَرَتْكَ بِذَبْحِهِ فَاذْبَحْهُ وَإِنْ أَمَرَتْكَ بِأَمْرٍ لَكَ وَلَهُ فِيهِ مَخْرَجٌ قَبِلْتَهُ فَانْطَلَقُوا حَتَّى أَتَوُا الْمَدِينَةَ فَوَجَدُوا الْعَرَّافَةَ

(١) الدمشقي؛ ابن كثير:البداية والنهاية ط دار الفكر ٢ / ٢٤٩.

وَهِيَ سَجَاحُ فِيمَا ذَكَرَهُ يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ بِخَيْبَرَ فَرَكِبُوا حَتَّى جَاءُوهَا فَسَأَلُوهَا وَقَصَّ عَلَيْهَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ خَبَرَهُ وَخَبَرَ ابْنِهِ.

فَقَالَتْ لَهُمُ ارْجِعُوا عَنِّي الْيَوْمَ حَتَّى يَأْتِيَنِي تَابِعِي فَأَسْأَلُهُ فَرَجَعُوا مِنْ عِنْدِهَا فَلَمَّا خَرَجُوا قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ يَدْعُو اللَّهَ ثُمَّ غَدَوْا عَلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُمْ قَدْ جَاءَنِي الْخَبَرُ، كَمِ الدِّيَةُ فِيكُمْ؟ قَالُوا عَشْرٌ مِنَ الإبل وَكَانَتْ كَذَلِكَ قَالَتْ فَارْجِعُوا إِلَى بِلَادِكُمْ ثُمَّ قَرِّبُوا صَاحِبَكُمْ وَقَرِّبُوا عَشْرًا مِنَ الإبل ثُمَّ اضْرِبُوا عَلَيْهَا وَعَلَيْهِ بِالْقِدَاحِ فَإِنْ خَرَجَتْ عَلَى صَاحِبِكُمْ فَزِيدُوا مِنَ الإبل حَتَّى يَرْضَى رَبُّكُمْ وَإِنْ خَرَجَتْ عَلَى الإبل فَانْحَرُوهَا عَنْهُ فَقَدْ رَضِيَ رَبُّكُمْ وَنَجَا صَاحِبُكُمْ فَخَرَجُوا حَتَّى قَدِمُوا مَكَّةَ فَلَمَّا أَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ الأمر قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ يَدْعُو اللَّهَ ثُمَّ قَرَّبُوا عَبْدَ اللَّهِ وَعَشْرًا مِنَ الإبل ثُمَّ ضَرَبُوا فَخَرَجَ الْقِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ فَزَادُوا عَشْرًا ثُمَّ ضَرَبُوا فَخَرَجَ الْقِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ فَزَادُوا عَشْرًا فلم يَزَالُوا يَزِيدُونَ عَشْرًا عَشْرًا وَيَخْرُجُ الْقِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ حَتَّى بَلَغَتِ الإبل مِائَةً.

ثُمَّ ضَرَبُوا فَخَرَجَ الْقِدْحُ عَلَى الإبل فَقَالَتْ عِنْدَ ذَلِكَ قُرَيْشٌ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ قَائِمٌ عِنْدَ هُبَلَ يَدْعُو اللَّهَ قَدِ انْتَهَى رِضَى رَبِّكَ يا عبد المطلب. فعندها زعموا أَنَّهُ قَالَ لَا حَتَّى أَضْرِبَ عَلَيْهَا بِالْقِدَاحِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَضَرَبُوا ثَلَاثًا وَيَقَعُ الْقِدْحُ فِيهَا عَلَى الإبل فَنُحِرَتْ ثُمَّ تُرِكَتْ لَا يُصَدُّ عَنْهَا إنسان وَلَا يُمْنَعُ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ ويقال ولا سبع. وقد روى إِنَّهُ لَمَّا بَلَغَتِ الإبل مِائَةً خَرَجَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ أيضا فَزَادُوا مِائَةً أخرى حَتَّى بَلَغَتْ مِائَتَيْنِ فَخَرَجَ الْقِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ فَزَادُوا مِائَةً أخرى فَصَارَتِ الإبل ثَلَاثَمِائَةٍ. ثُمَّ ضَرَبُوا فَخَرَجَ الْقِدْحُ عَلَى الإبل فَنَحَرَهَا عِنْدَ ذَلِكَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وأما في مصادر الإمامية فيظهر أن أقدم المصادر التي ذكرت الحادثة ولو بغير التفصيل المذكور ما هو موجود في كتاب (من لا يحضره الفقيه)، والخصال للشيخ

الصدوق رحمه الله في باب الحكم بالقرعة[١]. فإنه ذكر في أول الرواية ما كان من شأن يونس صاحب الحوت وكيف أن القرعة وقعت عليه عدة مرات. ثم ذكر قصة عبد المطلب بالنص التالي:

(ثم كان عبد المطلب ولد له تسعة فنذر في العاشر إن يرزقه الله غلاما أن يذبحه قال: فلما ولد عبد الله لم يكن يقدر أن يذبحه ورسول الله ﷺ في صلبه، فجاء بعشر من الإبل وساهم عليها وعلى عبد الله فخرج السهام على عبد الله فزاد عشرا، فلم تزل السهام تخرج على عبد الله، ويزيد عشرا، فلما [أن] بلغت مائة خرجت السهام على الإبل، فقال عبد المطلب: ما أنصفت ربي، فأعاد السهام ثلاثا فخرجت على الإبل، فقال: الآن علمت أن ربي قد رضي فنحرها).

وهناك رواية أخرى نقلها الصدوق في عيون أخبار الرضا:[٢] فإنه بعد أن نقل ما سئل عنه الإمام الرضا من معنى قول النبي: أنا ابن الذبيحين، وأخبر عن أن الأول اسماعيل قال: (وَأَمَّا الْآخَرُ فَإِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ كَانَ تَعَلَّقَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ وَ دَعَا اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَهُ عَشَرَةَ بَنِينَ وَ نَذَرَ لِلَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ أَنْ يَذْبَحَ وَاحِداً مِنْهُمْ مَتَى أَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ فَلَمَّا بَلَغُوا عَشَرَةً قَالَ قَدْ وَفَى اللَّهُ لِي فَلَأُوفِيَنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ فَأَدْخَلَ وُلْدَهُ الْكَعْبَةَ وَ

---

(١) الشيخ الصدوق؛ من لا يحضره الفقيه ٣ / ٨٩. والرواية هكذا حدثنا أحمد بن هارون الفامي، وجعفر بن محمد بن مسرور رضي الله عنهما قالا: حدثنا محمد بن جعفر بن بطة، عن محمد بن الحسن الصفار، عن العباس بن معروف عن حماد بن عيسى، عن حريز، عمن أخبره، عن أبي جعفر عليه السلام: قال: أول من سوهم عليه مريم بنت عمران وهو قول الله عز وجل ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ والسهام ستة، ثم استهموا في يونس لما ركب مع القوم فوقفت السفينة في اللجة، فاستهموا فوقع السهم على يونس ثلاث مرات قال: فمضى يونس إلى صدر السفينة فإذا الحوت فاتح فاه فرمى بنفسه.

وقد وصف الشيخ السبحاني؛ المبسوط في أُصول الفقه ٤ .٤٤٠ الرواية بأنها بإسناد صحيح.

(٢) الشيخ الصدوق؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام ١/ ٢١١.

أَسْهَمَ بَيْنَهُمْ فَخَرَجَ سَهْمُ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَ كَانَ أَحَبَّ وُلْدِهِ إِلَيْهِ ثُمَّ أَجَالَهَا ثَانِيَةً فَخَرَجَ سَهْمُ عَبْدِ اللَّهِ ثُمَّ أَجَالَهَا ثَالِثَةً فَخَرَجَ سَهْمُ عَبْدِ اللَّهِ فَأَخَذَهُ وَ حَبَسَهُ وَ عَزَمَ عَلَى ذَبْحِهِ فَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ وَ مَنَعَتْهُ مِنْ ذَلِكَ وَ اجْتَمَعَ نِسَاءُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَبْكِينَ وَ يَصِحْنَ فَقَالَتْ لَهُ ابْنَتُهُ عَاتِكَةُ يَا أَبَتَاهْ اعذِرْ فِيمَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ فِي قَتْلِ ابْنِكَ قَالَ وَ كَيْفَ أَعذرُ يَا بُنَيَّةُ فَإِنَّكِ مُبَارَكَةٌ قَالَتْ اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ السَّوَائِمِ الَّتِي لَكَ فِي الْحَرَمِ فَاضْرِبْ بِالْقِدَاحِ عَلَى ابْنِكَ وَ عَلَى الإبل وَ أَعْطِ رَبَّكَ حَتَّى يَرْضَى فَبَعَثَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَى إِبِلِهِ فَأَحْضَرَهَا وَ أَعْزَلَ مِنْهَا عَشْراً وَ ضَرَبَ بِالسِّهَامِ فَخَرَجَ سَهْمُ عَبْدِ اللَّهِ فَمَا زَالَ يَزِيدُ عَشْراً عَشْراً حَتَّى بَلَغَتْ مِائَةً فَضَرَبَ فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى الإبل).

وقد وقعت هذه القصة محلا للأخذ والرد والقبول والرفض بين علماء المسلمين من الفريقين، ونورد نموذجا من النقاش بين الرافضين لها والقابلين بها.

أدلة الرافضين

يمكن تلخيص أدلتهم في الأمور التالية:

١. ضعف أسانيدها: كما قال الشيخ علي أكبر الغفاري في التعليق على هذه القصة في حاشية من لا يحضره الفقيه، أن أسانيد كلا الروايتين تحتوي على رجال ضعفاء. (١)

(١) وبالجملة في طرق هذه القصة (الأولى) وما شاكلها مثل خبر «أنا ابن الذبيحين» جماعة كانوا ضعفاء أو مجهولين أو مهملين أو على غير مذهبنا مثل أحمد بن سعيد الهمداني المعروف بابن عقدة وهو زيدي جارودي، أو أحمد بن الحسن القطان وهو شيخ من أصحاب الحديث عامي ويروى عنه المؤلف في كتبه بدون أن يردفه بالرضيلة (الترضي عليه) مع أن دأبه أن يتبع مشايخه بها ان كانوا إماميين، وكذا محمد بن جعفر بن بطة الذي ضعفه ابن الوليد وقال: كان مخلطا فيما يسنده وهكذا عبد الله بن داهر الأحمري وهو ضعيف كما في (الخلاصة ورجال النجاشي) وأبو قتادة ووكيع بن الجراح وهما من رجال العامة.

٢. أن مضمونها في شأن جد النبي لا يمكن القبول به: فإنها «تضمنت أمراً غريباً بل منكراً لا يجوز أن ينسب إلى أحد من أوساط الناس والسذج منهم فضلا عن مثل عبد المطلب الذي كان من الأصفياء وهو في العقل والكياسة والفطنة على حد يكاد أن لا يدانيه أحد من معاصريه، وقد يفتخر النبي ﷺ مع مقامه السامي بكونه من أحفاده وذراريه ويباهي به القوم ويقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب.

وفى الكافي روايات تدل على عظمته وجلالته وكمال إيمانه وعقله ودرايته ورئاسته في قومه ففي المجلد الأول منه ص ٤٤٦ في الصحيح عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال «يحشر عبد المطلب يوم القيامة أمة وحده، عليه سيماء الأنبياء وهيبة الملوك» يعنى إذا حشر الناس فوجاً فوجاً يحشر هو وحده، لأنه كان في زمانه منفردا بدين الحق من بين قومه».

أقول: بالإضافة إلى ما تقدم فإن التفاصيل التي تنقل في رواية ابن اسحاق، تصور شخصية عبد المطلب شخصية بعيدة عن المعرفة بالله تعالى، فهو يدخل بأبنائه على الصنم هبل فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ!! ويضجع ابنه عند الصنم إساف! وبعيدة الحكمة والتعقل بحيث يحتاج إلى أن يقوم بعض أبنائه الصغار مثل العباس بالأخذ على يديه، ويمنعه سائر القرشيين عن الاقدام على هذا العمل الذي سيسن سنة سيئة بين الناس!! ثم تشير عليه إحدى بناته بطريق للتخلص من ذلك! ويقبل من العرافة التي لها تابع ما تقوله له مما أخبرها تابعها، فيقبل عبد المطلب ويسلم بذلك!! وتقترح عليه أن يرضي ربه بتلك الطريقة!!

٣. إن النذر بذبح ابنه هو عمل محرم فكيف يكون نذراً لله ؟ و«كيف يصح أن يقال: إنه نذر أن يذبح سليله وثمرة مهجته وقرة عينه قربة إلى الله سبحانه،

وأنّى يتقرب بفعل منهى عنه في جميع الشرايع والقتل من أشنع الأمور وأقبحها، والعقل مستقل بقبحه بل يعده من أعظم الجنايات، مضافا إلى كل ذلك أن النذر بذبح الولد قربانا للمعبود من سنن الوثنيين وقد ذكره الله تعالى في جملة ما شنع به على المشركين وقال في كتابه العزيز بعد نقل جُملاً من بدعهم و مفترياتهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.[١]

٤. إن هذه القضية تختلف عن قضية نبي الله إبراهيم عندما أمر بذبح اسماعيل فلا يمكن تنظيرها بها. ولهذا «فإن قيل: لعله كان مأموراً من جانب الله سبحانه كما كان جده إبراهيم عليه السلام مأموراً، قلنا: هذا التوجيه مخالف لظاهر الروايات فإنه صرح في جميعها بأنه نذر، مضافا إلى أنه لو كان مأموراً فلا محيص له عنه، ويجب عليه أن يفعله كما أمر، فكيف فداه بالإبل، ولِمَ لم يقل في جواب من منعه كما في الروايات ـ: اني مأمور بذلك».

أدلة المثبتين للقصة

في مقابل ما سبق ذكره للمحقق الغفاري من نفي الحادثة وعدم امكان قبولها، فقد استدل المثبتون[٢] لها بأمور:

١. عدم التسليم بالضعف السندي للروايات، لا سيما رواية (أنا ابن الذبيحين) لاشتهارها عند الشيعة والسنة، فهي وإن لم تذكر في صحاحهم إلا أن فقهاءهم قد أخذوا بها، والمقصود من الذبيحين: اسماعيل وعبد الله. ونقل

(١) الانعام: ١٣٧.

(٢) العقائد الإسلامية ٣ / ٤٤٥ مركز المصطفى للدراسات الإسلامية تحت اشراف الشيخ علي الكوراني.

كلام الكاشاني صاحب بدايع الصنايع وابن كثير في السيرة النبوية.

٢. ثم إنه ينبغي التأمل في قول الإمام الرضا وقوة احتجاجه في أن عزم عبد المطلب على ذبح ابنه شبيه بعزم إبراهيم على ذبح اسماعيل، ولهذا السبب قد افتخر النبي صلى الله عليه آله بأنه ابن الذبيحين.

٣. إن الرواية تشير إلى أن علة رفع الذبح عن اسماعيل وعبد الله واحدة وهي كون النبي ﷺ والأئمة في صلبهما، فبذلك رفع الذبح عن عبد الله ثم لم تجر السنة في الناس بقتل أولادهم. وهذا يشير إلى أن نذر عبد المطلب هو شبيه بعمل إبراهيم النبي، مع اختلاف أن إبراهيم أمر بالذبح في المنام وبالفداء من خلال الوحي.

٤. نحن وإن كنا لانعرف كيف أمر عبد المطلب بنذر الذبح والفداء، ولكن نعرف أنه حجة وعمله صحيح، ولا بد أنه كان عنده حجة شرعية على نذره وفدائه.(من خلال افتخار النبي بالانتساب إليه وإلا كيف يفتخر النبي بعمل غير مشروع لجده ؟) وحينئذ فما يجاب به عن عمل إبراهيم، يجاب به عن عمل عبد المطلب بلا فرق، فلا معنى لاستظهار أن ذبح الولد كان من عادات المشركين، ولا معنى للقول بأنه لو كان عبد المطلب نذر ذلك فلماذا لم يقدم عليه. واستعاض عنه بذبح الإبل!!.

والدة النبي آمنة بنت وهب

روي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق ﵇ أنه قال: نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال له: (إن الله عز وجل حرم النار على صلب أنزلك وعلى بطن حملك وعلى حجر كفلك).[1]

تتناول هذه الصفحات جوانب من حياة السيدة الطاهرة آمنة بنت وهب والدة النبي ﷺ حيث كان نصيبها الأعلى في هذه الحياة أنها والدة النبي فكانت تنتظر ان تضع الخلق الكامل رسول الله ثم بعد عدة سنوات تغادر الدنيا. حيث توفيت في ريعان شبابها وكأنها إنما كانت قد ادخِرت لتنجب سيد الأنبياء ثم ترحل إلى محل القدس من عفو الله ورحمته وهو أعلى نصيب يمكن لامرأة في البشرية، بأن تكون حاملة في احشائها أعظم مخلوق خلقه الله سبحانه وتعالى.

أمهات الأنبياء في القرآن

ركّز القرآن الكريم على دور الأمهات في حياة الأنبياء والرسل، في أهم الديانات

(١) الكليني؛ محمد بن يعقوب الكافي- ط دار الحديث ٢/ ٤٥٦.

قبل الإسلام: اليهودية والنصرانية، وقبلهما في الديانة الإبراهيمية، فقد تناولت آيات القرآن في عدد من السور أدوارهن، ومن أولئكم (أم النبي موسى)[١]في إرضاعها ومعاناتها واحتضانها لابنها، حتى لقد ذكرت دقائق التفاصيل كما في قوله تعالى:﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

واختصت سورة كاملة في القرآن بأم عيسى النبي وهي مريم التي ذكرت في القرآن بهذا الاسم نحو ٣٤ مرة، وحيث لم يكن هناك أب لعيسى فقد برز دور الأم مغطيا على كل المساحات في بداية تكونه وما بعد ولادته [٢]، وكذلك في سورة آل عمران، بل إننا نجد ذلك حتى في النبي موسى فمع وجود أب له، إلا أننا لا نجد له

---

(١) في سورة القصص؛ من آية ٧ إلى ١٣: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وفي سورة طه :﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾

(٢) من سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾. إلى الآية السابعة والعشرين من السورة.

دوراً واضحاً في آيات القرآن الكريم.

والحال نفسه نجده في قضية هاجر أم النبي اسماعيل، وشدة توكلها على الله سبحانه وقبولها بما كتب لها حينما أسكنها نبي الله إبراهيم بواد غير ذي زرع عند بيته المحرم، وحفاظها على ابنها الصغير، وسعيها للحصول على الماء له، حتى جرت في مساحة تتجاوز الكيلومترين للبحث عن ماء لطفلها!!

إننا نعلم أن القرآن الكريم ليس كتاباً قصصياً للتسلية ولا كتاب سير تاريخية. فلا بد أن يكون له هدف من وراء ذلك ونعتقد أن ذلك يعود ذلك لأسباب مختلفة منها:

١. إعظام شأن الأمومة

ربما لا توجد مهمة بشرية تعادل الأمومة في ما تعني (من حمل ووضع ورضاعة ورعاية واهتمام وتربية)، وفهم هذا المعنى قد لا يحصل عند كثير من الآباء، بل عند الكثير من النساء، ولذلك نجد أن البعض منهن تأتي لتقول: أنا لم آت لهذه الحياة لكي أتزوج ثم أحمل ثم أضع وأرضع، أنجب الأطفال وأتولى رعايتهم!! بل إن البعض منهن قد تستعد لأن تحرم نفسها من الأمومة لأجل عملية تجميل! أو تحرم طفلها من الرضاعة الطبيعية لكي لا يتأثر مظهر صدرها!! إلى غير ذلك.

قد تقدم هذه المرأة دراستها، وعملها، بل وأسفارها الترفيهية على أمومتها وحق طفلها!

ثقافة الاستخفاف هذه بالأمومة تحتاج إلى تغيير، وربما يكون في التأمل في آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن دور أمهات الأنبياء في رعايتهم ينفع في مثل هذا التغيير.

إن الأمومة التي ينتج عنها نبي الله إبراهيم أبو الأنبياء وشيخ المرسلين وحامل لواء التوحيد لهي في غاية العظمة، والأمومة التي تعطي للمجتمع البشري شخصية كشخصية النبي محمد المصطفى ﷺ لا تصل إلى عشر معشارها أي مهمة مهما علت وارتفعت.

٢. الارتباط الوثيق بين النبوة والأمومة

كأنّ القرآن الكريم أراد أن يبين لقارئيه الارتباط الوثيق بين النبوة والأمومة، وأن أمهات الأنبياء لهن الفضل الكبير الذي يتجاوز فضيلة سائر المؤمنات، وأن لهن تأثيراً ما في حياة أبنائهن، وأنهن لسن مجرد مستودعات اتفاقية، حصل أن صار النبي في بطنها، وإنما كما اختار الله سبحانه نبيه بسابق علمه اختار أمه وأباه في سابق علمه من أفضل ما يمكن. وقد سبق ذكر كلمات رسول الله ﷺ، أنه ولد من طهرة مطهرة، وكلمات أمير المؤمنين عليه السلام أن الله اختاره من أعز الأرومات منبتاً!

ولو لم تكن تلك النساء كذلك لما كان مبرر واضح لذكرهن والتأكيد عليهن. وهذا المعنى يشير إلى أن الوالدة المكرمة للنبي آمنة بنت وهب لا تتخلف عن أمهات الأنبياء الأخريات بل قد تفوقهن جميعا لتفوق ابنها على أبنائهن.

ولذلك لا يمكن أن تكون أم النبي كما قال بعضهم من أهل النار ـ والعياذ بالله ـ

هل الامهات مستودعات فقط؟

وربما يقول قائل إن الأمهات ليس لهن مدخل في تكوين وبناء الوليد، وإنما هي أوعية ومخازن، والدور كل الدور للآباء، وقد يستشهدون بالشعر المنسوب للإمام علي عليه السلام.

وإِنَّمَا أُمَّـهَـاتُ النَّاسِ أَوْعِيَةٌ مُسْتَوْدَعَاتٌ وَلِلْأَحْسَابِ آبَاءُ[١]

ونعتقد أن هناك مجالا واسعا للتأمل في نسبة هذا البيت من الشعر لأمير المؤمنين عليه السلام للجهات التالية:

الأولى: أن ديوان الشعر المطبوع والمنسوب لأمير المؤمنين لم يذكر المؤلف أسانيده له وبالتالي فيكون مرسلاً، فلا يمكن نسبة بيت فيه على نحو الجزم بأنه للإمام ما لم توثق تلك النسبة بسند معتبر، نعم هناك من القصائد والأبيات مما علم نسبته إليه واشتهاره كذلك، والبعض الآخر ليس معروف النسبة للإمام عليه السلام.

ولذلك فالاستدلال على كونه للإمام بكونه موجوداً في الديوان هو أشبه بالدور، أو المصادرة، إذ لا بد من إثبات أن كل ما في الديوان هو للإمام حتى يقال هذا البيت موجود في الديوان!!

الجهة الثانية: أن قسما من الباحثين في التاريخ العربي يذكر أن هذه الأبيات هي من جملة قصيدة تنسب للمأمون العباسي في صراعه مع أخيه المأمون فقد استخدم كلاهما ما يملك من أسلحة في ذلك الصراع، ومن ضمن هذه الأسلحة الهجاء المقذع.

وبينما كانت أم الأمين هي زبيدة وتعتبر بمقاييس العرب ذات نسب عال وحسب مجيد، وفي المقابل كانت أم المأمون العباسي جارية سندية سوداء أسمها مراجل

---

(١) خفاجي، محمد عبد المنعم؛ ديوان الإمام علي ١/ ٢٥ وجاءت الأبيات هكذا:

النـاسُ من جِهَةِ الأبـاءِ أكفاءُ ... أبـوهُـم آدمٌ والأُمُّ حـوّاءُ
وإنما أمـهـاتُ الـنـاسِ أوعيةٌ ... مستودعات وللأحساب آباءُ
فإن يكن لهمُ من أصلهم شرفٌ ... يفاخرونَ به فالطينُ والماءُ
ما الفضلُ إلا لأَهلِ العلمِ إنهُمُ ... على الهدى لمن استهدى أدِلاَّءُ

أي أنها في التصنيف الإجتماعي السائد آنئذ أقل بمراحل من زبيدة، فكان محمد الأمين يضرب على هذا الوتر ويهجو أخاه المأمون في أمه هجاءا مقذعا ومن جملة ماقاله هذان البيتين:

يا بن التي بيعت بأبخس قيمة   بين الملأ في السوق هل من زائد
ما فيك موضع غـرزة من إبرة   إلا وفـيـه نـطـفـة مـن واحـد

فكان جواب المأمون الذي لم يستطع أن يهجو أخاه من جهة أمه، ما يلي:

لا تزرينّ فتى من أن يكون له   أمّ من الـروم أو سـوداء عجماء
فإنّما أمـهـات الـنّـاس أوعية   مستودعات وللأحساب آباء
فلرب معربة ليست بمنجبة   وطالما أنجبت في الخدر عجماء[١]

ومعنى الأبيات واضح في أن وضاعة الأم لا يؤثر في شخصية الأبناء وجعلهم غير نجباء وإنما المؤثر الأساس هو الأب وهو هنا نفسه أبوك هارون الذي كان أبانا معاً. وذلك لأن الأم ليست سوى وعاء ومستودع ومخزن، وأما الأحساب والمجد فيصنعها الآباء، ولربما كانت امرأة عربية أصيلة لكن ولدها غير نجيب وامرأة عجماء لكن أبناءها نجباء!

ولا ريب أن هذا الرد بالأبيات يتناسب مع الحادثة تمام التناسب، ولذا أرسل الباحثون هذه الأبيات في نسبتها للمأمون إرسال المسلمات! بينما لا نجد تناسباً في الأبيات التي قبلها أو بعدها فيما أورده صاحب ديوان الإمام علي بل كأن البيت المذكور قد أقحم إقحاماً ولا يتناسب مع المعاني السامية التي تؤكد على أن شرف الإنسان بالعلم.

(١) العاملي؛ السيد جعفر: الحياة السياسية للإمام الرضا ١/ ١٥٩ عن غاية المرام في محاسن بغداد دار السلام للموصلي.

وقد ذكر نسبتها للمأمون العباسي عدد من الكتاب[١] والمحققين.

الجهة الثالثة: أن هذا يخالف ما عليه من توجيهات أهل البيت وكلمات أمير المؤمنين من (تخيروا لنطفكم) وأشباه ذلك بالإضافة الى تركيزهم على أن النبي كان ينتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام المطهرة فإذا كانت الأمهات فقط مستودعات ولا تؤثر فليس هناك داع للحديث عن الأرحام المطهرة.

بينما حديثهم إن الأرحام الطيبة والمطهرة مهمة ومؤثرة ويشكل جانباً من شخصية الوليد بل حتى في قضية النسب بين العباسيين والعلويين كانوا يقولون أنتم لستم أبناء رسول الله لأن الأبناء منسوبون لأبيهم وأنتم أبناء علي في الوقت الذي فيه الرؤية الشيعية على خلاف هذا وأن الحسن والحسين أبناء رسول الله ﷺ.

آمنة خُطبت من قبل عبد المطلب

عندما جاء مع ابنه عبد الله خاطبا إياها من قومها بني زهرة فخطب آمنة لابنه عبد الله وابنة عمها هالة لنفسه وكانتا متقاربتين في السن فأنجبت آمنة نبينا محمدا ﷺ وهالة أنجبت الحمزة بن عبد المطلب في وقتٍ متقارب أيضا كذلك يكون النبي وعمه الحمزة متقاربين في العمر.

آمنة عند المدرسة الإمامية

أمر آمنة أم النبي أكبر من هذا عند الإمامية فإنهم يعتقدون أنه تم تخيرها واصطفاؤها في علم الله لكي تكون حاضنة وأماً لرسول الله. ولو قمنا بملاحظة ما

(١) كالزمخشري في الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ١/ ٢٧٩، وصدر الدين البَصْري في الحماسة البصرية١ / ٤٢.

قاله القرآن الكريم في حق النبي موسى عليه السلام ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[١] أي أني أنا ربك جعلتك محبوبا في عين من يراك، وكانت نشأتك تحت نظري ورعايتي.

فإذا كان هذا هو حال موسى من رعاية الله، فكيف سيكون الحال بالنسبة لرسول الله الذي خاطبه بالقول ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.[٢]

بها تقضى الحاجات:

وبآمنة والدة النبي المصطفى تقضى الحاجات، وبحقها يتوسل المتوسلون فيستجيب الله لهم كما تشير إلى ذلك رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام فقد روي عن داود الرقي قال دخلت على أبي عبد الله عليه السلام ولي على رجلٍ مال قد خفت تواه (ضياعه) فشكوت اليه ذلك فقال لي إذا صرت بمكة فطف عن عبد المطلب طوافاً وصلِّ ركعتين عنه وطف عن أبي طالب طوافاً وصلِّ ركعتين وطف عن عبد الله طوافاً وصلِّ عنه ركعتين وطف عن آمنة طوافاً وصل عنها ركعتين وطف عن فاطمة

---

(١) طه / ٣٩.

(٢) الشعراء / من ٢١٧ إلى ٢٢٠؛ في تفاسير الإمامية، وسائر المسلمين القائلين بنجاة والدي رسول الله صلى الله عليه وآله، جاء أن معنى (وتقلبك في الساجدين) يعني انتقالك من أصلاب الأطهار إلى أرحام المطهرات، وأنه لم يكن بينه وبين آدم من آبائه وأمهاته من هو على سفاح، بل كانوا طاهرين، وبالنظر إلى أن الشرك أعظم النجاسات والقذارات المعنوية و(إنما المشركون نجس) فلا يعقل أن يكون آباؤه مشركين! بينما ذهب غير هؤلاء إلى أن المقصود من (وتقلبك في الساجدين) نظرك ومراقبتك لمن يصلي معك جماعة!! وبغض النظر عن الروايات التي يعتمد عليها الفريق الأول فإن عظمة المنة هنا التي تنطق بها الآيات لا تتناسب مع كون الله يراه حين يراقب ويلاحظ من يصلي جماعة معه، فإن هذا الأمر يقوم به أدنى شخص يلاحظ وينظر، دون المعنى الآخر وهو رؤية الله إياه منذ كان في أصلاب وأرحام آبائه وأمهاته في الأزمنة السحيقة وأنه يراه ويرعاه وينظر إليه، ويستحق بذلك أن يتوكل عليه.

بنت أسد طوافاً وصل عنها ركعتين ثم ادع الله ان يرد عليك مالك قال ففعلت ذلك ثم خرجت من باب الصفا وإذا غريمي واقف يقول يا داود حبستني تعال فاقبض مالك.[١]

فإنه على أثر التوسل بهؤلاء الأعاظم قضى الله له حاجته.

وهذا يفيدنا بعدة أمور:

١. أن هؤلاء كلهم مؤمنون. فحتى لو لم يردنا إلا هذا الحديث جدلاً في إثبات إيمانهم لكفانا لأنه لا يجوز التعبد عن الكافر فعبادة الكافر باطلة وغير صحيحة سواء كانت بنفسه او بواسطة غيره. فضلا عن أن يترتب عليها أثر وهو استجابة دعاء النائب عنهم.

٢. إن هؤلاء ممن يتوسل بهم إلى الله عز وجل في قضاء الحاجات الدنيوية العاجلة.

٣. أنه يستحب للمؤمن ان يطوف ويعتمر عن هؤلاء العظام أو يشركهم في الثواب، وأن ذلك هو من مصاديق المودة لرسول الله ﷺ، فحينما يختم شخصٌ القرآن الكريم ويقول (اللهم أشرك في ثواب ختمتي والدي رسول الله) فإنه يدخل سرورا على قلب النبي وأي سرور أعظم من ذلك؟ وهكذا النيابة في الأعمال العبادية عنهم.

---

(١) الكليني؛ محمد بن يعقوب: الفروع من الكافي ٤ / ٥٤٤، والصدوق؛ من لا يحضره الفقيه٢ / ٥٢٠. وبينما وصف العلامة المجلسي الحديث بالمجهول في مرآة العقول شرح الكافي، وصفه والده المجلسي الأول في روضة المتقين شرح من لا يحضره الفقيه بالقوي كحديث الكليني! وذكر السيد محمد علي الأبطحي في تهذيب المقال ٥ / ٤٤٩ أن «للصدوق في كتبه طرق إلى داود بن كثير الرقي فيها الصحيح». والبعض من العلماء يرى أن من مقويات الحديث هو روايته عن المشايخ المتقدمين في كتبهم كما هو حال الحديث هذا حيث رواه الكليني والصدوق.

وهذا يشبه حديثا آخر عن الإمام الباقر عليه السلام (أن أمير المؤمنين أوصى أبناءه في وصيته الخاصة أن يُحج عن أبيه أبي طالب وعن عبد الله وعن آمنة).

كذلك أشار النبي صلى الله عليه وآله إلى أمه ونقل عنها رؤياها التي رأتها عندما حملت به، فقال: حين سئل ماذا كان بدء أمرك ؟ قال: دعوة أبي إبراهيم ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾[١] وبشرى عيسى ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[٢] ورؤية رأتها أمي عندما حملت بي أنها خرج منها نور فوصل إلى بصرى الشام.[٣]

آمنة في رؤية مدرسة الخلفاء

تنقسم آراء مدرسة الخلفاء حول السيدة آمنة عليها السلام إلى قسمين فيما يرتبط بالنظرة الكلية لوالدي النبي صلى الله عليه وآله:

القسم الأول يقول بنجاتها ونجاة زوجها عبد الله من النار:

ولعل الأكثر[٤]من علماء مدرسة الخلفاء كما نسب ذلك إليهم ابن حجر العسقلاني يقولون بنجاة آمنة وعبد الله بناء على أحد أمور:

١. على أنهما على دين إبراهيم فهما يعبدان الله ولم يسجدا للأصنام بمعنى

(١) البقرة/ ١٢٩.
(٢) الصف/ ٦.
(٣) الصدوق؛ الخصال ١/ ١٧٧، وابن كثير في السيرة النبوية ١/ ٢٨٧.
(٤) فقد نسب إلى كبارهم أمثال: الإمام «أبوحنيفة»، والإمام فخرالدين الرازي، والإمام أبوبكر بن العربي المالكي، والحافظ القرطبي وابن الجوزي، والألوسي، وعمدة الشافعية ومفتيهم العلامة ابن حجر الهيتمي، والملا علي قاري، أمير المؤمنين في الحديث الحافظ ابن حجر العسقلاني، والإمام ابن نجيم المصري في كتابه غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، وابن عابدين الحنفى، والشهاب الخفاجي، القسطلاني / من مقال على الانترنت نشر في موقع aman-dostor.org/11359

انهما من الموحدين الذين هم على دين إبراهيم.

٢. أنهما من أهل الفترة (وهي الوقت الذي لم يكن فيه أنبياء) وقد أشار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى أن بعثة النبي كانت على فترة من الرسل، وأهل الفترة عند المسلمين لا يحاسبون.

٣. القول بأن الله أحيا للنبي أبويه حتى آمنا به، قال السيوطي: وهذا المسلك مال إليه طائفة كثيرة من حفاظ المحدثين وغيرهم.

وأما مستوى التصنيف المذهبي[1] فإننا نجد الشافعية في أكثرهم يقولون بنجاة أبوي رسول الله صلى الله عليه وآله ويشابههم في هذا كثير من المالكية حتى قيل إنه سئل القاضى أبو بكر ابن العربي وهو أحد أئمة المالكية عن رجل قال: إن أبا النبي صلى الله عليه وسلم فى النار، فأجاب: من قال ذلك فهو ملعون، لقوله تعالى:﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة﴾، قال ابن العربي: ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبيه إنه فى النار.

وقسمٌ كبير من الأحناف يقولون بنجاة أبوي رسول الله وقد ألّفوا في ذلك كتباً كثيرة.

فمن من الشافعية جمال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١٢هجري. وكان يشبهونه بموقعه عندهم بالعلامة الحلي، عند الإمامية وقد نقل أنه ألّف ست رسائل[2] في نجاة والدي رسول الله، جمعت في كتاب واحد بعنوان: رسائل الإمام

---

(١) عدّ بعضهم أكثر من ٤٠ كتابا ألفت في هذا المعنى.

(٢) وعناوينها: ١) مسالك الحنفا فى أبوى المصطفى. ٢) التعظيم والمنة فى أن أبوى الرسول فى الجنة. ٣) الدرج المنيفة فى الآباء الشريفة. ٤) نشر العلمين المنيفين فى إحياء الأبوين الشريفين. ٥) المقامة السندسية فى النسبة المصطفوية. ٦) السبل الجلية فى الآباء العلية.

السيوطي في نجاة والدي النبي.

الشيخ المصطفى وكتاب أم النبي:

وقد ألّف الشيخ حسين المصطفى من علماء القطيف المعاصرين كتاباً بعنوان (أم النبي) فأوفى فيه حقها، وتعرض إلى ما روي في مصادر مدرسة الخلفاء من أحاديث اعتمدها بعض القائلين بعدم نجاة أم النبي، ومن ذلك ما قيل من أن النبي زار قبر أمه، وبكاها ولم يستغفر لها!! لأنه لم يؤذن له في ذلك.[١]

وقد ناقش الشيخ المصطفى هذه الرواية وسِواها بمناقشات جيدة، نشير إلى بعضها باختصار، فقد ذكر أن في بعضها إشكالًا سندياً: حيث ضعف بعض رواتها من قبل شمس الدين الذهبي وهو واحد من أعلام رجالييهم، ومن قبل يحيى ين معين.

وكذلك فإن فيها إشكالاً متنياً: إذ أن في بعضها فذهب يتخطى بين القبور، ومن المتفق عليه أن قبر آمنة في الأبواء منفرد ومنعزل ليس في مقبرة، فكيف يتخطى القبور ويظهر أن واضع الحديث لم يتقن وضع الحديث.

(١) جاء بألفاظ مختلفة ومتخالفة، منها ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٣٤١خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر في المقابر، وخرجنا معه، فأمرنا فجلسنا ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها= فناجاه طويلا ثم ارتفع نحيب رسول الله صلى الله عليه وسلم باكيا فبكينا لبكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل إلينا فتلقاه عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله ما الذي أبكاك؟ لقد أبكانا وأفزعنا. فجاء فجلس إلينا فقال: «افزعكم بكائي»؟ قلنا نعم! قال: «إن القبر الذي رأيتموني أناجي قبر آمنة بنت وهب، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي، واستأذنت ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي فيه، ونزل علي: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه أن إبراهيم لاواه حليم) فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة فذلك الذي أبكاني.

كذلك فإن في الحديث آية النهي عن الاستغفار للكفار: وأن النبي لم يؤذن في الاستغفار لها و الشفاعة لها وإنه نزلت عليه الآية (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ) فتارة يقولون إنها أنزلت في أبي طالب وقد مات قبل ثلاث سنوات من الهجرة ومرة قالوا حينما زار أمه نزلت في المدينة.(١)

فلسنا نعلم هل الآية مكية أم مدنية فإذا كانت مدنية لم تنزل في أبي طالب وإذا كانت مكية فلم تنزل في أم النبي آمنة.

لذلك رد هؤلاء هذه الروايات باعتبار اعتلالها السندي الروائي والمضموني المتني.

أما نحن الإمامية ففي منجاة عن هذا الأمر كله ونرى أن هذه الروايات ساقطة

---

(١) وكذلك ناقشها السيد حسن السقاف الشافعي في كتابه صحيح شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٩ حيث اعتبرها من الروايات الشاذة المردودة التي اعتمد عليها المجسمة والمشبهة، وأنه لا يمكن قبولها لعدة أسباب:

١. لأنه معارض للقرآن وهو قوله تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وهم من أهل الفترة وأهل الفترة ناجون كما تقدم.

٢. أن بكاءه ﷺ على والدته لا يدل على أنها من أهل النار بدليل أنه ﷺ بكى على ابنه إبراهيم عليه السلام وقال: (إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون) رواه البخاري (٣/ ١٧٣) ومسلم (٤/ ١٨٠٨).

٣. لما أذن الله تعالى له بزيارة قبرها دل على أنها ليست كافرة ولا من أهل النار، لأن الله تعالى نهاه ﷺ أن يقوم على قبور الكفار والمنافقين بقوله تعالى: (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون).

٤. وفي سند هذا الحديث من طريقيه عند مسلم: يزيد بن كيسان وهو ضعيف، قال يحيى القطان: (ليس هو ممن يعتمد عليه، هو صالح وسط) وقال ابن أبي حاتم عن أبيه:(يكتب حديثه، محله الصدق، صالح الحديث. قلت له: يحتج بحديثه؟ قال: لا، هو بابة فضيل بن غزوان وذويه، بعض ما يأتي به صحيح وبعض لا، وكان البخاري قد أدخله في كتاب الضعفاء فقال أبي يحول منه).

ونرى أن آمنة كانت في أعلى الدرجات حيث كانت متخيَّرة منتجبة وقد كانت بعين الله عز وجل.

زارها النبي عندما كان راجعاً من إحدى غزواته ومال عليها ومال المسلمون مع أن القبر ليس على طريقه إلا أنه ذهب وبكى وأبكى المسلمين معه وذكر خصائصها وخصالها والرواية التي ينقلها عنه المسلمون في: كيف كان بدء أمرك ؟ تفيد روايته عنها، فأدركته الرقة وبعبارة أخرى أول جلس من مجالس العزاء اقامه عليها رسول الله.

وإن كان لم يبقى معها إلا سنوات قليلة إلا أنه كان يحمل لها ذكريات والنبي ﷺ حينما رجع المدينة يزورها كان عمره خمسين سنة أي أنه مر عليه خمسة عقود إلا أنه لاتزال عبرته جارية وحزنه ساخناً على أمه آمنة منذ أن كان طفلا صغيرا.

سلام على أم النبي وجدة الزهراء والأئمة المعصومين.

أبو طالب مؤمن قريش

ولـــولا أبـــو طـــالـــب وابـــنـــه   لما مثل الدين شخصًا فقاما
فـــذاك بمكة آوى وحـــامـى   وهـــذا بيثرب جـــسّ الحماما
فـلـلـه ذَا فـاتـحـا للهدى   ولـلـه ذَا للمعالي ختاما
ومـــا ضـر مـجـدَ أبـــي طالب   جَـهُـولٌ لغا أو بصيرٌ تعامى
كما لا يضر إيـــاة الصباح   من ظن ضوء النهار الظلاما(١)

جاء في الخبر المعتبر في الكافي للكليني عن أبي عبد الله ﵇ قال إن مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف أسروا الإيمان وأظهروا الشرك فآتاهم الله اجرهم مرتين.(٢)

المعروف عند العرب أن ما بدئ بأب أو بأم، فهو كنية، وليس اسماً. ولكن قد تغلب الكنية الإسم وتكون هي المعرف لصاحبها بحيث لا يعرف إلا من جهة كنيته دون اسمه. وهذا ما حصل بالنسبة لأبي طالب عم النبي ﷺ.

---

(١) ابن ابي الحديد؛ شرح نهج البلاغة ١٤/ ٨٤.

(٢) الكليني؛ محمد بن يعقوب: الكافي ١/ ٣٧٣ – علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن الصادق

ماهو اسمه الأصلي ؟

هناك قولان فيه:

الاول: عمران بن عبد المطلب هو اسم أبو طالب وقد ورد هذا في بعض الروايات.

الثاني: اسمه عبد مناف وهذا لعله المشهور في الألسنة والكتب بل وما ورد في وصية أبيه عبد المطلب (١) إليه.

وهو بالتبع يثير سؤالا: أنه كيف يكون عبد المطلب موحدًا بل فِي تلك الدرجة العالية من التوحيد والإيمان وفِي نفس الوقت يسمي ابنه بعبد مناف ؟

بينما مناف هو اسم صنم من أصنام قريش وربما زاد البعض ولا سيما أصحاب التوجه السلفي المُصر على عدم إيمان آباء النبي وأجداده في الطنبور نغمة ليقولوا هذا دليل على أن عبد المطلب لم يكن موحداً!

وقد ذكرت أجوبة كثيرة على ذلك. منها:

اولاً: أنه ليس من الثابت أن مناف اسم منحصر لصنم بل مناف في لغة العرب: من ناف وينيف ونواف بمعنى الزيادة والنماء، بل قيل إن الاسم يعني عبد الله لأن المناف هو المشرف والمطلع وهو الله سبحانه.

أو يكون من الأسماء الشائعة ويصير مثل عبد المطلب وَعَبد الحسين وأمثال ذلك ولا نحكم بالتأكيد أنه اسم صنم وعلى فرض بعض القبائل سمت صنمها بهذا الاسم فهذا لا يعني امتلاكهم هذا الاسم بحيث لا يستطيع أحد أن يستعمله غيرهم.

---

(١) أوصيك يا عبد مناف بعدي بواحد بعد أبيه فرد.

ثانياً: إن الاسم (عبد مناف) كان معروفا عند العرب قبل ان تكون الأصنام موجودة، فإنه كان في زمان قصي جد النبي الأعلى، مع أنه لم يكن في ذلك الوقت صنم باسم مناف، وإنما جاءت بعد عمرو بن لحي الخزاعي. وكان جد عبد المطلب الأعلى (والد جده هاشم) يسمى عبد مناف! فلتكن هذه التسمية بهذا اللحاظ لا بلحاظ كونه اسم صنم.

ثالثاً: إن الأسماء عند العرب في تلك الازمنة، غالبًا هي أسماء مرتجلة ليس ملحوظا فيها المعنى والمضمون الذي تعبر عنه بمقدار ما هي تمييز للشخص، ولذلك وجد كثير من الأسماء ليس لها معنى وبعضها ليست أسماء حسنة(١) بل بعضها معيب. ولا ريب أن المعنى المعيب لم يكن مقصودا من قبل آباء هؤلاء!

رابعاً: إننا نقطع بأن عبد المطلب لم يكن ليسمي ولده باسم العبودية لأحد الأصنام وهو الذي اشتهر عنه أنه امتنع من عبادتها ونهى أهل بيته عن ذلك، ومن كان يتأثر به، وقد ذكر هذه الخصلة فيه من ترجم حياته.

أضف الى ذلك أن كلمة عبد هي من المشتركات اللفظية وليست معنى منحصرا بالعبودية التي نفهمها بين الإنسان وربه وإلا لما كان يقول في القرآن ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾(٢) فعبادكم هنا: ليس المقصود بها الخضوع العبادي الثابت بين الإنسان وربه وإنما بمعنى الخدمة والطاعة وما شابه ذلك.

---

(١) الأبشيهي؛ محمد بن أحمد: المستطرف في كل فن مستظرف ١/ ٦٩: دخل شريك بن الأعور على معاوية فقال له معاوية: إنك لدميم والجميل خير من الدميم وإنك لشريك وما لله من شريك، وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال له: إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت لها الكلاب، وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب، وإنك لابن أمية وما أمية إلا أمة صغّرت.

(٢) النور / ٣٢.

زواج أبي طالب بفاطمة بنت أسد

تزوج أبو طالب فاطمة بنت أسد الهاشمية وكانت من السابقات الى الإيمان برسول الله حيث أنها كانت الرقم الحادي عشر كما قيل في ترتيب المسلمين الأوائل ونتج عن هذا الزواج اربعة من الذكور طالب وعقيل وجعفر وعلي ﴿عليه السلام﴾ واثنتان من الإناث أم هانئ وجمانة.

سيأتي الحديث عن فاطمة بنت أسد بشكل خاص في صفحات قادمة، وفي حياتها محطات مهمة تستحق الحديث فيها.

١. سبقها الى الإيمان برسول الله ﷺ.

٢. رعايتها لرسول الله ﷺ من قبل البعثة بل من عمر ثمان سنوات عندما توفي عبد المطلب جد النبي كان عمره ثمان سنوات، وقد استدعى أبا طالب وأوصاه بحفيده النبي محمد. فكان في بيتها منذ ذلك الوقت.

٣. أنها ستكون حجة في أمر عقائدي وهو تثبيت إيمان أبي طالب كما استدل بذلك الإمام علي بن الحسين ﴿عليه السلام﴾[(١)].

فإما أن تقول كلاهما كافران وهذا بالإجماع ساقط، لأنها من السابقات للإسلام، أو تقول أبو طالب بقي على كفره وفاطمة كانت مؤمنة والنبي لم يعارض ذلك عليهم وقدُ طبَّق الأحكام على الآخرين دون عمه وزوجته وهذا خدش في عدالة النبي وفِي إيمانه برسالته!!

(١) ابن أبي الحديد؛عبد الحميد: شرح نهج البلاغة ١٤/ ٦٨: حين سئل الإمام علي بن الحسين ﴿عليه السلام﴾ عن إيمان أبي طالب قال: «وا عجبا إن الله نهى رسوله أن يقر مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات».

ولم يبقَ إلّا ان يكون أبو طالب مؤمنًا كتم إيمانه فأقره النبي على نكاحه وأوتي في ذلك اجره مرتين –أجر الإيمان وأجر الكتمان– لان الكتمان من الأمور الصعبة. فإننا نرى المؤمنين الذين يعيشون في أجواء معادية لهم يعانون معاناة عظيمة فهو مضطر للتقية إذ لا يستطيع أن يعبد ربه بالطريقة التي يراها صحيحة وكاملة، وهو مترقب وحذر أن لا يكشف أمره (دينه أو مذهبه) بينما لا يعانيها الإنسان الذي يظهر إيمانه (عقائده وشرائعه) ويعيش في جو اعتيادي ولا يخاف من أحد!.

الفقير الذي ساد قريشا

ما ساد قريشاً فقيرٌ ولقد سادهم أبو طالب.[(١)]

فإنه حتى عبد المطلب والده لم يكن فقيراً بل كان أشبه بتاجر متوسط، ولكن المعروف أن أبا طالب كان قليل المال، وشاهد ذلك قضية الرفادة والسقاية وكيف انتقلت منه إلى العباس أخيه، فإنه «لَمَّا صَارَ أَمْرُ السِّقَايَةِ وَالرِّفَادَةِ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيٍّ اقْتَرَعُوا فَخَرَجَ سَهْمُ هَاشِمٍ فَوَلِيَ ذَلِكَ وَقَامَ بِهِ، فَلَمَّا مَاتَ هَاشِمٌ بِغَزَّةَ قَامَ بِأَمْرِ السِّقَايَةِ وَالرِّفَادَةِ بَعْدَهُ بِوَصِيَّةٍ مِنْهُ الْمُطَّلِبُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ أَخُوهُ، ثُمَّ لَمَّا مَاتَ المطلب قام بذلك عبد المطلب بن هَاشِمٍ ثُمَّ ابْنُهُ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ثُمَّ أبو طالب بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، ثُمَّ إِنَّ أَبا طالب أَمْعَرَ وَاخْتَلَّتْ حَالُهُ فَعَجَزَ عَنِ الْقِيَامِ بِأَمْرِ السِّقَايَةِ وَالرِّفَادَةِ فَاسْتَسْلَفَ مِنْ أَخِيهِ الْعَبَّاسِ بْن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لِلنَّفَقَةِ عَلَى ذَلِكَ عَشْرَةَ آلافِ دِرْهَمٍ، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ سَأَلَهُ سَلَفَ خَمْسَةَ عَشرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، أَوْ قَالَ أَرْبَعَةَ عَشرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ: إِنَّكَ لَنْ تَقْضِيَنِي مَا لِي عَلَيْكَ فَأَنَا أُعْطِيكَ

---

(١) ابن ابي الحديد؛ شرح نهج البلاغة ١/ ٢٩: «وما أقول في رجل أبوه أبو طالب سيد البطحاء وشيخ قريش ورئيس مكة قالوا قل أن يسود فقير وساد أبو طالب وهو فقير لا مال له وكانت قريش تسميه الشيخ.»

مَا سَأَلْتَ عَلَى أَنَّكَ إِنْ لَمْ تُؤَدِّ إِلَيَّ مَالِي كُلَّهُ فِي قَابِلٍ فَأَمْرُ هَذِهِ الْمَكْرُمَةِ مِنَ السِّقَايَةِ وَالرِّفَادَةِ إِلَيَّ دُونَكَ وَالْمَالُ لَكَ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ الْمَوْسِمُ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ ازْدَادَ أبو طالب عَجْزًا وَضَعْفًا لِقِلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ تُمْكِنْهُ النَّفَقَةُ وَلَمْ يَقْضِ الْعَبَّاسُ مَالَهُ، فَصَارَتِ السِّقَايَةُ وَالرِّفَادَةُ إِلَيْهِ. وَكَانَ لِلْعَبَّاسِ كَرْمٌ (بستان عنب) بِالطَّائِفِ يُؤْتَى بِزَبِيبِهِ فَيُنْبَذُ فِي السِّقَايَةِ».[(١)]

هذا يبين لنا أن أبا طالب لم يكن صاحب مال ولكنه صاحب شخصية وزعامة في قريش وبهذه الشخصية والحضور الاجتماعي القوي استطاع أن يحمي ابن أخيه رسول الله ﷺ، ومن أجل الاحتفاظ بهذا الحضور القوي، لا بد أن يخفي إيمانه، وإلا فإنه سيكون على خط المواجهة الصريحة معهم، وسيفقد قوة تأثيره فيهم!

إننا نلاحظ أن كفار قريش كانوا يتعاملون معه في بداية الأمر على أساس أنه محل شكواهم، وأنهم ينتظرون منه أن يمنع ابن أخيه من (الاعتداء على آلهتهم ونظامهم الاجتماعي) ويطلبون منه الحل. ولذلك عندما بعث النبي جاؤوا الى أبي طالب وقالوا: إن ابن اخيك سفه أحلامنا وعاب آلهتنا[(٢)] فمُرهُ ليكف عن آلهتنا!

بل جاؤوا ليعقدوا معه اتفاقية تبادل!! تنص على إعطائه إياهم النبي ليقتلوه

---

(١) البلاذري؛ أحمد: أنساب الأشراف ٤/ ١٥.

(٢) في الكافي ٢/ ٦٤٩ عن أبي جعفر عليه السلام قال: أقبل أبو جهل بن هشام ومعه قوم من قريش فدخلوا على أبي طالب فقالوا: إنّ ابن أخيك قد آذانا وآذى آلهتنا فادعه ومره فليكفّ عن آلهتنا ونكفّ عن إلهه، قال: فبعث أبو طالب إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله فدعاه، فلما دخل النبيّ صلى اللّه عليه وآله لم ير في البيت إلّا مشركا فقال: السَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ثمّ، جلس فخبّره أبو طالب بما جاءوا له فقال: أوَ هل لهم في كلمة خير لهم من هذا يسودون بها العرب ويطئون أعناقهم؟ فقال أبو جهل: نعم وما هذه الكلمة؟ فقال: تقولون: لا إله إلا اللّه، قال: فوضعوا أصابعهم في آذانهم وخرجوا هرابا وهم يقولون: ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إن هذا إلّا اختلاق فأنزل اللّه تعالى في قولهم: ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ- إلى قوله- إِلَّا اخْتِلَاقٌ.

مقابل إعطائهم إياه عمارة بن الوليد يكون مكانه!

فقال أبو طالب: عجبٌ! آخذ ابنكم حتى أغذوه لكم وأعطيكم ابني حتى تقتلوه![١]

وفشلت محاولات كفار قريش كلها في الحد من دعوة النبي والوقوف في وجهه ما دام أبو طالب حياً، «ولما مات أبو طالب نالت قريش منه من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً، فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه؛ فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وتبكي ورسول الله ﷺ يقول لها: «يا بنية لا تبكي فإن الله مانع أباك، ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب».[٢]

تعهد بالدفاع والحماية من البداية

لقد كان واقعياً توسمُ وفراسة عبد المطلب بشأن ابنه أبي طالب عندما أوصاه بالاهتمام والرعاية لابن أخيه النبي محمد وقد لا يكون ذلك فقط لأجل كون عبد الله وأبي طالب شقيقين ومن أم واحدة، فهذا لا يكفي إذا لم تكن الشخصية مسؤولة وشجاعة جادة! وكان يمثل هذه الشخصية أبا طالب بين أبناء عبد المطلب الباقين بأفضل أنحائها، ولذا يعتقد أن عبد المطلب أوصاه بالنبي محمد، وبالفعل فإنه

(١) ابن سعد؛ محمد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٠٢؛ « فمشوا إلى أبي طالب حتى دخلوا عليه فقالوا أنت سيدنا وأفضلنا في أنفسنا وقد رأيت هذا الذي فعل هؤلاء السفهاء مع بن أخيك من تركهم آلهتنا وطعنهم علينا وتسفيههم أحلامنا وجاؤوا بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا قد جئناك بفتى قريش جمالا ونسبا ونهادة وشعرا ندفعه إليك فيكون لك نصره وميراثه وتدفع إلينا بن أخيك فنقتله فإن ذلك أجمع للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبة قال أبو طالب والله ما أنصفتموني تعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابن أخي تقتلونه ما هذا بالنصف تسومونني سوم العزيز الذليل!!

(٢) الأميني؛ عبد الحسين؛ إيمان أبي طالب وسيرته ١/ ٦٤.

بالإضافة إلى موقفه في كفالة النبي طوال فترة طفولته وصباه وشبابه، واصل حمايته ورعايته بعدما بعث بالرسالة، بينما لم يفعل ذلك مثلا عمه العباس! مع إمكاناته المالية الضخمة، وهذا راجع إلى ما ذكرنا من الصفات الشخصية لأبي طالب، بل لأبنائه من بعده، فقد نقل أرباب السير أن النبي لما أراد أن يبدأ دعوته جاء إلى العباس عمه طالباً منه نصرته ومعونته في هذه الدعوة.

فقال له: «إن الله قد أمرني بإظهار أمري وقد أنبأني واستنبأني فما عندك؟ فقال له العباس: يا بن أخي تعلم أن قريشاً أشد الناس حسدا لولد أبيك، وإن كانت هذه الخصلة، كانت الطامة الطماء والداهية العظيمة، ورمينا عن قوس واحد وانتسفونا نسفاً صلتاً، ولكن قرّب إلى عمك أبي طالب فإنه أكبر أعمامك، إن لا ينصرك لا يخذلك ولا يسلمك.

فأتياه فلما رآهما أبوطالب قال: إنّ لكما لظنة وخبراً، ما جاء بكما في هذا الوقت؟ فعرفه العباس ما قال له النبي وما أجابه به العباس، فنظر إليه أبوطالب وقال له: اخرجْ ابنَ أخي فإنك الرفيع كعباً، والمنيع حزباً، والاعلى أباً، والله لا يسلقك لسان إلا سلقته ألسن حداد، واجتذبته سيوف حداد، والله لتذلن لك العرب ذل البُهم لحاضنها، ولقد كان أبي يقرأ الكتاب جميعا، ولقد قال: إن من صلبي لنبياً لوددت أني أدركت ذلك الزمان فآمنت به، فمن أدركه من ولدى فليؤمن به».[1]

ولسان حاله:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وأبشر بذاك، وقر منك عيونا
ودعوتني، وزعمت أنك ناصحي ولقد صدقت، وكنت قبل أمينا

(١) المجلسي؛ محمد باقر: بحار الأنوار ٣٥/ ١٤٢.

وعـرضـت دينا لا محالة إنه   مـن خير أديـــان الـبـريـة دينا

كانت نتيجة حماية أبي طالب للنبي ﷺ، ودفاعه عنه بشكل دائم أمام قريش وتوجيهه الرسائل الواضحة للقرشيين بأنهم لو مسّوا النبي بالأذى فسيكون ذلك نهاية من يمسه بالأذى، ولقد صدق في مقالته: لا يسلقك لسان إلا سلقته ألسن حداد، واجتذبته سيوف حداد بالعمل.

ففي ذات مرة قال جمع من قريش: أيمرّ بنا ابن أبي كبشة ولا يسلّم علينا، فأيّكم يأتيه فيفسد عليه صلاته؟ فقال عبد الله بن الزبعرى السهمي: أنا أفعل. فأخذ الفرث والدم فانتهى به إلى النبيّ ﷺ وهو ساجد فملأ به ثيابه ورأسه ولحيته، فانصرف النبيّ ﷺ حتّى أتى عمّه أبا طالب، فقال له: يا عمّ من أنا؟ فقال: ولِمَ يا بن أخي؟ فقصّ عليه القصّة. فقال: وأين تركتهم؟ فقال: بالأبطح. فنادى في قومه يا آل عبد المطّلب، يا آل هاشم، يا آل عبد مناف. فأقبلوا إليه من كلّ مكان ملبّين، فقال: كم أنتم؟ فقالوا: نحن أربعون. فقال: خذوا سلاحكم، فأخذوا سلاحهم فانطلق بهم حتى إليهم، فلمّا رأت قريش أبا طالب أرادت أن تفترق فقال: وربّ البنيّة ما يقوم منكم أحد إلاّ جلّلته بالسيف، ثم أَمَرَّ ذلك السلا على سبالهم[١] ولحاهم.

وكانت تلك رسالة تامة لكل القرشيين، ألا يقتربوا من حرمة النبي محمد.

هذا إضافة إلى مئات أبيات الشعر، وعشرات القصائد التي كانت تعلن بشكل لا مرية فيه بأنه واقف كالجبل إلى جنب ابن أخيه، فها هو يقول:

كذبتم وبيت الله يبزى محمدًا   ولـمـا نطاعن دونــه نناضلِ
ونسلمه حتى نـصـرع دونـه   ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ

(١) سلا الناقة هو الغشاء الذي فيه الجنين. والسبال: الشوارب.

الحصار في شعب[1] أبي طالب:

ردت قريش على تلك المناصرة من أبي طالب (ومن خلفه بنو هاشم) لرسول الله ﷺ، بالمحاصرة الاقتصادية والاجتماعية، وإلجائهم إلى أن يبقوا في شعب أبي طالب، ويقرروا على المجتمع المكي مقاطعتهم.

لقد مرت أيام الحصار وشهوره وسنواته الثلاث عسيرة جدا على المسلمين (بل على عموم بني هاشم ممن لجأ إلى الشعب، فإنه فرض عليهم الحصار وإن لم يكونوا مسلمين) والغرض هو ان يتم الضغط على النبي ليتوقف عن دعوته أو يتوقف أبو طالب عن حمايته فيتم لهم ما يريدون من قتل النبي ﷺ. وكان اتفاق القرشيين على أن لا يبيعوا شيئا لبني هاشم، ولا يشتروا منهم ولا يتزوجوا منهم و لا يزوجوهم ولا يسمحوا لأحد حتى من خارج مكة أن يبيعوهم، فإما كانوا يشترون من الباعة بضائعهم بأغلى الإثمان أو يهددوهم بأن يقاطعوا وأن لا يسمح لهم بالبيع في مكة!

وقد استنفذ هذا الوضع ما كان لدى بني هاشم من المال، ولا سيما أموال خديجة زوجة النبي ﷺ حيث أعطت ما كانت تملكه بسخاء في هذا السبيل، ولا شك أنه كان هناك من يخاطر فيبيع بضاعته ولكن بأثمان مضاعفة! وكان هناك من يرق لحالهم فيهرب الأطعمة إلى الشعب.

انتهى هذا بعد أن تحرك بعض حلفاء بني هاشم في قريش ضد الحصار، وقد ذكر في هذا ابو البختري بن هشام وغيره، ولكن العنصر الأساس الذي أنهى الحصار هو ما كان بين النبي وأبي طالب، حيث أخبر النبي عمه أن الله سبحانه قد سلط حشرة

(١) الشِّعب بكسر الشين، تعني الفجوة بين الجبلين، وشعب أبي طالب هو بمثابة الوادي بين جبل أبي قبيس وجبل حنتمة، خلف الصفا.

الأرضة على وثيقة المقاطعة والحصار، ولم تُبقِ فيها إلا اسم الله عز وجل!

فقال له أبو طالب: أَربُّك أخبرك بهذا؟

قال: بلى!

قال: والثواقب[١] ما كذبتني قط -هلم بِنَا-

وجاء مع النبي وبعض ابنائه الى مجتمع قريش والتفت اليهم قال لهم: يا معشر قريش جئت لكم فيه نصفة لكم وعندي كلام حول الصحيفة.

وأراد أن يحضروها حتى لا يُكتشَف الموضوع وكانت موضوعة في قراب مغلق ومختوم، فأحضروها

فقال: إن ابن أخي أخبرني أن ربه قد بعث الأرضة على صحيفتكم فأكلتها ولم يبق منه الا اسمه الكريم فإن كان ما يقوله كذباً دفعته إليكم فقتلتموه وأن كان ما يقوله حقًّا علمتم أنكم ظالمون معتدون!

قالوا: يا أبا طالب لعمرك هذا هو الإنصاف!

ففتحوا الوثيقة ثم أرادوا استخراج ما فيها وإذ لا يوجد فيها إلا الغبار والتراب وقصاصة صغيرة «باسمك اللهم»

وهنا انكسر الحصار في السنة العاشرة من البعثة، ومع هذا الحصار الطويل وقد بلغ عمر أبي طالب الخامسة والثمانين، وفي تلك الظروف الصعبة غادر أبو طالب هذه الدنيا بعد أن وفى ما عاهد عليه بدفاعه عن رسول الله ﷺ.

فليس غريبا أن يستذكره رسول الله ويستحضر ذكره مرارا، لا سيما في مواضع

(١) النجوم المضيئة.

النصرة والمفاداة، لقد سأل النبي ﷺ، من حضر عندما رأى بني هاشم في أول مواجهة عسكرية بين المسلمين وبين المشركين وهي موقعة بدر، فلما رأى تضحية حمزة بن عبد المطلب وبطولة علي بن أبي طالب وجراحات عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، قال من يحفظ شعر أبي طالب؟ فأراد أحدهم أن يقرأ قول أبي طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للارامل

فقال نعم هذا شعره ولكن أريد غيره، فقال أحدهم كأنك تريد قوله:

كذبتم وبيت الله يبزى محمد ولما نطاعن دونــه ونناضلِ
ونسلمه حتى نـصـرع دونـه ونذهل عن أبنائنا والحلائل

سلام على سيد البطحاء ناصر الرسالة مؤمن قريش.

حليمة السعدية مرضعة النبي

بمناسبة الحديث عن مرضعة النبي ﷺ حليمة بنت ابي ذؤيب السعدية الهوازنية نشير إلى قضيتين على سبيل المقدمة للحديث:

الأولى:

قال العلماء إنه من المستحب شرعا ومن المستحسن طبيا أن ترضع الأم ولدها من صدرها المدة الكاملة مع استطاعتها و وفاء صحتها بذلك. وتلك المدة هي سنتان كما صرح القرآن الكريم ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾.[١] وهذا بالإضافة إلى آثاره الطبية النافعة للأم وللطفل ثانياً هناك آثار نفسية وتربوية تنتج عن رضاعة الأم لولدها حيث يستشعر الحنان والرعاية بل والامتزاج مع أمه فيما تستشعر الأم المرضع الأمومة. وقد لا تكون حاجة الأم إلى إرضاع ابنها أقل من حاجة الابن إلى الارتضاع منها، فكلاهما من الناحية النفسية يحتاجان إلى هذا الأمر. ولذلك ليس من الصحيح ضمن الأحوال الاعتيادية أن تُحرَم الأم من رضاعة ولدها أو أن يحرم الولد من الارتضاع منها،

---

(١) البقرة / ٢٣٣.

وكأنما اعتبر الشارع المقدس هذا من حقوق الطفل التي لا ينبغي أن يفرط فيها من دون مبرر. فقال في نفس الآية ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ والإرضاع وإن لم يكن واجبا على الأم من الناحية الشرعية فتستطيع تركه، أو أخذ الأجرة عليه لو أرادت إلا أنه يبقى من احتياجات الطفل. نعم ذهب بعض العلماء إلى وجوب إرضاع الأم لولدها الرضعات الأولى وإطعامه اللِّبأ (هو أول ألبان الأم ويحتوي على كثير من المواد النافعة المقوية للمناعة كما يذكر الأطباء).

والقضية الأخرى:

إن من أسباب حرمة النكاح بين اثنين (رجل وامرأة): الاشتراك في الرضاعة بشروط[١] ذكرت في الكتب الفقهية، فلو أرضعت امرأة طفلها وارضعت معه مثلا طفلة الجيران، بالشروط المذكورة، فإنهما يصبحان أخوين رضاعيين، وتصبح الأم المرضعة بمثابة الأم الحقيقية في حرمة النكاح بها، وكذا (زوجها) يكون بمثابة الأب الحقيقي في هذه الجهة.

حليمة وإرضاع النبي

بناء على ما ينقله المحدثون والمؤرخون فإنه كان أهل مكة من ذوي الشرف والمنزلة الاجتماعية يرسلون مواليدهم خارج مكة إلى البادية، ليرتضعوا فيها، باعتبارات متعددة؛ منها أن جو البادية بالنسبة إلى مكة صحي ونظيف بينما مكة كانت ذات كثافة سكانية وهي بطبيعتها الجغرافية غير منبسطة بل محصورة بين

(١) من أهم الشروط التي ذكرها الفقهاء أن يكون الارتضاع من امرأة من الثدي مباشرة، وأن تكون فترة الرضاع أثناء الحولين فلا يترتب أثر للتحريم بعدهما ولا رضاع بعد فطام (ولذا لا يصح ما يسمى رضاع الكبير)، وأن يكون الرضاع بمقدار يوجب نبات اللحم وشد العظم، ويكفي فيه خمس عشرة رضعة متتابعة من دون فصل بطعام آخر.

الجبال ومسطحاتها الخضراء نادرة، وقد عرفها القرآن بأنها واد غير ذي زرع، ولم يتغير هذا الحال منذ زمان إبراهيم النبي لأن طبيعتها وتكوينها الجغرافي لم يكن يساعد على الزراعة! كذلك فإن ما يسمى في هذا الزمان (البنية التحتية) للتخلص من الفضلات لم تكن في مكة، فإنهم كانوا يذبحون الذبائح[١]حتى قرب البيت الحرام في منطقة (الحزوّرة)، ثم يرمى بفضلاتها في نفس المنطقة وأطرافها. بل حتى مشاكل التخلص من الفضلات الإنسانية، فكانوا يخرجون إلى أطراف مكة يستترون بها في قضاء حاجتهم تلك، ويضاف إليه أن الماء كان شحيحا فبالرغم من وجود بئر زمزم إلا أنه لم يكن كافيا لحاجات أهل مكة كاملة، فكانوا يستعينون بالآبار المحفورة وكانت عسيرة نظرا للطبيعة الجبلية لأرض مكة! هذا إضافة إلى استقبال مكة للحجاج من مختلف القبائل والأطراف ما كان يساعد على انتقال الأمراض والأوبئة إليها من خارجها.

مجموع هذه الأمور جعل مكة بيئة غير صحية، بالقياس إلى الصحراء والبادية المنبسطة. التي تساعد على نمو المواليد في صحة بدنية جيدة.

يضاف إلى ذلك جهة أخرى وهي أن مكة لما كانت تحتضن خليطا من العرب الأصليين وغير العرب الذين كانوا يعملون في الحِرف، أو كان بعضهم عبيدا لأهل مكة، فاللغة فيها يخشى عليها الهجنة، والاختلاط باللغات واللهجات الأخرى، بعكس البادية التي كانت اللغة العربية فيها محافظة على نقائها، وأصالتها. وكان الشعر الفخم فيها سليقة عند أهلها. فكان أهل مكة الذين يحرصون على هذه

---

(١) يشهد لذلك أنهم ذكروا أن عبد المطلب لو تمت قصة الذبيح عبد الله عندما فدى ابنه بمائة من الإبل، ذبحت بالحزورة قريبا من الكعبة، ويشهد له ما ورد في سيرة النبي من أنهم كانوا يؤذونه عندما يرمون عليه سلا الناقة وهو الغشاء الذي فيه الولد مما يظهر أنه كان مرميا في نفس تلك المنطقة، مع أنها منطقة عبادة واجتماع للناس!

الجهات يرسلون أبناءهم في وقت مبكر من أعمارهم لكي يكتسبوا اللغة(١) من معدنها الصحيح والأصيل.

وقد يحصل أحيانا أن يكون اللبن شحيحا في صدر الأم لمرض أو غير مرض فلا يكتفي الطفل بذلك ويحتاج إلى الاسترضاع.

بناء على الرواية المشهورة فقد تم ارتضاع النبي من حليمة السعدية، والتي يظهر من كثير من علماء الإمامية عدم ردها.(٢)

«روى ابن اسحاق بسنده الى عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب عن حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية انها كانت تقول: انّها خرجت من بلدها مع زوجها الحارث بن عبد العزّى من بني هوازن و معها رضيعها عبد اللّه بن الحارث، و معها نسوة من بني سعد كلّ واحدة منهن تلتمس رضيعا ترضعه ترجو المعروف من أبيه. وذلك في

(١) هذا الكلام بالنظر إلى المستوى العام دون النبي ﷺ، الذين كان كاملا، وكان معلمه هو الله تعالى ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ النساء/ ١١٣.

(٢) فمن الروايات ما يستفاد من رواية الكافي ٢/ ١٦١ بشكل غير مباشر: (. إن رسول الله صلى الله عليه وآله أتته أخت له من الرضاعة فلما نظر إليها سر بها وبسط ملحفته لها فأجلسها عليها ثم أقبل يحدثها ويضحك في وجهها.) وهي معتبرة بناء على ان الوارد فيها؛ عمار بن خباب (عمار الدهني). وأما في أقوال العلماء من المتقدمين، فقد ذكر الشيخ أبو الفتح الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ) في كنز الفوائد ١/ ٧٢ رضاعه بقوله: وشرف الله تعالى حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية برضاعه وأخصها بتربيته وكانت ذات عقل وفضل فروت من آيات فضله ما يبهر عقول السامعين وأغناها الله ببركته. الى آخر كلامه، كما ذكر ذلك قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ) في الخرائج والجرائح ١/ ٨١؛ وفصل فيه حديث مجيئها لمكة وأخذها النبي وعرض لشيء من بركاته وكراماته في فترة الرضاعة. ومثله صنع ابن شهراشوب في مناقب آل أبي طالب ١/ ٣٢ في نقل القصة. وشاذان بن جبرئيل القمي (ت ٦٦٠ هـ) والطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) في مجمع البيان ١٠/ ٣٨٣ في تفسير آية (ووجدك ضالا فهدى) وابو الفتح الأربلي (ت ٦٩٣ هـ) في كشف الغمة/ ١٥. كما ذكر ذلك عدد من المعاصرين كالشيخ ناصر مكارم الشيرازي في الأقسام القرآنية ١/ ٢٣٢، والشيخ جعفر السبحاني في السيرة المحمدية ١/ ٣٥، والسيد جعفر مرتضى العاملي في الصحيح من سيرة النبي الأعظم ٢/ من ٦٨ إلى ٩١ في مواضع متفرقة. وغيرهم.

سنة مجدبة لم تبق لهم شيئا، وما أرض أجدب من بلاد بني سعد. فما كان في ثدييها ما يغني صبيّها الرضيع حتّى كانوا ما ينامون ليلهم من بكائه من الجوع، ومعها ناقة لها مسنّة ما ترشح بشيء يغذيهم، وكانت هي على أتان (انثى الحمار) تتخلف عن الركب ضعفا وهزالا.

حتّى قدموا الى مكّة، فما بقيت امرأة ممّن مع حليمة الاّ أخذت رضيعا لها سوى حليمة وكلّما كان يعرض رسول اللّه ﷺ على امرأة منهن يقال لها انّه يتيم، كانت تأباه ليتمه. وبقيت حليمة لم تأخذ رضيعا، ولم يبق رضيع سوى رسول اللّه ﷺ، قالت حليمة: فقلت لزوجي: واللّه انّي لأكره أن أرجع وأنا بين صواحبي لم آخذ رضيعاً، و اللّه لأذهبنّ الى ذلك اليتيم فلآخذنّه، قال صاحبي: لا عليك أن تفعلي عسى اللّه أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته- وما حملني على أخذه الاّ أنّي لم أجد غيره- ورجعت به الى رحلي و وضعته في حجري و أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتّى روي، و شرب معه أخوه فروي. وقام زوجي إلى ناقتنا فإذا ضرعها ملئ باللبن فحلب ما شرب وشربت معه حتّى روينا، فقال لي صاحبي: يا حليمة لقد اخذت نسمة مباركة، فقلت واللّه اني لأرجو ذلك.

ثمّ قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، فلم نزل نتعرّف من اللّه الزيادة والخير، وكانت غنمي ترجع إلينا بعد العصر شباعا قد امتلأ ضرعها من اللبن، وترجع غنم القوم جياعا لا ترشح بقطرة لبن. وكان رسول اللّه ﷺ يشبّ ما لا يشبّه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه من الرضاعة حتّى غلظ و اشتدّ جسمه، حتّى إذا مضت سنتاه و فصلته، فقدمنا به على أمّه و نحن أحرص شيء على مكثه فينا لما نرجو من بركته، فكلمنا أمّه فلم نزل بها حتّى ردته معنا فرجعنا به».[١]

---

(١) اليوسفي محمد هادي؛ موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٦٣.

وهناك رواية تشير إلى أن عبد المطلب جد النبي هو الذي أرسل خلف حليمة السعدية(١) كما ذكرها العلامة المجلسي(٢) عن الواقدي(٣) لكن صياغة بعض تفاصيلها لا تقنع الباحث بقبولها وكأنها تجانب ما كان عليه الوضع في مكة وما حولها. لكن يبقى احتمال أن يكون طلب عبد المطلب حليمة السعدية ليس بعيداً! وهذا يخالف تماما الرواية الرسمية المشهورة من أن المرضعات قد زهدن في رضاع (محمد) لأنه يتيم فلم يكنّ يتأملن الحصول على مال على أثر ذلك، حتى أخذته حليمة بعد أن ترددت في ذلك ولم تجد غيره!

فلا ريب أن هذا المعنى مخالف للحقائق التاريخية الثابتة من أن عبد المطلب كان في وقته سيد قريش رئاسة دينية وزعامة دنيوية، وقد تحدثنا عن بعض أحواله فيما سبق من الصفحات. وكان الجميع يتشرف بالتقرب منه، وهو كافله هنا بعد وفاة أبيه عبد الله، فلا معنى لأن يقال إنه يتيم ولا مال له، وقد زهدت المرضعات فيه لأجل ذلك. لا ريب أن هذا مخالف للواقع.

ومثلما كانت تلك الفكرة مستنكرة وبعيدة عن الواقع، فإن هناك رواية في بعض مصادر الإمامية ترتبط بإرضاع النبي وهي كذلك ساقطة من حيث السند ومستنكرة من حيث المضمون والمعنى، مع أن بعض الطائفيين شنعوا على الشيعة بسببها

---

(١) المجلسي؛ محمد باقر: بحار الأنوار ١٥/ ٣٤٣ جاء فيها ما نصه عن غلام عبد المطلب مخاطبا زوجها (أعلم يا سيدي إن مولاي أبا الحارث عبد المطلب قد وجهني نحوك، وهو يدعوك، فإن رأيت يا سيدي أن تجيبه فافعل) فلما جاء زوجها أخبره بأن يأتي بزوجته لإرضاع حفيده!

(٢) المصدر السابق ٣٤٤.

(٣) الواقدي: محمد بن عمر بن واقد توفي سنة ٢٠٧ هـ، عالم بالسيرة والمغازي والفتوح، وغيره عيال عليه فيها، اختلفوا في توجهه المذهبي فبينما قال عنه ابن النديم أنه يتشيع، قال الشيخ المفيد إنه عثماني الهوى بالميل عن أمير المؤمنين، كما ذكر عنه التستري في قاموس الرجال. ومثل هذا الاختلاف كان في رجاليي الجمهور، وهم في الغالب لا يوثقونه في الحديث ولكن يقولون إنه لا يستغنى عن رواياته في السيرة.

جاهلين أومتجاهلين عن انها لا قيمة لها عند المحققين والعلماء، لسقوطها سنداً وعدم الاعتقاد بها مضمونا، وهي الرواية التي نقلها في الكافي عن ابي بصير عن الإمام الصادق ﷺ أنه قال :(لمّا ولد النبي مكث أياماً ليس له لبن، فألقاه أبو طالب على ثدي نفسه فأنزل اللّه فيه لبناً فرضع منه أياماً! حتّى وقع أبو طالب على حليمة السعدية فدفعه إليها)،[(١)] ويرد على هذه الرواية أن عدة من رجال السند لم يوثقوا بل وردً في ذمهم أحاديث.

وكذلك فإن واضع الرواية من الغلاة كما نسبه لهم الشيخ اليوسفي ومحقق الكافي لم يلتفت إلى أن أبا طالب لم تكن له علاقة خاصة بالنبي الا بعد ثمان سنوات من ولادته حيث كان طيلة هذه السنوات تحت كفالة جده عبد المطلب ولم يكن لأبي طالب دور إلا بعد وفاة أبيه عبد المطلب.

وثالثا: ما هو الوجه في هذه (المعجزة أو الكرامة)؟ فإنما تكون المعجزة للأنبياء لإثبات صدقهم مع دعواهم النبوة، أو تكون الكرامة للأوصياء وأمثالهم لبيان فضلهم واتصالهم بخالقهم. فما شأنها هنا؟

نعم كل ذلك قد حصل للمرضعة حليمة معرفة فضل من ترضعه ورأت آثاره في بدنها (جمالاً وريًّا وامتلاءً)، ولأهلها وعيالها، بل ولدابتها خفة وسرعة، ومنطقتها خصبا ونماء. كما تقدم في النص المذكور عنها.

كيف يرتضع النبي من غير مؤمنة ؟

---

(١) الكافي ١/ ٤٤٨: عن محمد بن يحيى، عن سعد بن عبد الله، عن إبراهيم بن محمد الثقفي، عن علي بن المعلى، عن أخيه محمد، عن درست بن أبي منصور، عن علي بن أبي حمزة(البطائني) ، عن أبي بصير. قال العلامة المجلسي في مرآة العقول عنه إنه ضعيف. واعتبرها الشيخ اليوسفي من وضع الغلاة.

ألا يؤثر ذلك على تكوين بنائه الداخلي وأخلاقه، ونفسيته ؟

والجواب يكون من عدة جهات:

الجهة الأولى

ما قاله بعضهم من أن العلاقة بين النبي وحليمة لم تكن علاقة رضاعة وإنما علاقة حضانة، فلم يكن هناك إرضاع وانما حضانة. وكان ذلك بعد سنتي الرضاع. وهذا الجواب ليس تاماً. إذ هو مبني على إنكار ارتضاعه صلوات الله عليه منها. والفرض أننا أخذناه في السؤال كأصل موضوعي.

وتقدم أن إرضاع حليمة النبي ﷺ كأنه من الأمور الثابتة تاريخياً وروائياً.

الجهة الثانية

من يقول ان حليمة لم تكن مؤمنة؟ أو أنها كانت مشركة؟ فلم يكن كل أهل مكة أو ثقيف مشركين في ذلك الحين بل كان هناك فئة غير قليلة من الناس هم الحنفاء على ديانة إبراهيم عليه السلام وكانوا يمتنعون عن عبادة الأصنام. ويلتزمون بمكارم الأخلاق، وقد مر الحديث عنهم في ما مضى.

وكان عبد المطلب في طليعة هؤلاء، فإذا قلنا بأن الله سبحانه قد اختار للنبي هذه المرأة لترضعه[1] وأنه رفض المرضعات قبلها كما ذهب إليه بعض المؤلفين، فالجواب واضح أنه لم يكن ليتخير له غير مؤمنة! وكذا إذا قلنا أن عبد المطلب هو الذي أرسل خلف حليمة وطلب منها إرضاع النبي كما نقله في البحار وغيره، فكذلك. فلم يكن عبد المطلب وهو يعرف موقع حفيده النبي وتكلم مع أبنائه عنه

(١) وربما يستفاد ذلك مما ورد في رواية البحار ٣٥/ ١٠٨ أن حليمة قد قرنت في تحريم النار عليها إلى والدي النبي وأبي طالب وفاطمة بنت أسد.

وعن فضله ليغفل عن هذه الجهة، لا سيما مع ما هو المركوز عند العرب من تأثير المرضع واللبن على المرتضع.

الجهة الثالثة

لو فرضنا وتنزلنا بأن حليمة لم تكن مؤمنة لم يكن ليحصل تأثير منها على النبي ﷺ. وذلك لأنه يشترط لحصول التأثير من طرف والتأثر من طرف آخر: قوة المؤثر وضعف المتأثر وقابليته للتأثر.

أما لو كان الطرف الذي يفترض أن يكون متأثرا كان أقوى فلا يحتمل تأثره، وهذا ما حصل بالنسبة للنبي وحليمة، فإنها بمجرد أخذها إياه بدا عليها التأثر الكامل في كل ما يرتبط بها فقد أثر في بدنها فإذا بثديها الأيمن الجاف يمتلئ لبنا! وإذا بدابتها التي كانت ضعيفة بطيئة تصبح القوية السريعة، وإذا كان لديها شارف (ناقة) لا تبض بقطرة لبن، يحفل ضرعها وتشبع عائلتها! وهكذا حتى الشجرة اليابسة حواليها!! كل ذلك يتأثر من بركات النبي محمد ﷺ.

لقد كان للنبي ﷺ قوة مغناطيسية قويه شديدة التأثير أشعرتها بقوة البركة الالهية! فتقول لقد رزقنا الله نسمة مباركة!

شق الصدر حكاية لا تصح

تذكر المصادر من غير مدرسة أهل البيت حكاية شق الصدر وان النبي كما يقولون كان في مضارب بني سعد مع بعض إخوته من الرضاعة، فلما ابتعد عنهم قليلا نزل ملكان فأضجعاه على الأرض وشقا صدره واخرجا منه مضغة! قالا: هي نصيب الشيطان قد أخرجناها منك!.

وقد نفى علماء الإمامية هذه الرواية وأشاروا إلى أنه لا يبعد أن يكون لها مصادر اسرائيلية حيث ذكروا أن في كل أحد من الخلق مضغة من الشيطان واستثنوا عيسى بن مريم! وبالطبع إذا كان عيسى بن مريم طاهراً من نصيب الشيطان والنبي محمد نعوذ بالله فيه نصيب للشيطان ومضغة تمت إزالتها بعمل جراحي!! سيكون عيسى أفضل من محمد!!

وقد ذكر العلماء بعد الإشارة إلى تهافت مضامين الروايات المنقولة في هذه الحادثة بحيث لا تستقر على معنى واضح، إلى أن نصيب الشيطان في الإنسان لا يرتبط بغدة أو لحمة وإنما هو بمقدار ما يستجيب الإنسان للشيطان، الذي يجري من الإنسان في تحديه له في كل أوقاته مجرى الدم من العروق. وأن الإنسان مخاطب في كل أوقاتها بأن ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[١] ولو كان الأمر مربوطا بمضغة أو قطعة لحم لتم ازالتها واستراح الناس!!

كما لم يقبلها المحققون من مدرسة الخلفاء كما نقل عنهم الشيخ اليوسفي في موسوعة التاريخ.[٢]

---

(١) الشمس / ٩ـ١٠.

(٢) قال في موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٧١؛ تعليقا على خبر شق الصدر: «قد ناقش هذا الخبر الشيخ أبو ريّة، نقاشاً موضوعياً سليماً في كتابه القيّم «أضواء على السّنة المحمّدية» فنقل تشكيك استاذه الشيخ محمّد عبده في تفسيره اذ قال «والمحقق عندنا انّه ليس للشيطان سلطان على عباد اللّه المخلصين، وخيرهم الأنبياء والمرسلون. أمّا ما ورد في حديث ازالة حظّ الشيطان من قلبه ﷺ فهو من الأخبار الظنية، لأنّه من رواية الآحاد، ولمّا كان موضوعها عالم الغيب، والايمان بالغيب من قسم العقائد، وهي لا يؤخذ فيها بالظّن، لقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا﴾ كنّا غير مكلّفين بالايمان بمضمون تلك الأحاديث في عقائدنا».

النبي يحفظ ود أقاربه الرضاعيين

وفي معركة حنين عندما شاركت قبيلة بني سعد مع هوازن وثقيف ضد النبي ﷺ، فهزموا ونصر الله نبيه والمسلمين، وغنم المسلمون ما ملأ الوادي استشفع الهوازنيون بما كان من رضاع حليمة للنبي قبل نحو من ستين سنة.

ولنترك الحديث بتفاصيله العبقة بكرم النبي وحفظه الجميل مهما تقادم، يقصه علينا التاريخ: «فقدم أربعة عشر رجلاً من رؤسائهم الذين كانوا قد أسلموا جميعا (الجعرانة) على رسول الله ﷺ وقد أمّروا على أنفسهم شخصيتين من رجالهم أحدهما هو (زهير بن صرد) والآخر عم للنبي ﷺ من الرضاعة، فقالوا: يا رسول الله إنّما في هذه الأسرى من يكفلك من عماتك وخالاتك، وحواضنك، وقد حضنّاك في حجورنا وارضعناك بثدينا، ولقد رأيتك مرضَعاً فما رأيت مرضَعاً خيراً منك، ورأيتك فطيماً فما رأيت فطيماً خيراً منك، ورأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك، وقد تكاملت فيك خِلال الخير، ونحن مع ذلك أهلك وعشيرتك فامنن علينا منّ الله عليك.

وقال زهير بن صرد[١]:«يا رسول الله إنّما في هذه الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك، ولو أننا ملحنا للحارث بن أبي شمر، أو النعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين. فقال رسول الله ﷺ لهم: إن أحسن الحديث أصدقه، وعندي من ترون من المسلمين، فابناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم أم أموالكم»؟

---

(١) وَقَالَ فِيمَا قَالَ:

امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا إِذْ فُوكَ يَمْلَؤُهُ مِنْ مَحْضِهَا دِرَرُ
امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا وَإِذْ يَزِينُكَ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ

قالوا: يا رسول الله خيّرتنا بين أحسابنا وأموالنا وما كنّا نعدل بالأحساب شيئا، فردّ علينا أبناءنا ونساءنا.

فقال ﷺ: أما ما لي ولبني عبد المطلب فهو لكم واسأل لكم الناس وإذا صلّيت الظهر بالناس فقولوا: إنا لنستشفع برسول الله الى المسلمين، وبالمسلمين الى رسول الله فاني سأقول: لكم ما كان لي ولبني عبد المطّلب فهو لكم وسأطلب لكم إلى الناس.

فلما صلّى رسول الله ﷺ الظهر بالناس قاموا فتكلموا بالذي أمرهم رسول الله ﷺ فقالوا: إنا نستشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. وبهذا وهب رسول الله ﷺ لهم نصيبه من الأسرى.

فقال المهاجرون: أمّا ما كان لنا فهو لرسول الله.

وقال الانصار: ما كان لنا فهو لرسول الله.

وهكذا وهب الانصار والمهاجرون نصيبهم من الأسرى تبعا لرسول الله ﷺ ولم يتأخر عن ذلك إلاّ قليلون مثل (الاقرع بن حابس) و (عيينة بن حصن) فقد امتنعا عن أن يهبا نصيبهما، ويطلق سراح ما عندهم من السبايا، فقام رسول الله ﷺ وقال: إن هؤلاء القوم جاءوا مسلمين وقد استأنيت بهم، فخيّرتهم بين النساء والأبناء، والأموال، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء، فمن كانت عنده منهنّ شيء فطابت نفسه أن يردّه فليرسل ومن أبى منكم وتمسك بحقه فليردّ عليهم، فله بكل إنسان ست فرائض (أي سوف أعطيه بدل الواحد ستا) من أول ما يفيء الله به علينا.

فكان لعمل النبي ﷺ هذا أثر عظيم في نفوس المسلمين حيث خلّوا سبيل جميع

من كان في أيديهم من الأسرى والسبايا إلا امرأة عجوز امتنع «عيينة» من ردّها إلى ذويها.

وهكذا أثمر عمل صالح غُرست شتيلته قبل نحو ستين عاماً في أرض قبيلة بني سعد على يدى حليمة السعدية، فآتت أكُلها بعد مدة طويلة، واطلق بفضل ذلك العمل الصالح سراح جميع الأسرى والسبايا من هوازن.

ثم ان رسول الله ﷺ دعا أخته من الرضاعة «الشيماء» وبسط لها رداءه ثم قال: اجلسي عليه، ورحّب بها، ودمعت عيناه، وسألها عن أمّه وأبيه من الرضاعة، فأخبرته بموتهما في الزمان، ثم قال ﷺ لها: إن أحببت فأقيمي عندنا محبّبة مكرّمة وإن أحببت أن امتّعك وترجعي الى قومك فعلت.

فقالت: بل تمتّعني وتردّني إلى قومي، فمتّعها رسول الله ﷺ وردّها الى قومها، بعد أن أسلمت طوعا ورغبة، وأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية».[١]

---

(١) السبحاني؛ الشيخ جعفر: سيد المرسلين ٢/ ٥٣١.

العباس بن عبد المطلب
عم النبي المصطفى ﷺ

رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (خير إخواني علي وخير أعمامي حمزة والعباس صنو أبي).[1]

واشتهر في مصادر مدرسة الخلفاء عن النبي أنه قال: من آذى عمي العباس فقد أذاني فإن عم الرجل صنو أبيه.

كانت ولادة العباس بن عبد المطلب بن هاشم عم النبي المصطفى وعديله[2] قبل عام الفيل بثلاث سنين، وهي الفارق بين عمره وعمر النبي ﷺ، وتوفي سنة ٣٢ هجرية أيام الخليفة عثمان فلم يدرك الخلافة الظاهرية لأمير المؤمنين عليه السلام بالرغم من أنه كان يتمناها له منذ البدايات ويسعى من أجلها! وبهذا يكون عمره حين توفي ٨٨ سنة.

---

(١) الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: عيون أخبار الرضا ١/ ٦٦.
(٢) أم الفضل لبابة بنت الحارث زوجة العباس أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين وزوجة النبي.

ملاحظات تمهيدية

١. من المناسب أن نشير إلى أن صورة العباس بن عبد المطلب في الذهنية الشيعية العامة متأثرة سلبا بمواقف أحفاده من الخلفاء العباسيين الذين دخلوا في صراع عنيف ومتوحش مع أئمة أهل البيت ﷺ وعموم آل أبي طالب فلم يكتفوا بإقصائهم من الحكم و إنما تتبعوهم بالقتل والتشريد و السجن والإغتيال في أمر لم يصنعه بهذا الحجم حتى بنو أمية و لذلك قال القائل:

تالله مـا فعلت أمـيـة فيهم معشار ما فعلت بنو العباس

ولا ريب أن هذا ترك ظلالاً قاتمة على جدهم الأعلى العباس بن عبد المطلب وأثر على شخصيته في أذهانهم، لهذا قد تجد بعض المؤمنين كما ذكر لي يقول: أنا اذا سلمت على أعمام النبي إذا وصلت للعباس أتوقف عن السلام!

بينما لا ينبغي هذا فإن مواقفه كانت في غاية الجودة في رأي جمع من علماء الإمامية. نعم هو لا يقاس إلى مثل أمير المؤمنين، بل ولا إلى أبي طالب أو حمزة من إخوانه. ولكن له الكثير من المواقف الجليلة.

٢. هناك فكرة ستكون بمثابة المفتاح الذي سيفسر لنا الكثير من مواقف العباس عم النبي وهي التي أوردها السيد محمد تقي الحكيم في كتابه عبد الله بن عباس، فهو يرى: ان الأسرة الهاشمية عندما بدأ النبي دعوته صارت في اتجاهين:

أ. كان اتجاه المواجهة الصريحة والعلنية مع أعداء الدعوة المحمدية إلى آخر مديات المواجهة كالقتال وكان يمثل هذا الاتجاه علي وحمزة

وجعفر.

ب. كان اتجاه الإيمان الخفي برسول الله، والمتستر وقد فرض هذا الاتجاه إما طبيعة بعض شخصيات هذه الأسرة ووجودهم الإجتماعي أو طبيعة الدور الذي كان ينتظر منهم القيام به، فاتخذت بعض الشخصيات طريق الإيمان الخفي برسول الله ﷺ وعدم المواجهة الصريحة والبقاء بحسب الظاهر كما لو كانت مع قريش وأما في الواقع فكانت مسلمة و مدافعة عن الرسالة المحمدية، وفي طليعة هؤلاء كان أبا طالب وبعده العباس بن عبد المطلب.

نعم فقد كان العباس «من أغنياء قريش، ومن المقرضين للمال بفضل يأخذه من المدين يضعه على رأس ماله. وقد بقي على ماله وثرائه في الإسلام كذلك. وكان الرسول قد أبطل ربا العباس في أول ما أبطل من ربا في الإسلام. وكان العباس يتاجر كذلك، له محل يتاجر فيه، ويستقبل التجار الغرباء. وقد ذكر أن (عفيف الكندي) كان في جملة من تاجر معه في الجاهلية، وقد جاء إليه ليبتاع منه بعض التجارة»[١]وكانت أمواله موزعة بين أهل مكة بما يشبه عمل البنوك حاليا، فهو ممول لمن يريد التجارة على طريقة المضاربة،[٢]وكان أيضاً يقرض بزيادة، ولأن النبي يطبق الإسلام على نفسه وعلى الأقربين منه أسرع وأشد مما هو على البعداء لهذا قال رسول الله ﷺ في خطبته المعروفة في حجة الوداع: (ألا و إني أضع كل

---

(١) علي؛ د جواد: المفصل في تاريخ العرب ١٣/ ٣١٠.

(٢) المضاربة هي: عقد واقع بين شخصين على أن يدفع أحدهما إلى الآخر مالًا ليعمل به على أن يكون الربح بينهما. ويعتبر فيها بالإضافة إلى الشروط العامة المعتبرة في المتعاقدين، أن يكون تعيين حصّة كلٍّ منهما من الربح بالكسور من نصف أو ثلث أو نحو ذلك، وأيضا أن يكون الاسترباح بالتجارة .الى غير ذلك مما ذكروه في الشروط .فراجع منهاج الصالحين ج ٢ للسيد السيستاني.

رباً تحت قدمي و أول رباً أضعه هو ربا عمي العباس).[١]

وقد يكون لهذا السبب ولغيره رأى أنه لا يستطع ان يتصدى للحماية العلنية والصريحة لرسول الله، مثلما فعل أبو طالب، بالإضافة إلى شجاعة أبي طالب الفائقة بالنسبة لأخيه العباس، الذي قال للنبي لما عرض عليه أمر النصرة في بداية البعثة والرسالة، بأن يذهبا إلى أبي طالب ويعرضا عليه الأمر. وهكذا حصل ووجدا غاية النصرة والتعهد بالحماية عند أبي طالب، بما مرت الإشارة إليه في ترجمة أبي طالب عليه السلام.

هل كان العباس مسلما خلال هذه المدة ؟ أو تأخر إسلامه بعد البعثة إلى ما قبل بدر؟ أو أنه تأخر إلى ما قبل خيبر سنة ٧ للهجرة ؟

يعتقد بعض الباحثين أن إسلامه كان مبكرا جدا، وأنه كان قبل الهجرة بفترة طويلة، لكن إسلامه كان خفيا! ويستشهدون على ذلك ببقاء زوجته أم الفضل لبابة بنت الحارث، حيث نقل بعضهم أنها كانت ثانية المسلمات بعد خديجة عليه كما ورد. وقد لا يكون هذا الترتيب دقيقاً، لكن من المتفق عليه أن إسلامها كان مبكرا جدا، وبقاؤها على زوجيته سيتأتى فيه ما ذكر في قضية أبي طالب حيث استشهد على إسلامه ببقاء زوجته المسلمة على نكاحه.[٢]

(١) اليعقوبي؛ احمد بن أبي يعقوب: تاريخ اليعقوبي ٢ / ١١٠، وأبو الفرج الحلبي الشافعي: السيرة الحلبية ٣ / ٣٧٢.

(٢) حين سئل الإمام علي بن الحسين عليه السلام عن إيمان أبي طالب قال: «واعجبا إن الله نهى رسوله أن يقر مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات». نقله السيد فخار بن معد الموسوي في كتابه الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة. وقد يقال إن آية تحريم النكاح بين المسلمة والكافرة كانت متأخرة. فيقال: بأن هناك قولا بأن التحريم كان معلوما عند المسلمين في مكة، غاية الأمر أنه لم

ويشير أبو رافع وهو غلام العباس، وقد أهداه فيما بعد إلى رسول الله ﷺ، إلى سرية إسلام العباس قائلا: «كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس، وأسلمت أمُّ الفضل، وأَسْلَمْتُ، وكان العباس يكتم إسلامه»[١]. وفي نقل آخر أنه قال: وكان العباس يهاب قومه.

ويستفاد من ما سبق أن جهة كتمانه لإسلامه، ترتبط بقضيتين: إنه لم يكن من الشخصيات التي تصطدم مع المجتمع القرشي، لما كان له من ارتباطات بهم، والأخرى قضية مالية و إقتصادية فقد كان له ديون على القرشيين ولديه شراكات و مضاربات!! و كان القرشيون إذا رأو شخصا قد هاجر إلى رسول الله مسلما استحلوا أمواله، بل أخذوا بيته!

وبالطبع فإن مثل هذا ينقص من منزلته بالقياس إلى المهاجر إلى رسول الله.[٢]

ولما قربت المواجهة بين مشركي قريش من جهة والمسلمين في بدر من جهة أخرى، أوصى النبي المسلمين، أن لا يقتلوا بني هاشم إذا رأوهم في المعركة في جانب المشركين، فإنهم خرجوا مكرهين، وأن لا يقتلوا أبا البختري بن هشام، وكأنّ النبي ﷺ أراد حفظ معروفه لرسول الله والمسلمين، حيث سعى في نقض حصار

يكن نافذا على الكفار لقوتهم وضعف المسلمين، وهذا ما أشارت إليه بعض أحاديث مدرسة الخلفاء فقد نقل في سيرة ابن هشام ٢/ ٤٧٨ «وكان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلمت وبين أبى العاص بن الربيع، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقدر أن يفرق بينهما «ولو فرضنا عدم نزول آية في هذا فقد يقال كما عن بعضٍ: إنّ المتأخر هو إعلان التشريع وإبلاغه للمسلمين دون أصل التشريع، بمعنى إنّ أصل الحكم كان مشرعاً ومعلوماً للنبي ﷺ، وإنّما تأخّر الإعلان عنه لمصلحة التدرّج في بيان الأحكام الشرعيّة المعلومة للجميع، وهذا يمنع من إقرار النبي ﷺ هذا النكاح لو لم يكن أبو طالب عليه السلام أو العباس مسلمين.

(١) البلاذري ، أحمد : أنساب الأشراف ١/ ٤٧٧.

(٢) قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾.

قريش بني هاشم والمسلمين في شعب أبي طالب، وكان يسوق لهم المؤن في جوف الليل.

ولعل في نهي النبي ﷺ عن قتلهم، نحو إشارة إلى عدم كفرهم. وعدم استحقاقهم للقتل، الأمر الذي لم يفهمه بعض أصحاب النبي كأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة الذي قال غاضبا: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس والله لئن لقيته لألحمنه السيف!! فلما استبصر أبو حذيفة وراحت سكرة غضبه اعتذر لرسول الله ﷺ الذي سأله: أنت القائل كذا وكذا؟ قال: نعم يا رسول الله شقّ عليَّ إذا رأيت أبي وعمي وأخي مقتّلين فقلت الذي قلت، فقال له رسول الله ﷺ: إنّ أباك وعمك وأخاك خرجوا جادّين في قتالنا طائعين غير مكرهين، وإن هؤلاء أخرجوا مُكرَهين غير طائعين لقتالنا.

ولكن هذا لم يمنع أن يأخذ رسول الله منهم الفداء عندما أسروا! وإلا لو فعل النبي ذلك أيضا لاتُّهم بالمحاباة الكاملة لأهله وتمييزهم على غيرهم. إن النبي ﷺ كان مع ملاحظته كل هذه الأمور لم يسلم من اتهام بعض المسلمين بأنه يجتهد من تلقاء نفسه في تقديم أسرته، كما قال بعضهم عندما نصب عليا في يوم الغدير بأمر الله تعالى. سألوه هذا من عندك أو من عند الله؟

فلما أُسر العباس وجرى عليه ما جرى على سائر الأسرى: الفداء على من يملك من يفتدي نفسه. طلب منه فداء نفسه!

كعادة التجار الذين يشتكون من عدم وجود مال عندهم دائما، قال العباس بأنه لا يملك شيئا!

لنرَ ما يقوله التاريخ عن الحوار الماتع بين النبي والعباس:

«قال للعباس: افد نفسك، وابن أخيك عقيلا، ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة

بن جحدم فأبى، وقال: إني كنت مسلما قبل ذلك، وإنما استكرهوني. قال: الله أعلم بشأنك، إن يك ما تدعي حقا، فالله يجزيك بذلك، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا،[١] فافد نفسك.

وكان رسول الله ﷺ قد عرف أن العباس أخذ معه عشرين أوقية ذهباً فقلت يا رسول الله، احسبها لي من فدائي. قال: لا، ذاك شيء أعطانا الله منك،

قال: فإنه ليس لي مال. قال: فأين المال الذي وضعته بمكة عند أم الفضل، وليس معكما أحد غيركما، فقلت: إن أصبت في سفري فللفضل كذا، لقثم كذا، ولعبد الله كذا؟

قال: فو الذي بعثك بالحق ما علم بهذا أحد من الناس غيرها، وإني لأعلم أنك رسول الله».[٢]

ورجع العباس إلى مكة، «يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يتقوون به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله فكتب إليه رسول الله ﷺ: أن مقامك في مكة خير» وكتب للنبي عن استعداد قريش لشن حملة عسكرية قريبة على المدينة، وأنهم جمعوا لذلك قرابة ثلاثة آلاف مقاتل، واستأجر رجلاً من غفار وشرط عليه أن يسير ثلاثاً حتى يصل بالكتاب إلى النبي في المدينة.[٣]

---

(١) هذه الكلمات سوف تخالف ما قيل من أن النبي أمره بالبقاء في مكة لموافاته بأخبار قريش، ولا ننسى أن قسما من كتب السيرة وتاريخ الإسلام قد كتب في زمان العباسيين ومنه ما كتب بأمر خلفائهم، فمن الطبيعي أن يتزلف بعض الكتاب إلى الخلفاء بمدح جدهم، وهذا مما يدعو إلى التأمل في مثل تلك الأخبار، لكن من جهة أخرى قد يقال: أن هذا هو من مقتضيات إخفاء دوره المطلوب منه.

(٢) الذهبي؛ شمس الدين: سير أعلام النبلاء ٢/ ٧٨.

(٣) المجلسي؛ محمد باقر: بحار الأنوار ٢٠/ ١٢٣ عن شرح النهج لابن أبي الحديد. وقد رأى الشيخ اليوسفي في كتابه موسوعة التاريخ أن هذا الخبر مما ابتدع تقربا لبني العباس فيما بين تاريخ ابن اسحاق بأمر المنصور لوليّ عهده المهدي، وبين عهد الواقدي المعاصر للمأمون والقاضي له ببغداد.

وظل العباس في مكة المكرمة وقد عرف إسلامه بالتدريج، ولذلك كان يقصد من المسلمين بأخبار رسول الله ﷺ، فإنه لما أراد الحجاج بن علاط السلمي الذهاب إلى مكة، قصد العباس وأخبره سراً بنصر رسول الله، فقد قال أرباب السيرة: «ولما فتحت خيبر كلم رسول الله ﷺ الحجاج بن علاط السلمي، ثم البهزي فقال: يا رسول الله إن لي بمكة مالا عند صاحبتي أم شيبة بنت أبي طلحة -وكانت عنده، له منها معوض بن الحجاج- ومالاً متفرقاً في تجار أهل مكة، فائذن لي يا رسول الله.

فأذن له، فقال: إنه لا بد لي يا رسول الله أن أقول (يعني كلاماً غير حسن).

قال: «قل».

قال الحجاج: فخرجت حتى إذا قدمت مكة، وجدت بثنية البيضاء رجالاً من قريش يستمعون الأخبار، ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ، وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالاً، وهم يتجسسون الأخبار من الركبان.

فلما رأوني قالوا: الحجاج بن علاط - قال ولم يكونوا علموا بإسلامي - عنده والله الخبر.

أخبرنا يا أبا محمد فإنه قد بلغنا أن القاطع (يقصدون النبي) قد سار إلى خيبر، وهي بلد يهود وريف الحجاز؟

قال: قلت: قد بلغني ذلك وعندي من الخبر ما يسركم.

قال: فالتبطوا بجنبي ناقتي يقولون: إيه يا حجاج؟

قال: قلت: هُزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط.

وقد قتل أصحابه قتلاً لم يسمعوا بمثله قط، وأسر محمد أسراً وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم.

قال: فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا: قد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يُقدم به عليكم فيُقتل بين أظهركم.

قال: قلت: أعينوني على جمع مالي بمكة وعلى غرمائي، فإني أريد أن أقدم خيبر، فأصيب من فل (غنائم) محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك.

قال: فقاموا فجمعوا لي ما كان لي كأحث جمع سمعت به.

قال: وجئت صاحبتي فقلت: مالي، وكان عندها مال موضوع، فلعلي ألحق بخيبر فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقني التجار.

قال: فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وما جاءه عني، أقبل حتى وقف إلى جنبي وأنا في خيمة من خيم التجار، فقال: يا حجاج ما هذا الذي جئت به؟

قال: قلت: وهل عندك حفظ لما وضعت عندك؟

قال: نعم!

قال: قلت: فاستأخر حتى ألقاك على خلاء، فإني في جمع مالي كما ترى فانصرف حتى أفرغ.

قال: حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة وأجمعت الخروج لقيت العباس، فقلت: احفظ علي حديثي يا أبا الفضل فإني أخشى الطلب ثلاثاً، ثم قل: ما شئت.

قال: أفعل.

قلت: فإني والله تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم - يعني: صفية بنت حيي - وقد افتتح خيبر وانتثل ما فيها وصارت له ولأصحابه.

قال: ما تقول يا حجاج؟

قال: قلت: أي والله فاكتم عني ولقد أسلمت، وما جئت إلا لآخذ مالي فرقاً عليه من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك فهو والله على ما تحب.

قال: حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له، وتخلق وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحر المصيبة!

قال: كلا والله الذي حلفتم به، لقد افتتح محمد خيبر، ونزل عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها وأصبحت له ولأصحابه.

قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟

قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً وأخذ أمواله فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه.

فقالوا: يا لعباد الله انفلت عدو الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن.

قال: ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر بذلك.(١)

---

(١) الدمشقي؛ ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٤٤ ناقلا عن سيرة بن اسحاق، ومسند أحمد. وبعبارة مختصرة ذكره ابن الأثير في الكامل.

في حنين: يا أصحاب سورة البقرة:

وفي غزوة حنين كان للعباس دور حتى بصوته! فإن المسلمين بعدما أعجبتهم كثرتهم، ولم تغن عنهم من الله شيئا، انهزموا. بلى! الآلاف التي كانت قد ملأت الوادي انهزمت! إلا عددا قليلا ممن ثبت مع النبي ﷺ، قيل إنهم عشرة!! وكان بالإضافة إلى أسد الله الغالب علي بن أبي طالب، أيمن بن أم أيمن (حاضنة النبي ويأتي الحديث عنها) وكان من الثابتين مع النبي عمه العباس، وقد قيل إنه كان جهوري الصوت، وتذكر كلمات في شأن قوة صوته، ربما يكون بعضها من مبالغات القصاصين، لكن في الاجمال كان معروفاً بقوة صوته، وجهوريته ويضاف إلى هذا أن معركة حنين وقعت في واد بين جبلين ومن الطبيعي أن يكون الصوت هنا أقوى فالصوت فيها يتردد ويقوى، وكان النبي يستفيد من صاحب كل كفاءة بحسب كفاءته فمثلا يرى أن حساناً بن ثابت لم يكن شجاعا في المعارك لكنه شاعر مفلق، فيستفيد من هذا الجانب عنده في مهاجمة أعداء الرسالة، ويأمره بإنشاء الشعر حتى كأنما ينضحهم بالنبل.

ويرى العباس عمه صاحب صوت قوي، يصلح للنداء والإخبار فيأمره برفع صوته بنداء المنهزمين من المسلمين، وقد أشيع بينهم أن النبي قد قتل!!

قال السيد العاملي ناقلا عن الشيخ المفيد: «ولما رأى رسول الله ﷺ هزيمة القوم عنه، قال للعباس وكان رجلاً جهورياً صيّتاً ـ: (نادِ في القوم وذكرهم العهد)، فنادى العباس بأعلى صوته: يا أهل بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، إلى أين تفرون؟ اذكروا العهد الذي عاهدتم عليه رسول الله ﷺ». والقوم على وجوههم قد ولّوا مدبرين.

وكانت ليلة ظلماء، ورسول الله في الوادي، والمشركون قد خرجوا عليه من

شعاب الوادي، وجنباته، ومضايقه، مصلتين سيوفهم، وعمدهم، وقسيهم.

قال: فنظر رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى الناس ببعض وجهه في الظلماء، فأضاء كأنه القمر ليلة البدر. ثم نادى المسلمين: «أين ما عاهدتم الله عليه»؟

فأسمع أولهم وآخرهم، فلم يسمعها رجل إلا رمى بنفسه إلى الأرض، فانحدروا إلى حيث كانوا من الوادي، حتى لحقوا بالعدو فقاتلوه».(١)

كما استفيد من علاقات العباس التي كانت لا تزال قائمة بأعيان مكة وكبارها، في إطلاعهم على قوة النبي والمسلمين، في فتح مكة، فإنه لما أحاط المسلمون بمكة، وفتحت من دون قتال بالتخطيط المتقن لرسول الله ﷺ، أراد النبي أن يري مشركي قريش عدد وعدة المسلمين، حتى لا يفكر أولئك مرة أخرى في القتال، فالتقى بأبي سفيان وحكيم بن حزام وآخرين وقال لأبي سفيان: هذا رسول الله وراءك قد جاء بما لا قبل لكم به، بعشرة آلاف من المسلمين!

قال: فما تأمرني؟

فقلت: تركب عجز هذه البغلة، فأستأمن لك رسول الله فو الله لئن ظفر بك ليضربن عنقك!.

فردفني فخرجت أركض به بغلة رسول الله، حتى غدوت به على رسول الله، فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟

فقال: بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأكرمك وأرحمك وأحلمك! والله لقد ظننت أن لو كان معه إله لأغنى يوم بدر، ويوم أحد.

---

(١) العاملي؛ جعفر مرتضى: الصحيح من سيرة النبي الأعظم ٢٤/ ١٩١.

فقال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟

فقال: بأبي أنت وأمي. أمّا هذه فإن في النفس منها شيئاً.

قال العباس: فقلت له ويحك! اشهد بشهادة الحق، قبل أن يضرب عنقك.

فتشهد. فقال النبي ﷺ للعباس. انصرف يا عباس، فاحبسه عند مضيق الوادي، حتى تمر عليه جنود الله.

قال: فحبسته عند خطم الجبل بمضيق الوادي. ومر عليه القبائل قبيلة قبيلة، وهو يقول: من هؤلاء؟ وأقول: أسلم، وجهينة، وفلان، حتى مر رسول الله ﷺ في الكتيبة الخضراء من المهاجرين والأنصار في الحديد، لا يرى منهم إلا الحدق، فقال: من هؤلاء يا أبا الفضل؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. فقال: يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما! فقلت: ويحك إنها النبوة».[(١)]

موقف العباس بعد وفاة رسول الله ﷺ

كان موقف العباس واضحاً مع أمير المؤمنين عليه السلام فإنه جاء إلى الإمام علي وقال له: ابسط يدك أبايعك، فيقال عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ويبايعك أهل بيتك!

وبينما كان الإمام مشغولاً بتجهيز رسول الله ﷺ ومعه بنو هاشم، انتهى اجتماع السقيفة إلى تجاوز حق أمير المؤمنين علي، وسط دهشة أهل البيت الذين قال قائلهم (ونسبت هذه الأبيات للعباس نفسه):

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف   عن هاشم ثم منها عن أبي حسن

(١) الطبرسي؛ الفضل بن الحسن: مجمع البيان ١٠/ ٤٧٠.

أليس أول من صلى لقبلتكم وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وأقرب الناس عهدا بالنبي ومن جبريل عون له في الغسل والكفن

ويظهر من حوار ولده عبد الله مع الخليفة عمر[1] أن العباس كان يرى أن الإمام علياً عليه السلام قد أوصى إليه النبي بان يكون خليفته ووصيه.

بل ينقل الشيخ التستري بأن الاتجاه القرشي حاول أن يستميل العباس، ويفرده عن ابن أخيه علي بن أبي طالب، بأن يجعلوا له نصيباً في الخلافة، فرفض ذلك بقوة!

وقد اتخذ كما يظهر موقف الإمام علي عليه السلام في بيان حق الإمام متى تيسرت له فرصة ذلك من دون أن يذهب في معارضته إياهم إلى الحد الأعلى.

وكانت وفاته في أيام عثمان بن عفان، سنة ٢٣ للهجرة كما قيل.

رأي علماء الطائفة في العباس:

١. ينقسم رأي علماء الطائفة إلى قسمين أساسيين؛ فمنهم من يرى له المنزلة

(١) اليوسفي؛ محمد هادي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٤/ ٢٧٢. قال: يا عبد اللّه!عليك دماء البدن إن كتمتني هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قلت: نعم، قال: أيزعم أن رسول اللّه نصّ عليه؟ قلت: نعم، وأزيدك أني سألت أبي فقال: صدق!.

العالية [(١)] كالشيخ المفيد[(٢)] من المتقدمين والشيخ التستري[(٣)] والسيد مهدي الخرسان من المتأخرين، ومنهم من لا يرى له منزلة مهمة في بني هاشم، بل يراه إلى القدح والذم أقرب كالسيد الخوئي،[(٤)] والشيخ المامقاني[(٥)] وغيرهما.

ولا ريب أن مواقف الحكام العباسيين تجاه أئمة أهل البيت خصوصا وعموم آل أبي طالب، والتي كانت مواقف في غاية السوء، وعلى مختلف الأصعدة كان لها تأثير كبير على الموقف العام تجاه جدهم العباس.

فإنه فضلا عن الإيذاء البدني، والذي شمل الضرب والسجن والقتل، والإبعاد

---

(١) ويظهر ذلك من نقل المفيد لمواقف العباس في يوم حنين بالتفصيل في إشادة واضحة بثباته وبقائه مع النبي ﷺ.

(٢) محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد: فقيه إمامي ومتكلم وأصولي يعتبر من أوائل المؤسسين للمدرسة الأصولية والفقهية بعد زمان الغيبة الكبرى للإمام المهدي، وأستاذ شيوخ الطائفة: الشريفين المرتضى والرضي، والشيخ الطوسي بالإضافة إلى كونه مرجع الشيعة في زمانه. ذكر من عناوين مؤلفاته نحو ٢٠٠ عنوان، أهمها المقنعة (في الفقه)وهو الذي شرحه الشيخ الطوسي واستدل عليه بالاحاديث فصار (تهذيب الأحكام) أحد الكتب الأربعة، ومنها الارشاد في معرفة حجج الله على العباد وهو كتاب في سيرة المعصومين عليهم السلام.

(٣) الشيخ محمد تقي التستري (الشوشتري): محدث خبير ورجالي محقق توفي ١٤١٥ هـ، أشهر كتبه (قاموس الرجال) وهو موسوعة رجالية اشبه بحاشية ناقدة لكتاب تنقيح المقال للمامقاني. وله ايضا كتاب بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، وكتاب الأخبار الدخيلة. وغيرها من الكتب.

(٤) السيد أبوالقاسم الخوئي: مرجع الطائفة الأكبر في زمانه فقيه، وأصولي، توفي سنة ١٤١٣ هـ، من أساتذته الميرزا النائيني والشيخ محمد حسين الاصفهاني والشيخ ضياء العراقي، والشيخ محمد جواد البلاغي، وأغلب مراجع الدين المعاصرين هم من تلامذته حيث تصدى لتدريس البحوث العالية في الفقه والأصول أكثر من نصف قرن من الزمان، نتج عنها دورة في أغلب ابواب الفقه والأصول (٥٠ مجلدا) واشتهر أيضا كتابه (معجم رجال الحديث ٢٤ مجلدا).

(٥) الشيخ عبد الله المامقاني ايران: عالم فقيه ورجالي متتبع توفي سنة ١٣٥١ هـ، أهم كتبه: تنقيح المقال في علم الرجال (٣٧ مجلدا)، من تلامذته: السيد عبد الأعلى السبزواري والسيد شهاب الدين المرعشي النجفي، وغيرهم.

عن الأوطان، حتى لقد قال الشاعر:

تاالله ما فعلت أمية فيهم　　معشار ما فعلت بنو العباس

ولا تزال قصيدة الشافية لأبي فراس الحمداني شاهد صدق، وبيان حقيقة يعدد جانبا من تلك الجرائم التي قام بها العباسيون.

بالإضافة إلى ذلك فإن هؤلاء الحكام قد سلطوا أسوأ شعرائهم لذم بني هاشم، والاقذاع في توصيفهم، والاعلاء في المقابل من شأن أجداد بني العباس، وتفضيلهم أجدادهم على أمير المؤمنين عليه السلام، وها هي قصائد ابن المعتز التي قال فيها:

لكم رحم يا بني بنته　　ولكن بنو العم أولى بها
ونحن ورثنا ثياب النبي　　فكم تجذبون بأهدابها

ومروان بن أبي حفصة في قوله:

ما للنساءِ مع الرجالِ فريضةٌ　　نزلتْ بذلك سورةُ الانعامِ
أنى يكون وليس ذاك بكائنٍ　　لبني البناتِ وراثة الأعمامِ

وتحول التحالف بين بني هاشم بعدما كان على طريقة؛ ابسط يدك أبايعك، فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله. إلى ما ذكر آنفا! وأسوأ منه.

ولا ريب أن هذا باطل، وأن العباس مهما بلغت مرتبته عند مؤيديه فلا يساوي أمام أمير المؤمنين عليه السلام شيئا. ولعل بعض الروايات فيها رائحة هذا الصراع وكانت بمثابة الرد على مغالاة الحاكمين في فضائل جدهم العباس خاصة وأنهم أصبحوا الآن يتحكمون في كتابة التاريخ الإسلامي عبر تشجيع البعض على تدوينه كما سبق.

وكما قلنا فإن أعلام الطائفة في أمر العباس بن عبد المطلب على رأيين:

من زكاه وأعطى له المنزلة العالية، وأثبت ما ورد في شأنه في روايات كتاب السيرة والمؤرخين، ومن ذلك ما تعرض له الشيخ التستري،[١] ونقل جانبا منه، قال بعد ان استعرض الروايات المادحة والأخرى القادحة فيه:

«يكفي العبّاس جلالة أنّ أبا بكر وعمر أرادا إشراكه في الخلافة ليضعّفا أمر أمير المؤمنين عليه السلام فلم يقبل منهما».

ثم نقل عن ابن قتيبة أن المغيرة بن شعبة اقترح على أبي بكر أن يجعل للعباس نصيبا في الخلافة حتى يتقووا به على الإمام علي وبني هاشم إذا صار العباس معهم، فذهبوا إليه، وخطب أبو بكر، ثم عمر في هذا الشأن. فرد عليهما العباس بعد أن حمد الله وأثنى عليه بالقول: «إنّ اللّه بعث محمّدا كما زعمت نبيّاً و للمؤمنين وليّاً فمنّ اللّه بمقامه بين أظهرنا حتّى اختار له ما عنده، فخلّى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم مصيبين للحقّ غير مائلين عنه بزيغ الهوى؛ فان كنت برسول اللّه طلبت فحقّنا أخذت، وإن كنت بالمؤمنين طلبت فنحن منهم متقدّمون فيهم؛ وإن كان هذا الأمر إنّما يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنّا كارهين. فأمّا ما بذلت لنا، فان يكن حقّاً لك فلا حاجة لنا فيه، وإن يكن حقّاً للمؤمنين فليس لك أن تحكم عليهم، وإن كان حقّنا لم نرض عنك فيه ببعض دون بعض. وأمّا قولك: إنّ رسول اللّه منّا ومنكم فانّه كان من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها».

ثم قال أيضا: «ويكفيه ثباته يوم حنين، وفي الزيارة الغديريّة:[٢] ويوم حنين على ما نطق به التنزيل ﴿«إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضٰاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمٰا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) التستري؛ الشيخ محمد تقي: قاموس الرجال ٦/ ٢٠.
(٢) المشهدي؛ محمد بن: المزار ١/ ٢٧٤.

والمؤمنون أنت ومن يليك وعمّك العبّاس ينادي المنهزمين: يا أصحاب سورة البقرة يا أهل بيعة الشجرة! حتّى استجاب له قوم».

كذلك أشار التستري إلى خبر الحجاج بن علاط وسائر مواقفه وكأنه يقبل رواياتها:

«وفي حديث الحجّاج بن علاط أنّه كان مسلماً يسرّه ما يفتح اللّه على المسلمين، ثمّ أظهر إسلامه يوم فتح مكّة وشهد حنينا و الطائف وتبوك. و قيل: إنّ إسلامه قبل بدر، كان يكتب بأخبار المشركين إلى النبيّ، وكان المسلمون يتقوّون به بمكّة، وكان يحبّ أن يقدم على النبيّ ﷺ فكتب النبيّ إليه:أنّ مقامك بمكّة خير؛ فلذلك قال النبيّ ﷺ يوم بدر:من لقي منكم العبّاس فلا يقتله، فانّما اخرج كارها؛ وكان أنصر الناس للنبيّ بعد أبي طالب، وحضر معه العقبة يشترط له على الأنصار، كان على دين قومه يومئذ».

وبالنسبة لأخبار الذم: فالموجود في روضة الكافي عن سدير، علق عليه التستري بأنه محتمل الصدق، واكتفى بذلك!! مع أنه كان بإمكانه الإشكال على ما جاء في متنه من وصفه العباس وعقيلا (بأنهما كان من الطلقاء) وهو خلاف المعلوم وجدانا! فإن مصطلح الطلقاء إنما يطلق على من بقوا على الكفر إلى زمان فتح مكة، حتى قال فيهم النبي: اذهبوا فأنتم الطلقاء. وهذا لا ينطبق على العباس فإنه على كل التقادير أسلم قبل فتح مكة! ولعل هذه الجهة هي التي دعت العلامة المجلسي في مرآة العقول لكي يحمل كلمة (الطلقاء) على غير معناها المعروف فقال: قوله «وكانا من الطلقاء» أي أطلقهما النبي ﷺ في غزاة بدر بعد أسرهما وأخذ الفداء منهما. (١)

---

(١) المجلسي؛ الشيخ محمد باقر: مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ٢٦ / ٨٤.

ونفس الموقف اتخذه الشيخ الأحمدي الميانجي في كتابه؛ مكاتيب الرسول فإنه في سياق عرض بعض كتب النبي إلى العباس مر على شيء من ترجمته فقال: «وشهد عباس حنينا مع رسول الله ﷺ، وثبت معه لما انهزم الناس، وكان رسول الله ﷺ يعظمه ويكرمه بعد إسلامه.

استسقى به عمر بن الخطاب في حديث مشهور (أخرجناه ومصادره في تبرك الصحابة: ٢٨٧) ولكن ابن حجر نقله بنحو أعجبني إيراده هنا قال: «وفي تأريخ دمشق أن الناس كرروا الاستسقاء عام الرمادة سنة سبع عشرة من الهجرة فلم يسقوا، فقال عمر لأستسقين غداً بمن يسقيني الله به فلما أصبح غدا للعباس فدق عليه الباب فقال: من؟ قال: عمر قال: ما حاجتك؟ قال: اخرج حتى نستسقي الله بك، قال: اقعد فأرسل إلى بني هاشم: أن تطهروا والبسوا صالح ثيابكم فأتوه، فأخرج طيبا فطيبهم ثم خرج وعلي أمامه بين يديه والحسن عن يمينه، والحسين عن يساره، وبنو هاشم خلف ظهره، فقال: يا عمر لا تخلط بنا غيرنا، ثم أتى المصلى فوقف فحمد الله وأثنى عليه وقال: اللهم إنك خلقتنا ولم تؤامرنا، وعلمت ما نحن عاملون قبل أن تخلقنا، فلم يمنعك علمك فينا عن رزقنا اللهم فكما تفضلت في أوله تفضل علينا في آخره.

قال جابر: فما برحنا حتى سحت السماء علينا سحاً، فما وصلنا إلى منازلنا إلا خوضاً، فقال العباس أنا المسقي ابن المسقي ابن المسقي ابن المسقي خمس مرات.[١]

قال في قاموس الرجال ٥: ٢٣٧: واستشفع عمر بالعباس دون أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهما السلام مع كونهم ممن باهل بهم النبي ﷺ ودل القرآن على كونهم

---

(١) السيرة الحلبية ٢: ٦٧ ناقلا عن الصواعق وتاريخ دمشق.

نفس النبي ﷺ وأبنائه، لأنه لو فعل ذلك كان ينبه الناس على كون تقدمه عليهم على خلاف الحق، واستشفاعه بالعباس إنما كان أيضا لغرض وهو أنه لو لم يأتهم المطر يقول توسلت بعم النبي ﷺ ولم يكن له مقام عند الله، وإن جاءهم يقول: أنا كنت الأصل مع أن استشفاعه بالعباس لكونه عم النبي ﷺ يكفي في كون تصديه هو وصاحبه على خلاف الحق.

أقول: عمل العباس هذا من استشفاعه بأمير المؤمنين والحسنين سلام الله عليهم، وقوله لعمر: لا تخلط بنا غيرنا أبطل هذا الكيد».[١]

ومثلهما في الثناء وأربى ما ذكره السيد الخرسان في الموسوعة، فإنه بعد أن ذكر بالتفصيل موقف ثبات العباس في حنين، وأخذه بخطام ناقة النبي، ثم مناداته بصوته الجهوري على الفارين حتى فاؤوا ورجعوا لرسول الله، عقد بحثاً خاصاً بعنوان مكانة العباس عند النبي ﷺ جاء في قسم منه:

«لقد ذكر الحافظ ابن البطريق (ت ٥٢٣) – وهو من عيون علماء الإمامية في القرن السادس – في مقدمة كتابه (عمدة عيون الأخبار) ما يدل على فضل العباس مستدلاً في ذلك بآي من القرآن الكريم كآية المودة في القربى، وآية الخمس، وآية الفيء، واستدل أيضاً بما رواه الشيخ الطوسي في الأمالي بسنده عن عبد الله بن الحارث عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله ما لنا ولقريش إذا تلاقوا بوجوه مستبشرة، وإذا لقونا، لقونا بغير ذلك؟ قال: فغضب النبيّ ﷺ وسلم ثم قال: والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله».

قال الحافظ ابن البطريق: فأدخل العباس في جملة من لا يدخل قلب رجل

(١) الأحمدي؛ الميانجي: مكاتيب الرسول ٣/ ٦١٩.

الإيمان إلا بحبهم، وهذا أبلغ ممّا ذكره الثعلبي في المعنى، لأنه أدخله بكاف الجمع الشاملة، ثم ذكر خبراً عن الشيخ الطوسي في كتابه (انس الوحيد) وفيه أنّ جبرئيل عليه السلام أتى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمّد جئتك بكرامة أكرمك الله بها، سهم تجعله في قرابتك وابدأ بعمك العباس، وثلّث بخبر ذكره الحلواني في كتابه في لمع كلام الإمام الزكي أبي الحسن عليّ بن محمّد العسكري عليهما السلام لمّا سأله المتوكل فقال له: «ما يقول بنو أبيك في العباس؟ قال: ما يقولون في رجل فرض الله طاعته على الخلق وفرض طاعة العباس عليه» وقال: يريد بذلك النبيّ صلى الله عليه وآله وان العباس رضي الله عنه والد وطاعته له كطاعة الوالد.

ثم استشهد بشعر الكميت بن زيد الأسدي جاء فيه: (من قصيدة في الهاشميات لمن قلب متيم مستهام):

وأبو الفضل إن ذكرهم الحلو والشفا للنفوس من الأسقام

وقوله أيضاً في غيرها:

ولن أعـزل العباس صنو نبينا وصنوانه فيمن أُعـد وأُنـدب
ولا ابنيه عبد الله والفضل إنني جنيب بحب الهاشميين مصحب

أقول: ولا شك فيما ذكره الحافظ ابن البطريق رحمه الله، وإن كان الرجل قد عاصر الخليفة الناصر لدين الله العباسي، واحتمال انّه إنّما قدم ذلك في أول كتابه تقية منه، ولكن تشيّع الناصر المعلوم يدفع هذا الاحتمال الموهوم.

ولا نمنع ما قاله الذهبي: «وقد اعتنى الحفاظ بجمع فضائل العباس رعاية للخلفاء».

أقول: وهذا ممّا لا شك فيه، ولكن لا يعني انّ كل ما جمعوه كان من الموضوعات،

كما لا نشك بأنه كانت له مكانة مرموقة وسجايا طيبة كما لا نشك بأنّ النبيّ ﷺ كان يحب عمه العباس وله عنده منزلة نوّه عنها بقوله: (لا تؤذونني في عمي العباس، عم الرجل صنو أبيه، هذا عمي وصنو أبي).

ففي أمالي الشيخ الطوسي عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّما عم الرجل صنو أبيه).

وأخرج البغوي عن عليّ عليه السلام: (انّ النبيّ ﷺ قال لعمر في عمه العبّاس: إنّ عم الرجل صنو أبيه).

ولعل ما رواه البغوي مختصراً هو ما أخرجه ابن سعد في الطبقات، والفسوي في كتاب المعرفة والتاريخ: «انّ رسول الله ﷺ استعمل عمر بن الخطاب على السعاية، فأتى العبّاس يطلب صدقته، فأغلظ له العباس، فأتى عمر عليّاً وذكر ذلك له ليذكره للنبيّ ﷺ فأتاه عليّ عليه السلام فأخبره، فقال رسول الله ﷺ لعمر: (تربت يداك، أما علمت أنّ عم الرجل صنو أبيه، إن العباس أسلفنا زكاة العام عام الأول)». وقد رواه الفسوي بعد ذلك مرة أخرى بتفاوت في السند والمتن، فراجع.

ولعل ذلك القول من النبيّ ﷺ ترك أثراً بالغاً في نفس عمر بل وحتى في نفوس الصحابة فكانوا يحترمون العباس ويجلّونه، حتى روى ابن أبي الزناد عن أبيه: انّ العباس بن عبد المطلب لم يمرّ قط بعمر ولا عثمان وهما راكبان إلا ترجّلا حتى يجوزهما إجلالاً له أن يمرّ وهما راكبان وهو يمشي.

وقد ورد في مستدرك الحاكم عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يجلّ العباس إجلال الوالد.

وأخرج الترمذي عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب: انّ

العباس دخل يوماً على رسول الله ﷺ مغضباً وانا عنده فقال رسول الله ﷺ: ما أغضبك؟ فقال: يا رسول الله ما لنا ولقريش إذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجوه مسفرة، فاذا لقونا لقونا بغير ذلك، فغضب رسول الله ﷺ حتى أحمرّ وجهه ثم قال: (والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجلٍ الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله، ثم قال أيها الناس من آذى عمي فقد آذاني فإنما عم الرجل صنو أبيه)، وفي رواية ابن حجر (ما بال أقوام يتحدثون فاذا رأوا الرجال من أهل بيتي قطعوا حديثهم والله لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبهم لله ولقرابتهم مني).

ويجد الباحث في صور بعض عهود النبيّ ﷺ واقطاعاته شهادات للعباس، نحو: قسمة قمح خيبر وفيها شهد عباس بن عبد المطلب. وآخر والاقطاع للداريين وهم من لخم وفيه شهد عباس بن عبد المطلب. وجماعة والاقطاع لبني جعيل من قبيلة بلّي وفيه شهد عباس بن عبد المطلب. وجماعة والعهد الذي بين النبيّ ﷺ وبين النصارى وفيه شهد عباس بن عبد المطلب. وجماعة.

وقد أقطعه النبيّ ﷺ مواضع من الأرض لم تفتح بعد، وأوصى أن تدفع له بعد الفتح، وكتب له بذلك كما أنه ﷺ حين أمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب عليّ عليه السلام فضّل عمه العباس بجعل ميزاب له على المسجد، وقصة الميزاب مشهورة.

ولـه موقف بعد موت النبيّ ﷺ في نصرة ابن أخيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في مسألة الخلافة، سنأتي على تفصيله فيما يأتي».[١]

وفي مقابل هذا فقد رأى الشيخ عبد الله المامقاني في تنقيح المقال؛ أن الروايات الذامة له أقوى، وأنه لا يمكن الوثوق بأخباره، وللتفصيل ننقل نص كلامه: الأخبار

(١) الخرسان؛ محمد مهدي: موسوعة عبد الله بن عباس ١/ ١٢٧ـ ١٣٠.

في حقه مختلفة جداً والذامة منها أقوى دلالة لأن ما عدوه مادحاً لم يتضمن مدح ديانته وتقواه وإنما تضمن اصرار النبي على إكرامه وعدم هضمه ومن الممكن أن يكون ذلك منه تأليفاً لقلبه لتأخر إسلامه وحماية للحمى وإلا فلولا عدم اهتمامه في حفظ حق أمير المؤمنين في الخلافة وحق سيدة النساء في فدك لكفى في عدم الوثوق به ولو اهتم في أمر الخلافة وفدك بمقدار ما اهتم في أمر قلع ميزابه لحفظ الحقين لما هو عليه من سيادة بني هاشم، ولولا قول أمير المؤمنين: بقيت بجلفين جافيين[١]عباس وعقيل لكفى، وغاية ما يلزمنا إكراما للنبي السكوت في حقه! وأما الوثوق بأخباره فلا![٢]

ومثل هذا الموقف كان رأي السيد أبو القاسم الخوئي أنه لم يثبت له مدح، بل الذم فيه في رواية صحيحة السند. فبعد أن ناقش الروايات الواردة في شأنه ذامة ومادحة قال: «وملخص الكلام: أن العباس لم يثبت له مدح، و رواية الكافي الواردة في ذمه صحيحة السند، و يكفي هذا منقصة له، حيث لم يهتم بأمر علي بن أبي طالب ﷺ، ولا بأمر الصديقة الطاهرة في قضية فدك، معشار ما اهتم في أمر ميزابه».[٣]

٢. إنه حتى على فرض القول بما ذهب إليه الشيخ التستري من منزلة إلا أنه لا يمكن أن يوازي بني هاشم غير المعصومين كأخيه حمزة بن عبد المطلب

(١) ذكر الشيخ اليوسفي في موسوعة التاريخ، أنها وردت في خطبة للإمام نقلت في مصادر متعددة، لكن انفرد كتاب سليم بن قيس بنقل هذا المقطع منها (.وبقيت في جلفين جافيين ذليلين حقيرين عاجزين؛ العباس وعقي (وعلق عليها: فهل يخطب بهذا خطبة عامة مع وجود أبنائهما معه! ﷺ حديث غريب.)ولكن نحوه عن الباقر في روضة الكافي.

(٢) المامقاني؛ الشيخ عبد الله: تنقيح المقال في علم الرجال ٢/١٢٧ (الطبعة الحجرية المطبعة المرتضوية).

(٣) الخوئي؛ السيد أبو القاسم: معجم رجال الحديث ١٠ / ٢٥٤.

في فدائه بنفسه وتضحيته من أجل الدعوة الالهية، ولا كابن أخيه جعفر الطيار ﷺ، وهذا بالإضافة إلى أنه ظاهر من خلال تتبع مواقفهما ومواقفه، هو ما تقتضيه طبيعة التعلق بالمال والتي قد تلازم أربابه، وهي ظاهرة في بعض التجار، ولعل هذا يفسر أيضا ما ورد من الروايات الذامة له، والذاكرة لتقصيره في ما يفترض منه من النصرة لحق أمير المؤمنين ﷺ.

وهذا يفتح بابا واسعا من المعرفة بالشخصيات، فإن بعض الباحثين قد يتوقعون في كل هاشمي أن يكون في الدرجة العليا المنتخبة والمصطفاة! بينما لا ملزم للالتزام بذلك، فلو استثنينا المعصومين الذين هم خيرة الله وصفوته في بريته، فإن سائر الهاشميين يتفاوتون تفاوتاً كبيراً في درجاتهم من حيث الوفاء والعطاء والتضحية.

أم أيمن بركة الحبشية
حاضنة النبي ﷺ

عن النبي أنه قال: (من أراد أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن)[1].

هي جارية حبشية كانت في ملك والده عبد الله، فلما توفي الوالد آلت إلى النبي ووالدته، فلما توفيت والدته المكرمة آمنة ورثها خالصة له ضمن ما ورث النبي ﷺ منها.

ويعبر عنها في لسان المحدثين والمؤرخين بأنها (حاضنة النبي). وذلك ربما لكونها مع النبي منذ كان صغيرا إلى أن أعتقها وتزوجت فيما بعد.

والحضانة هنا لا بالمعنى الفقهي الشائع عند الفقهاء، وهي التي تكون بالإضافة إلى «تربية الطفل وما يتعلق بها من مصلحة حفظه ورعايته في مدة الرضاع حولين كاملين وهي من حق أبويه بالسوية فلا يجوز للأب أن يفصله عن أمه خلال هذه المدة، والأفضل أن لا يفصله عنها حتى يبلغ سبع سنين (ذكرا أو أنثى)».

---

(١) ابن سعد؛ الطبقات الكبرى ٨/ ٢٢٤، والاصابة ٨/ ٣٥٩ وغيرهما.

و«لا يسقط حق الأم في الحضانة لو افترق الأبوان بفسخ أو طلاق قبل أن يبلغ الولد السنتين. مالم تتزوج من غير أبي الطفل. وأما لو تزوجت بعد فراق أب الطفل سقط حقها في حضانة الطفل وصارت الحضانة من حق الأب خاصة. وتنتهي الحضانة ببلوغ الولد رشيدا، فلو بلغ كذلك لم يكن لأحد حق الحضانة عليه بل هو مالك لنفسه ذكرا كان أو أنثى، وله الخيار في الانضمام لمن شاء منهما أو من غيرهما.»[١]

حضانة بركة الحبشية للنبي ﷺ لا ترتبط بالمعنى الفقهي السابق الذكر، وإنما هي أشبه بمساعدة له في شؤون حياته الشخصية، بعد ما كانت ملكاً له بالميراث.

وبالإضافة إلى ذلك فهذه الحالة هي من الحالات الاستثنائية وليست هي الحالة الطبيعية. وذلك أن النبي ﷺ بعدما فقد والده وهو في بطن أمه على ما هو المشهور، ثم فقد أمه وعمره في سن الخامسة، كان من الطبيعي أن يحتاج إلى من يساعده في القيام بشؤونه واحتياجاته الشخصية. التي لا يخلو من الحاجة إليها بشر، والعادة أن تقوم الأمهات جزاهن الله خيراً بهذه الشؤون إلى وقت متأخر، ربما يصل إلى قرب وقت زواج الولد، لكن نبينا ﷺ، قد فقد من يمكن أن يقوم بذلك.

فشؤونه الحياتية ضمن الإطار البشري من احتياج للغذاء وتجهيزه وطبخه واللباس وغسله وترتيبه، وسائر الأمور كانت تساعد فيها أم أيمن، ولو أنه كان في فترة من الفترات ضمن كفالة جده أبي طالب، وفيما بعد في كفالة عمه أبي طالب وزوجته فاطمة بنت أسد.

نقول إن هذه الحالة كانت استثنائية وتفرضها ضرورة الظروف آنئذ، وإلا فإن الحالة الطبيعية أن تتولى الأمهات الاهتمام المباشر بشؤون أطفالهن، وهنا لا بد

(١) السيستاني؛ السيد علي: منهاج الصالحين ٣/ ١٢.

أن نشير إلى ظاهرة غير حسنة، ربما وجدت في الفترات الأخيرة، وهي انشغال قسم من الأمهات، إما بداعي كونهن عاملات في أكثر النهار لتحصيل الرزق أو مساعدة الزوج في النفقات، أو لغيره من الأسباب، فيقمن بترك الأبناء والبنات على العاملات المنزليات، ويفرغن أيديهن بالكامل من الاعتناء بهؤلاء الأولاد، ولا ريب أن العاملات المنزليات مهما كنَّ مخلصات فإن آثارهن في نفسية الأطفال ليس هي الآثار المطلوبة الحسنة. إن أصل شعور الطفل بأن غير أمه هي التي تتولى أموره بالكامل منذ الصغر، يجعل عواطفه في غير الاتجاه الصحيح، فلا يرى لأمه حضوراً واضحاً في حياته، ولا يجد المكان العظيم الذي ينبغي لها في قلبه.

تخطيء الأم حين تتصور أن مسؤوليتها تنتهي بمجرد خروج الجنين من بطنها، ثم بعد ذلك تأخذه العاملة المنزلية الأجنبية وهي التي تحضر طعامه، وهي التي تبدل ملابسه وتعرف تفاصيل بدنه ما لا تعرفه الأم الأصلية ؟ ثم إذا كبر تعلم ماذا يصنع ؟ يأكل ؟ماذا جرى عليه مرضه وصحته ؟ ونومه ويقظته ! ورضاه وغضبه، ثم إذا كبر واحتاج للنزهة والترفيه هي معه يأنس بها ومعها ربما أكثر مما يأنس بأمه!! فيأنس لها أحياناً أكثر من أمه على أثر طول المدة و قربها منه وقيامه بشؤونه!

إن بعض الحالات كما مر لتصل إلى درجة الجناية والجريمة في حق الطفل.

لمثل هؤلاء الأمهات يقال: أيتها الأم إذا لم تجدي نفسك مهيأة أو مهتمة بتربية الطفل. لماذا أنجبتِه ؟ وأتيتِ به لهذه الدنيا ؟

من المهم أن نلاحظ هذا، وأنه كان في حالة رسول الله يقع في جانب الاضطرار، والنبي لم يكن في تلك السن المبكرة جداً، وإنما من أبناء خمس سنين. وما تم المصير إليه إلا بعد أن فقد أمه الماجدة آمنة عليها السلام.

هاتان نقطتان تمهيديتان، وأما

النقطة الثالثة: بمناسبة الحديث عن كونها جارية مملوكة، فربما يُسأل حول موضوع الجواري والعبيد وكيف أن المعصومين يملكون جواري وعبيداً؟ أليس في هذا إهانة للمرأة ؟ لماذا لم يحرروهن مباشرة ؟

الجواب: الإسلام دين واقعي في حل المشاكل وهذا من أسباب كونه دين الخاتمية.

وفيما يرتبط بمسألة العبيد فقد كان النظام الاجتماعي العام في كل العالم قائماً على الإقرار بالجواري والعبيد وكان جزءا من النظام الاقتصادي يقوم على أساس بيعها وشرائها، بل وإن قسما من عمليات الانتاج والزراعة وغيرها تقوم عليهم، كما كان قسم من النظام الاجتماعي يرتبط بهم فبيوت الأكثر من الناس من الطبقات المتوسطة والثرية لا تخلو من الجواري والعبيد.

وكانت مناشيء متعددة ترفد الأسواق بالجديد من هؤلاء. فالحروب التي كان تحصل بين الدول، بل حتى بين القبائل كانت تضخ في هذه الأسواق المزيد منهم[(١)]. فمثلا زيد بن حارثة وهو أحد أزواج أم أيمن إنما استرق على أثر غزوة بين قبيلتهم وقبيلة أخرى، وتم بيعه في مكة المكرمة، ليصبح عند النبي ﷺ ويقوم بتحريره فيما بعد.

٢. كما أن بعض حالات الفقر عند قسم من العوائل تدفعها إلى بيع أولادها لأصحاب المال إما لأنهم لا يستطيعون إعالتهم أو رغبة في الحصول على المال.

كما أن بعض هؤلاء كانوا (أو كن) يختطفون أو يسرقون من أماكن عيشهم ويجلبون إلى مناطق أخر، على أنهم عبيد وإماء. ولم يكن لهم طريق غير الخضوع!

---

(١) علي؛ د/ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب ١٠/ ٢٤٥.

جاء الإسلام والوضع في العالم ومنه المنطقة العربية بهذا النحو، وكان إما أن يقول أنا لا أعترف بهذا وكل العبيد أحرار! وبطبيعة الحال لن يسمع أحد لهذا القرار، فإن هؤلاء كانوا بمثابة ثروات عند ملاكهم!! فكما كان الواحد منهم يحسب أن من أملاكه العقار والأرض والناقة والفرس كان يحسب وجود العبيد والجواري جزءا من هذه الأملاك! فلن يستجيبوا بمجرد إقرار قانون يجرم امتلاك العبيد أو يعتبرهم أحرارا بحكم القانون!

إنما الطريق السليم الذي اتبعه الإسلام، أنه وضع تشريعات إلزامية وأخرى استحبابية تنهي مع مرور الزمن ظاهرة الرق والعبيد والجواري!

أولا: فمن التشريعات الالزامية؛ الكفارات وهي عقوبة إلهية على ارتكاب بعض الذنوب، وكفارتها: تحرير العبد أو الجارية، وهو ما يعبر عنه في الفقه بعتق الرقبة. فمثلا القتل الخطأ يوجب بالإضافة إلى الدية لأهل القتيل وولي الدم، عتق رقبة وهو بمثابة حق الله سبحانه ليعفو عن القاتل!

بل وكذلك القتل العمدي فإن كفارته قبل أن يُقتل قصاصا أن عليه عتق رقبة

وكفارة الصيام مخيرة بين خصال ثلاث (عتق رقبة - إطعام ٦٠ مسكين- صيام شهرين متتابعين).

وكفارة ظهار الرجل امرأته وهو قوله لها أنتِ علي كظهر أمي، يوجب عليه عتق رقبة قبل أن يمسها ويقاربها.

وكفارة الحنث باليمين والعهد والحلف فيها عتق رقبة فإن لم يستطع فصيام ثلاثة أيام وهكذا.

ولو تصور شخص عدد الأفراد الذين يفطرون في نهار الصيام على مستوى

العالم الإسلامي كله، لا ريب أنه يتجاوز مئات الآلاف، ولو تم التكفير من قبل هؤلاء بتحرير الرقبة باعتبارها أسهل بلا شك من صوم شهرين متتابعين! وهكذا لو تم حساب عدد الأشخاص الذين يحنثون في يمينهم أو عهدهم أو نذرهم واختاروا التكفير بتحرير الرقبة، وتم حساب ذلك مع السنوات المتتاليات، لا شك أنه سوف لا يبقى عبد أو جارية إلا وتحررا.

يضاف إلى ذلك أن من نكح جارية بملك اليمين وانجبت له ولدا تنعتق تلقائيا بمجرد وفاة ذلك الشخص.

وثانيا التشريعات الاستحبابية: فإن عتق اليمين من أهم المستحبات فقد وردت الأحاديث الكثيرة بالحث على العتق، فمن ذلك ما روي عن الإمام جعفر الصادق في حديث أن فاطمة بنت أسد قالت لرسول الله يوما: إني أريد أن أعتق جاريتي هذه! فقال لها: إن فعلت أعتق الله بكل عضو منها عضواً منك من النار. وكذلك روي عنه (أن أمير المؤمنين عليه السلام أعتق ألف مملوك من كد يده)[1] ونقل مثل ذلك عن الإمام زين العابدين عليه السلام وأنه كان إذا دخل شهر رمضان اشترى عدداً من العبيد والجواري وجعلهم عنده سنة كاملة يعلمهم ويثقفهم لرمضان التالي في العيد يعتقهم أحراراً لوجه الله.

الاتفاق والمكاتبة: وهو يقضي بأن يتوافق المالك والمملوك على أن يؤدي المملوك لمالكه مقادير من المال، فإذا أداها له انعتق وتحرر. وربما يكون الحديث المروي عن رسول الله في مساعدة العبد المكاتَب ناظراً إلى هذا ومحرضا عليه: فعن رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وآله أنه قال: (مَنْ أَعَانَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ غَارِمًا فِي عُسْرَتِهِ أَوْ مُكَاتَبًا فِي رَقَبَتِهِ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ).

(١) وسائل الشيعة ١٦ / ص ٤.

نعود إلى بركة الحبشية التي ورثها النبي فقد كانت تخدمه وتقوم بشؤونه حتى تزوج من السيدة خديجة بنت خويلد، فأعتق بركة وقال لها أنت حرة لوجه الله، ولحاجتها للزوج فقد سعى في تزويجها، فتزوجها رجل يقال له عبيد بن الحارث وأنجبت له أيمن، وهو الذي كنيت به.

أيمن بن أم أيمن، وابن عبيد بن الحارث كان من المسلمين في مكة وهاجر إلى المدينة برفقة الإمام علي عليه السلام بعد النبي، وشارك في غزوة حنين وكان في العشرة الثابتين مع رسول الله حتى استشهد فيها السابقين إلى الإسلام ونقل(١) انه روى عن أمه أم أيمن عن رسول الله صلى الله عليه وآله حديثا في قطع يد السارق.

نفسها بركة كانت مع الرسول في المدينة توفي عنها زوجها عبيد فقال رسول الله صلى الله عليه وآله في وسط المسلمين كما روي (من أراد أن يتزوج إمرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن). وهذه شهادة مهمة من النبي لها بأنها من أهل الجنة! مع أنها كانت كما ينقل المؤرخون إمرأة في غاية البساطة في الفهم وطيبة القلب. وهذا ينبه على أن فكرة بعضهم من أن أهل الجنة هم أهل الثروات أو الشخصيات الاجتماعية المهمة في الدنيا ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾(٢)هذه الفكرة ليست صحيحة.

بعد موت زوجها الأول عبيد، وقد أنجبت منه ولدها أيمن، تزوجها زيد بن حارثة (حِب رسول الله صلى الله عليه وآله) وأنجبت منه أسامة بن زيد، فأسامة وأيمن أخوان من الأم.

(١) شكك بعض الحفاظ في كون الحديث المروي في موضوع السرقة والقطع فيها صحيح النسبة لأيمن بن بركة الحبشية !

(٢) الكهف / ٣٦.

وينقل عنها الكثير من المواقف المشيرة إلى بساطتها وطيبتها الداخلية. وكان رسول الله وهو اللطيف الباسم يلاطفها بحسب بساطتها، فيقال أنها طلبت ذات مرة أن يحملها على بعير هبة منه لها. فقال لها لا أحملك إلا على ولد الناقة! فقالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُطِيقُنِي وَلاَ أُرِيدُهُ، فَقَالَ: لاَ أَحْمِلُكِ إِلاَّ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ!! وبينما كان الرسول يبتسم قال الحاضرون: يا أم أيمن وهل يلد البعيرَ إلا الناقةُ؟

وينقل أنها سمعت النبي ﷺ، يقول إن عليا أخي![1] فقالت له: أخوك وتزوجه ابنتك؟[2]وقد كانت تتصور أنها أخوة النسب، بينما معنى كلامه أنه مثيلي مثل ما تقول هذا الكأس أخ هذا الكأس، أي مثله ونظيره لا يفترق عنه في شيء. أو هو بمعنى الإخاء الذي صار في المدينة لما آخى بين المهاجرين والأنصار واختص عليا بأخوته بمعنى أقرب الناس إليه. لكنها لم تلتفت لهذه المعاني.

وينقل أنها أيضا كانت عسراء اللسان ونطقها الكلمات العربية لم يكن كما ينبغي، فكان يبتسم ويرشدها إلى ما ينبغي قوله، فمثلا كان أصحابه يدخلون عليه ويقولون: سلام الله عليك يا رسول الله!! وكانت هي تقول: سلام لا عليك فكان

---

(١) الهندي؛ المتقي: كنز العمال ١٣/ ١٤٠: عن علي قال: آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الناس وتركني، فقلت: يَا رَسُولَ اللَهِ! آخَيتَ بَينَ أصحابك وتَرَكتَنِي؟ قَالَ: ولِمَ تَركتُكَ؟ إِنَّمَا تَرَكتُكَ لِنَفسِي، أَنْتَ أَخِي وأَنَا أَخُوكَ فإِن حاجك أَحَدٌ، فَقُلْ: أَنَا عَبدُ اللهِ وأَخُو رَسُولِ اللَهِ، لاَ يَدَّعيها أحد بَعْدِكَ إِلاَّ كَذَّابٌ!

وقد ذَكَرَ العَلَّامَةُ الأَمِيْنِيُّ فِي مَوْسُوْعَةِ " الغَدِيْرِ " ٣ / ١١٣، خَمْسِيْنَ حَدِيْثاً مِمَّا رَوَتْهُ مَصَادِرُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي مَوْضُوْعِ المُؤَاخَاةِ هَذِهِ، وأشار إلى بعض معاني الأخوة تلك بقوله: وَمِنْ أَدَلِّ دَلِيْلٍ عَلَى عِظَمِ مَنْزِلَةِ عَلِيٍّ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَنِيْعُهُ فِي المُؤَاخَاةِ فَإِنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ يَضُمُّ الشَّكْلَ إِلَى الشَّكْلِ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمَا.

(٢) عن أم سلمة:.لما أهديت فاطمة إلى علي لم نجد في بيته إلا رملا مبسوطا ووسادة ليف وكوز وجرة فأرسل إليه النبي ﷺ وسلم (أن) لا تقرب أهلك حتى آتيك.فجاء (بعد) النبي ﷺ وسلم فقال: أين أخي؟ فقالت أم أيمن: لهو أخوك وزوجته ابنتك ؟! فقال رسول الله ﷺ: إن ذلك يكون يا أم أيمن.

النبي يقول لها قولي سلام عليك.

عسر اللسان هذا، والبساطة الظاهرة عليها لم يمنعاها أن تبصر الحق وتتمسك به إذ هي من أهل الجنة فلا بد أن تكون كذلك.

فعندما استدعيت لتشهد في قضية فدك وأنها نحلة النبي لفاطمة ابنته، في الوقت الذي كانت الخلافة القائمة بعد النبي تريد مصادرتها والاستيلاء عليها، فقبل أن تشهد استنشدتهم: ألم تسمعوا رسول الله أنه قال إني من أهل الجنة؟

قالوا: نعم!

وهي بذلك تريد أن تقول أنا لا أشهد زوراً.

فقالت لهم: إني أشهد أن رسول الله أعطى فاطمة فدكاً.

كان رسول الله قد توفي فحزنت عليه حزناً شديداً بادياً عليها، فسئلت عن ذلك فقالت بلى: أوَ لم ينقطع به وحي السماء؟

وبقيت على عهد الولاء مع أهل البيت فمثلما كانت مع فاطمة منذ أيام زفافها إلى أن شهدت لها في حقها وإلى أن مرضت فاطمة فكانت تلازمها وترعاها إلى أن انقضت حياة فاطمة الزهراء سلام الله عليها.

فاطمة بنت أسد الهاشمية
جدة المعصومين

(أشهد أنكِ أحسنتِ الكفالة وأديتِ الأمانة واجتهدتِ في مرضاة الله وبالغتِ في حفظ رسول الله عارفة بحقه مؤمنة بصدقه معترفة بنبوته مستبصرة بنعمته فرضي الله عنكِ وأرضاكِ وجعل الجنة منزلكِ ومأواكِ).[1]

تلتقي فاطمة بنت أسد والدة الإمام علي وزوجة أبي طالب مع النبي ﷺ في جدهما الأعلى هاشم، فهو ﷺ: بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وهي بنت أسد بن هاشم، وجده الأول عبد المطلب أخ لوالدها أسد وهما أبناء هاشم.

وهي تشبه سيدتنا خديجة بنت خويلد عليها السلام التي كانت أماً لأثني عشر معصوماً وكذلك فاطمة بنت أسد فهي أم اثني عشر إماماً معصوما عليهم وعليها السلام

تزوجها أبو طالب بعد أن خطبها من أبيها أسد وألقى في ذلك الموضع خطبة النكاح وكانت هذه الخطبة من الوثائق التاريخية المهمة التي تضاف الى بقية كلماته والتي تعرب عن عقائده قبل بعثة رسول الله ﷺ، ولأنها كذلك فسنعرض لنص هذه

(١) المشهدي؛ محمد بن: المزار ١ / ٩٣: زيارة فاطمة بنت أسد.

الخطبة وبعض معانيها.

قال: (الحمد لله رب العالمين رب العرش العظيم والمقام الكريم والمشعر والحطيم الذي اصطفانا أعلاما وسدنة وعرفاء خلصاء وحجج بهاليل.)(١).

يعتبر الاصطفاء من العقائد التي يلتزم بها أتباع الديانات التوحيدية وقد ركز عليها القرآن الكريم وأحاديث النبي والمعصومين ففي الكتاب ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إبراهيم وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.(٢)

يتحدث أبو طالب عن هذه الفكرة. ولكن متى؟ حين تزوج قبل حوالي ثمانية وعشرين سنة من بعثة الرسول ﷺ.هذا الرجل الإبراهيمي يتكلم عن عقيدة الموحدين في اصطفاء الله عز وجل ويقول: اصطفانا اعلاما وسدنة (السادن هو الحافظ والخادم لبيت الله الحرام) وعرفاء خلصاء وحجبة بهاليل.

قد تقدم ذكر الحجابة والسدانة للبيت الحرام، وأنها كانت منصباً دينياً، اختص به بنو عبد مناف، ثم انتقلت في أبنائه وأحفاده، حيث وقفوا أنفسهم على خدمة بيت الله الحرام وإطعام الحجيج إليه وسقايتهم.

وقال: (أطهاراً من الخنى والريب والأذى والعيب) فنحن أناس لسنا مشوبين بما تُشاب به بعض العوائل من الزنا والمفاسد الأخلاقية من تهتك النساء (هذا هو

(١) الري شهري؛ محمدي: موسوعة الإمام علي بن أبي طالب ١/ ٥٨:خَطَبَ أبو طالِبٍ في نِكاحِ فاطِمَةَ بِنتِ أسَدٍ: الحَمدُ للّه رَبِّ العالَمينَ رَبِّ العَرشِ العَظيمِ، وَالمَقامِ الكَريمِ، وَالمَشعَرِ وَالحَطيمِ، الَّذِي اصطَفانا أعلاما وسَدَنَةً، وعُرَفاءَ وخُلَصاءَ، وحَجَبَةً بَهاليلَ، أطهارمِنَ الخَنا وَالرَّيبِ، وَالأَذى وَالعَيبِ، وأقامَ لَنَا المَشاعِرَ، وفَضَّلَنا عَلَى العَشائِرِ، نُخَبَ آلِ إبراهيمَ وصَفوَتَهُ، وزَرعَ إسماعيلَ في كَلامٍ لَهُ. ثُمَّ قالَ: وقَد تَزَوَّجتُ بِنتَ أسَدٍ، وسُقتُ المَهرَ، ونَفَّذتُ الأَمرَ، فَاسأَلوهُ وَاشهَدوا. فَقالَ أسَدٌ: زَوَّجناكَ ورَضينا بِكَ.

(٢) آل عمران / ٣٣.

الخنى) بل حتى الريب والارتياب والشك الذي هو من العيوب الداخلية وعيوب القلب والجوانح وهي نقائص في المجال العقيدي.

وأقام لنا المشاعر وفضلنا على العشائر (المشاعر التي ترتبط بالشعائر الإبراهيمية من مناسك حج وغيرها).

نحن نخب إبراهيم وصفوته، نحن خلاصة هذا النبي العظيم عليه السلام ونحن زرع اسماعيل.

وهذه تشابه تماما في مضامينها خطبة النكاح التي ألقاها في خطبة خديجة عليها السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله، مع إضافة يقتضيها المقام هناك وهي ذكر صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله ورجحانه على كل من عداه، وإن كان مقلا في المال، فإنه ظل زائل!

ثم قال: وقد تزوجت فاطمة بنت أسد وسقت مهرها فاشهدوا على ذلك فقال عمه أسد قد قبلنا ذلك وزوجناك وأمر بالطعام وأطعموا فكان هكذا الزواج.

أنجبت فاطمة لأبي طالب أربعة من البنين واثنتين من البنات؛ فمن البنين: طالب وعقيل وجعفر والإمام علي عليه السلام.أما طالبٌ فقد ذكر أنه خرج فيمن أخرج مع بني هاشم مكرهين في قضية بدر كما أشار اليها النبي صلى الله عليه وآله ولم يعثر له بعد ذلك على خبر فلا هو رجع الى مكة ولا وصل الى المدينة ولا عثر عليه في القتلى!

وأما عقيلٌ وجعفرٌ والإمامُ عليٌّ أسلموا وادوارهم وقضاياهم معروفة في تاريخ الإسلام وأما البنتان فإحداهما كانت أم هاني واسمها فاختة، وورد ذكرها في حديث الرسول صلى الله عليه وآله عن الحسنين (... ألا أخبركم بخير الناس عماً وعمةً وخالًا وخالة ففي العم والعمة قال عمهما جعفر وعمتهما أم هاني بنت أبي طالب...).[١]

---

(١) المجلسي؛ محمد باقر: بحار الأنوار ٤٣/ ٣٠٢.

ولادة في جوف الكعبة

يرتبط اسم فاطمة بنت أسد بحدث لا سابقة له ولا لاحقة، وهو ولادتها ابنها علياً في جوف الكعبة، فقد ذكر المحدثون والمؤرخون ومنهم الحاكم النيشابوري في كتابه المستدرك على الصحيحين أن أمر ولادتها إياه في الكعبة من الأحاديث المتواترة، فقال وهو يرد على دعوى مصعب الزبيري بأنه لم يولد قبل ولا بعد حكيم أحدٌ، قال وهِمَ مصعب في هذا: (فقد تواترت الأخبار[١] أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه في جوف الكعبة).[٢]

ولمن أراد مزيدا من التحقيق وتفصيل النظر في رواة روايات حكيم وميزانها السندي، فليرجع للكتب المختصة في هذا الموضوع.[٣]إلا أنه في موضع آخر قال إنه لم يولد قبل الإمام ولا بعده في البيت أحد سواه! إذ نقل الكنجي الشافعي ت٦٥٨هـ عن الحاكم: (ولد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب بمكة في بيت الله الحرام ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل،

---

(١) الناظر لما نقل عن النيشابوري صاحب المستدرك يلاحظ، ثلاثة أنماط من معالجة قضية الولادة في الكعبة فهو في احدى الروايات يشير إلى أن حكيم بن حزام قد ولد في الكعبة (سمعت أبا الفضل الحسن بن يعقوب، يقول: سمعت أبا أَحْمَد محمّد عبد الوهاب، يقول: سمعت عليّ بن عثام العامري، يقول: ولد حكيم بن حزام في جوف الكعبة، دخلت أمه الكعبة فمخضت فيها فولدت في البيت) ويمر عليها، ثم تأتي رواية أخرى في موضع آخر في كتابه المستدرك وفيها، ينفي أن يكون حكيم وحده الذي ولد فيها بل تواترت الأخبار في شأن علي عليه السلام، ويعتبر مصعبا الزبيري واهما في قوله بأن حكيما هو الوحيد! ثم في موضع ثالث كما نقله عنه الكنجي الشافعي في كفاية الطالب / ٤٠٧ يصرح بأن المولود في الكعبة هوعلي عليه السلام ولم يولد قبله ولا بعده مولود فيها!! ويحتمل أن تكون هذه الرواية الثالثة هي التي تتفق مع ما يعتقده!

(٢) النيشابوري؛ المستدرك على الصحيحين ٣/ ٥٥٠.

(٣) ومنها: علي وليد الكعبة للعلامة الأردوبادي، وكتاب فضائل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام المنسوبة لغيره للدكتورجواد كـاظم منشد النصر الله.

ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله الحرام سواه، إكراماً له بذلك، وإجلالاً لمحله في التعظيم).[١]

وقد تبنى هذا الرأي عامة شيعة أهل البيت عليهم السلام، ومعهم فريق كبير من سائر المسلمين، بينما عدل بهذه المنقبة فريق آخر، كما عدلوا بقتله مرحباً إلى محمد بن مسلمة الأنصاري، عدلوا بهذه المنقبة إلى حكيم بن حزام بن خويلد!

فقد ذكر مسلم النيشابوري في صحيحه وهو أقدم من ذكر هذه المنقبة مرسلة من غير سند، عند الحديث عن حكيم هذا قال: ومن مناقبه أنه ولد في الكعبة، قال بعض العلماء ولا يعرف أحد شاركه في هذا!!

وينبغي تسجيل هاتين النقطتين هنا: الأولى أنه لم يعثر على ذاكر لهذه المنقبة لحكيم بن حزام قبل مسلم بن الحجاج النيشابوري المتوفى سنة ٢٦١ هـ. إلا ما سيأتي من ذكر الزبير بن بكار لها.

والثانية أن ذكره لها هو من غير إسناد! بل هو رأي من جهته أو اعتقاد له! وهذا مما يضعفه. فإذا كان مسلم لدى البعض معتبراً فإنما هو من جهة كونه محدثاً وراوياً. وهو هنا لم يروِ!

وأوضح منه في الارسال وعدم وجود السند من جاء بعده،[٢] كالنووي وابن حجر العسقلاني وغيرهم. بل لقد أوضح ابن حجر مصدر تلك الفكرة، ومن أين جاءت فقد قال ابن حجر العسقلاني (المتوفى ٨٥٢ هـ) قائلاً: (وحكى الزبير بن

---

(١) الشافعي الكنجي؛ كفاية الطالب في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب / ٤٠٧.

(٢) انتهى الدكتور جواد النصر الله إلى نتيجتين بعد بحثه التفصيلي١ :ـ إن روايات ولادة حكيم مرسلة بأكملها، فلا توجد هناك رواية واحدة كاملة الإسناد٢ ـ.لو قلنا بصحة الولادة مع ضعف رواياتها فإنها جاءت مصادفة وليست نتيجة قصد من أم حكيم بن حزام.

بكار أن حكيم بن حزام ولد في جوف الكعبة، قال وكان من سادات قريش في الجاهلية والإسلام).[(١)]

فإن الزبير بن بكار الأسدي القرشي (من نسل عبد الله بن الزبير) المتوفى سنة ٢٥٦ هـ. لا يمكن أن يروي عنه ابن حجر مباشرة فالكلام عنه مرسل، ونفسه الزبير بن بكار الذي يفصله عن حكيم بن حزامبن خويلد نحو ٢٠٠ سنة عن وفاته، أيضا خبره عنه مرسل، نعم لما كان حكيم بن حزام بن خويلد يكون ابن عم الزبير بن العوام بن خويلد (والزبير بن بكار من نسله)، فقد تمت سرقة هذه المنقبة ونسبت له، ثم شاعت وانتشرت. وليس بعيدا أن يكون مسلم بن الحجاج النيشابوري قد نقل ذلك عن الزبير بن بكار الزبيري من غير أن ينسبها صراحة له، ولعله لإمكان تطرق التهمة إليه باعتبار أنه يكون ابن عم لجده الزبير!

ولم يكن يستطيع أحدٌ لا في زمان الأمويين ولا العباسيين أن ينسب لأمير المؤمنين عليه السلام الفضائل الثابتة له.[(٢)]

ميزات حكيم بن حزام!:

ولعلك تسأل ما هي ميزة حكيم بن حزام على سائر البشر؟ هل في أنه لم يسلم إلا بعد الفتح ويعني ذلك أنه أسلم بعد نحو عشرين سنة من بداية بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم (١٣

---

(١) العسقلاني؛ ابن حجر؛ تهذيب التهذيب ٢/ ٤٤.

(٢) فإنه لما طلب خالد القسري وهو أحد ولاة بني أمية من محمد بن شهاب الزهري أن يكتب له سيرة النبي ومغازيه، وكان يعرف موقف خالد القسري من الإمام علي عليه السلام سأله ابن شهاب الزهري قائلاً: (إنه يمر بي الشيء من سير علي بن أبي طالب فأذكره؟ فقال خالد: لا، إلا أن تراه في قعر الجحيم). وأما العباسيون فيكفي قصة المحدث الجهضمي الذي نقل أن من أحب النبي وعليا وابنيه وفاطمة عليهم السلام كان مع رسول الله في الجنة، فأمر به أن يضرب ألف سوط لولا وساطات نفت عنه تشيعه لعلي بن أبي طالب!!

سنة في مكة + ٦ سنوات حتى تم فتحها من المدينة) ؟ وهل في أنه عُدّ من (المؤلفة قلوبهم)[١] الذين كانت ترضخ لهم الرضائخ لكي يبقوا على ظاهر الإسلام ؟

يفترض أن الولادة داخل الكعبة مقام تعظيم وتشريف، لماذا؟

لأنه يتم به تجاوز القانون، الذي يقضي بأن ﴿طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[٢]فلابد أن يكون البيت طاهراً، ومعلوم أن أي امرأة تلد لابد أن تنفس والنفاس حالة مجانبة للطهارة المادية والمعنوية، هذا من جهة ومن أخرى أن الكعبة هي أقدس بقعة كما هو المركوز في اذهان المسلمين بل غير المسلمين فالذي يولد فيها يفترض أن يكون له مميزات تؤهله لهذا!

نعم له ميزة لعلها تكون قد شفعت له وهي أنه من أقارب الزبيريين لأن الزبير بن العوام بن خويلد وهو كذلك حكيم بن حزام بن خويلد فهم معه أبناء عمومة. ولما بدء بكتابة السيرة والتاريخ الإسلامي فإن قسما كبيرا منه كان مما كتبه الزبيريون عروة والزبير بن بكار.

كانت الخطوة الأولى إنكار بعض المعاندين المتقدمين هذه المنقبة لأمير المؤمنين وإلصاقها بحكيم بن حزام.

وأما الخطوة الثانية فهي من بعض المتأخرين وهي بعد أن لم يتم لهم ما أرادوا من الخطوة الأولى إلغاء كونها منقبة، قالوا ماهي قيمة أن يولد أحدهم في الكعبة؟ الكعبة التي ملئت بالأصنام لا قيمة للولادة فيها فلو يولد الشخص في بيته أفضل من

(١) قاله عنه ابن عبد البر؛ في الاستيعاب ١/ ٣٦٢، والمؤلفة قلوبهم: يطلق على قسم من المسلمين ممن كان اعتقادهم الداخلي بالإسلام ضعيفا فكانوا يعطون مبالغ مالية لكي يثبتوا على دين الإسلام، فهو ليس منقبة وإنما مثلبة وغمز.

(٢) الحج ٢٦.

أن يولد في وسط الأصنام!!

إذن. فعلامَ التهالك من قبل المتقدمين على إثباتها لفلان؟ وعلى أنه لم يولد أحد قبله ولا بعده فيها؟ وأن هذا كما قال مسلم بن الحجاج: قول العلماء؟!

وهل الولادة في الكعبة لا سيما في الصورة الاعجازية[١]التي جرت في شأن فاطمة بنت أسد وولادتها أمير المؤمنين هي كولادة الشخص في وسط بيته؟ وهل أن وجود الأصنام فيها بفعل الكفار يجعلها بلا قيمة؟ لقد قال الله سبحانه في الصفا والمروة وهما لا يبلغان شيئا من قداسة الكعبة ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[٢] على أثر تردد بعض المسلمين من السعي بينهما لوجود أصنام على الطرفين. فأخبرهم الباري أنهما من شعائر الله وأن وجود تلك الأصنام بفعل الكفار لا يضر بشعاريتها.

---

(١) الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: الأمالي ١/ ١٩٤:.عن سعيد بن جبير، قال: قال يزيد بن قعنب: كنت جالساً مع العباس بن عبد المطلب وفريق من عبد العزى بإزاء البيت الحرام إذ أقبلت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين عليه السلام وكانت حاملة به تسعة أشهر، وقد أخذها الطلق فقالت: ربي إنيّ مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإنيّ مصدقة بكلام جدي إبراهيم الخليل عليه السلام، وأنه بنى البيت العتيق، فبحق الّذي بنى هذا البيت وبحق المولود الّذي في بطني لمّا يسرت عليّ ولادتي.

قال يزيد بن قعنب: فرأينا البيت وقد انفتح عن ظهره، ودخلت فاطمة وغابت عن أبصارنا والتزق الحائط، فرمنا أن يفتح لنا قفل الباب، فلم ينفتح فعلمنا أن ذلك أمراً من الله تعالى، ثمّ خرجت بعد الرابع وبيدها أمير المؤمنين عليه السلام، ثمّ قالت: إنّي فضلت على من تقدّمني من النساء، لأنّ آسية بنت مزاحم عبدت الله سراً في موضع لا يحب أن يعبد الله فيه إلاّ اضطراراً، وأنّ مريم بنت عمران هزت النخلة اليابسة بيدها حتّى أكلت منها رطباً جنياً، وإنيّ دخلت بيت الله الحرام وأكلت من ثمار الجنة وأرزاقها، فلمّا أردت أن أخرج هتف بي هاتف يا فاطمة سمّيه عليّاً فهو عليّ والله العلي الأعلى يقول: إنيّ شققت اسمه من اسمي وأدبته بأدبي ووقفته على غامض علمي وهو الّذي يكسر الأصنام في بيتي وهو الّذي يؤذن فوق ظهر بيتي ويقدسني ويمجدني فطوبى لمن أحبّه وأطاعه وويل لمن عصاه وابغضه.

(٢) البقرة / ١٥٨.

كان عليٌّ ابنها هو الفخر الأول وإن كان في الترتيب من حيث الولادة هو الأخير من الذكور، غير أنها أنجبت لأبي طالب: بكرهما طالباً وبه كان يكنى ثم عقيل والدُ وجدُّ العدد المهم من شهداء كربلاء وجعفر الطيار بطل الإسلام في الحبشة وشهيد مؤتة، ويأتي الحديث عنه، كما أنجبت له ابنتين أم هانئ وجمانة.

الحانية على النبي زوجة الكفيل

منذ أن ضم أبو طالب إليه النبي ﷺ في بيته، بعد وصية عبد المطلب، والنبي يحظى باهتمام استثنائي من جهة فاطمة بنت أسد، طيلة ما يقارب سبع عشرة سنة هي من زمان وفاة جده عبد المطلب إلى حين زواجه بالسيدة خديجة بنت خويلد وعمره المبارك ٢٥ سنة. وبمقدار ما كان اهتمامها قريباً بالنبي كانت ترى آيات كرامته ولطف الله به، فمن ذلك ما ينقل عنها مما فيه إشارات لتقديمها إياه على ابنائها على خلاف طبيعة الأمهات(١).

قالت: كان في بستان دارنا نَخلات، وكان أوّل إدراك الرُّطَب، وكان أربعون صبيّاً من أتراب محمّد ﷺ يدخلون علينا كلّ يوم في البستان ويلتقطون ما يسقط، فما رأيت قطّ محمّداً أخذ رُطبةً من يدِ صبيّ سَبَقَ إليها، والآخرون يختلس بعضُهم من بعض. وكنتُ كلّ يوم ألتقط لمحمّد ﷺ حَفنةً فما فوقَها، وكذلك جاريتي. فاتّفق يوماً أن نَسيتُ أن ألتقط له شيئاً ونَسِيَتْ جاريتي، وكان محمّد ﷺ نائماً، فدخل الصِّبيان وأخذوا كلّ ما سقط من الرطب وانصرفوا، فنمتُ ووضعتُ الكُمّ على

(١) المجلسي؛ محمد باقر: بحار الأنوار ٣٥ .ما أشار إليه النبي في حديثه مع عمار بن ياسر لما صلى عليها وكبر عليها تلك التكبيرات الكثيرة، فسأله عمار، فقال النبي: يا أبا اليقظان، واهلُ ذلك هي منّي، لقد كان لها من أبي طالب ولدٌ كثير، ولقد كان خيرهم كثيراً، وكان خيرنا قليلاً، فكانت تشبعني وتجيعهم، وتكسوني وتعريهم، وتدهنني وتشعثهم».

وجهي حياءً من محمّد إذا انتبه.

قالت: فانتبه محمّد ودخل البستان، فلم يَرَ رطبةً على الأرض فانصرف، فقالت له الجارية: إنّا نَسِينا أن نلتقط شيئاً، والصِّبيان دخلوا وأكلوا جميع ما سقط.

قالت: فانصرف محمّد ﷺ إلى البُستان، وأشار إلى نخلة وقال: أيّتها الشجرة أنا جائع. قالت: فرأيتُ الشجرة قد وَضَعتْ أغصانَها التي عليها الرُّطب حتّى أكل منها محمّد ﷺ ما أراد، ثمّ ارتفعتْ إلى موضعها.[١]

حتى إذا بعث النبي، وأعلن دعوته ورسالته، وسارع زوجها أبو طالب إلى إبراز استعداده لنصرته، والإيمان سراً به، وقبل ذلك التحق ابنها علي وكان رسول الله أكبر منه بثلاثين سنة تقريبا بهذه الدعوة مدافعا عن النبي ومرافقا له، وكانت هي قد رأت من آيات إعجازه وكرامته ما لم يره غيرها، سارعت إلى الإيمان به والإسلام على يديه. وكانت سادس من أسلم سابقة لأصحاب الأسماء المشهورة واللافتات العالية! وقد بقيت مع زوجها أبي طالب إلى آخر أيام حياة أبي طالب قبل الهجرة إلى المدينة، وفي هذا ما أشرنا إليه عند الحديث عن أبي طالب وإيمانه.[٢]

عانت كما عانى زوجها وأبناؤها والمسلمون حياة الشظف والجوع في شعب أبي طالب، ودفعوا ضريبة الإيمان كاملة، إلى أن توفي أبو طالب في السنة العاشرة من البعثة بعد أن قضوا ثلاث سنوات في الحصار الاقتصادي والاجتماعي، لتهاجر بعدها برفقة ابنها عليّ عليه السلام، وبقية الفواطم الى المدينة بعد ان هاجر النبي قبلهم إليها. وشهدت إحدى ملاحم بطولة ابنها عندما رد هجوم عبيد القرشيين الذين حاولوا

(١) الراوندي؛ قطب الدين: الخرائج والجرائح ١/ ١٣٨.

(٢) ابن أبي الحديد؛ شرح نهج البلاغة: حين سئل الإمام علي بن الحسين عليه السلام عن إيمان أبي طالب قال: وا عجبا إن الله نهى رسوله أن يقر مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات.

عبثا أن يرجعوا ظعن النساء إلى مكة ويمنعوه من الاستمرار إلى المدينة.

وبعد مسافة طويلة طوتها النساء في الصحراء وصلن إلى المدينة المنورة، وقد تفطرت قدما ابنها علي بن أبي طالب عليه السلام، حتى داواها رسول الله صلى الله عليه وآله.

فرحتها الكبرى بزواج عليّ من فاطمة

في السنة الثانية من الهجرة، وبعد أن استقرت الأمور برسول الله وأمير المؤمنين، ها هو علي يتقدم لرسول الله طالباً يد فاطمة. وبنت أسد تعرف من هي فاطمة وماذا تكون، فلقد كانت تحت عين رعايتها منذ أن توفى الله أمها خديجة في نفس السنة التي توفي فيها أبو طالب. فنعمت عينها بأن اقترن النوران بعد أن رد النبي من تقدم لفاطمة واختص علياً كما اختصه الله وزوجه كما زوجه الله، لتتواصل الإمامة والنبوة عبر فاطمة، ولتكون ذرية النبي من رحم فاطمة وصلب علي عليهما السلام.

وقد كانت نعم أم الزوج لفاطمة، فها هي توصيه بأن يكفي فاطمة سقاية الماء، وأن يجعلها على ما في البيت، وهو نفس الأمر الذي تشير بعض المرويات من أن فاطمة سألت علياً أن يكون عليها ما دون باب المنزل وأن يكون عليه ما بعده!

وإذا تم ما نقل من وصيتها عليّاً ابنها بذلك، فإنه يشير لنا إلى ما ينبغي لأم الزوج أن تتدخل في حياة الزوجين، فإما أن لا تتدخل أصلًا أو إذا تدخلت فليكن بإبداء حكمة الحياة والإعانة بالكلمة الطيبة.

كانت أمي بعد أمي التي ولدتني

بعدما قرت عينها بظهور الإسلام وانتصارات النبي صلى الله عليه وآله، لا سيما في بدر وقرت

عينها بزواج ابنها بفاطمة وسلامة جعفر في الحبشة مع المسلمين، ها هي الآن في طريق الآخرة والجنة، ولنستمع إلى عبد الله بن عباس يحكي لنا ما حدث في وفاتها، قال: أقبل علي بن أبي طالب ﷵ ذات يوم إلى النبي ﷺ باكياً، وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال له رسول الله ﷺ: مه يا عليُّ؟. فقال علي ﷵ: يا رسول الله، ماتت أمي فاطمة بنت أسد. قال: فبكى النبي ﷺ، ثم قال: رحم الله أمك يا علي، أما إنها إن كانت لك أمّاً فقد كانت لي أُمّاً، خذ عمامتي هذه وخذ ثوبي هذين، فكفنها فيهما، ومر النساء فليحسنَّ غسلها، ولا تخرجها حتى أجيء فأليَ أمرها. قال: وأقبل النبي ﷺ بعد ساعة، وأُخرجت فاطمة أم علي بن أبي طالب ﷵ، فصلى عليها النبي ﷺ صلاة لم يصل على أحد قبلها مثل تلك الصلاة، ثم كبر عليها أربعين تكبيرة، ثم دخل إلى القبر، فتمدد فيه، فلم يسمع له أنين ولا حركة، ثم قال: يا علي ادخل، يا حسن ادخل،(١) فدخلا القبر، فلما فرغ مما احتاج إليه، قال له: يا علي اخرج، يا حسن اخرج، فخرجا، ثم زحف النبي ﷺ حتى صار عند رأسها، ثم قال: يا فاطمة، أنا محمد سيد ولد آدم ولا فخر، فإن أتاك منكر ونكير فسألاك: من ربك؟ فقولي: الله ربي، ومحمد نبيي، والإسلام ديني، والقرآن كتابي، وابني إمامي ووليي.

ثم قال: اللهم ثبت فاطمة بالقول الثابت. ثم خرج من قبرها، وحثا عليها حثيات، ثم ضرب بيده اليمنى على اليسرى فنفضهما، ثم قال: والذي نفس محمد بيده، لقد سمعت فاطمة تصفيق يميني على شمالي. فقام إليه عمار بن ياسر، فقال: فداك أبي وامي يا رسول الله، لقد صليت عليها صلاة(٢) لم تصل على أحد قبلها مثل

---

(١) يفترض أن الحسن في ذلك الوقت صغير السن، وربما كان عمره سنة أو نحوها.

(٢) الصلاة على الميت عند الإمامية هي عبارة عن خمس تكبيرات، يتلوها بعض الأذكار، وليس فيها ركوع ولا سجود، ولا قراءة لسور: «والأفضل أن يقول بعد التكبيرة الأولى: (أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة).

تلك الصلاة؟ فقال: يا أبا اليقظان، وأهلُ ذلك هي مني، لقد كان لها من أبي طالب ولدٌ كثير، ولقد كان خيرهم كثيراً، وكان خيرنا قليلاً، فكانت تشبعني وتجيعهم، وتكسوني وتعريهم، وتدهنني وتشعثهم. قال: فلِمَ كبرت عليها أربعين تكبيرة، يا رسول الله؟

قال: نعم يا عمار، التفت عن يميني فنظرت إلى أربعين صفاً من الملائكة فكبرت لكل صف تكبيرة. قال: فتمددك في القبر ولم يسمع لك أنين ولا حركة؟ قال: إن الناس يحشرون يوم القيامة عراة، فلم أزل أطلب إلى ربي عز وجل أن يبعثها ستيرة، والذي نفس محمد بيده، ما خرجت من قبرها حتى رأيت مصباحين من نور عند رأسها، ومصباحين من نور عند يديها، ومصباحين من نور عند رجليها، وملكيها الموكلين بقبرها يستغفران لها إلى أن تقوم الساعة[١].

وبعد التكبيرة الثانية: (اللهم صلِّ على محمّد وآل محمد، وارحم محمداً وآل محمّد، كأفضل ما صلّيت وباركت وترّحمت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد وصل على جميع الأنبياء والمرسلين والشهداء والصديقين وجميع عباد الله الصالحين).

وبعد التكبيرة الثالثة: (اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، تابع اللّهم بيننا وبينهم بالخيرات إنك مجيب الدعوات إنك على كل شيء قدير).

وبعد الرابعة: (اللّهم ان هذا المسجّى قدامنا عبدك وابن عبدك وابن أمتك نزل بك وانت خير منزول به، اللّهم إنا لا نعلم منه إلاّ خيراً وانت اعلم به منا، اللّهم ان كان محسناً فزد في احسانه، وان كان مسيئاً فتجاوز عن سيئاته واغفر له، اللّهم اجعله عندك في أعلى عليين واخلف على اهله في الغابرين وارحمه برحمتك يا ارحم الراحمين) ثم يكبّر، وبها تتم الصلاة» العروة الوثقى / للسيد محمد كاظم اليزدي.

(١) الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: الأمالي ١/ ٣٩٢.

خديجة بنت خويلد
سيدة نساء الجنة

عن النبي ﷺ أنه قال في وصف خديجة ؑ: (ما أبدلني الله خيرًا منها آمنت بي حين كفر بي الناس وصدقتني حين كذبني الناس وأشركتني في مالها حين حرمني الناس ورزقني الله ولدها وحرمني وُلد غيرها).[١]

تتناول هذه السطور شيئا من سيرة أم المعصومين ؑ .إثنا عشر معصوماً أمُّهم هي السيدة خديجة ؑ، بالإضافة هي إلى ذلك جدة عشرات الآلاف من عظماء علمائنا ومراجع التقليد والفقهاء في طول تاريخ التشيع.

وهي قبل ذلك أم المؤمنين الأولى وزوجة النبي المتقدمة على الجميع زماناً ومكانة.

ويصادف على المشهور يوم العاشر من شهر رمضان لثلاث سنوات قبل الهجرة ذكرى وفاتها ؑ .

---

(١) ابن عبد البر؛ الاستيعاب ٤/ ١٨٢٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٦/ ١١٨، والمتقي الهندي؛ كنز العمال ١٢/ ١٣٢.

تلتقي خديجة عليها السلام مع رسول الله في الجد الأعلى لهما بالنسب وهو قُصي فهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصي. ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي فيلتقيان نسباً في قُصي الذي كان بمثابة الزعيم الذي جعل لقريش مكاناً ومكانة في تاريخ العرب وكان بمثابة الملك من غير تتويج وهو الذي بنى دار الندوة وهي بمثابة دار الحكومة فيها تعقد الاتفاقات ويقرر السلم والحرب، ويتفق على خروج القوافل التجارية للمجتمعات الأخرى، بل ذكروا حتى قضايا الزواج ونكاح ربما نوقشت في هذا المكان، وأيضا جعل منصب حجابة البيت وألزم القرشيين بقضية السقاية والرفادة للحجيج لمن يأتي وقال إنكم مسؤلون عن ضيافة بيت الله الحرام أن تسقوهم الماء وتوفروا لهم الطعام، فكان زعيمًا[1]لا ينازع في ذلك، قُصَيٌّ هذا هو الجد المشترك لخديجة ولرسول الله.

---

(١) تحدث عن شخصيته د/ جواد علي في كتابه المفصل في تاريخ العرب ٧/ ٤٥ فقال: ويذكر الإخباريون أن قصيًّا بعد أن تمت له الغلبة، جمع قومه من الشعاب والأودية والجبال إلى مكة، فسُمِّي لذلك مجمّعًا، وأنه حكم منذ ذلك الحين فيهم، وملك عليهم، فكان قصي أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكًا، وأطاعه قومه به، وأنه قسم مكة أرباعاً بين قومه، فبنوا المساكن، وأن قريشًا هابت قطع شجر الحرم في منازلهم، فقطعها قصي بيده، وأعانوه، وأنها تيمنت به، فكانت لا تعقد أمراً، ولا تفعل فعلًا إلا في داره، فما تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار قصي، وما يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره، يعقدها لهم بعض ولده، وما تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في داره، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه، ثم ينطلق بها إلى أهلها، فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع، لا يعمل بغيره تيمنًا بأمره ومعرفة بفضله وشرفه، واتخذ قصي لنفسه دار الندوة، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، ففيها كانت قريش تقضي أمورها. ويذكر الإخباريون أيضا، أن قريشاً كانوا إذا أرادوا إرسال عيرهم، فلا تخرج ولا يرحلون بها إلا من دار الندوة، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفاً له وتيمناً برأيه ومعرفةً بفضله، ولا يعذر لهم غلام إلا في دار الندوة. وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة، وكان يعشر من دخل مكة سوى أهلها.

كانت خديجة بنت خويلد في قريش ذات ميزات متعددة:

١. فقد كانت امرأة باهرة الجمال، ولا ريب أن الجمال هو أحد الميزات التي تُحظي المرأة. ولا سيما إذا انضم إليه الأخلاق والاستقامة فإنهم يذكرون عنها أنها كانت من أجمل نساء قريش.

٢. كما أنها كانت ذات ثراء عريض على مستوى قريش وأهل مكة عامة.

وتعد من الاثرياء في قريش وقد ذكر وهو أبو الحسن البكري[١]صاحب كتاب الأنوار رقما عن ثروتها يظهر أنه مبالغ فيه، وقد نقله عنه العلامة المجلسي[٢] في البحار[٣]أنه يقال كان لخديجة أزيد من (٨٠ ألف) جمل، ومع كون هذا الرقم مبالغاً فيه كما نعتقد إلا أنه يكشف عن إذعان المؤرخين بسعة ثروتها وكثرة أموالها.

٣. كانت خديجة على درجة استثنائية من الالتزام الأخلاقي بحيث عرفت في

---

(١) هناك شخصيتان بهذه الكنية واللقب، الأول منهما هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن البكري المصري: توفي سنة ٩٥٢ هـ وهو شافعي المذهب وصوفي الطريقة، وله تأليفات كثيرة، واستبعد المحقق الطهراني أن يكون العلامة المجلسي ناقلاً عنه، وهناك شخص آخر هو أحمد بن الحسن البكري الذي له كتاب الأنوار ومفتاح السرور والأفكار في مولد النبي المختار، وله كتاب في وفاة فاطمة الزهراء وهذا من الشيعة، قال: ولهذا وصف بالكذب والمذاهب الردية. الى آخر ما ذكره في الذريعة ٢/ ٤١١.

(٢) المجلسي؛ محمد باقر: بحار الأنوار ١٦/ ٢٢. وكان لخديجة في كل ناحية عبيد ومواشي حتى قيل: إن لها أزيد من ثمانين ألف جمل متفرقة في كل مكان، وكان لها في كل ناحية تجارة، وفي كل بلد مال، مثل مصر والحبشة وغيرها.

(٣) علق المحشي في البحار على النقل المذكور: بما يلي: (في المصدر.. وكانت خديجة أغنى أهل مكة، وكان لها في كل قبيلة من العرب قريب من ألوف من النوق والخيل والغنم، لأنها قد زوجت عبيدها بجواريها، وفرقهم مع العرب، وأعطتهم بيوت الشعر، والخيل والابل، وجعلوا يتوالدون ويكثرون، والدواب تلد وتكثر، وكان لها ازيد من أربعين ألف جمل تسافر بالتجارة إلى الشام والعراق والبحرين وعمان والطائف ومصر والحبشة وغيرها من الامصار، ومعها العبيد والغلمان والوكلاء)

قريش بـ (الطاهرة)[١] وهذا مُلفت للنظر لأن هذه الألفاظ بعد البعثة والآيات والأحكام والتشريعات صارت مألوفة. ففي القران الكريم تم الحديث عن التطهير في الأحكام التشريعية وعن لزوم التطهر سواء الطهارة المعنوية الداخلية أو الطهارة الخبثية الخارجية. إلا أن هذه الثقافة وما يتبعها من الألفاظ لم تكن ثقافة شائعة في المجتمع القرشي، لأن قيم التفاضل فيه ليست في هذا الاتجاه. ومن الملفت للنظر ذلك في سيرة السيدة خديجة، فمع أنها امرأة جميلة من جهة وثرية من جهة أخرى وشابة فهذه كلها مساعدات على التهتك والعبث،[٢] لكننا نجد هنا أنها تعرف وتلقب بالطاهرة. وهذا كله قبل بعثة النبي ﷺ.

٤. ورابع الميزات أنها كانت على درجة من كمال العقل والتفكير، فقد نقل عن رسول الله ﷺ قوله (كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وفاطمةُ بِنتُ مُحَمّدٍ).[٣]

---

(١) ديار بكري؛ حسين: تاريخ الخميس ١/ ٢٦٤.

(٢) إن الفراغ والشباب والجِدَةمفسدة للمرء أي مفسدة

(٣) الطبرسي؛ مجمع البيان ١٠ / ٦٥ ومحمد بن جرير الطبري في جامع البيان ٦/ ٣٩٨

قال الزيعلي في تخريج الأحاديث والأخبار ٤/ ٦٧ (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربعة آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد.) قلت: رواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة عمرو بن مرة فقال حدثنا سليمان بن أحمد ثنا يوسف القاضي ثنا عمرو بن مرزوق ثنا شعبة عن عمرو بن مرة سمع مرة يحدث عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع. انتهى كلام الزيلعي.

أقول: الغريب أن البخاري ومسلماً قد اقتصرا في الطبعات الموجودة الآن على ذكر مريم وآسية!! وكأنهما استكثرا أو الراوي على خديجة وفاطمة أن تكونا كاملتين كمريم وآسية!! أو أن يكون الأمر هو مما جنته يد التحريف والتغيير في الكتب المصدرية كما احتمل ذلك بعضهم، حيث نقل عن

وكمال العقل الذي يذكر عادة في الأنبياء والأوصياء، وبدرجة أدنى في العلماء الحكماء، قد يستبعده البعض من النساء لأنهم يرون أن المرأة غالبًا ما تكون مشاعرها وعواطفها في درجة عالية لما يقتضيه طبيعة دورها الإنساني في أمر التربية لأطفالها بل في حياطة زوجها فوصول امرأة إلى درجة كمال العقل يقتضي منها مقاومة شديدة لتأثير العاطفة في التفكير والابتعاد عن غلبة المشاعر عليها لصالح الأحكام العقلية. وهذا ما يضيق إلى أقصى الدرجات مساحة من يمتلك منهن كمال العقل.

لا نقصد بذلك بالطبع أنهن فاقدات للعقل!!. كما لا نقصد الجانب العلمي فقد تكون امرأة في أعلى الدرجات العلمية والأكاديمية، ولكن كمال العقل أمر آخر.

فنحن الآن أمام امرأة ذات جمال ظاهري وثراء مالي وطهر داخلي وكمال

الشوكاني في فتح القدير ٥/ ٣٠٦ قوله: «وَفِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ» والحال أن الطبعات الحالية لا يوجد فيها ما ذكر!!، وقد يؤيد هذا الكلام من احتمال التغيير والحذف في الطبعات المتأخرة، أن حديث مسلم كان في باب فضائل خديجة والحال أنه لا معنى لوضعه في هذا الباب، ما دام اسمها غير موجود بين الكاملات!!

مع أنه قد ذكر في سائر المصادر مع ذكر خديجة وبعضها مع فاطمة أيضا!

وَأما غيرهما فقد جعل الكاملات ثلاثا!!، فقد نقل ابن كثير في تفسيره ٢/ ٤٠. من طريق شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد!! ونقل أيضا في نفس الكتاب: عن النبي " حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ.» تَفَرَّدَ بِهِ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ ثَابِتٌ الْبُنَانِي يُحَدِّثُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَع، مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بَنْتُ رَسُولِ اللهِ [صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ. وهذان الحديثان في المعنى يساويان الحديث الذي أسقط منه اسم خديجة وفاطمة!!

عقلي. تلكم هي السيدة خديجة بنت خويلد، زوجة لرسول الله ﷺ وأي زوجة؟ لقد جاء بعدها أكثر من ثمان نساء فيهن البكر والثيب والمنجبة وغير المنجبة والحسناء وغيرها، ومع ذلك لم تقم واحدة، بل لم تقم كلهن مقامها سلام الله عليها، وقد صرح مرارا بأنه رزق حب خديجة، وبأن الله لم يبدله خيراً منها!!

هل تزوجت غير رسول الله ﷺ؟

في الجواب عن ذلك: نعتقد أنه تزوجها رسول الله ﷺ ولَم يسبق أن تزوجت أحدًا قبله، لا لما ذكره بعضهم من أنه لا يناسب أن يتزوج النبي خديجة وقد رآها أزواج آخرون، فهذا السبب ليس كافياً. وذلك أن المرأة الثيب عند الله ليست بأقل منزلة من البكر.

نعم؛ المرأة البكر بالنسبة للزوج أفضل وأحب ولكن ان تكون أفضل عند الله لا يوجد دليل على ذلك!

المرأة العالمة أفضل من المرأة الجاهلة عند الله إذ ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.[١]

المرأة المتعبدة أفضل عند الله من المرأة التي تقتصر على الفرائض، وصاحبة الأخلاق العالية أفضل من التي لا تمتلك نفس المقدار. وهكذا.

ولكن أن تكون العذراء البكر عند الله أفضل من الثيب لمجرد كونها بكْراً، لا نعلم بوجود دليل على الافضلية عند الله بل نجد في القران الكريم ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ

---

(١) المجادلة / ١١.

سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾[١] ومقتضى ذلك أن تكون كل من الثيبات والأبكار اللاتي يكن بدائل أفضل من الموجودات سواء كن أبكارا أو ثيبات!

ويضاف الى ذلك ان الرأي المشهور لدى الإمامية أن أفضل نساء رسول الله بعد خديجة هي أم سلمة. وقد كانت ثيباً ذات أولاد من زوجها أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي الذي استشهد في المدينة أوائل الهجرة. لا نقول إن خديجة لم تتزوج قبل النبي لهذا السبب، وإنما لأن القرائن التاريخية لا تساعد على الرأي القائل بأنها كانت متزوجة من شخص أو اثنين: عتيق المخزومي وأبو هالة.

إن ما قدمناه من صفات وميزات في خديجة يجعل من الصعب عليها أن تقبل بأي شخص يتقدم للزواج منها، وبالفعل فقد ذكر المؤرخون أنها رفضت عدداً من زعماء قريش ولم تقبل بهم. فقد قيل إنه خطبها أبو سفيان بن حرب الأموي، وعقبة بن أبي معيط وردتهما، وهما أصحاب ثراء واسع في المجتمع القرشي.

وما ذلك إلا لأنها لا ترى فيهما الشخصيات التي ترغب في الاقتران بها، فبينما تعرف هي بالطاهرة، لا يمانع أبو سفيان في أن يتحدث أنه كان يسعى وراء البغايا[٢] لقضاء شهوته الجنسية، وتنقل هذه القصة من طرفه وجهته!! فهل تراها تقترن بهكذا شخصيات؟ ومثل هؤلاء من نُقل أنهم تزوجت بهم، حيث لا يعرف التاريخ شيئا عن المذكورين أنها كانت زوجة لهما! فلا هُما في عير الدنيا ولا في

(١) التحريم / ٥.

(٢) البلاذري؛ أحمد: أنساب الأشراف ٥/ ١٩٢، قال في قضية استلحاق معاوية زياد بن أبيه «.وقام أَبُو مريم السلولي- وكان خمارًا فِي الجاهلية- فَقَالَ: أشهد أن أبا سُفْيَان قدم علينا يا أمير المؤمنين الطَّائِف، فأتاني فاشتريت له لحمًا وأتيته بخمر وطعام، فلما أكل قَالَ يا أبا مَرْيَم أصب لي بَغيا، فخرجت فأتيته بسُمَيَّة وقلت لها: أن أبا سُفْيَان من قد عرفت شرفه وحاله، وقد أمرني أن أصيب له عرسًا فقالت: يجيء عبيد زوجي من غنمه، فإذا تعشّى ووضع رأسه أتيته، فلم تلبث أن جاءت تجُر ذيلها فدخلت معه، فلم تزل معه حتى أصبحت .

نفير الآخرة! فما الذي يجعلها ترغب في الاقتران بهما والقبول بهما؟

ولم تكن خديجة وحيدة في ذلك، فقد ذكر عن سلمى بنت عمرو النجارية زوجة هاشم جد النبي أنه لما رجع من الشام ورأى امرأة جميلة في السوق تأمر وتنهى وتبيع وتشتري وتتكلم سأل هل هي أيِّم - ليس لديها زوج - أو متزوجة؟

فأخبروه أنها غير متزوجة ولها شروط معينة، ومن شرطها أنها تجلس مع من يتقدم لها فإن أعجبها وإلا ردته، وقد ردت من تقدم لها، فعندئذ لما جلست مع هاشم كان أن وافقت وتزوجها. وسلمى تلك تشبه في ما ذكروه من صفاتها خديجة حيث أنها أيضا كانت ذات جمال وتمتلك ثروة وتدير تجارتها، ولها شخصيتها.

ولو كانت كما ذكر بعضهم قد تزوجت برجلين ليس لهما شأن في المجتمع لاحتج عليها كبار قريش وزعماؤها حين رفضتهم بأنها قد قبلت (نكرتين في المجتمع آنئذ) فكيف ترفض هؤلاء. هل هذا يناسب كمال العقل؟

متى تزوجها النبي؟

بالرغم من أن الرواية الرسمية المتداولة تشير إلى أن النبي قد تزوجها وعمرها أربعون سنة إلا أننا لا نرى ذلك صحيحاً، وإنما نعتقد أن هذا الزواج المبارك تم وهي في عمر ٢٨ سنة.

وأسهل طريقة لحساب ذلك هو أن نقول أن مدققي المحدثين ذكروا أنها توفيت وعمرها ٥٢ أو ٥٣ سنة، وكانت فترة بقائها مع النبي ﷺ ٢٥ سنة منها ١٥ قبل بعثته و١٠ سنوات بعد البعثة. فإذا طرحنا مدة بقائها مع النبي من عمرها الاجمالي ينتج لنا أنها حين تزوجت كان عمرها حوالي ثمانية وعشرين سنة (إذا كان عمرها ٥٣ أو

٢٧ إذا كان عمرها ٥٢).

٥٣-٢٥=٢٨

وقد صرح بكون عمرها ثمانية وعشرين حين تزوجها النبي؛ ابنُ عباس[١] كما نقله الحاكم في المستدرك عن محمد بن اسحاق صاحب السيرة فقال ذاكراً وفاتها وعقبّه: وكان لها يوم تزوجها ثمان وعشرون سنة.[٢]

ونقل ابن كثير في البداية والنهاية أحد الأقوال بكون عمرها حين تزوجت النبي خمس وعشرين سنة.[٣]

ورأى الحاكم النيشابوري في المستدرك أن القول بكون عمرها خمسة وستين، وهو ما يلزم من القول بأنها تزوجت وعمرها أربعون سنة فإنها بقيت معه بالاتفاق خمسا وعشرين سنة، رأى القول بأنها توفيت وعمرها خمس وستون سنة قولاً شاذاً، وأن الصحيح أنها لم تبلغ الستين، قال (عن هشام بن عروة قال: «توفيت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وهي ابنة خمس وستين سنة». (قال الحاكم) «هذا قول شاذ، فإن الذي عندي أنها لم تبلغ ستين سنة.[٤]

وأما ابن عساكر فقد ذكر في كتاب الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين أنه قيل بأن عمرها وقت وفاتها كان خمساً وخمسين. بعد أن أشار إلى القول المشهور من أنه خمسة وستون.

(١) ابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ٣١٤ ناقلا عن ابن عساكر.

(٢) النيشابوري؛ الحاكم: المستدرك ٣/ ١٨٢.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٦٠ قال: وَهَكَذَا نَقَلَ الْبَيْهَقِيُّ عَنِ الْحَاكِمِ أَنَّهُ كَانَ عُمُرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ تزوّج خَدِيجَةَ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَكَانَ عُمُرُهَا إِذْ ذَاكَ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ - وَقِيلَ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً.

(٤) النيشابوري؛ الحاكم: المستدرك ٣/ ١٨٢.

وإذا كان هناك قول بأنها تزوجت وهي في سن الخامسة والعشرين، فهذا يلازم استبعاد القول بزواجها من شخصين قبل رسول الله ﷺ. ولو قلنا كما هو الراجح بأنها تزوجت في سن الثامنة والعشرين فبالنسبة لأمثالها لا يكون ذلك مستغرباً، إذا نظرنا إلى صفاتها (الجمالية والمالية والنفسية) فلن تقبل بأي شخص، ولن تركض وراء كل بارقة زوج، وإنما مثلها يتعين عليه أن يختار لنفسه، فلن تتزوج من يكون طامعاً في ثروتها ويأتي لها لأجل أموالها، ولا هي في صدد الارتباط بشخص شهواني لا يقف أمام شهواته ونزواته وإنما شأنها وهي كاملة العقل أن لا تُرِقّ نفسها إلا لمن يستحقها، ولذلك فقد بحثت عن طريق للارتباط برسول الله محمد ﷺ، قبل بعثته، فإنه قد دارت في تلك الفترة أخبار عن النبي المبعوث في مكة، بشكل كبير، وصار حديث المجالس وتبشير الأحبار في الحديث عن أخلاقه وصدقه وأمانته. فقد ذكر المحدثون أن نسوة من قريش كن جالسات في فناء البيت الحرام، وكانت معهن خديجة. فمر بهن أحد الأحبار فقال: يا معشر النساء يوشك أن يبعث نبي في مكة، فمن استطاعت أن تكون زوجته منكن فلتفعل! وبينما تضاحكت باقي النساء أخذت خديجة الأمر على جديته، حيث لامس ما كانت تفكر فيه.

وتعلق قلبها به وطفح على لسانها ذكره. ولعمري فإن من كمال العقل أن تختار المرأة من تريده زوجاً لها وتسعى في الوصلة إليه، لا سيما وهي ستسلمه قياد حياتها وزمام أمرها.

تزامن هذا مع ما قيل من أن أبا طالب كان قد تشاور معه ابن أخيه محمد ﷺ، في أمر التجارة والكسب والمعاش، فذكر أمر خديجة وثروتها وأنها تستقبل من يعمل معها في التجارة على طريقة المضاربة، حيث يكون المال منها والعمل من المشارك. (وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه ومقدماته) فكان[1] أن تم الاتفاق على أن

(١) ابن سعد؛ الطبقات الكبرى ٨/ ١٢«أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ تَسْأَلُهُ الْخُرُوجَ إِلَى الشَّامِ فِي

يخرج النبي محمد إلى الشام بتجارة لها، ويكون الربح بينهما، وجعلت تحت يده مدبر أموالها ميسرة وتحت أمره العاملون في تلك التجارة.

ولما رجع النبي من رحلته التجارية الشامية وقد ربح ربحاً جيداً، لم يكن هَمُّ خديجة في ربح المال بقدر ما كان يهمها ربحها النبيَّ نفسَه ومعرفة أحواله من خلال ميسرة غلامها الذي شرح لها ما كانت تنتظره وتستطيبه من ذكر صفاته وأخلاق معاشرته مع الناس، وإدارة أمور التجارة، وأضاف إليها ما رأى من الكرامات والفضائل التي خصه الله بها من تظليله بالغمام في حر الشمس، وغير ذلك.

عندها خطت الخطوة الثانية وهي أن (تخطب)النبي محمداً لنفسها!! بلى رغبتها فيه واشتياقها إلى الاقتران به جعلها تفعل ذلك، وصوبت حكمتها وكمال عقلها هذا الأمر فلا ينبغي أن تترك هذه الفرصة: الاقتران بسيد الخلائق والنبي الذي بشر به المرسلون السابقون، فهل تترك ذلك لأجل بعض الأعراف الاجتماعية الخاطئة التي قد تبيح للمرأة الخاطئة أن تنشئ علاقة غير مشروعة مع رجل وتتغاضى عن ذلك، بينما ترفض تلك الأعراف أن تنشئ امرأة مقدمات الزواج المحلل مع رجل كسيد الخلق!!

ولأجل هذا فقد ذكرت الأمر لامرأة كانت تدخل عليها وتختصها وهي نفيسة بنت منية، ولنتركها تتحدث عن هذه المهمة؛ قالت: «كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير وهي يومئذ أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك قد طلبوها وبذلوا لها الأموال.

فأرسلتني دسيساً إلى محمد بعد أن رجع في عيرها (قافلتها) من الشام؛ فقلت يا

تِجَارَتِهَا مَعَ غُلامِهَا مَيْسَرَةَ وَقَالَتْ: أَنَا أُعْطِيكَ ضِعْفَ مَا أُعْطِي قَوْمَكَ».

محمد ما يمنعك أن تزّوج؟

فقال: ما بيدي ما أتزوج به!

قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟

قال: فمن هي ؟

قلت: خديجة!

قال: وكيف لي بذلك؟

قالت: قلت عليّ!

قال: فأنا أفعل فذهبت فأخبرتها فأرسلت إليه أن أئت لساعة كذا وكذا.»[(١)]

وبقي بعد ذلك الترتيب الرسمي لموضوع الزواج، فجاء بنو هاشم إلى منزل خديجة يتقدمهم رأس الهاشميين أبو طالب بن عبد المطلب، ليخطب خديجة من عمها باعتبار أن والدها على ما هو الصحيح كان قد قتل في حرب الفِجار، وبعد أن استقر بهم المقام، خطب أبو طالب خطبة يتبين فيها معرفته بمقام ابن أخيه محمد ﷺ، جاء فيها: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وضئضىء معد «أى معدنه وأصله» وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا، وحرما آمنا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به، فإن كان في المال قلّ، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي كذا. وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطب جليل».

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٣١.

ونشير هنا إلى خطأ موجود لدى بعض الكتاب وربما الخطباء وهو أنهم يقولون أن خديجة قامت وسقت أباها خمرا حتى لا يعارض عقد النكاح. وهذا كلام باطل لجهات:

أولًا: ان أباها كان قد توفي قبل ذلك الوقت بسنوات، فقد نص غير واحد من المؤرخين عليه[١] وذكروا «إِنَّ عَمْرَو بْنَ أَسَدٍ عمها هُوَ الَّذِي أَنْكَحَ خَدِيجَةَ رَسُولَ اللهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَنَّ خُوَيْلِدًا كَانَ قَدْ هَلَكَ قَبْلَ الفجار»

وثانيا: لان هذا لا ينسجم مع ما هو معروف من طهارة خديجة قبل الإسلام، وأنها لم تكن تحب الباطل وإنما انتظرت هذه السنوات لأنها لا تجد فيمن يتقدم لخطبتها ما يناسب أخلاقها ومبادءها فهل تراها هناك تتوسل بالباطل وبأن تسقي أباها خمراً؟

وثالثًا: الكل يعرف بأن السكران لا عبارة له ولا يمكن أن يقبل أو يرفض والمعاملة باطلة.

ورابعا: فإن بني هاشم وفي طليعتهم رأسهم أبو طالب ممن حرّموا على أنفسهم الخمر لما أخذوه من ديانتهم الإبراهيمية، لا سيما والنبي موجود! كيف يسمحون بمثل هذا الفعل؟ ويجرون النكاح على أساس عبارة رجل سكران؟ أفترى النبي يقبل بعقد نكاح قائم على عبارة سكران؟ وهو ممن لا تقبل منه العبارة ولا يصح منه عقد ولا ميثاق؟

أنا لا أدري هل يلتفت أصحاب هذا القول إلى أنه يستلزم الطعن في رسول الله أولاً وفي بني هاشم ثانياً وفي خديجة ثالثاً وفي صحة نكاح خديجة[٢] رابعاً!

(١) السهيلي الروض الآنف ٢/ ٢٣٩.

(٢) قد يقال: إن خديجة لم تكن بكرا فلا تحتاج لاستئذان أبيها، وأن هذا الأمر كان قبل الإسلام، وكلا

تم العقد وخطب عمها بشكل مختصر موافقاً، وقيل إنه أصابه البَهْر فقامت خديجة وكانت بَرْزة وذات شخصية فخطبت موافقة على ذلك، ومشيرة إلى أن المهر من مالها. الأمر الذي جعل بعض الحسدة يقول: رأينا الرجال يمهرون النساء، ما رأينا النساء يمهرون الرجال! فنهض إليه أبو طالب وقال: يا لكع، الرجال مثل محمد، يحمل إليه ويهدى ويعطى، ومثلك من يعطي ويهدي ولا يقبل منه.

لم يتأخر الزواج بعد العقد، وبعده قيل إن خديجة قامت عند البيت الحرام ووكلت من يخطب أن يقول: أيها الناس هذه خديجة بنت خويلد تقول إن ما تملك من مال وشاه وابل وعقار وعبيد وجوارٍ وغير ذلك كل ذلك قد وهبتها لزوجها محمد ﷺ يتصرف فيها كيف يشاء يهب من أحب ويمنع من أحب.

انظر الفرق ولماذا ارتقت خديجة هذا المرتقى العالي! ومن عجبٍ أن يقارَن بها غيرُها وأن يناقش هل هي الأفضل أم لا ؟

ذلك أن المفسرين قد ذكروا في تفسير آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾. وَذُكِرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ عائشة سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا، إِمَّا زِيَادَةً فِي النَّفَقَةِ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَاعْتَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ شَهْرًا فِيمَا ذُكِرَ، ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّرَهُنَّ بَيْنَ الصَّبْرِ عَلَيْهِ وَالرِّضَا بِمَا قُسِمَ لَهُنَّ وَالْعَمَلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَبَيْنَ أَنْ يُمَتِّعَهُنَّ

الأمرين لا مجال لقبولهما، فكونها ثيباً قد تبين في الصفحات الماضية عدم صحته، وأنها لم تر زوجا قبل النبي، والثاني أنه ولو كان قبل الإسلام إلا أن (لكل قوم نكاح) وبشروطه حتى يفترق عن السفاح، والنكاح هنا عند العرب كان مرتبطا بإذن الأب. بل كانوا يتشددون في أنه لا بد من ولي في النكاح. ولو أن الإسلام لم يجعل على المرأة وليا بعد أبيها وجدها لأبيها فيما يرتبط بالنكاح كما يرى الفقه الجعفري.

وَيُفَارِقَهُنَّ إِنْ لَمْ يَرْضَيْنَ بِالَّذِي يُقْسَمُ لَهُنَّ.[١]

فكان أن أتاه الوحي بالتخيير بعد أن هجرهن أربعين يومًا وأقام في مشربة أم إبراهيم – ماريا القبطية – وبعدها خيرهن بين الله ورسوله والصبر على ما يجدن، أو الفراق والتسريح لهن، فكانت أول القائمات أم سلمة وقالت: اخترت الله ورسوله! وعلى أثرها قامت بقية النساء.

شتان بين امرأة تعطي كل ذلك وتشهد عليه، وحتى الآن لم يبعث النبي بالرسالة، وبين باقي النساء اللاتي شهدن نبوته وبعثته وجهاده وصبره وأذاه في أحواله كلها، ثم يطلبن منه المال والدنيا!!

لا غرابة بعد ذلك أن يقول النبي فيها ما يقول من اظهار المحبة لها والتعلق بها، وقبل ذلك لا غرابة أن يكرمها الله بما حرمت منه غيرها من كون نسل النبي وامتداده منها ومن بناتها.

رزقها الله منه قبل البعثة ثلاث بنات هُن زينب و رقية و أم كلثوم.[٢]

وأما بعد البعثة فقد ولدت له القاسم وعبد الله ورزقها الله منه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء.

جهادها أول البعثة:

لم يقتصر عطاء السيدة خديجة على الجانب المالي وإن كان عظيما، وقد أشار له أمير المؤمنين علي عليه السلام في توجيه كثرة انفاقات الرسول صلى الله عليه وآله قائلا: (وأين يُذهب

(١) الطبري؛ ابن جرير: تفسير الطبري ١٩/ ٨٤.
(٢) يكون الحديث عنهن في فصل خاص بعنوان بنات النبي من خديجة.

بك عن مال خديجة؟). فكان بعض الأرقاء من المسلمين يحررهم النبي ويعطي أثمانهم من أموالها المباركة، ولما أمر المسلمين بالهجرة على مرحلتين؛ في الأولى (١٧) كما قيل وفي الثانية (ما يزيد على مائة) كانت نفقات انتقالهم وطعامهم وشرابهم مما أعطي من مال خديجة حتى روي عنه صلى الله عليه قوله ما نفعني مال قط ما نفعني مال خديجة.

بل كانت تتحمل إنفاقات النبي حتى في الأمور المستحبة فقد قدمت حليمة السعدية على مكة بعد أن تزوج رسول الله بخديجة، وشكت إليه الجدب، فكلم خديجة بشأنها فأعطتها أربعين شاة.[١]

وإلى أن فُرض الحصار الاقتصادي على النبي وبني هاشم في شعب أبي طالب، فقد أنفقت كل مالها حتى لم يبق لها شيء تنفقه! هذا كله وإن عظم إلا أنه لم يكن جهادها الوحيد.

بل كانت أول المسلمات والمؤمنات به، وكانت تتفقد أمره إذا خرج لغار حراء وتأتي له بالطعام، ولك أن تتصور امرأة فوق سن الأربعين بعد بعثة النبي تصعد هذا الجبل العالي لكي توصل الطعام لزوجها النبي، وإذ أغري به أشقياء قريش وسفهاؤهم قامت مع علي عليه السلام للذب عنه، وكان بعضهم يرمي بيتها وبيت النبي بالحجارة، فكانت تصرخ في وجوه القرشيين: أترمى الحرة في بيتها ؟

سلام على أم المعصومين الإثني عشر (فاطمة والحسنين والتسعة من ذرية الحسين عليهم السلام[٢]).

---

(١) الصالحي الشامي؛ سبل الهدى والرشاد ١/ ٣٤١.

(٢) للمؤلف رسالة خاصة في أحوال السيدة خديجة وجهادها مع النبي، لمن أحب المراجعة.

بنات النبي من السيدة خديجة

كم كان عدد أولادها (ذكورا وإناثا)؟ وهل أن زينب وأم كلثوم ورقية كن بناتها أو ربائب لها ؟

الجواب: المتفق عليه بين الشيعة والسنة أن أم المؤمنين خديجة ﷺ قد أنجبت للنبي ﷺ من البنات فاطمة الزهراء، ومن الولد عبد الله (الطاهر) والقاسم.

ولكن اختلفوا في أنها هل أنجبت له من البنات غير فاطمة أم لا. وهنا يتفق مؤرخو ومحدثو السنة تقريبا على أنها أنجبت له من البنات: زينب ورقية وأم كلثوم.

بينما يوجد لدى مؤرخي ومحدثي الشيعة رأيان:

- فهناك رأي موافق للسنة في أنها أنجبت البنات الثلاث المذكورات، ولعله هو الرأي المشهور.
- وهناك رأي مخالف ينتهي إلى أن البنات المذكورات لم يكن بنات النبي وإنما هن ربائبه.

ويظهر أن أول من ذكر هذا الرأي واستدل عليه هو أبو القاسم الكوفي في كتابه الاستغاثة.

وسوف نتعرض ولو باختصار إلى هذين الرأيين وأدلة أصحابهما.

أدلة القول بكونهن بنات النبي:

فقد ذهب المشهور إلى أنهن بنات النبي اعتمادا على عدة أمور:

منها: الرجوع إلى علماء النسب والمصنفين في هذا الباب وهم أهل خبرة فيه، وهي طريقة العقلاء في معرفة أنساب الناس وأولادهم وذراريهم. ويقول أصحاب هذا الرأي أنه هو المشهور بين المؤرخين وأهل الأنساب، فلا تكاد تجد من يتحدث عن سيرة الرسول ﷺ وبناته إلا ويذكرهن. فمن ذلك بالإضافة إلى ما ورد في كتب السيرة النبوية وكتب التاريخ التي كتبها المؤرخون غير الشيعة، فقد ذكر هذا الأمر في كتاب (تاريخ الأئمة) لأبي الثلج البغدادي المتوفى حوالي ٣٢٠ هـ فقال: قال الفريابي حدثني أخي عبد الله بن محمد وكان عالما بأمر أهل البيت عليهم السلام حدثني أبي حدثني ابن سنان عن أبي نصر عن أبي عبد الله عليه السلام قال ولد لرسول الله ﷺ من خديجة: القاسم وعبد الله والطاهر وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة عليها السلام ومن مارية القبطية إبراهيم فأما رقية فزوجت من عتبة بن أبي لهب فمات عنها وأما زينب فزوجت من أبي العاص بن الربيع فولدت منه ابنة سماها أمامة تزوجها أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة فاطمة عليها السلام.

ومنها الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، والتي تصرح بذكر بنات النبي من خديجة بالإضافة إلى فاطمة عليها السلام، فقد ذكر الحميري القمي ذلك وأورد روايته عن مسعدة بن صدقة قال: حدثني جعفر بن محمد، عن أبيه قال: ولد لرسول الله ﷺ

من خديجة: القاسم، والطاهر، وأم كلثوم، ورقية، وفاطمة، وزينب. فتزوج علي عليه السلام فاطمة عليها السلام، وتزوج أبو العاص بن ربيعة - وهو من بني أمية - زينب، وتزوج عثمان بن عفان أم كلثوم ولم يدخل بها حتى هلكت، وزوجه رسول الله صلى الله عليه وآله مكانها رقية. ثم ولد لرسول الله صلى الله عليه وآله - من أم إبراهيم - إبراهيم، وهي مارية القبطية.

وذكر مثله الشيخ الصدوق في الخصال[1]: في موضعين الأول: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ولد لرسول الله صلى الله عليه وآله من خديجة القاسم والطاهر وهو عبد الله، وأم كلثوم، ورقية، وزينب، وفاطمة. وتزوج علي ابن أبي طالب عليه السلام فاطمة عليها السلام، وتزوج أبو العاص بن الربيع وهو رجل من بني أمية زينب، وتزوج عثمان بن عفان أم كلثوم فماتت ولم يدخل بها، فلما ساروا إلى بدر زوجه رسول الله صلى الله عليه وآله رقية. وولد لرسول الله صلى الله عليه وآله إبراهيم من مارية القبطية وهي أم إبراهيم أم ولد.

والثاني: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله منزله فإذا عائشة مقبلة على فاطمة تصايحها وهي تقول: والله يا بنت خديجة ما ترين إلا أن لأمك علينا فضلا وأي فضل كان لها علينا ما هي إلا كبعضنا، فسمع مقالتها فاطمة فلما رأت فاطمة رسول الله صلى الله عليه وآله بكت فقال لها: ما يبكيك يا بنت محمد؟ قالت: ذكرت أمي فتنقصتها فبكيت، فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال: مه يا حميرا فإن الله تبارك وتعالى بارك في الولود الودود وإن خديجة رحمها الله ولدت مني طاهرا وهو عبد الله وهو المطهر، وولدت مني القاسم وفاطمة ورقية وأم كلثوم وزينب وأنت ممن أعقم الله رحمه فلم تلدي شيئا[2].

وهذه الرواية بالإضافة إلى كونها قد وصفت السيدة خديجة بأنها الولود، وهو

---

(١) الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه : كتاب الخصال ١ / ٤٠٤.
(٢) المصدر السابق ١ / ٤٠٥.

لا يصدق على من ولدت ثلاثة بنفس القدر الذي يصدق على من ولدت ستة (أي بإضافة رقية وأم كلثوم وزينب)، فإنها صرحت بولادة تلكم البنات من خديجة وأنهن من النبي ﷺ.

فهذه ثلاث روايات صريحة من جملة روايات كثيرة تشير بنحو لا يقبل التشكيك كما يرى أصحاب هذا الرأي إلى كون السيدة خديجة قد ولدت للنبي هذه البنات الثلاث بالإضافة إلى الصديقة الزهراء عليها السلام.

وهناك بعض الروايات تشير ضِمناً إلى هذا الموضوع وتنسب البنات إلى النبي ﷺ، مثلما ورد في حديث (ألا أدلكم على خير الناس أباً وأماً وجداً وجدة وعماً وعمة وخالاً وخالة: الحسن والحسين خالهما القاسم بن رسول الله وخالتهما زينب بنت رسول الله.)،[1]فلا معنى لأن تكون زينب خالة للحسنين إلا بأن تكون أخت الصديقة الزهراء عليها السلام،والقول بأن النبي كان يقصد أنها أخت الزهراء من جهة أمها غير صحيح، ومثله القول بأنها تُحسب كأنها خالتهما[2]أو أن النبي كان يخاطب الناس على وفق ما يعتقدونه، فهو توجيه لا معنى له !

وقد ذكر في غير مصدر أن من جملة وصايا فاطمة لأمير المؤمنين عليهما السلام حين حضرتها الوفاة أنها أوصته بأن يتزوج من بعد وفاتها ابنة أختها زينب[3] (أُمامة) بنت أبي العاص بن الربيع. وهو يشير إلى المعنى المتقدم أيضا.

(١) جاء في مصادر كثيرة منها كفاية الأثر للخزاز القمي ١/ ٩٨ وبشارة المصطفى لشيعة المرتضى لعماد الدين الطبري ١/ ٢٦٨ وغيرها.

(٢) القائلون بكونهما ربائب يقولون أيضا بأن النبي تزوج خديجة وهي بكر، فلا يمكن أن يدعى أنهما أخوات لفاطمة من جهة الأم وخالات للحسنين بهذا الاعتبار.

(٣) ذكره الكثير ممن تعرض لوصية الزهراء عليها السلام، كابن شهراشوب في المناقب ٣/ ٣٦٢ والزنجاني في مواضع متعددة من الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء ١/ ١٧١، واليوسفي في موسوعة التاريخ الاسلامي ٤/ ١٧٢وغيرهم.

ومن تلك الروايات التي تشير ضمنا إلى بنوة بنات النبي الثلاث، رواية الحسين بن روح النوبختي السفير الثالث للإمام المهدي عليه السلام في جوابه على سؤال من سأل: لماذا فضلت فاطمة على سائر بنات النبي وهي أصغرهن سناً؟ فأجابه إن ذلك لفضل إخلاص عرفه الله من نيتها[1].

كما أنهم يشيرون هنا إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام في معاتبته للخليفة عثمان، ودعوته إياه إلى انتهاج سبيل صحيح في الاصلاح وأنه أولى من الخليفتين الأول والثاني بهذا كما ورد في نهج البلاغة: (وأنت أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وشيجة رحم منهما وقد نلت من صهره ما لم ينالا).[2].

يظهر من بعض أعيان الطائفة الالتزام به والدفاع عنه كأنه أمر مسلم، فمنهم الشيخ المفيد كما في المسائل السروية[3]، فإنه شرع في الجواب على سؤال عن تزويج النبي صلى الله عليه وآله بناته، وكأن القضية مسلمة عنده وإنما تحتاج إلى تعليل وتوجيه. ومنهم السيد المرتضى في كلامه عن وجه أفضلية السيدة الزهراء عليها السلام على باقي أخواتها، وذكر الفقيه صاحب الجواهر الأمر كمسلمة من المسلمات فقال : (فقد زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة عليا عليه السلام وأختيها رقية وأم كلثوم عثمان.)[4] وذكر قريبا منه الشيخ الطوسي قدس سره.

---

(١) الطوسي؛ محمد بن الحسن : الغَيبة ١/ ٣٨٨ : في ذكر بعض أحوال الحسين بن روح النوبختي :. وسأله بعض المتكلمين وهو المعروف بترك الهروي فقال له: كم بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟. فقال: أربع، قال : فأيهن أفضل ؟ فقال: فاطمة فقال: ولم صارت أفضل، وكانت أصغرهن سنا وأقلهن صحبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ !. قال: لخصلتين خصها الله بهما تطولا عليها وتشريفا وإكراما لها. إحداهما أنها ورثت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يرث غيرها من ولده. والاخرى أن الله تعالى أبقى نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها ولم يبقه من غيرها، ولم يخصصها بذلك إلا لفضل إخلاص عرفه من نيتها.

(٢) الامام علي : نهج البلاغة ١ .٢٣٤- ط دار الكتاب اللبناني.

(٣) المفيد؛ محمد بن النعمان : المسائل السروية ١/ ٩٢.

(٤) النجفي الجواهري؛ الشيخ محمد حسن : جواهر الكلام ٢٩/ ١٣٠.

ونفس ذلك ذهب إليه العلامة الشيخ علي بن يونس العاملي المتوفى سنة ٨٧٧ هـ، فقد ناقش مسألة التفضيل لعلي بزواجه من فاطمة، وأنها خير من سائر بنات النبي.

ويرى أصحاب هذا الرأي أن طريقة تعامل النبي ﷺ، معهن تفيد كونهن بناته وإن كانت منزلتهن دون منزلة فاطمة، فطريقة الحديث عن الزهراء وتزويجها كانت من قبل الله تعالى لمكانتها الخاصة وحيث أن النبي (لا ينطق عن الهوى) فإنه زوج باقي البنات ضمن القواعد العامة لا بشكل خاص وتعيين إلهي.

وأما ما عدا ذلك فإنه كان رفيقاً بهن ويتعامل معهن تعامل الأب مع بناته. فقد أهدر دم هبار بن الأسود الذي وكز زينب ابنته حتى ألقت ما في بطنها. وهكذا تبرأ ممن آذى النبي في ابنتيه رقية وأم كلثوم.

فما هي ميزة هذه الفتيات (لو كن ربائب) في كل هذه العناية النبوية، علما بأنه كان للنبي (ربائب) متفق عليهن ولم نلحظ هذا الاهتمام الخاص من النبي بشأنهما لا في تزويجهما ولا في باقي حياتهما. فإن من الثابت تاريخياً أن أم سلمة لما تزوجها النبي ﷺ كان لديها ولد وهو عمر، وكان لها بنت وهي برّة، فسماها النبي بـ (زينب) وهي غير زينب ابنته. وكان لدى أم حبيبة التي تزوجها النبي بنت، هي حبيبة من زوجها السابق عبيد الله بن جحش الذي هاجر مع المسلمين إلى الحبشة لكنه تنصر هناك ومات في الحبشة فتزوجها النبي ولديها بنت هي (حبيبة) التي تكون ربيبة النبي.

فلماذا لم نجد أي اهتمام استثنائي من الرسول بهذه الربائب؟ واهتم بشكل خاص بزينب وأم كلثوم ورقية إن كن ربائب ولسن بنات ؟

وعلى هذا الأساس فإن عدداً كبيراً من أعيان الطائفة قديماً وحديثاً قد ذهبوا إلى

هذا الرأي، وأرسلوه إرسال المسلمات، فمنهم بالإضافة إلى من تقدم ذكرهم:

ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩ هـ) حيث ذكر في كتاب الكافي باب التاريخ ذلك قائلا، في ترجمة النبي محمد صلى الله عليه وآله: فولد له منها قبل مبعثه ﷺ القاسم، ورقية، وزينب، وأم كلثوم، وولد له بعد المبعث الطيب والطاهر وفاطمة عليها السلام.

وتابعه في ذلك المولى صالح المازندراني (ت ١٠٨٦ هـ) حيث أنه في شرحه للكتاب لم يتعقبه بنظر مخالف مما يفيد موافقته إياه.

ومنهم الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، والشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) والسيد المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) كما سبق.

ومنهم العلامة الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) فقد قال في كتابه تاج المواليد: أولاده وأزواجه عليه كان لرسول الله عليه التحية والسلام ولد له سبعة أولاد من خديجة ابنان وأربع بنات: القاسم وعبد الله وهو الطاهر والطيب، وفاطمة صلوات الله عليها وزينب وأم كلثوم ورقية، وولد له إبراهيم من مارية القبطية.

وقد نقل العلامة المجلسي (ت ١١١١ هـ) في البحار اختيار ابن شهر آشوب (ت ٥٨٨ هـ) كما يلي: مناقب ابن شهرآشوب: أولاده: ولد من خديجة القاسم وعبد الله وهما الطاهر والطيب، وأربع: بنات زينب ورقية وأم كلثوم وهي آمنة وفاطمة وهي أم أبيها، ولم يكن له ولد من غيرها إلا إبراهيم من مارية.

ومن المعاصرين ننقل كلام عدد ممن صرحوا بهذا المعنى فمنهم:

السيد محسن الأمين العاملي في ترجمة أم كلثوم بنت رسول الله، أمها خديجة بنت خويلد. وقال: في مجمع البحرين: كان لرسول الله ص من خديجة أربع بنات

كلهن أدركن الإسلام وهاجرن وهن زينب وفاطمة ورقية وأم كلثوم. وقال الطبرسي في إعلام الورى وغيره ان أم كلثوم بنت رسول الله تزوجها عثمان بعد أختها رقية وتوفيت عنده ومثله عن ربيع الشيعة لابن طاووس.

ومنهم السيد هاشم معروف الحسني، كما نقل عنه ذلك الحاج حسين الشاكري في كتابه (أم المؤمنين الطاهرة) ذاكراً إياه بعنوان أنه (انفرد السيد هاشم معروف الحسني بأن أم المؤمنين خديجة أنجبت له ﷺ ستة أولاد ما بين ذكور وإناث وهم القاسم وبه يكنى، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وعبد الله، وفاطمة).

ومنهم السيد محمد الشيرازي رحمه الله في كتابه أمهات المعصومين حيث قال: إن أولاد الرسول ﷺ كلهم من السيدة خديجة إلا إبراهيم، أما إبراهيم فهو من السيدة مارية القبطية فقد ولد بالمدينة وعاش سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام ومات بالمدينة ودفن في البقيع.

فأنجبت السيدة خديجة من الأولاد: القاسم والطيب وقد ماتا بمكة صغيرين وأنجبت من البنات زينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة.

ومنهم الشيخ جعفر السبحاني في كتابه سيد المرسلين حيث قال: وقد أنجبت خديجة لرسول الله ﷺ ستة من الأولاد: اثنين من الذكور أكبرهما القاسم ثم عبد الله اللذان كانا يدعيان بالطاهر والطيب وأربعة من الإناث.

كتب ابن هشام يقول في هذا الصدد: أكبر بناته رقية ثم زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة. فأما الذكور من أولاده ﷺ فماتوا قبل البعثة وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام.

ومنهم الشيخ محمد هادي اليوسفي، فقد ذكر في سياق الحديث عن الهجرة قوله: أما علي عليه السلام فإنما حمل معه أمه فاطمة بنت أسد ومعها من بنات الرسول

فاطمة وأما سائر بناته: فزينب مع زوجها أبي العاص بن الربيع، ورقية مع زوجها عثمان في هجرة الحبشة، وأما أم كلثوم فقد مر أن عكرمة كان قد طلقها ولم يذكر أنها هاجرت إلى الحبشة، ولم يذكر أن عليا عليه السلام حملها مع أختها فاطمة إلى المدينة. ولكن قالوا: إن رسول الله بعث أبا رافع القبطي وزيد بن حارثة الكلبي من المدينة إلى مكة فحملا إليه زوجته سودة بنت زمعة وسائر بناته بل هي أم كلثوم فقط.

ويطول الأمر لو أريد تتبع كل الأقوال.

وقد ذكر الشيخ عبد اللطيف البغدادي رحمه الله طريقا آخر في ما يمكن أن يكون أدلة للمشهور بما خلاصته ما يلي:

إنه يدل على كون تلكم النساء بنات النبي ولسن ربائب:

أولا:القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾. فقوله (وبناتك) يدل على تعدد البنات لا أنها واحدة. وهذا ليس من باب (نساءنا ونساءكم وأنفسنا) فقد استعمل الجمع وأريد منه المفرد إجماعا فإن المقام هنا مقام التعظيم دون ذلك المقام.

ويؤيده قول أمير المؤمنين : وأنا زوج البتول سيدة نساء العالمين، فاطمة التقية النقية، المبرة المهذبة، حبيبة حبيب الله، وخير بناته وسلالته).فإن تعبيره بخير بناته يقتضي التعدد.

وثانيا: السنة الشريفة تدل على المطلوب حيث نقل في هذا المجال روايتي الصدوق في الخصال، والحديث المشهور بين الفريقين عن النبي صلى الله عليه وآله: (ألا أخبركم بخير الناس خالا وخالة هذا الحسين بن علي خير الناس خالا وخير الناس خالة، خاله القاسم بن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وخالته زينب بنت محمد). وفي نص آخر:

وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم بنات رسول الله.

ونقل أيضا ما هو معروف من وصية الزهراء فاطمة للإمام علي أن: أن تتزوج بعدي بابنة أختي أمامة فإنها تكون لولدي مثلي فإن الرجال لا بد لهم من النساء. فإنها نسبتها إلى أختها.

وثالثا: نقل الإجماع على أنهن بنات النبي فقد قال: الإجماع وقد نص عليه ابن عبد البر المالكي في الاستيعاب ج ٤ ص ٢٧٢ قال ما نصه: وأجمعوا أنها (أي خديجة) ولدت له ﷺ أربع بنات كلهن أدركن الإسلام وهاجرن وهن زينب وفاطمة ورقية وأم كلثوم، وأجمعوا أنها ولدت أبنا يسمى القاسم وبه كان يكنى. ثم نقل عددا من كلمات العلماء تفيد هذا المعنى. واستشهد بجواب الحسين بن روح السفير الثالث للإمام الحجة عجل الله فرجه. وبتوجيه الشريف المرتضى في أفضلية الزهراء على باقي بنات رسول الله.

ونضيف إلى ما سبق، حيث هذا الرأي هو مختارنا ما يلي:

١. إن المرجع في مثل هذه المسألة هم النسابة، حيث يشكلون في تلك الأزمنة ما تشكله اليوم دوائر الأحوال الشخصية والاحصاء السكاني، وهؤلاء ـ أعني النسابة قد نصوا على بنات النبي وأسمائهم، قبل أن تبدأ النقاشات العقدية.

٢. إن الأحاديث عن رسول الله ﷺ، منها ما صريح في ذكر البنات، ومنها ما هو بالملازمة، فمن الأول، ما نقله عنه المحدثون في الحديث: ألا أدلكم على خير الناس أباً وأماً وجداً وجدة وخالاً وخالة. إلى أن يقول: وخالتهما زينب بنت رسول الله)، ومثله ما نقل في مصادر الامامية خصوصا. مثل هذا الحديث الذي ينقل فيه ما جرى بين عائشة زوجة النبي وفاطمة عليها السلام. وأن رسول الله غضب ثم قال: مه يا حميرا فإن الله تبارك وتعالى بارك في الولود

الودود وإن خديجة رحمها الله ولدت مني طاهرا وهو عبد الله وهو المطهر، وولدت مني القاسم وفاطمة ورقية وأم كلثوم وزينب.

أدلة القول الثاني:

وأما الرأي الثاني القائل بأنه لم يكن لرسول الله من البنات غير فاطمة الزهراء سلام الله عليها، وأما البقية (أم كلثوم ورقية وزينب) فهن ربائب للنبي ولسن بنات، وكن في حجر السيدة خديجة ولم يكن بناتها أيضا حيث أنها لم تتزوج أحدا قبل النبي ﷺ.

والذي يظهر أن أول من شيد هذا القول واستدل عليه وصرح به هو أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي في كتابه الاستغاثة حيث أنه رد على القول بتزويج النبي ﷺ بنتيه من عثمان بن عفان حيث أن بعض متكلمي أهل السنة يعتبرون ذلك ميزة له وفضيلة تنافس فضيلة الإمام علي عليه السلام في تزويجه فاطمة عليها السلام، فقد رد أصل الفكرة وذلك بتشكيل مقدمات، خلاصتها ما يلي:

١. إن النبي ﷺ إذا كان قد زوج ابنتيه من أبي العاص بن الربيع وعتبة بن أبي لهب لا يخلو إما أنه كان على دين قومه في الجاهلية أو كان مخالفاً لهم.

فإن قال قائل إن رسول الله ﷺ كان على دين الجاهلية، كفر بالله ورسوله لأن الله تعالى يقول في الإمامة حين قال في قصة إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[١] ومن كان كافراً كان أكبر الظالمين لقوله تعالى «إن الشرك لظلم عظيم «ومن كان كذلك كان عابداً للأصنام ومن كان عابداً للأصنام كان محالاً أن يتخذه

(١) البقرة / ١٢٤.

الله عز ذكره نبياً أو إماماً بحكم هذا الوجه، ولما فسد ذلك ثبت أن الرسول ﷺ وسلم كان في زمن الجاهلية على دين يرتضيه الله منه غير دين الجاهلية.

٢. ولما وجب ما وصفناه وثبتت حجته كان محالاً أن يزوج رسول الله ابنتيه من كافرين من غير ضرورة دعت إلى ذلك وهو مخالف لهم في دينهم عارف بكفرهم وإلحادهم.

٣. ولما فسد هذا بطل أن تكونا ابنتيه وصح لنا فيهما ما رواه مشايخنا من أهل العلم عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وذلك أن الرواية صحت عندنا عنهم أنه كانت لخديجة بنت خويلد من أمها أخت يقال لها هالة قد تزوجها رجل من بني مخزوم فولدت بنتا اسمها هالة ثم خلف عليها بعد أبي هالة رجل من تميم يقال له أبو هند فأولدها ابناً كان يسمى هندا بن أبي هند وابنتين فكانتا هاتان الابنتان منسوبتين إلى رسول الله ﷺ زينب ورقية من امرأة أخرى قد ماتت.

وكان من سنة العرب في الجاهلية أن من يربي يتيماً ينسب ذلك اليتيم إليه، وإذا كانت كذلك فلم يستحل لمن يربيها تزويجها لأنها كانت عندهم بزعمهم بنت المربي لها فلما ربى رسول الله وخديجة هاتين الطفلتين الابنتين ابنتي أبي هند زوج أخت خديجة نسبتا إلى رسول الله وخديجة.

إن رقية وزينب زوجتي عثمان لم يكونا ابنتي رسول الله ﷺ ولا ولد خديجة زوجة رسول الله ﷺ وإنما دخلت الشبهة على العوام فيهما لقلة معرفتهم بالأنساب وفهمهم بالأسباب.[1]

ومن بعده يبدو أن هذا الرأي لم يأخذ مجالاً واسعا في النقاش التاريخي وإنما

(١) الكوفي؛ أبو القاسم علي بن أحمد : الاستغاثة ١/ ٦٤ (باختصار).

اقتصر في الغالب على كونه احتمالاً في النقاشات العقدية والخلافية التي تعنى بقضايا الفضائل والمناقب غير أنه قد أُكد عليه في الفترات الأخيرة، وقام السيد جعفر مرتضى العاملي رحمه الله بتأليف كتاب خاص في هذا المجال سماه (بنات النبي أم ربائبه ؟).ويمكن لنا أن نشير إلى بعض أدلته في هذا المختصر:

- فإنه في البداية نقل كلام الشيخ المفيد الذي ذكر كونهن بنات النبي وناقشه ضمن مقدمات عن احترام منزلة المفيد العلمية لكن لا يعني ذلك أنه لا يشتبه ولا يخطئ.

- ثم نقل أقوالاً عن طائفة من المؤرخين بأن بنات النبي قد ولدن في الإسلام ورتب على ذلك أنه كيف يجتمع هذا مع زواجهن من ابني أبي لهب فلما جاء الإسلام طلقاهما فتزوجت رقية من عثمان؟

- كذلك نقل عن الجرجاني وغيره بأن رقية كان صغرى بنات النبي وأنها وأم كلثوم أصغر من فاطمة، فإذا كانت فاطمة ولدت بعد البعثة بخمس سنوات وولدت أخواتها بعدها فكيف يكن قد تزوجن في الجاهلية بابني أبي لهب ثم بعثمان؟

- ثم نقل عن بعضهم ما قيل في تاريخ زواج النبي بخديجة واختار أنه تزوجها قبل البعثة بثلاث سنين، فإذا كان كذلك فكيف يجتمع هذا بأنها أنجبت رقية وأم كلثوم وأنهما تزوجتا في الجاهلية؟

- وكذلك فقد قال بأننا لا نجد في هجرة الفواطم مع علي عليه السلام ذكرا لأم كلثوم فأين كانت؟

ثم عطف الكلام على زينب زوجة أبي العاص بن الربيع ونقل من سيرة مغلطاي

أن خديجة قد ولدت لزوجها الأول النباش بن زرارة هند والحرث وزينب. وقرر أن ذلك اعتراف بكونها ربيبة النبي، (مع أنه يلتزم بعدم زواج خديجة قبل النبي بأحد كما أشار إلى ذلك).

- وأخيرا نقل كلام أبي القاسم الكوفي في الاستغاثة، وعطف في بحثه أخيرا على تحقيق موضوع زواج خديحة وأنها لم تتزوج أحد قبل النبي. وهو موضوع لا يرتبط ببحثنا هنا.

ونقل عن رسول الله ﷺ في فصل آخر قوله لعلي عليه السلام :يا علي، أوتيت ثلاثاً لم يؤتهن أحد ولا أنا: أوتيت صهراً مثلي، ولم أوت أنا مثلي.) ورتب على ذلك أنه لو كان عثمان أو العاص بن أبي الربيع أصهارا للنبي لما كانت تلك ميزة لعلي. (مع أن الظاهر في الميزة هو مجموع الخصال الثلاث لا واحدة وقد تفرد الامام بالثلاث..).

كما نقل كلاما لعبد الله بن عمر في جوابه لبعض الخوارج الذين سألوه عن عثمان فقال: أما عثمان، فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن تعفوا عنه. وأما علي، فابن عم رسول الله ﷺ، وختنه، وأشار بيده، فقال: هذا بيته حيث ترون. فلو كان عثمان صهر النبي لأشار إلى ذلك.

- ووصل إلى نتيجة في الأخير وهي: إذا كنا نريد أن نكون أكثر دقة في حكمنا على الروايات التاريخية، فإننا لابد ان نفترض على تقدير التسليم بولادة بنات للنبي من خديجة: أنهن قد متن وهن صغار، ولم يتزوجن من أحد.

فإن كان عثمان قد تزوج بمن اسمها رقية، وبعد موتها تزوج بمن اسمها أم كلثوم فلابد أن يكنّ لسن بنات النبي ﷺ. وإن تشابهت الأسماء.

الرأي المختار:

أقول: بعد هذا التطواف على اختصاره في نقل أدلة الطرفين، يبدو للناظر أن ما أفاده المشهور من الرأي هو الأحرى بالقبول وأننا وفاقاً لما قاله الكليني ورواه الصدوق والتزمه المفيد والطبرسي وابن شهراشوب والمجلسي والمازندراني من المتقدمين والأمين العاملي وهاشم معروف الحسني والشيرازي والسبحاني من المتأخرين نعتقد بأنهن كن بنات للنبي ﷺ.

نعم ينبغي أن تسجل هنا نقطة وهي أنه ليس من الصحيح توظيف هذا الزواج في الموضوع العقدي بحيث يكون بمجرده مفيداً فضيلة ومنقبة للزوج. وذلك أننا نعتقد أن النبي ﷺ في غير موضوع الزهراء لو جاء إليه أي مسلم من المسلمين خاطبا لزوّجه، باعتبار أن المسلم كفو المسلمة، وأنه لا يمكن للنبي الذي جاء ليطبق هذه الأحكام على الناس أن لا يطبقها على نفسه.

غير أن موضوع الزهراء مختلف جداً، فتزويجها جاء من السماء، وبشخص خاص وكان من المقرر أن يكون امتداد النبي ذرية ورسالة في هذه الأسرة.

ونفس شخصية فاطمة كانت غير باقي أخواتها، ولهذا فقد كان النبي يلهج بذكرها ويعرّف الناس منزلتها، ولم يصنع ذلك بباقي البنات ولا الأولاد فإنه أمين الله الذي لا ينطق عن العاطفة ولا تحركه في هذا الجانب مجرد مشاعر الأبوة وإنما (هو وحي يوحى) فلم يوحَ إليه في باقي البنات شيء استثنائي ولا الأولاد بينما كان ذلك بالنسبة لفاطمة الزهراء عليها السلام.

يبدو أن الذي جعل صاحب الاستغاثة يطرح فكرته تلك وهي إنكار بنوة هذه البنات، هو دخول المسألة على خط صناعة الفضائل، وهذا ما أشار إليه العلامة

العاملي أيضا في نهاية بحثه حيث رأى أن هناك محاولة لتجريد أمير المؤمنين من فضيلة الصهر ومنقبته وصناعة ذلك لغيره، فإذا كان لعلي نور فغيره (ذو نورين) !.

وهذا الكلام يمكن أن يكون صحيحاً، ولكن المناسب هنا أن لا يتم إنكار واقعة تاريخية لأجل أن الغير قد استفاد منها استفادة غير صحيحة، وإنما الصحيح هو أن يقال مثلما فعل الشيخ المفيد أن مجرد مصاهرة النبي في غير فاطمة لا يوجب منقبة وفضيلة استثنائية تماماً، فلم يكن هناك اختيار من الله تعالى، بل ولا من النبي. وإنما هو ضمن القواعد العامة في النكاح، حيث لا يشترط فيه سوى ظاهر الإسلام.

وربما يقال: إن رأي المشهور يعني إثبات فضيلة ومنقبة للخليفة الثالث فلماذا الإصرار عليه؟

ونقول: إن الربط بين الأمرين غير صحيح كما تقدم، ثم إن الموضوع التاريخي لا ينبغي في تحقيقه أن يُنطلق من منطلق عقدي وفكري لإثباته أو نفيه، وإنما من الوقائع التاريخية. وأيضا يمكن أن يقال: إن نفي بنوة بنات النبي أيضا محذور ينبغي الاجتناب عنه.

زيد بن حارثة وزينب بنت جحش

يقول الله تعالى في محكم كتابه:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾[1].

هذه الآية من جملة عدة آيات في سورة الأحزاب تحدثت عن موضوع زينب بنت جحش رضوان الله عليها التي كانت زوجة لزيد بن حارثة الكلبي، ثم صارت زوجة للنبي ﷺ.

من هو زيد بن حارثة؟

زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي عربي أُسر وهو صغير حيث اختطفته خيل بني القين بن جسر عندما أغارت على ديار بني معن أهل أمه وكان معها في زيارة

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٧.

لأهلها، فباعوه في سوق عكاظ، واشتري لخديجة بنت خويلد قبل زواجها بالنبي، فلما تزوجها النبي وهبته هذا الغلام. وتعلق برسول الله أشد التعلق لِما وجد فيه من أعلى صفات يمكن أن يصل إليها بشر؛ وهذا كله قبل البعثة.

وحج أناس من قبيلته كلب، فرأوه فعرفهم وعرفوه، ثم عادوا وأخبروا أباه بمكانه، فخرج أبوه حارثة وعمه كعب يفتديانه.

فسألا عن النبي فقيل هو في المسجد، فدخلا عليه، فقالا: يا بن عبد المطّلب، يا بن سيد قومه، أنتم أهل حرم اللَّه تفكّون العاني و تطعمون الأسير، جئناك في ولدنا عبدك، فامنن علينا، وأحسن في فدائه، فإنا سنرفع لك!.

قال و ما ذاك؟ قالوا: زيد بن حارثة!.

فقال: أو غير ذلك؟ أدعوه فخيّروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء!. وإن اختارني فو اللَّه ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء!

قالوا: زدتنا على النّصف!(يعني أعطيتنا فوق الإنصاف!).

فدعاه فقال: هل تعرف هؤلاء؟

قال: نعم، هذا أبي و هذا عمّي!

قال: فأنا من قد علمت، وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما.

فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعمّ.

فقالا: ويحك يا زيد، أ تختار العبوديّة على الحرية، وعلى أبيك وعمّك وأهل بيتك؟

قال: نعم، إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً![١]

فلم يرض أبوه بذلك وقال: اشهدوا أن زيدًا ليس ابني![٢]

فلما رأى النبي محمد ذلك، خرج به إلى الحِجْر، وقال: «يا من حضر اشهدوا أن زيدًا ابني أرثه ويرثني».[٣]

ونُسب عند الناس إلى النبي محمد ﷺ،[٤] فكان يسمى زيد بن محمد مع أن

---

(١) العسقلاني؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٢ / ٤٩٦.

(٢) في الفقه الإسلامي هذا النفي لا يترتّب عليه أيّ أثر من الناحية الشرعية، بل يبقى ابنه ما لم يرجع إعلان البراءة إلى نفي الولد بشكل صريح وإتهام زوجته بأنها خانته، وأنّها قد أنجبته من شخص أخر، ولذلك مسار أخر خاصّ له، أما القول لمجرّد الغضب منه فهذا لا يترتب عليه أيّ أثر. وهذا النحو من التبري مع أنه شائع، ويتصور بعض الآباء أنه سيحرم ولده من ميراثه بهذا الاعلان، كما قلنا لا يترتب عليه أثر شرعي.

(٣) كما نقل في أكثر المصادر حتى مصادر الإمامية مثل البحار وغيره ناقلا عن تفسير علي بن ابراهيم. وهو محل للتأمل!!

(٤) ذكرت قصة زيد بن حارثة وتبني رسول الله له في أكثر التفاسير في شرح الآية المباركة (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) ومن ذلك ما نقله السيد الطباطبائي في تفسير الميزان ١٦/ ٢٨٠ عن تفسير القمي، في قوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان سبب ذلك أن رسول الله ﷺ لما تزوج بخديجة بنت خويلد خرج إلى سوق عكاظ في تجارة ورأى زيدا يباع ورآه غلاما كيسا حصينا فاشتراه فلما نبيء رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام فأسلم وكان يدعى زيد مولى محمد.

فلما بلغ حارثة بن شراحيل الكلبي خبر ولده زيد قدم مكة وكان رجلا جليلا فأتى أبا طالب فقال: يا أبا طالب إن ابني وقع عليه السبي وبلغني أنه صار إلى ابن أخيك تسأله إما أن يبيعه وإما أن يفاديه وإما أن يعتقه.

فكلم أبو طالب رسول الله ﷺ فقال رسول الله: هو حر فليذهب حيث شاء فقام حارثة فأخذ بيد زيد فقال له: يا بني الحق بشرفك وحسبك، فقال زيد: لست أفارق رسول الله، فقال له أبوه: فتدع حسبك ونسبك وتكون عبدا لقريش؟ فقال زيد: لست أفارق رسول الله ما دمت حيا، فغضب أبوه فقال: يا معشر قريش اشهدوا أني قد برئت منه وليس هو ابني، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا أن زيدا

الفاصلة بين عمريهما لم تكن كبيرة إذ قال بعض إن النبي كان يكبره بعشر سنين فقط! وهذا الأمر كان موجودًا في المجتمع القرشي، ويُعرف باسم (التبنّي).

وهكذا كان الأمر إلى أن نزلت الآية المباركة بدعوة الناس لآبائهم: ﴿ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آَبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.(١)

فالإنسان يُدعى لأبيه؛ وبالتالي لا يصحّ أن يُدعى وينسب لغير أبيه؛ لأنّه يترتّب على ذلك ميراث ونسب ومحرَمية، بينما في التبنّي لا يترتّب أيّ شيء على ذلك؛ فعاد إليه الاسم أنّه زيد بن حارثة.

نشير هنا إلى مسألة اجتماعية، وهي أنّ بعض الناس ولا سيما من النساء يكتبون أحياناً رسائل يطلبون فيها الدعاء لابنهم أو ابنتهم بهذا التعبير: ادعوا إلى ابني (محمد بن خديجة)، أو ابنتي (فاطمة بنت خديجة)!!، ناسبين الأولاد للأم وهذا غير صحيح. بل ينبغي أن ينسب الولد (ذكرا أو أنثى) لأبيه. ونحتمل أن هذا راجع لتأثر بعض الناس بالثقافة الخاطئة لبعض قنوات الشعوذة الفاسدة التي تتعاطى أمورًا كالتنجيم والسحر وما شابه ذلك؛ لأنّهم عادة يسألون عن أسم الأم!!

بل يكون هذا أحيانا نوعًا من الاتهام في الشرف وصحة انتساب الشخص لأبيه!!عندما تأتي واحدة وتقول: (ادع لفاطمة بنت خديجة)، وكأنّها تقول بمعنى آخر: إنّ هذه البنت غير معلوم أنّ هذا هو أبوها فعلًا!!

إذا كان الأب معروفًا، ووُلد الابن على فراش الزوجية فلا يصحّ أن نناديه في هذه الدنيا باسم أمه إلا أذا شككنا في نسبه مثلًا، كما يقولون: (زياد بن سمية)؛ لأنّنا

ابني أرثه ويرثني. فكان زيد يدعى ابن محمد وكان رسول الله ﷺ يحبه وسماه زيد الحِب.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥.

لا نعرف مَن أبوه، لكنّ أمه معروفة!.

أما إذا ولد شخص عبر نكاح شرعي وولادة شرعية فمن الخطأ أن يُنادى باسم أمه.

نعم في بعض الحالات التي يُراد منها التعظيم والتفخيم، كقول الحسين: (أنا الحسين بن فاطمة)[١] فذاك شيء آخر، أما في الحالات العادية التي تندرج ضمن المقاييس الدنيوية، فالصحيح هو أن ندعوهم لآبائهم: ﴿ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ﴾، لا أن ندعوهم لأمهاتهم.

ونقول: (ضمن المقاييس الدنيوية)؛ لأنّ للآخرة مقاييسها الخاصة بتلك النشأة الأخرى.

وهكذا نزلت الآية الشريفة: ﴿ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ﴾، فدُعي زيد بن حارثة، وبقي مع رسول الله ﷺ، وتربّى في كنف الرسول وعلى يده المباركة فترة طويلة من الزمن، فقد عاش معه إلى أن بعث النبي بالرسالة فأعتقه لوجه الله.

وبمقدار ما كان زيد يحبّ النبي ﷺ كان النبي يحبّ زيدًا؛ ولذلك يُعبَّر عنه بـ (حِبّ رسول الله)، أي المحبوب عند رسول الله، وكان يخرج مع الإمام علي إلى جنب رسول الله يدفعان عن النبي أذى كفار قريش وسفهاء الطائف وغيرهم.

---

(١) وهكذا لو أريد تمييزه بين عدة أبناء يتشابهون في الاسم واسم الأب، مثل محمد بن الحنفية، فإن أمير المؤمنين عليه السلام كان له عدة أبناء بإسم محمد، فهنا لو قيل محمد بن علي مع تعددهم، يحتاج لتعيينه باسم أمه.

زواج زيد من زينب بنت جحش:

تزوج زيد بعد بعثة النبي من أم أيمن بركة الحبشية، وأنجب منها أسامة بن زيد، مع أنه يفترض أنها كانت متقدمة في السن، إذ كانت مما ورثه النبي من أمه السيدة آمنة التي توفيت قبل ٣٢ سنة من بعثة النبي فلو فرضنا أن أم أيمن كانت بعمر ١٠ سنوات في ذلك الوقت فهي الآن تتجاوز الأربعين، ثم إن النبي ﷺ في موضوع الزواج كان لديه قيمة نبيلة هي: أن يزوّج من الطبقات المختلفة من أجل أن يتضع النكاح، كان يريد أن يقضي على الفوارق العنصرية والقبلية والامتيازات الزائفة، وأنّ هذا غنيّ لا يعطي ابنته إلى فقير، وذاك شريف بحسب الترتيب الاجتماعي ولا يعطي ابنته إلى إنسان عادي، وهذا سيّد هاشمي ولا يعطي ابنته لغير سيّد هاشمي، هذه كلّها كان النبي ﷺ يريد أن يقتلعها من الناس إذ لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى؛ ولأجل هذا فقد أقدم على عدد من هذه الزيجات المختلطة، فمثلًا: زوّج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب بنت عمّه ﷺ، ذات الشرف العالي في النسب، للمقداد بن عمرو المعروف بالمقداد بن الأسود الكندي الذي جاء هاربًا في قضية من القضايا، ولأنّه وصل إلى مكة، وليس عنده أحد يلجأ إليه فيها، فتولى الأسودَ الكندي، وعقد معه (حلف ولاء)، فهؤلاء الضعفاء الذين لم تكن لهم عائلة في مكة كانوا يفعلون هكذا، وهو مثل (التجنيس) في هذا الزمان، فيأتي شخص ليست لديه جنسية، ويعمل له جنسية بذاك البلد، فيصير هذا عقد ولاء، ويصير هذا الشخص محميًا من قبل هذا الكبير، وهم بحسب ذاك الزمان في طبقة أدنى في سلّم الطبقات الاجتماعية من الإنسان العربي الصميم الذي هو من أصل مكة.

وهكذا زوّج النبي ﷺ ضباعة التي هي من علياء قريش بالمقداد بن الأسود

الكندي الذي هو بحسب المقاييس لديهم في مرتبة اجتماعية أدنى.

ومن ذلك أيضا ما صنعه ﷺ لزينب بنت جحش، وهي بنت عمته؛ فأم زينب بنت جحش هي أميمة بنت عبد المطلب، فزينب ابنة عمته ﷺ.

زينب بنت جحش أسدية، لكنّ أمها هاشمية، فأرسل لها النبي أنّي أخطبك للنكاح، فتصورت أنّه يخطبها لنفسه، فسعدت بهذا الأمر، وبعد ذلك عرفت أنّ الخطبة لم تكن للنبي، وإنّما كانت لزيد بن حارثة، ويظهر أنّ زيدًا بالإضافة أنّه كان عبدًا سابقًا بحسب تقييمهم وتصنيفهم، وكان قد أُعتق؛ كان أسمر شديد السمرة، وهذه نقطة ضعف أخرى بحسب مقاييسهم!!

فلما خُطبت لزيد أنفت، ورأت نفسها لا تستطيع أن توافق، وبعد هذا نزلت الآية المباركة التي حوتها سورة الأحزاب أيضا:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾.(١)

ولما سمعت زينب بأنّ هناك آية نزلت، وفيها أنّ النبي هو صاحب الاختيار والقرار للناس، وهو أولى بهم من أنفسهم، وإذا عصى شخص أمر النبي فهو ضالّ ضلالًا مبينًا؛ تصوّرت أنّ النبي ﷺ أمرها أمرًا شخصيًا واجب الإتباع بالموافقة على الزواج من زيد، بينما كان النبي في صدد تطبيق القانون، ويريد أن يزوج هذا الرجل من تلك المرأة، لا غير.

لقد تصوّرت زينب أنّها المقصودة من هذه الآية، فأرسلت إلى رسول الله أنّي موافقة على الزواج من زيد.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

وافقت عليه، وجرى الزفاف، وتزوّجا، لكن لا يزال الشعور بالرفعة الاجتماعية والتفوّق باقيًا في قرارة نفسها، لقد كانت تشعر أنّها فوق زوجها!!، التاريخ يذكر هذا، وربّما بعض التصرّفات التي تُذكر تشعر بهذا.

وهذا الشعور بالتفوق من طرف تجاه الطرف الآخر يقع أحيانًا عند بعض الرجال أو بعض النساء، فقد يتزوّج رجل حاصل على شهادة دكتوراه من بنت عمّه خريجة الثانوية، فيشعر بـ (ميزة التفوّق)، وهذا ناشئ من المعيار المشتبه الذي يحمله في نفسه، ويُنتج له تصرّفات تبعية، فيُشعِر زوجته دائمًا بدونية مستواها المعرفي، وأنّها لا تفهم شيئًا، وأنّ هناك مسافة بينه وبينها، وهذا شعور وسلوك غير صحيح!!

وأسوأ منه ما إذا حصل العكس، فتكون الزوجة مثلًا دكتورة أو خريجة في مجال من المجالات، وتتزوّج من شخص دونها في المستوى العلمي، فتشعر بسموّها المعرفي عليه، وتصدر منها سلوكيات متعالية!!

مثل هذا الإنسان إذا كان يريد أن يُنجح حياته الزوجية فعليه أن يتحرّر من هذا الشعور المرَضي، وأن لا يتعامل مع زوجته وكأنّه التفوق في مقابل الدون، والرفعة في مقابل الضعة، ويتعامل معها وكأنّه (متصدّق عليها!!) لما تزوجها.

ومثل هذه المرأة إذا كانت تريد أن تُنجح حياتها الزوجية فعليها أن تترك هذا الشعور المرَضي، ولا تتعامل داخل البيت الزوجي على أنّها دكتورة وفاهمة، وأنّ زوجها متخلف أو متأخر ولا يفهم شيئًا، أو أنّه ليس من مستواها، وأنّها (متصدّقة عليه!!) لما تزوّجته.

هذه أخطاء فادحة تدمّر الحياة الزوجية.

والنبي ﷺ كان يريد أن يكسر هذه المفاهيم والسلوكيات الخاطئة، ولولا ذلك

لما تزوّج أصلاً، فأين مقام النبي الأكرم من مقام زوجاته؟!، وهل هناك امرأة تقارن بالنبي ؟!، وهل هناك أحد يقارن أمير المؤمنين ﵇ بأحد من زوجاته غير الزهراء ﵍؟!، ومع هذا لم يكن النبي يُشعر زوجاته أنّه فوقهن، وأنّ هناك مسافة بينه وبين زوجاته، ولم يكن أمير المؤمنين يصنع ذلك، وهذا هو الصحيح في الحياة الزوجية.

وفي موضوع زيد بن حارثة يبدو أنّ الأمر تطور إلى حدّ أن جاء زيد للنبي ﷺ يستقيله من ذاك الزواج، ويخبره أنّه لا يستطيع الاستمرار في تلك الحياة الزوجية؛ لأنّها تتعاظم عليّ، أي ترى نفسها أكبر مني، وهذا لا يريح الحياة الزوجية، فقال له النبي ﷺ:اتقِ الله واصبر، وأمسك عليك زوجك: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾.

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، أبقِ زوجتك على عصمتك، وهذا هو الموقف الطبيعي في النصح والتوجيه الاجتماعي، بخلاف ما يفعله البعض من الرجال والنساء الذين لا يحسنون النصح والتوجيه، فقد يأتي رجل لشخص يقول له: (إنّ زوجتي فيها كذا وكذا من الأخطاء)، فيقول له: (طلقها واخلص منها)!!، وقد تأتي امرأة إلى أخرى، وتحدّثها عن زوجها، فتقول لها: (تطلقي منه)!!، وقد تذهب الزوجة إلى بيت أهلها، وتشتكي إليهم زوجها، فيُقال لها: (اطلبي منه الطلاق، واتركيه)!!

هذا التوجيه الداعي إلى هدم عشّ الزوجية توجيه خاطئ، والتوجيه الصحيح هو أن يقدّم الإنسان التوجيه التربوي الأخلاقي الصحيح الداعي إلى الحفاظ على الكيان الزوجي، بخلاف ما يريد الزوج المنفعل أو الزوجة المنفعلة أن يفعلاه من هدم للبناء الأسري، لا تشجعه على الطلاق والفراق وزيادة شرخ المشكلة.

لذلك قال النبي ﷺ لزيد: تحمّل!، ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، حاول الاستمرار،

حاول محاولات جديدة في رأب الصدع.

زواج الرسول الأكرم من زينب:

يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.(١)

وهنا القرآن يقول: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فما الذي كان يخفيه النبي ﷺ في نفسه؟!

أخطأ بعض المفسّرين حين قالوا: إنّ النبي ﷺ كان يحبّ زينب بنت جحش، وكان يخفي ذلك. وسوف يتضح أنّ هذا الرأي خطأ فادح.

والصحيح أن الذي كان يخفيه النبي هو أنّ الله تعالى أخبره أنّه في آخر الأمر ستكون زينب زوجة من زوجاته.

فالنبي الآن عندما كان يوجّه زيدًا للاستمرار معها، من الطبيعي أن يخفي عنه ذلك؛ إذ لا يصحّ أن يقول له بأنّ زينب ستصبح زوجة لي، وليس من الطبيعي أن يقول له: (طلِّقها، وبعد ذلك سوف أخطبها أنا واتزوّجها)، فحتى الشخص العادي الذي لا يفعل ذلك، فكيف يفعله النبي محمد ﷺ ؟!

فالنبي ﷺ كان يأمره بالاستمرار في الحياة الزوجية، وإن كان يعلم بالعلم الإلهي أنّ زينب ستصبح زوجته في خاتمة المطاف، لكنّ وظيفته الطبيعية ضمن المقاييس الظاهرة هي الإخفاء، فكان يخفي عن زيد هذا الأمر.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٧.

لماذا كان النبي يخفي ذلك؟

هذا الإخفاء ملاحظة للموضوع الاجتماعي: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

قسم من الناس كان يتصوّر أنّ هذا فيه نوع من اللوم والعتاب للنبي ﷺ، ولكنّ الحقيقة خلاف ذلك؛ فهذا مدح عظيم للنبي ﷺ؛ لأنّ الإنسان العادي لو تزوّج زوجة من بعد أن تطلّقت من زوج آخر، فما دام فِعله ذاك في إطار الحلال فهو غير معاتَب، لكن. مطلوب من الإنسان أيضا أن يحمي شخصيته الاجتماعية.

البعض من الناس يتعامل مع الأشياء بمنطق الحلال والحرام فحسب، دون النظر إلى الأثر الاجتماعي، فما كان حلالًا يصنعه، وما كان حرامًا يجتنبه، والباقي أي النظرة الاجتماعية لا يهمه، فقد يدخل إلى المسجد مثلًا بملابس النوم ويقول: ذلك جائز شرعاً!! ما دام ساترا.

هو فعلًا لم يفعل حرامًا، لكن. ستلوكه الألسن، وسيظلّ محور حديث الناس الناقد!!

فمن الطبيعي أن يخشى النبي ﷺ كلام الناس؛ لحماية شخصيته الاجتماعية، وهذا فعل العقلاء عادة، لكنّ الله تعالى يقول له لا تهتم بكلام الناس، لا تحمّل نفسك شيئًا زائدًا ما دام الأمر طبيعيًا وحلالًا وضمن إطار الشرع، لا تعتن بأقاويلهم ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

وهذا التوجيه الربّاني ليس فقط لذاك الزمان التاريخي الذي عاشه النبي، بل يسري في الزمان، ويشمل زماننا الحاضر؛ لأنّ قسمًا من حياتنا تصنعها كلمة باطلة، وهي: ماذا يقول عنّا الناس!!

هذه كلمة غير صحيحة؛ فاذا كنتَ تشتغل في الإطار الصحيح فالمهم أن تخشى الله، وتحافظ أيضا على وجودك الاجتماعي، لكن لا تغدو أسيرًا لكلام الناس، فمثلًا: لو كان عندك بنتان، وجاء خاطب للصغيرة، والكبيرة لم يأتِ أحد لها إلى الآن فلا تقل: لن أزوج الصغيرة، ماذا يقول عنّا الناس؟!، ولو أراد ابنك أن يتزوّج، وليس عنده قدرة مادية للذبح والوليمة، وتريد أن تعمل ضيافة بسيطة، فلا تتردد وتقول: لكن ماذا يقول عنّا الناس؟!

كان رسول الله ﷺ قد تزوّج من أم سلمة، فأطعم الحيس (مثل الشوربة الآن)؛ لأنّه وقتها لم يكن مقتدرًا ماليًا، ولما تزوّج من زينب بنت جحش كان عنده قدرة على الإنفاق، فأطعم الناس الثريد واللحم. ونحن ينبغي أن نقدر أنفسنا بما تستطيع، وليس بما يقول عنّا الناس، فلا ينبغي أن يكون المعيار والمقياس عندنا ماذا يقول عنّا الناس، الله تعالى يقول لنبيه: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾، هؤلاء الناس الذين سيتكلمون عليك هم المعتدون.

لو جاء أحدهم وقال مثلًا: (انظر إلى فلان؛ فقد زوّج أبناءه، ولم يصنع وليمة وعشاء وكذا وكذا)، أو (انظر إلى فلان؛ فقد زوّج الصغير قبل الكبير، وزوج ابنته كزوجة ثانية، فكيف يقبل ذلك؟!)، فعمله هذا محرّم وغيبة، وأنت لستَ ملزمًا بتطبيق كلامه، وليس شرطاً عليك أن تطيعه، هو من سيبوء بإثم ذلك القول!!

فالنبي ﷺ أخفى هذا الأمر، وبعد ذلك ألحّ زيد على الطلاق، فالنبي ﷺ قبِل منه طلاقها، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾،[1] فقد تصل الأمور أحيانًا إلى نقطة لا يستطيع فيها الزوجان مواصلة الحياة الزوجية معًا.

---

(١) سورة النساء، الآية ١٣٠.

وعندما وصل زيد إلى هذه النقطة وطلّق زينب، وقضت عدتها ثلاثة أشهر، وأراد النبي ﷺ أن يتزوّجها أرسل زيدًا نفسه لزينب بنت جحش؛ لكي يخطبها لرسول الله، فجاء زيد إليها، يقول: لما دخلتُ على زينب، وتصورتُ أنّ النبي ﷺ سيكون زوجًا إليها أعظمتها الآن، وشعرتُ أنّها ليست زينب التي كانت زوجتي، وكنتُ أختلف معها، فأعظمتها وأعطيتها قفاي، وقلتُ لها: أبشري؛ فإنّ رسول الله يخطبك إلى نفسه.

وهذا تعليم عظيم من النبي ﷺ لنا بأنّ الذين تحدث بينهم مسألة الطلاق لا يعني ذلك الانتقام بينهم، فلا يقول الرجل: (بما أنّي طلقتها فدعني أنشر ملفاتها!!)، أو يمنعها من رؤية أبنائها الذين أضحوا عنده، ويقول لها مثلًا: (ستموتين ولن تري أبناءك)، وإذا كان عنده أموال لها فيذيقها شتى صنوف العذاب والأذى والتعب حتى يرجعها إليها، ويلطخ سمعتها بالتراب!!

وقد تفعل المرأة ذلك، فتنتقم، وتلطخ سمعة من كان زوجها وطلّقها.

وقد يذهب الرجل لكي يتزوّج من جديد، فيقولون له: انت كذا وكذا بحسب ما قالت زوجتك، أو بالعكس تُخطب المرأة مثلًا فيقول: لا إنها كذا وكذا، حتى يصل الأمر في بعض الأحيان إلى الاتهام الباطل في العرض والشرف، وهنا يتبيّن تديّن الإنسان من عدمه، فليس مقياس التديّن الركعتين يصليهما، او المجلس الديني الذي يحضره، او الزيارة للمراقد المقدسة التي يقوم بها، هذه ليست المقاييس، المقياس الأكبر هو ما اشتهر من أن: الدين المعاملة.

هنا يكون هذا الرجل الذي ينشر سيئات المرأة ظالمًا، وتكون تلك المرأة التي تنشر سيئات الرجل ظالمة، وعلى كلّ منهما أن لا يفتري، ولا يبهت إنسانا بريئًا، وهنا يتبيّن الإيمان، لا تنظر للرجل كيف يصلي الجماعة، بل انظره كيف يتحدّث

عن زوجته، لا ترَ المرأة كيف تمضي للزيارة، بل انظرها كيف تتحدّث عن زوجها، هنا يتبيّن مقياس الإيمان والتديّن عندهما.

يقول القرآن الكريم: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾،[١] لماذا لم يقل: (أو تسريح بمعروف)، بل قال: ﴿أو تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾؟!

المعروف يعني المتعارف والعدالة، مثل أن يكون شخص قد أدانك ألف ريـال، فترجعها له ألفاً، هذا معروف، أما الإحسان فأن يدينك ألفًا، وأنت ترجع له ذلك من طوع نفسك[٢] فوقها هدية من الهدايا، ويقترض منك ألف ريـال، فتقول له: أرجع لي تسع مئة فقط.

بين الزوجين عندما يكون التسريح فليكن هناك (إحسان)، وليس (معروفًا) فقط.

عندما تُرجِع إليها كلّ حقوقها، وهي تُرجِع إليك كلّ حقوقك، فهذا من (المعروف) وقد ورد هذا بمقدار الواجب واللازم ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[٣]، لكنّ الإحسان أن يتفضّل عليها بالزيادة، فمثلاً يقول لها: إن كان الدخول قد حصل، وأخذتِ المهر، فتفضلي فوق المهر هذا مبلغ إضافي من المال، ويعطيها ألفي ريـال أو أكثر.

أو تقول المرأة مثلًا للزوج: ما دامت الحضانة ستكون عندي في السنتين الأوليين للمولود، فيمكنك أن تأتي لرؤية ولدك مرة أو مرتين في الأسبوع، وهذا متعارف، ويدخل في نطاق (المعروف)، ولكنّ (الإحسان) أن تقول له: في أيّ وقت أحببت

---

(١) سورة البقرة/ ٢٢٩.
(٢) من دون اشتراط حتى لا يكون ربا.
(٣) البقرة / ٢٣١.

أن تأتي فتعال، وتفضّل على الرحب والسعة.

الإحسان أن لا يقول الرجل عن طليقته: (إن شاء الله بعدي لا ترى رجلًا إلى أن تهلك وتموت!!)، أو تقول المرأة: (الله لا يوفقك إن شاء الله، ولا ترى امرأة بعدي!!).

من الإحسان أن يذهب زيد لزينب، وأن يقول لها: أبشري يا زينب؛ فقد جلبتُ لك البشارة، فهذا رسول الله ﷺ يخطبك لنفسه، [(١)] وفعلاً هذه بشارة عظيمة، فقالت زينب: عرفتُ المعنى من الآية السابقة: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا). [(٢)]

قالت زينب: ريثما أوامر ربّي، وقامت وصلت ركعتين [(٣)]، وطلبت من الله أن يختار لها الصالح، فإذا بالآية المباركة: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [(٤)] فكانت تفتخر على بقية نساء النبي أنّ زواجها لم يكن من الأرض، وإنّما كان من السماء، ليس بواسطة ولي، وإنّما من الله بحسب الآية المباركة على نقاش فيه، ولكن هي تفتخر أنّ قضية تزويجها بالخصوص جاءت في القرآن، فتزوّجها رسول الله ﷺ.

وكانت نعم المرأة مع رسول الله، كانت ممن اختارها الله ورسوله بحسب

---

(١) كان عمرها حين خطبها رسول الله ﷺ حدود ستة وثلاثين سنة (خلافا لما ذكره العلامة الطباطبائي في الميزان ٤/ ١٩٥ من أنه بنى بزينب بنت جحش وسنها يومئذ يربو على خمسين) وذلك أنها توفيت سنة عشرين للهجرة وعمرها ثلاثة وخمسين سنة، وكان فراقها لزيد في السنة الثالثة للهجرة، فإذا نقصنا سبعة عشر سنة (مدة زواجها) من عمرها يكون النبي قد تزوجها وهي في السادسة والثلاثين أو نحوها.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

(٣) ابن الأثير؛ عز الدين: أسد الغابة ٧/ ١٢٦.

(٤) سورة الأحزاب/ ٣٧.

الروايات، وكانت صالحة تحبّ أن تهدي لرسول الله الهدايا حتى في غير يومها، وهذا مما أغار إحدى نساء النبي فقد عملت حريرة (عصيدة)، فجاءت بها إلى رسول الله كهدية تتحفه بها، فلما قدّمت ذلك إلى الرسول قامت تلك المرأة، وأخذت ذلك صحن الحريرة، ورمت بها إلى الأرض، فانكسر الصحن، ودلقت الحريرة والنبي بدلًا من أن يصنع كما يصنع بعض الناس من الانهيال بالشتائم والضرب، قال: (عليكِ لها صحن كالصحن الذي أتلفتيه)، وانتهى الموضوع.

الحريرة لي أنا، ولن أفعل لكِ شيئًا بسكبها، ولكنّ الصحن للمرأة، وعليكِ أن تضمني لها ذلك.

فمع وجود هذه المشاكل كان النبي يتعامل بهذه الطريقة الأخلاقية المناقبية الرائعة.

تزوّج النبي زينبَ، وأطعم عندما تزوجها طعامًا كثيرًا من اللحم والثريد، واستمرّ فترة قيل: إنّها ثلاثة أيام، وكان بعض الناس يأتون ويقعدون ويبسطون بحسب التعبير؛ لذلك نزلت الآية المباركة التي ضمتها سورة الأحزاب أيضا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.[١]

هذا ينبّهنا القرآن لضرورة أن يكون عند الإنسان ذوق وإحساس بحال الآخرين،

---

(١) سورة الأحزاب/ ٥٣.

لا تقل مثلًا ـ: (هذا منتصف الليل، ولكن لا ضير أن أذهب إلى فلان أو أتصل به)!!، بل هناك ضير، فـ «ليس بأخ لك مَنْ ضيّعتَ حقّه». [(١)]

بعض الناس يأتي في متنصف الليل، وهو يعلم أنّ صاحبه لا بد أن يبكر للخروج إلى عمله، ويقول: (لا ضير، ولا مشكلة)!!

لا معنى لذلك، فهذا إنسان لا يستشعر حقّ الآخرين!!

يتصل شخص بعد منتصف الليل على قضية ليست طارئة أو عاجلة، أو يأتي لكي يشاهد التلفاز في بيت صاحبه!!، هذا فاقد للإحساس تجاه الآخرين، وعليه أن ينمّي الذوق الاجتماعي لديه، فهذا تضييع لحقّ الآخرين.

النبي ﷺ كان في الأيام الثلاثة مرتبطًا بزينب، وهذا حقّ زينب، والنبي كان حييًا، يذكرون في صفاته: أنّه كان أحيى من العذراء في خدرها.

بعض الناس وجهه يطرد الناس، ليس بالكلام، بل بالصفعات، وهناك قسم من الناس عنده حياء، والنبي ﷺ كان من هذا القسم، هذا لابدّ أن تضع نفسك مكانه، وتشعر به، لنرى هل كنت تقبل أن يسهِّرك أحد، أو يوقظك من أول الفجر، وكيف يكون موقفك حينها؟!

قسم من الناس أعمى إلا عن حاجاته، فعنده أيّ قضية له هي مهمة، لكن بالنسبة للطرف الآخر قد لا تشكل تلك القضية أهمية، فيذهب إليه، ويزعجه، وينكد عليه حياته، ويوقظه مع عائلته آخر الليل أو في الفجر!!

فنزلت هذه الآية الشريفة: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ

---

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار ٧١/ ١٦٥، باب (المودة)، ذيل الحديث ٢٩، والحديث لأمير المؤمنين عليه السلام.

ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾، أي عليكم أن لا تجعلوا بيت رسول الله ﷺ مجلساً لكم. أنتم مدعوون على الطعام، فإذا انتهى فانتشروا.

وكانت زينب من أسخى نساء النبي وأطولهن يداً في مساعدة الفقراء والمساكين. وبقيت مع رسول الله ﷺ، ما يقرب من سبع سنوات وأشهر بناء على أن زواج النبي بها كان في السنة الثالثة للهجرة، بعد طلاق زيد إياها.

وبالرغم من طلاق الزوجين فإنهما بقيا أحباب النبي ﷺ، فهذه زينب بذلت للنبي غاية الحب والوفاء ونقل عن النبي جمل الثناء عليها والمدح لها في سخائها وعطائها للمساكين. وذاك زيد عاش حياته الجديدة مع زوجات أخر، فقد نقل أنه قد تزوج أم كلثوم بنت عتبة وأنجب منها رقية وتزوج درة بنت أبي لهب، وكان قائدا عسكريا بعثه النبي ﷺ، على رأس مجاميع متعددة من المسلمين في سبع مواقع عسكرية، إلى أن استشهد في غزوة مؤتة مع جعفر بن أبي طالب الطيار

وجاء النبي خبر شهادتهما وهو على المنبر عن طريق الوحي (وهو ما يستفاد من شرح النبي ﷺ لمجريات المعركة وتفاصيلها وفي بعض الروايات أن الله سبحانه كشف ما بينه وبين المعركة حتى صار يرى ما يحدث) أو عن طريق رسول من المعركة.[١]فذكر ذلك للناس وإن عينيه لتفيضان دموعًا، وكرّ راجعًا لبيته، وكان يبكي عليهما في البيت كثيرا حتى قال له بعضهم: لطالما بكيتَ عليهما أي بكيت

---

(١) المجلسي؛ محمد باقر: بحار الأنوار ٢١/ ٥١ قال عبد الرحمن (مبعوث خالد بن الوليد): فسرت إلى النبي فلما وصلت إلى المسجد قال لي رسول الله ﷺ: «على رسلك يا عبد الرحمن» ثم قال: «أخذ اللواء زيد فقاتل به فقتل، رحم الله زيدا، ثم أخذ اللواء جعفر وقاتل وقتل، رحم الله جعفرا، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة وقاتل فقتل، فرحم الله عبد الله» قال: فبكى أصحاب رسول الله وهم حوله فقال لهم النبي: «وما يبكيكم؟» فقالوا: وما لنا لا نبكي وقد ذهب خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل منا؟.

كثيرًا على هذين الشخصين، فقال: بلى كانا يؤنساني ويحدِّثاني، فذهبا جميعًا.

حمزة بن عبد المطلب أسد الله واسد رسوله

﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾.[1]

أُوّلت هذه الآيةُ المباركة بأفراد منهم حمزة سيد الشهداء وهو الذي قضى نحبه وجعفر بن أبي طالب، والذي ينتظر كان علي.[2]

قد ذكرنا فيما سبق عند الحديث عن عبد المطلب وهو رأس هذه الأسرة الهاشميةِ كيف أنه أخذ بتربية أبنائه بتوحيدِ اللهِ ونبذِ عبادةِ الأصنام وتركِ شُرْبِ الخمرِ والاجتنابِ عَنْ الزنا والوصية بمكارمِ الأخلاق مع التذكيرِ الدائمِ بأنَّ للهِ تعالى داراً أخرى يحاسبُ فيها المسيءُ بإساءتِهِ ويُجزى فيها المحسنُ بإحسانِهِ. هذا الطابعُ العام جعلَ الأسرة ضمن الاتجاه الإبراهيمي إلا من شذ منهم، وجذبته الدنيا وشهواتها.

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٣.

(٢) الاصفهاني؛ ابن مردويه: مناقب أمير المؤمنين علي ١/ ٢٩٩ ومجمع البيان وغيره.

وهذا بلا شك كان من المؤثرات في شخصية حمزة، وبالإضافة لذلك فقد كان لقرب عمره من عمر النبي محمد ﷺ، كما نعتقد تأثير على توجهاته الأخلاقية والدينية.

يضاف إلى ما سبق في محاولة ترسيم شخصية حمزة عليه السلام فقد اشتهر عنه بأنه كان شجاع القلب قوي البدن، وهاتان صفتان مختلفتان، فقد يكون شخص قوي البدن لكنه ليس بشجاع القلب، وقد ينعكس الأمر بأن يكون شجاع القلب، ولكنه لكبره مثلا أو مرضه ضعيف البدن والقوة العضلية.

وبينما يتأثر البدن بمرور الزمان عليه، والكبر في السن فيضعف، تجد أن جرأة النفس وقوة القلب لا تتأثر بالضرورة بمرور الزمان ولا تشيخ عادة. وقد جمع حمزة الخصلتَينِ فإنهم ينقلونَ إنَّه كان في أيامِ شبابِه يخرجُ إلى الصحراءِ وحده وإذا وجدَ فيها شيئا مِنَ الحيواناتِ المفترسةِ كانَ يصطادُه فعُبِرَ عَنْهُ بِصياد الأسود.

وعندما بعث النبي محمد ﷺ، حدثت حادثة جعلت حمزة يظهر ما كان يخفيه من إعجاب بدعوة رسول الله ﷺ، ويعلن ما كان يسره من عدم اقتناعه بالأصنام التي لا تضر ولا تنفع. فقد ذكر المؤرخون أَنَّهُ كانَ راجعاً مِنَ الصحراءِ ذات يوم وكانَتْ عادتُهُ أَنْ يمرَ بالبيتِ الحرامِ ليطوفَ بالكعبة سبعةَ أشواطٍ[١] (وهي احدى سنن أبيه عبد المطلب التي جاء الإسلام فيما بعد وأقرها) وفي طريقه التقت به جارية لعبد الله بن جدعان ومعها جارية لصفية بنت عبد المطلب فقالتْ له يا أبا يعلى وكانَتْ هذه أحدى كناه[٢]: لو رأيتَ ما صنعَ أبو الحكم بابنِ أخيك محمد لرققَتَ لهُ!!

(١) يقرر علماء الإمامية أن الطواف الواجب ولو في عمرة أو حج مستحب هو سبعة أشواط لا تزيد ولا تنقص، ولكن الطواف المستحب يجوز أن يكون أقل من ذلك، فيصح أن تطوف شوطا أو شوطين.

(٢) ويكنى أيضا بأبي عمارة.

في ذلك الوقت كانَ يطلقُ على أبي جهل أبا الحكم.(١)

قالَ لهما وما صنعَ به ؟ قالَتْ: وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه و لم يكلمه محمد. وقيل الذي أخبرته مولاة أخته صفية بنت عبد المطلب، قالت له: إنه صب التراب على رأسه، وألقى عليه فرثاً. فقال: انتِ رأيت ذلك ؟ قالت نعم.

هنا غضب حمزة غاية الغضب. وأخذته الحمية في نصر رسول الله، وقد ورد في الروايات ذم الحمية إلا ما كان من حمية حمزة!

فإن الحمية وسورة الغضب إذا كانت من أجل افتخار جاهلي، أو أمر شخصي تكون مذمومة أما أن يغضب الإنسان لأجل اعتداء حصل على مؤمن أو مؤمنة. فهذا ممدوح.

غَضِبَ حمزة غضباً شديداً ورأى أن استضعاف ابن أخيه هو استضعاف للحق، وتجبّرٌ وتفرعنٌ من قبل شخص يتصور نفسه لا رادع له، فكان يحتاج إلى تأديب يناسبه. وبينما كان أبو جهل في جمعٍ مِنَ أعوانِه جالسِينَ عند الكعبة وإذا بحمزة يأتي ومِنَ دونِ أَنْ يطوفَ بالكعبة رفعَ قوسَهُ وضربَ به أبا جهل ضربةً قويةً على رأسِه شج فيها رأسَه وأسال مِنَهُ الدمَ! وقالَ: ردَّها عليّ إنْ استطعت!

كانَتَ هذهِ الضربة صفعة لكبرياءِ قريش كلها. فقريش التي كان زعماؤها إلى ما قبل قليل تستذلُ المسلمِينَ وتضربُهُمْ وتسخرُ بالنَّبي وتُلقِي الأقذارَ في طريقِهِم وعليهم. وإذا بها تتلقى هذه الضربة على الملأ وأمام الناس، وعلى رأس سيدهم والمتولي للإيذاء، مع تحديه بأن يرد الضربة لو استطاعوا!

---

(١) عمرو بن هشام المخزومي، من رؤساء المشركين كان يكنى بأبي الحكم، فكناه رسول الله ﷺ، بأبي جهل لتعديه على المسلمِينَ وقالوا لقتله امرأة مسلمة بطعنها بالحربة تحت بطنها!

وعندما حاول أعوان أبي جهل أن يناجزوا حمزة قالَ لَهم أبو جهل كفوا عنه فإنَّي قَدْ فعلتُ مع ابن أخيه فعلاً شنيعاً!

وعندها توجه أبو جهل كأنه يريد تبرير ما صنع. فقال لحمزة: إن ابن أخيك سفه عقولنا وسب آلهتنا وعاب آباءنا!

فرد عليه حمزة بما هو أوجع من ضربته التي أسالت الدم قائلاً: ومَنْ أسفهُ منكم وأنتم تعبدون الأصنام والحجارة التي لا تضر ولا تنفع ؟ ألا فاشهدوا أني على دينه وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله![1]

وكانت هذه الضربة الثانية أقوى من ضربة القوس على رأس أبي جهل.

وشرعت الهجرة للمؤمنين فلا يصح للمؤمن أن يخسر إيمانه في مسقط رأسه لوجود الضغوط فيها، وعنده أرض الله واسعة ليهاجر إليها. إنه بذلك يظلم نفسه لو لم يفعل ويظلم أهله كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.[2]

وعلى أثر ذلك هاجر المؤمنون فمنهم من اتجه إلى الحبشة، ومنهم من توجه إلى يثرب (المدينة) وهكذا ويقال أن حمزة قد هاجر إلى المدينة قبيل هجرة النبي ﷺ، وكانت معه زوجته سلمى بنت عميس الخثعمية أخت أسماء بنت عميس.

في السنة الثانية من هجرة النبي حدثت معركة بدر الكبرى في يوم السابعِ عشر مِنَ شهرِ رمضان وحمزة كانَ فيها مُعلِما قَدْ وضعَ على صدرِهِ رِيشَ نعامٍ.

---

(١) ابو الحلبي الشافعي؛ ابو الفرج: السيرة الحلبية ١/ ٤٢١.
(٢) النساء / ٩٧.

وقد جاء القرشيونَ بزعمِهِم لكي يقضوا على رسولِ الله ومَن معه وكما قالُوا نشربُ وترقصُ علينا القيَان ونقيم ثلاثةَ أيامٍ فلا تزالُ العربُ هائبةً لنا مدى الدهر. وبالرغم من أن القافلة التي كانَت السببَ في التعبئة للحربِ قد نجتْ ووصلَتْ لمكة بسلام إلا أن خطَّ التصعيدِ في قريشٍ كان يبحث عن مبرر يستطيع من خلاله تحشيد القبائل كلها، لمواجهة النبي ﷺ.

وكان لا بد مع هذا التوجه التصعيدي أن تحدث المواجهة، والتقى الجمعان في منتصف الطريق جموع المشركين القادمة إلى المدينة وأنصار رسول الله الخارجة من المدينة فالتقى الجمعان في منتصف الطريق في بئر يسمى (بدر) على بعد ١٣٠ كيلومتر تقريبا من المدينة. وكانت طريقة القتال في تلك الأزمنة عادة أن يبرز أشجع المقاتلين من الطرفين، وتكون المبارزة فردية، ولعل ذلك لأجل أن يهزم كل طرف غالب في فرسانه الطرف الآخر من الناحية النفسية، فلا ينفعه بعد ذلك الالتحام كثيرا، ما دامت الهزيمة النفسية قد حلت.

ولهذا كانوا ينتخبون أشجع من في المعسكر! أو إذا كان أحدهم يريد أن يتقدم ويبرز شجاعته وفروسيته. ربما لهذا السبب خرجَ أكابرُ قريش للقتال: عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة. وكل منهم كان مقاتلا مجربا، وعرف عنهم القوة والشجاعة، وبينما كان الأولان في خمسينات العمر فقد كان الوليد في ثلاثيناته.

من طرف المسلمين بادر ثلاثة مِنَ الانصارِ هم معوذ ومعاذ وعوف بنو عفراء فسألهم أولئك: من أنتم ؟ قالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة! ونادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا!

فقال النبي: قوموا يا بني هاشم فقاتلوا بحقكم الذي بعث به نبيكم إذ جاءوا

ببطلانهم ليطفئوا نور الله، قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي، فلما قاموا ودنوا قالوا لهم، من أنتم؟ لأنهم كانوا لا يعرفون من السلاح قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال عليّ: عليّ: قالوا نعم أكفاء كرام، فبارز عبيدة بن الحارث وكان أسنّ القوم كان أسنّ من النبي بعشر سنين عتبة بن ربيعة، وبارز حمزةُ شيبةَ، وبارز عليٌّ الوليدَ، فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة، وأما علي فلم يمهل أن قتل الوليد، واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما أثبت صاحبه، وكرّ حمزة وعليّ بأسيافهما على عتبة فذففاه واحتملا صاحبهما وكان ينزف إلى عسكر المسلمين، وأضجعوه في خيمة.

قالوا إن رسول الله ﷺ هنا ذكرَ أبا طالب وقالَ مَنْ يحفظْ مِنكم شعرَ أبي طالب قالُوا تقصدُ:

كَذَبْتُم وبيتِ اللهِ نتركُ مكةَ ونظعنُ إلا أمركم في بلابلِ
كذبْتُم وبيتِ اللهِ نبُزْي محمداً ولـمَّـا نطاعن دونـه ونناضلِ
ونسلمه حتى نـصـرعَ حولَهُ ونذهل عَـنْ أبنائِنا والحلائلِ

قالَ: بلى لو كانَ أبو طالب حياً لقرت عينه!

وإنما ستقر عينه لأنَّ هؤلاءِ المقاتلين كلهم ضمن إطارِ عبد المطلب، فحمزة ابنهُ المباشر وعبيدة حفيدهُ ابن ابنهِ وعلي حفيدهُ وابن ابنهُ!

بعد هذه الجولة التي صنعت النصر الداخلي للمسلمين، والهزيمة النفسية للمشركين، صارَ الالتحام الشامل مِنَ قبل القرشيينَ لأنهم كانوا ثلاثة أضعاف عدد المسلمين فأرادوا أن يوظفوا القوة العددية لصالحهم، وواجههم المسلمُونَ ببسالة فردية وبتخطيط متقن من رسول الله ﷺ، فضيعوا على المشركين استفادتهم من كثرة أعدادهم.

وكانَ لحمزةَ في هذا الدور الكبير حتى أنه سأل بعض القرشيين أحد المسلمين فيما بعد: من هذا الذي كان معلما بريشةٍ في صدره ؟ قال: ذاك حمزة بن عبد المطلب!

قال: هذا الذي فعل بنا الأفاعيل!

انتهت معركة بدر. وعاد المسلمون إلى المدينة بنصر مؤزر ومعهم عدد من أسرى قريش، التي خلفت وراءها بالإضافة إلى الأسرى سبعين قتيلا من كبار شخصياتها، وخلفت وهو الأهم هزيمة مجلجلة، في معركة فاصلة، لم تكن متكافئة العدد ولا السلاح، ومع ذلك هزموا شر هزيمة. الأمر الذي سجله القرآن الكريم منوها بفضل الله فيه، قائلا: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.(١)

عند البخاري حمزة سكران:

من الغريب أن البخاري في صحيحه، الذي لم يجد رواية صحيحة تصح نسبتها للإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ولم يره أهلاً لأن ينقل عنه كراوٍ فضلاً عن كونه إماماً. ولا عن إمام عاصره وهو الحسن بن علي العسكري، وإنما ينقل عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين، عن أبيه الحسين عن جده علي عليهم السلام، قضية لا شك في مجانبتها للواقع. ولكن هلمَّ وانظر فما عشتَ أراك الدهر عجبا!

(١) آل عمران / ١٢٣ـ١٢٦.

وإذا نقل الحديث عنهم فينقل عن علي هذه الرواية التي فيها الإساءة لحمزة، وللنبي أيضا!! كما سيأتي في مناقشتها.

الرواية هكذا: «حدثنا عبدان، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يونس، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا عنبسة، حدثنا يونس، عن الزهري، أخبرنا علي بن حسين، أن حسين بن علي عليهما السلام أخبره أن عليًّا قال: كانت لي شارف (ناقة مسنة) من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعطاني مما أفاء الله عليه الخمس يومئذ، فلما أردت أن أبتني بفاطمة -عليها السلام- بنت النبي صلى الله عليه وسلم واعدت رجلًا صواغًا في بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي بإذخر، فأردت أن أبيعه من الصواغين، فنستعين به في وليمة عرسي، فبينا أنا أجمع لشارفي من الأقتاب، والغرائر، والحبال، وشارفاي مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار حتى جمعت ما جمعت، فإذا أنا بشارفي قد أجبت أسنمتهما، وبقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، فلم أملك عيني حين رأيت المنظر، قلت: من فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزة بن عبد المطلب، وهو في البيت في شرب من الأنصار عنده قينة، وأصحابه، فقالت في غنائها: ألا يا حمزُ للشرف النواء فوثب حمزة إلى السيف، فأجب أسنمتهما، وبقر خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، قال علي: فانطلقت حتى أدخل على النبي صلى الله عليه وسلم، وعنده زيد بن حارثة، وعرف النبي صلى الله عليه وسلم الذي لقيت، فقال: ما لك؟ قلت: يا رسول الله، ما رأيت كاليوم! عدا حمزة على ناقتي، فأجب أسنمتهما، وبقر خواصرهما، وها هو ذا في بيت معه شرب، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بردائه، فارتدى، ثم أنطلق يمشي، واتبعته أنا، وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي فيه حمزة، فاستأذن عليه، فأذن له، فطفق النبي صلى الله عليه وسلم يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمل محمرة عينه، فنظر حمزة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم صعد النظر، فنظر إلى ركبته، ثم صعد النظر،

فنظر إلى وجهه، ثم قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟ فعرف النبي صلى الله عليه وسلم أنه ثمل، فنكص رسول الله صلى الله عليه وسلم على عقبيه القهقرى، فخرج، وخرجنا معه.(١)

ولنا أن نتوقف أمام ملاحظات حول هذه الرواية (ونجمع بعض ما ذكره غيرنا ممن رد الرواية):

١. ما هي غاية أن يحدث الإمام عليٌّ ابنَه الحسين، والإمام الحسينُ ابنَه عليّاً زين العابدين ليقوم زين العابدين بنقل ذلك لابن شهاب الزهري. هل لبيان سكر حمزة والذي هو في أعلى الدرجات ؟ أو لبيان أن النبي نعوذ بالله تقاعس فلم يرتب عليه أثراً فلا هو طالبه بالضمان ولا نهاه بأي مقدار ؟ حتى لو فرضنا أن الخمر لم تحرم بشكل كامل ونهائي؟ ينقل هؤلاء الأئمة إماماً بعد إمام حادثة لا يترتب عليها أي فائدة سوى تذكير الناس أن حمزة الذي وصف بالأوصاف العالية. من أنه أسد الله وأسد رسوله، وسائر ما جاء في مناقبه ؟ أنه سكران يستمع الغناء وأنه عدا على أموال غيره فأتلفها، وأنه يهذي أمام النبي!! فهل هو مقام القدوة ؟ أو مقام التشويه ؟ وما هي الغاية من أن صاحب الكتاب لا ينقل عن علي وأبنائه إلا لماماً وإذا نقل حديثاً فهو من هذا النوع ؟

٢. هل كانت شخصية حمزة تتوافق مع الشخصية التي صورتها هذه الرواية؟ قد سبق منا الحديث في أن أبناء عبد المطلب كانوا قد أخذهم أبوهم على توحيد الله وترك عبادة الأصنام والامتناع عن الفواحش وعن الخمر. هذا قبل الإسلام! أفترى حمزة بعد أن آمن برسول الله وهاجر إلى المدينة وقاتل في سبيل إقامة الدين في بدر، يقوم بشرب الخمر إلى حد السكر ويكون له أيضا جوار مغنيات؟ هل يتوافق هذا مع شخصية سيصلي عليها النبي بعد

(١) البخاري؛ صحيح البخاري ٤/ ٤٢.

أقل من سنة ويكبر بسبعين تكبيرة في حالة لم يصنعها مع أحد غيره؟ لا ريب أن هذه الشخصية لا تتوافق مع ما علمنا من شخصية حمزة قبل الإسلام ولا بعده. فإنه لم ينقل عنه شرب الخمر والسكر في الجاهلية. أفتراه يفعل ذلك في الإسلام ؟ وفي المدينة ؟ وبعد ما يقارب من تسع سنوات من إسلامه على الأقل ؟ وهذا لا يرتبط بما قيل من أن تحريم الخمر كان في السنة الثالثة بعد معركة أحد، فأولاً؛ إن مبغوضية الخمر وشناعته وعدم شربه كان معروفا في بيت عبد المطلب[1]، وكان ينهى عنه قبل بعثة النبي، وثانيا؛ فإن التحريم النهائي ولو كان في السنة الثالثة كما هو مشهور إلا أن البداية في النهي عنه كانت في مكة، ولا ريب أنه كانت قبل معركة أحد. بناء على ما قالوا من تدريجية ابلاغ تحريم الخمر.

٣. حمزة بحسب هذه الرواية، بقر بطني الناقتين وقطع أسنمتهما واستخرج أكبادهما للأكل، كل ذلك وهو لا يزال سكراناً، وأكل وهو لا يزال سكراناً، وجاء رسول الله إليه وهو كذلك، وتخاطب معه ولم يختش من النبي، واعتبر النبي ومن معه عبيدا لأبيه. كل ذلك وهو لا يزال على حاله!

لنفترض جدلا أن ذلك مفهوم. هل يفهم موقف النبي بحسب هذه الرواية الذي لم يحرك ساكناً ولم يقل كلمة نهي ولا ردع ولا نصيحة، ولم يأمر بأن يفيقوه؟ ويخرجوه من سكره؟ وإنما نكص كما تقول الرواية على عقبيه القهقرى وخرج هل هذا الموقف من النبي ـ حاشاه ذلك ـ مفهوم ؟

إذ المفروض أن النبي ناصح وحاكم، وهو لم يستعمل أي وسيلة مناسبة لا

(١) سيأتي عند ذكر شخصية جعفر بن أبي طالب الطيار، ما رواه الفريقان من أن الله أخبر نبيه بحبه لجعفر لخصال أربع، منها أنه لم يشرب الخمر، وتعليل جعفر في أنه لا يشرب الخمر لأنها تذهب بعقله! وهذا قبل بعثة النبي.!

للنصيحة ولا الردع! ثم انتهى الفيلم عند هذا، فلا حمزة ضمن الخسارة الناتجة عن موت الناقتين المسنتين وهي بحساب ذلك الزمان كبيرة، ولا أحد تكلم معه في هذا. مع أن من الثابت أن من أتلف مال الغير فهو له ضامن، ولا يختلف الحال فيه بين أن يكون صاحياً أو ثملا سكرانا!!

٤. ما أشار إليه العلامة العاملي، في كتابه الصحيح من « أن مختلف الروايات الواردة في زواج أمير المؤمنين تقول: إنه «عليه السلام» لم يكن يملك إلا درعه الحطمية، التي باعها و أنفق ثمنها على الزفاف، و تضيف بعض الروايات فرسه أيضا. و لو كان عنده شارفان من الإبل، لكان الأولى أن يذكرهما للنبي ﷺ حينما سأله عما يملك، مما يريد أن يقدمه مهراً، فلم يذكر له إلا درعه الحطمية؛ فلتراجع الروايات المتقدمة».[١]

ويحق لنا أن نتساءل هل هذه الرواية وأمثالها كانت من نتائج العصر الأموي الذي نشطت فيه سوق الوضع للأحاديث؟ وهل لهذا ارتباط بما قيل من أن أبا سفيان مر بعد تولي الأمويين زمام الأمور أيام عثمان في بلاد المسلمين بقبر حمزة، وضربه برجله، وقال: يا أبا عمارة، إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس في يد غلماننا اليوم يتلاعبون به.[٢] وبدل أن يكون في ذهن المسلمين اسد الله وأسد رسوله، الذي قتل كبار بني عبد شمس يتحول إلى رجل سكير يشرب الخمر ويأكل الحرام ويسمع المغنيات ويفسد ببقر البطون!!

---

(١) العاملي؛ جعفر مرتضى: الصحيح من سيرة النبي الأعظم ٦/ ٢٤١.

(٢) نقله أبو حيان التوحيدي في كتاب الإمتاع والمؤانسة بصورة مخففة بالقول: وقد رؤي أبو سفيان صخر بن حرب وقد وقف على قبر حمزة بن عبد المطلب وهو يقول :رحمك الله يا أبا عمارة، لقد قاتلتنا على أمرٍ صار إلينا.

حمزة الشهيد في أحد:

لم يهُن على القرشيين هزيمتهم العظيمة، وآثارها التي دخلت إلى كل بيت، وكانت تصديقا لما رأته عاتكة بنت عبد المطلب.[1] ولذا لم يقر لهم قرار على هزيمتهم لا سيما وأن نساءهم حرمن على أنفسهن الطيب واللقاء مع ازواجهن حتى يأخذوا بثأر من قتل! بل حرمن على أنفسهن البكاء حتى لا تتنفس جمرة الغضب! وهكذا أصبحت قيادة الحرب الواقعية والتحشيد لها بيد هذه النساء الموتورات والرجال المتشنجين، وغاب أي صوت للتفكير والتأمل والتعقل. فكأن المجتمع المشرك كله كان مبرمجاً على طلب ثأر من قتل!

وبعد أن جمعوا قرابة ثلاثة آلاف محارب، من قريش وعبيدها وحلفائها والأحابيش، وخرج معهم عدد من النساء ليحرضن ويحمسن، وفي طليعة النساء

(١) قيل إنه رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعتها. فبعثت إلى أخيها فقال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث فأرى الناس اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها. ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقة قال العباس والله إن هذه لرؤيا فاكتميها، ولا تذكريها لأحد.

ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان له صديقا، فذكرها له واستكتمه إياها. فذكرها الوليد لأبيه عتبة بن ربيعة ففشا الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش في أنديتها.

قال العباس فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة فلما رآني أبو جهل قال يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم فقال لي أبو جهل يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبية؟ قال قلت: وما ذاك؟ قال تلك الرؤيا التي رأت عاتكة قال فقلت: وما رأت؟ قال يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم.

هند بنت عتبة، فإن معركة بدر قد أخذت منها أباها عتبة وعمها شيبة وأخاها الوليد! وهي تهتف:

نــحـــن بـــنـــات طـــارق　　نــمـشـي عــلــى الــنــمــارق
والـــــدر فـــي الـمـخـانـق　　والــمــسـك فــي الـمـفـارق
إن تــقــبــلــوا نــعــانــق　　ونـــفـــرش الـــنـــمـــارق
أو تـــدبـــروا نــفــارق　　فـــــراق غــيــر وامـــق

وجاء النبي المصطفى ومعه المسلمون وهم أقل من ألف مقاتل، وتواقفوا عند جبل أحد على بعد حوالي ٦ كيلومترات من مسجد رسول الله ﷺ. وببركة تخطيط رسول الله جاء الفوز والنصر من الله عز وجل، وكان قد أمر النبي الرماة أن يكونوا على ثغرة في الجبل، وأن يحموا ظهور المسلمين، لكنهم لما رأوا الريح على المشركين، ولاحت لهم بشائر النصر، طمعوا في المغنم وتركوا وصية رسول الله ﷺ ونزلوا، الأمر الذي مكن المشركين وقائدهم خالد بن الوليد أن ينتهزوا الفرصة فيعودوا ليعتلوا مكان الرماة الخالي، ويكثروا الجرح في المسلمين، حتى هرب قسم غير قليل منهم، وثبت المخلصون، وفي هذه الأثناء كان وحشي وهو غلام لجبير بن مطعم، كان قد أطمعه سيده أن يعتقه لو قتل أحد ثلاثة: النبي أو حمزة أو علياً، ثأرا لمقتل أخيه في بدر. وكانت قد وعدته هند أن تعطيه من الذهب ما يشاء إن فعل ذلك، وظل يتربص وهو يعلم كما قال إنه لا يستطيع الوصول إلى النبي، وأما حمزة فكان كما قال لو رآه نائماً لما أيقظه من هيبته وأما عليٌّ فكثير الالتفات.

لكن قضاء الله إذ يجري أتاح له أن ينشغل حمزة بقتال من أمامه، وهو يهدُّ الرجال هداً كما وصف، فوجه إليه الحربة من بعيد وكان رامياً ماهراً بها فوقعت أسفل بطنه، واخترقت أحشاءه، وتهاوى أسد الله على أثر ذلك ينزف ليقضي راضياً مرضياً.

وبينما وقع حمزة على الأرض، بادر وحشي إلى هند بنت عتبة يبشرها بما فعل! وقص عليها القصة، لتأتي بدلالته إلى مكان مصرع حمزة، وأخذت تأمر وحشياً بحقد لا مثيل له: مزق بطنه! اقطع أذنيه! استخرج كبده! وكانت قد صممت على أن تأكل من كبده! ومن هنا استحقت هند لقب (آكلة الأكباد) كما نجد في بعض مرويات كتب الإمامية!

المنظر الذي بقي من بدن حمزة عمِّ النبي كان مفجعا للغاية، لذلك قالوا إن النبي ﷺ، أمر أن لا تقرب منه صفية أخته، لكيلا تُصدم بما حصل لبدنه الشريف! لكن لما أوصلت إليه أنه إنما أعطى ذلك في سبيل الله وأنها تحتسبه عند ربه، قيل إنه أذن لها في رؤية بدنه! بل وأن تنصب النياحة عليه بمشاركة النبي ﷺ وابنته فاطمة. قالوا: إن النبي بعدما رجع إلى المدينة قصد بيت صفية فكان يبكي وينشج، وهي تفعل ذلك أيضا! «وذكر الواقدي أنّ النّبيّ ﷺ كان يومئذ إذا بكت صفيّة يبكي وإذا نشجت ينشج. قال: وجعلت فاطمة تبكي فلمّا بكت بكى رسول اللّه ﷺ.وروى ابن مسعود قال: ما رأينا رسول اللّه ﷺ باكيا قطّ أشدّ من بكائه على حمزة بن عبد المطّلب لما قتل- إلى أن قال:- ووضعه في القبر ثمّ وقف ﷺ على جنازته وانتحب حتّى نشغ[1]من البكاء».[2]

بل أمر بالنياحة على حمزة والبكاء عليه من باقي المسلمين، ولا سيما الأنصار في المدينة، فإنه بعدما سمع نياحة نساء الأنصار على أقاربهن، قال متأثرا: لكن حمزة لا بواكي له! (وذلك لأن قدوم بني هاشم للمدينة لتوه قد حدث منذ ثلاث سنين فلم يكتمل لهم عدد كبير أو عوائل كثيرة)، فلما سمع رجال الأنصار وزعماؤهم ذلك ورأوا تأثر النبي، عزموا على نسائهم أن لا تنوح إحداهن على زوج أو أب أو ابن إلا

(١) نشغ: شهق حتى كاد يغشى عليه.
(٢) الطبري؛ محب الدين: ذخائر العقبى ٢/ ٣١١.

وبدأت بذكر حمزة والبكاء عليه!! وبالفعل فقد صارت هذه سنة عند أهل المدينة، يذكر الباحثون أنها استمرت إلى فترات متأخرة جدا.

ولهذا نرى موقع سيد الشهداء حمزة عند أهل المدينة كبيرا وكرامته عليهم عظيمة، ولا يتأخر في هذا أتباع مدرسة الخلفاء عن أتباع أهل البيت عليهم السلام، نعم أصحاب الاتجاه الأموي في المسلمين لا يعتنون بأبطال الإسلام ولا يعتبرون لهم كرامة خاصة، بل بموتهم يعتبرون أنهم عدموا وانتهت آثارهم وفائدتهم، ولا شيء يرجى منهم!

بلى لقد نقلت بعض مظاهر الكرامة والتوسل بعم النبي، الاحتفاء بزيارته في مختلف أزمنة التاريخ، إلى حد أنه صار موسم شهر رجب ما يشبه الحج الأكبر في قصد أهل المدينة وأطرافها وعامة الحجاز قبر حمزة وزيارته ومبيتهم عنده، والمكث بجواره، وتعبد الله سبحانه في ذلك الموضع!

نقل ذلك حسن بن مرزوق النخلي في كتابه الموسوم بـ (النخليون) وأورد ما ذكره ابن فرحون من تبرك الناس بتراب حمزة والاستشفاء به. قال[١]: تحت عنوان الزيارات الجماعية.

«الزيارات الجماعية لمزارات البقيع وسيدنا حمزة: وهي من العادات التي وجدت في المدينة منذ وقت بعيد، حيث يذكر ابن فرحون أنها كانت موجودة خلال العصر المملوكي (من القرن السابع إلى العاشر) ولعل أهل المدينة يشاركونهم في بعضها حيث كان يخرج الناس بشكل جماعي بعائلاتهم في أيام الخميس وفي شهر رجب من كل عام وبعد نزول الأمطار عند مقام سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عليه السلام عند جبل أحد بقصد الزيارة والصلاة هناك، وأحيانا المبيت وبعضهم

(١) النخلي؛ حسن بن مرزق الشريمي: النخليون في المدينة المنورة / ٢١٥ (نسخة الكترونية).

يمكث لمدة ثلاثة أيام هناك، وبالخصوص لمن يذهب إيفاء لنذر عقده أو تبركا لقدوم مولود وعقد زواج جديد وكانوا يحملون معهم الأطعمة أو يعدونها هنا ويسمون ذلك «القيلة» وللحمزة بن عبد المطلب في نفوس أهل المدينة عموما مقام كبير ورفيع فهم يلقبونه ب (سيدنا) لما تحمله هذه الكلمة من معان سامية، كيف لا وهو عم النبي ﷺ وحبيبه، فهو سيد شهداء الإسلام، عموما هذه العادة تهدف إلى زيارة الشهداء وللترويح عن النفس بشكل جماعات خصوصا وان الذهاب إلى ذلك المكان في تلك الأيام لم يكن آمنا ليذهب الفرد وحيدا ذكرا كان أو أنثى ويحتوي جبل أحد على الكثير من المعالم والآثار وأهمها وأشهرها ما يلي: قبة هارون بأعلى جبل أحد .مسجد جبل أحد عند سفح الجبل. مسجد قبة الثنايا بطريق الشعب. قبر سيد الشهداء وقبور الشهداء. مسجد الشهداء. مصرع سيد الشهداء. جبل الرماة المعروف بجبل عينين. جبل ثور. وهو حد حرم المدينة من الشمال. قلعة جبل أحد على طرفه الغربي».

تربة حمزة:

لم يكتف النبي المصطفى ﷺ بربط أهل المدينة والأنصار بسيد الشهداء، بتحريضهم على النياحة عليه والبكاء فحسب، حيث ظل هذا إلى وقت متأخر كعرف جارٍ لدى المدنيين، بل ندب إلى زيارة قبره واعتبر أن من يأتي إلى المدينة، ولا يزور حمزة عمه فقد جفى النبي وإن كان بالفعل قد زار رسول الله ﷺ، ومن خلال الصديقة الزهراء التي جعلت قدوة للمؤمنين والمؤمنات، ندب إلى اتخاذ السبحة من تراب قبر عمها حمزة عليه السلام، فقد ورد أن فاطمة عليها السلام كانت مسبحتها من خيط من صوف مفتل، معقود عليه عدد التكبيرات، فكانت بيدها تديرها تكبر وتسبح، إلى أن قتل حمزة بن عبد المطلب فاستعملت تربته وعملت التسابيح

فاستعملها الناس. فلما قتل الحسين عليه السلام عدل بالأمر عليه فاستعملوا تربته لما فيها من الفضل والمزية.[١] وقد فهم المسلمون عموما شدة اهتمام النبي بربطهم بسيد الشهداء حمزة، وما يرتبط به، ولذلك لم يقتصر الأمر على أتباع أهل البيت عليهم السلام، بل إن الكثير من علماء مدرسة الخلفاء أيضا التزموا بذلك، فقد قال السمهودي في (وفاء الوفا): كان الناس يحملون تراب قبر سيدنا حمزة بن عبد المطلب في القديم من الزمان. قال ابن فرحون عَقِبَه: والناس اليوم يأخذون من تربة قريبة من مشهد سيدنا حمزة، ويعملون منها خرزا يشبه السُّبَح، واستدل ابن فرحون بذلك على جواز نقل تراب المدينة».[٢]

سلام على أسد الله وأسد رسوله.

(١) العاملي؛ الحر: وسائل الشيعة ٦ / ٤٥٥.

(٢) السمهودي؛ نور الدين: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١/ ٩٥.

جعفر الطيار ناقل الإسلام للحبشة

لنبدأ الحديث بإسلامه المبكر أشار عليه والده أبو طالب وهو يلاحظ رسول الله ﷺ يصلي ومعه علي وخديجة عليهما السلام علي عن يمين رسول الله وخديجة خلفهما فقال أبو طالب لجعفر (صِل جناح ابن عمك وصَل معه) صلة الجناح يعني أن تقف على الجهة الأخرى إذ علي عليه السلام على يمين النبي فقف على شماله.

وهذه الرواية تشير الى عدة حقائق:

١. ان تشريع الصلاة كان موجودا في ذلك الوقت حين لم يكن قد آمن بالنبي سوى علي بن أبي طالب وخديجة.[١]

٢. ان موضوع استقبال الكعبة وكونها القبلة الاولى والدائمة للمسلمين هو الثابت في جميع مراحل الدعوة وأن القول بأن المسلمين كانوا يتجهون في صلاتهم من البداية لبيت المقدس قول لا يعضده الدليل وان الصحيح هو ان التوجه لبيت المقدس كان في فترة ما بعد الهجرة ولظروف معينة ومدة محدودة، [٢] وعلى كل حال لم يستدبر النبي الكعبة ما دام في مكة

---

(١) وللتفصيل يراجع موضوع تشريع الصلاة في الإسلام في سلسلة قصة تشريع العبادات.

(٢) للاطلاع التفصيلي يراجع محاضرتنا في سلسلة قصة تشريع العبادات: تحويل القبلة آراء وادلة.

كما تفيد الروايات بذلك.

٣. ان أبا طالب الذي لم يكن يستطيع إظهار إسلامه، وكان عليه ان يكتمه ليواصل نصرة النبي بشكل أفضل، كان يأمر أبناءه بالإيمان بالنبي ومتابعته ونصرته وشاهد ذلك أمره ابنه جعفرا بالإيمان برسول الله والصلاة معه.

ويستفاد من هذا انه كان ثالث المصلين مع النبي بعد أخيه علي وخديجة.

بالرغم من هذا إلا انه كان كأبيه وجده من الحنفاء أتباع الشريعة الإبراهيمية فلم يكن يؤمن بالأصنام ولا يسجد لها لأنها لا تضر ولا تنفع ولم يكن يمارس الفواحش كالزنا او يشرب الخمر.(١) وقد ورد في بعض الروايات ان النبي خاطب جعفرا فقال أشبهت خَلقي وخُلقي.

وبالرغم من ان الذين ذكروا بشبههم لرسول الله متعددون(٢) إلا انّ من ذكر بالشبه في الأخلاق والجسم معاً قلة كان منهم جعفر بن أبي طالب وعلي بن الحسين شهيد كربلاء.

بعد إيمانه برسول الله وقد اشتد كلَب قريش ضاقت بالمسلمين أرض مكة بما رحبت وقد شمّر كفار قريش عن أيدي عداوتهم فنكلوا بضعفاء المسلمين وراح إثر ذلك آل ياسر شهداء وأخذت السياط مأخذها من بلال وأمثاله. رأى النبي الرحيم

---

(١) الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: علل الشرائع ٢/ ٥٥٨ (عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الباقر عليه السلام قَالَ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله أَنِّي شَكَرْتُ لِجَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَرْبَعَ خِصَالٍ فَدَعَاهُ النَّبِيُّ؛ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى أَخْبَرَكَ مَا أَخْبَرْتُكَ مَا شَرِبْتُ خَمْراً قَطُّ لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنِّي إِنْ شَرِبْتُهَا زَالَ عَقْلِي ومَا كَذَبْتُ قَطُّ لِأَنَّ الْكَذِبَ يَنْقُصُ الْمُرُوءَةَ وَمَا زَنَيْتُ قَطُّ لِأَنِّي خِفْتُ أَنِّي إِذَا عَمِلْتُ عُمِلَ بِي وَمَا عَبَدْتُ صَنَماً قَطُّ لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ قَالَ فَضَرَبَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله عَلَى عَاتِقِهِ وقَالَ حَقٌّ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لَكَ جَنَاحَيْنِ تَطِيرُ بِهِمَا مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْجَنَّةِ).

(٢) ذكر من بينهم الحسنان عليهما السلام وقثم بن العباس، وجعفر بن أبي طالب وعلي الأكبر بن الحسين بن علي.

حال أولئك المسلمين وساءه ما أصابهم فأمر بالهجرة الى الحبشة.

وكان لهذه المهمة جعفر، ولم تكن الهجرة مع جمع غفير سفرة عادية! خاصة وان الكثير منهم كانوا فقراء فلا بد من التفكير في وضعهم المادي كما ان هناك التحديات الدينية مع معيشتهم في بيئات غير مساعدة، وقد حصل أن بعض من هاجر قبلئذ إلى الحبشة تنصر ومات على النصرانية.[١] كما تترافق الهجرة مع عدد من الضغوط النفسية تبعا للبعد عن الوطن والأهل والأقارب.

مما زاد الموقف حرجاً أن القرشيين لاحقوا المسلمين المهاجرين إلى الحبشة وحاولوا استعادتهم إلى مكة ليواصلوا فتنتهم عن دينهم فأرسلوا أدهى دهاتهم عمرو بن العاص ومعه الهدايا ليستميل الحاشية ويسترجع المهاجرين!!

وينقل ابن هشام في السيرة ما حصل بعد ذلك عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت[٢] ما نصه:

«لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأُدم،[٣] فجعلوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا

(١) عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان.

(٢) يلاحظ على هذه الرواية أن أم سلمة لا بد أن تكون قد نقلتها عن غيرها، وإلا فهي لم تكن حين حصول الحدث في الحبشة، إذ أنها كانت في الهجرة الأولى التي قيل إنها في السنة الخامسة للبعثة، وأن هذه المجموعة المهاجرة بقيت في الحبشة من شهر رجب إلى شوال وعادت فيه على أثر الخبر الكاذب من أن قريشا آمنت ورفعت الأذى عن المسلمين، فرجع المهاجرون هؤلاء لمكة ليواجهوا عنت قريش .وبقيت أم سلمة في مكة إلى أن يسر الله لها أمر هجرتها للمدينة كما سيذكر في ترجمتها وسيرتها .فالمفروض أنها تنقله عمن كان في الحبشة في الهجرة الثانية.

(٣) الجلود المدبوغة.

من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، قالت:

فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار، عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى[١] إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامَهم النجاشيُّ!

فقالت بطارقته حوله: صدقاً أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله، إذاً لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم

(١) بمعنى أوى ووزنها.

جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟

قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائناً في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا – وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله – سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل ؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب [رضوان الله عليه]، فقال له: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.(١)

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام – فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا،

---

(١) هناك بحث في أن هل كل هذه الأحكام تفصيلا قد تم تشريعها إلى ذلك الوقت أو لا ؟ وتفصيل هذا مذكور في سلسلة للمؤلف بعنوان: قصة تشريع العبادات.

فعدا علينا قومنا، فعذبونا وافتتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن الا نظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي:

فاقرأه علي، قالت: فقرأ عليه صدراً من «كهيعص». قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون.

قالت: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم.

قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد.

قالت: ثم غدا عليه من الغد فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط.

فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاء به نبينا، كائنا في ذلك ما هو كائن. قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟

قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم، يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، قالت:

فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي - والشيوم: الآمنون - من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً من ذهب، وأنى آذيت رجلاً منكم - قال ابن هشام: ويقال دبراً من ذهب، ويقال: فأنتم سيوم (والدبر الحبل بلسان الحبشة، وسيوم يعني آمنون). ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد على ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.(١)

وقد قيل إن هجرة المسلمين بقيادة جعفر بن أبي طالب كانت هي الهجرة الثانية، وكان عدد المهاجرين معه كبيرا؛ أكثر من مائة (٨٣ رجلا و١٩ امرأة).ولعلنا نعرف صعوبة الهجرة وظروفها ولا سيما مع هذا العدد وإدارتهم إذا نظرنا إلى ما نقله أرباب السير من أن أصحاب الهجرة الأولى رجعوا إلى مكة بعد ثلاثة أشهر من خروجهم منها بمجرد أن وصل لهم خبر كاذب عن أن قريشاً كفت أذاها عن النبي وأصحابه، وأن المسلمين في مكة أصبحوا آمنين، فرجع هؤلاء ليواجهوا عنف قريش الذي يزداد يوما بعد يوم.

وكذلك نعرف صعوبات الهجرة وتحدياتها عندما نطلع على التأثيرات التي

(١) الحميري؛ ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٢٢٥.

تركتها ثقافة بلاد المهجر وعاداتهم على قسم من الجاليات الإسلامية، فتحولت ثقافة بعضهم وديانتهم ونمط حياتهم إلى ما يناسب تلك الدول والبلاد! بل ما نلاحظه في سلوك وثقافة بعض من يذهب للدراسة الجامعية العالية في بلاد الاغتراب، من تأثر قسم من هؤلاء الكبير في تركهم لإيمانهم وتشكيكهم في عقائدهم.

بعد أن أَمِن المهاجرون للحبشة وأميرهم[1] جعفر من جانب الحكومة الحبشية والمؤسسة الدينية المسيحية فيها، انطلقوا في ترتيب أمورهم، والدعوة إلى دين الله عز وجل، ويظهر أن جعفرا رضوان الله عليه، كان له اتصال مستمر مع النجاشي (ملك الحبشة) بحيث أطلعه على ما أتى به النبي من الآيات والبينات، الأمر الذي تطابق مع ما كان لدى ذلك الملك من التباشير بالنبي محمد، ويقول الباحثون في الأديان أن الكنيسة المسيحية وتراثها كان أقل تعرضا للتحريف من سائر الكنائس فيما يرتبط بالتباشير بالنبي ﷺ، وقد توج هذا في الأخير برسائل متبادلة بين النبي والنجاشي، انتهت بإسلام النجاشي واعلانه ذلك، حيث كان يكرر أمام بطارقة الكنيسة وأساقفتها أن محمدا يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى! ولا ريب أنه كان لجعفر في هذا دور كبير ومهم، في إيصال ما كان يأتيهم من النبي ﷺ، إلى النجاشي.

وينقل أرباب السير خطابين تم تبادلهما بين النبي والنجاشي: فقد أرسل النبي إليه خطاباً يوصيه فيه بجعفر والمسلمين، ويدعوه فيه إلى الإسلام، بهذا النص:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سلام عليك فإني أحمد إليك الملك القدوس، المؤمن، المهيمن، وأشهد

(١) ذكر ذلك غير واحد من الباحثين، منهم الشيخ الأحمدي في كتابه مكاتيب الرسول ١/ ٣٠١ حيث قال: والذي يظهر بالتدقيق أن جعفرا سلام الله عليه كان له رئاسة مهاجري الحبشة من قبل رسول الله ﷺ، هاجر لذلك لا من إيذاء قريش، وهو المتولي لأمورهم من قبل رسول الله.

أن عيسى روح الله وكلمته القاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخته، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني، فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرا، ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فاقْرِهم ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى[١]».

فكان رد النجاشي بعد مدة معرباً فيه عن إيمانه وتصديقه، بهذا النص:

بسم الله الرحمن الرحيم. سلام عليك يا نبي الله ورحمته وبركاته الذي لا إله إلا هو، الذي هداني إلى الإسلام. أما بعد، فقد أتاني كتابك فيما ذكرت من أمر عيسى، فو رب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما قلت ثفروقا،[٢] وإنه كما قلت، ولقد عرفنا ما بعثت به إلينا، ولقد قربنا ابن عمك وأصحابه، وأشهد أنك رسول الله صادقا مصدوقا، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك[٣]وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وبعثت إليك بابني أرمى بن الأصحم، فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن آتيك يا رسول الله فعلت، فإني أشهد أن ما تقوله حق، والسلام عليك يا رسول الله».[٤]

وكان من جملة رسائل النبي إليه تكليفه في العقد على أم حبيبة بنت أبي سفيان التي كانت وزوجها من المهاجرين للحبشة، وتنصر زوجها وترك الإسلام، فكان وكيلاً لرسول الله في العقد عليها وإعطائها المهر.

(١) الأحمدي؛ الميانجي: مكاتيب الرسول ٢/ ٤٣٠.
(٢) الثفروق: القمع الذي يلزق بالبسر.
(٣) يعني جعفر بن أبي طالب.
(٤) الأحمدي؛ الميانجي: مكاتيب الرسول ٢/ ٤٤٨.

وأخيرا عندما حان وقت الهجرة الثانية من الحبشة إلى المدينة، قام النجاشي بتجهيز سفينة خاصة للمسلمين لكي يرحلوا بواسطتها إلى جدة ومنها إلى المدينة.

خمسة عشرة سنة هي الفترة التي قضاها جعفر بن أبي طالب في الحبشة، مديرا لشؤون المسلمين المهاجرين معه، وداعية إلى الدين، وكان من نتيجة هذه الأخرى إيمان النجاشي أصحمة برسول الله، ومن المعلوم أن إيمان الحاكم الأعلى لا بد أن ينعكس على مملكته وشعبه. فانظر بين ما قبل الخمسة عشر عاما وما بعدها، بينما هم مطاردون خائفون على أنفسهم أن يسلموا مكتوفين إلى مبعوثي قريش لتأكل السياط متونهم، وبين ما حصل لهم بنصر الله إذ آمن حاكم البلاد برسالتهم، وزوج نبيهم، وقبلها آواهم وحماهم، وبعدها زودهم بما يوصلهم إلى مدينة رسول الله ﷺ.

وبعدها ألا يستحق جعفر هذا الوسام الذي منحه رسول الله إياه؟ (ما أدري بأيهما أُسَرُّ أكثر بفتح خيبر أو بقدوم جعفر ؟.

في السنة السابعة للهجرة، وبعد أن نصر الله سبحانه وتعالى نبيه، بفتح خيبر على يد رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، كرار غير فرار فلم يبرح حتى فتح الحصن للمسلمين، ولم يكن ذاك سوى أخ جعفر لأمه وأبيه علي بن أبي طالب!

تقاسماها! يا آل أبي طالب! فهذا فاتح الحبشة للإسلام قد أقبل، وهذا فاتح حصن اليهود في خيبر قد رجع مكللا بالنصر!

يقولون إن النبي لما جاء جعفر، وتعانقا قال له: ألا أعطيك؟ ألا أحبوك؟

ظن المسلمون أن النبي سيعطيه من الغنائم مما حازه المسلمون من حصون خيبر! وغفلوا أن حبوة هؤلاء السادة ليست حطام الدنيا، فهي عندهم لا تعدل

جناح بعوضة. وإنما الدين والآخرة، فإذا أراد النبي أن يعطي فاطمة الزهراء فإنما يعطيها في البداية: تسبيحة الزهراء. إذا أويتما إلى فراشكما فكبرا الله أربعا وثلاثين واحمداه ثلاثا وثلاثين وسبحاه ثلاثا وثلاثين!!

وإذا أراد أن يحبو جعفر، الذي صنع مقدمه في قلب رسول الله سرورا يعادل فتح خيبر. تُرى ماذا سيعطيه ؟

إنها صلاة جعفر الطيار.

ما هي صلاة جعفر ؟

«تسمى صلاة التسبيح وصلاة الحبوة، وهي من المستحبات الأكيدة، ومشهورة بين العامة والخاصة، والاخبار متواترة فيها، فعن أبي بصير عن الصادق عليه السلام أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجعفر: ألا أمنحك ألا أعطيك ألا أحبوك ؟ فقال له جعفر: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فظن الناس أنه يعطيه ذهباً وفضة، فتشوف الناس لذلك، فقال له: إني أعطيك شيئا إن أنت صنعته كل يوم كان خيراً لك من الدنيا وما فيها، فإن صنعته بين يومين غفر الله لك ما بينهما، أو كل جمعة أو كل شهر أو كل سنة غفر لك ما بينهما»، وفي خبر آخر قال: «ألا أمنحك ألا أعطيك ألا أحبوك ألا أعلمك صلاة إذا أنت صليتها لو كنت فررت من الزحف وكان عليك مثل رمل عالج وزبد البحر ذنوبا غفرت لك؟ قال. بلى يا رسول الله» والظاهر أنه حباه إياها يوم قدومه من سفره وقد بشر ذلك اليوم بفتح خيبر، فقال صلى الله عليه وآله: والله ما أدري بأيهما أنا أشد سرورا بقدوم جعفر أو بفتح خيبر، فلم يلبث أن جاء جعفر فوثب رسول الله صلى الله عليه وآله فالتزمه وقبل ما بين عينيه، ثم قال: ألا أمنحك (الخ).

وهي أربع ركعات بتسليمتين، يقرأ في كل منها الحمد وسورة، ثم يقول: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» خمس عشرة مرة، وكذا يقول في الركوع

عشر مرات، وبعد رفع الرأس منه عشر مرات، وفي السجدة الأولى عشر مرات، وبعد الرفع منها عشر مرات، وكذا في السجدة الثانية عشر مرات، وبعد الرفع منها عشر مرات، ففي كل ركعة خمسة وسبعون مرة، ومجموعها ثلاثمائة تسبيحة».[(١)]

ولها طريقة أخرى لو كان مستعجلا، وهي أن يصلي الركعات الأربع؛ ركعتين ركعتين كصلاة الصبح ثم يسبح التسبيحات الثلاثمائة، وهو جالس أو ماش أو غير ذلك!

جعفر وأسرته:

عاد جعفر بن أبي طالب إلى المدينة تصحبه زوجته أسماء بنت عميس الخثعمية وابناؤه الذين قيل إنهم كلهم قد ولدوا في الحبشة (خلال فترة السنوات الخمسة عشر التي كان فيها)؛ عبد الله وسيأتي عرض لسيرة حياته في صفحات قادمة. ومحمد بن جعفر. وعون.

الشهادة في مؤتة:

لم يكن جعفر بالذي يجلس في منزله ويتقاعد (!) بعد الجهد الموفق والدور المهم الذي قام به في الحبشة، وإنما يعمل بما جاء في كتاب ربه ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ *﴾[(٢)] بناء على تفسيرها بأن المؤمن إذا فرغ من عمل فلينتصب لعمل آخر!

وهكذا كان فما هي إلا بضعة أشهر، حتى تجهز لقيادة الجيش الذاهب لقتال

---

(١) السيستاني؛ السيد علي: تعليقة العروة الوثقى ٢/ ٣٤٨.

(٢) الشرح ٧ ـ ٨.

الروم، وليلتقوا في مؤتة.

ومؤتة: بلدة قرب البحر الميت، تقع في داخل الاردن حاليا. شهدت معركة قوية بين المسلمين وبين مشركي الروم وأتباعهم من العرب من حلفاء الغساسنة، وقيل إن السبب في نشوبها أن النبي كان قد وجه رسله ومبعوثيه بعد صلح الحديبية إلى قادة ورؤساء المناطق والدول في تلك الفترة، يدعوهم فيها إلى الإيمان بالله وترك الحرية للناس في أن يختاروا الدين الالهي، فبعث إلى قيصر الشام وكسرى الفرس ومقوقس الاسكندرية وبينما رد قيصر والمقوقس وغيرهم باحترام على كتب رسول الله ﷺ، أساء كسرى الرد، وأفحش شرحبيل بن عمرو الغساني عامل هرقل على بصرى (الشام) في الرد عندما أمر بقتل رسول النبي ﷺ، وكانت الرسل لا تقتل عندهم، مهما كانت عداوة الطرفين.

على أثر ذلك أمر النبي بتجهيز جيش لمواجهة هذا الاعتداء الغاشم، فاجتمع لهذا الغرض ثلاثة آلاف مقاتل، وساروا باتجاه الموضع الذي قتل فيه رسول النبي، وقد أمّر النبي ثلاثة من القادة على هذا الجيش بالترتيب، كلما استشهد أحدهم قام الثاني مكانه، وقد اختلف فيمن كان الأول هل هو زيد بن حارثة الشيباني والثاني جعفر بن أبي طالب أو العكس، لكن الثالث بالاتفاق كان عبد الله بن رواحة.

وقد وصلت أخبار هذا الجيش إلى الغسانيين بل إلى الروم فجمعوا عدداً ضخما جداً من المقاتلين لمواجهة المسلمين. ويرى بعض الباحثين أن العدد الذي يذكر عن جموع المشركين من عرب وروم مبالغ فيه للغاية حيث يذكر أنهم من مائتي ألف إلى أربعمائة وخمسين ألفا!![١]

---

(١) تشير بعض الدراسات إلى أن المبالغة في العدد لها أسباب مختلفة، فمنها عدم انتهاج منهج علمي في الاحصاء والتقدير وإنما هو الاعتماد على البصر المجرد، ولهذا تجد الاختلاف الكبير الذي قد يصل أحيانا إلى الضعف في العدد! ومنها ما يرتبط بالتوظيف المطلوب للعدد فإن العدد الضخم الذي

ويقال أن المسلمين قبل المواجهة تناقشوا وقد رأوا جموع الروم وأحلافهم، عظيمة العدد في جدوى الاقدام على القتال، ولكن القائد عبد الله بن رواحة حسم الأمر في أن المسلمين لم يكن نصرهم بكثرة عدو وإنما بصدق نية وعون من الله. فكان هذا صاعق الحماس، والتحم الجيشان في ملحمة بطولية سطرها المسلمون على قلة عددهم وكثرة عدوهم فإننا وإن شككنا في دقة الأعداد التي ذكرها المؤرخون إلا أنها كانت أضعاف عدد المسلمين بلا ريب!

وضحى المسلمون بالكثير من الشهداء في هذه المواجهة، ولم يكن متوقعاً غير ذلك فإنه ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.(١)

لا ينبغي أن يتوقع المسلم أنه في حالة نصر خارجي دائمة، وإنما الدنيا دول، فتارة للمسلمين وأخرى لعدوهم، والمسلمون في كلتا الحالتين فائزون!

ولم يكن القادة المخلصون في آخر الصفوف، بل متى اقتضى الأمر كانوا في المقدمة يبعثون الحماس والنشاط ويسابقون غيرهم للشهادة، وهكذا فقد استشهد

يتجاوز الواقع يخدم من يعظمه وذلك إنه إن انتصر عليه سيكون بطلاً عظيماً أن ينتصر بالعدد القليل على العدد الكثير، ولهذا نعتقد أنهم في الغالب يعظمون من خسائر العدو ويقللون من خسائر الذات، لهذا قال الأكثر أن عدد قتلى المسلمين في معركة مؤتة كانت بحوالي ١٠ شهداء، بينما عدد قتلى المشركين كان ٣٠٠٠ قتيل وهو أمر يصعب تصديقه! وإن انهزموا إمامهم فإن كثرة العدو المبالغ فيها قد تكون شفيعا لهم في هذه الهزيمة، فسيكون من التبرير المنطقي أن ٣٠٠٠ مقاتل لا يمكن أن يثبتوا إمام أربعمائة ألف أو مائتي ألف!!على أن تجهيز هذا العدد إذا فرضناه ٤٠٠ ألف من الناحية البشرية والعسكرية واللوجستية خلال فترة قصيرة من الزمان هي ما بين حركة جيش المسلمين من المدينة إلى وصوله إلى قرب منطقة المواجهة ووصول الخبر للعدو وهي قد لا تصل إلى شهر من الزمان، مما يكون غير معقول بالنظر العسكري، كما يراه الخبراء في هذا الجانب!

(١) النساء / ١٠٤.

زيد بن حارثة، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب وواجه الروم وهو ينشد:

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دَنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

وحمي وطيس القتال، ولم يبقَ فيه أمل في النجاة والحياة، فنزل عن فرسه وعقرها (أو عرقبها)[1] وقاتل فقطعت يمينه فأخذ السيف بشماله وظل يقاتل فقطعت الشمال. وقاتل حتى استشهد.

عقر الفرس أو عرقبها؟

المشهور في الروايات أن جعفرا عليه السلام، قد عرقب الفرس يعني ضرب بالسيف قوائمها الخلفية، وهنا دار كلام بين الباحثين في مشروعية هذا العمل على فرض حصوله! وقد أشار السيد جعفر العاملي إلى هذا الخلاف ونقل جملة من أقوال وآراء الفريقين، فقد علل القائلون بحصول ذلك وهو المشهور بأنه لو غلب على ظن المقاتل المسلم أن العدو الكافر يمكن أن يستفيد من فرس المسلم في قتال المسلمين، وأن يتقوى به عليهم، جاز له قتل ذلك الفرس، لتعارض المصلحتين هنا، فمن جهة: مفسدة إيذاء الحيوان بعرقبته وقطع رجله، تعارضها مفسدة تقوي وانتصار الكفار على المسلمين، ولا ريب أن الثانية أشد وأقوى، وأن الأولى أضعف وأهون!

بينما ذهب غيرهم ومنهم السيد العاملي إلى أنه لم يحصل ذلك، وإنما عقر جعفر فرسه أي ذبحها لأنه هو الأنسب بأخلاق جعفر الطيار. لوجود النهي الشرعي عن إيذاء الحيوان (رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا حرنت على أحدكم دابته، يعنى إذا قامت في

(١) عَرْقَبَ الدَّابَّةَ: قطعَ عُرْقوبَها وعُرْقوبُ الدَّابةِ في رِجْلِها: بمنْزِلَةِ الرُّكْبَةِ في يَدِها. وعقرها: ذبحها

ارض العدو فليذبحها، ولا يعرقبها).[١]وعقر الفرس أي ذبحها فيه معنى إفهام عدوه مدى تصميمه في حربهم، و مدى تفانيه في الأهداف التي يحارب من أجلها.[٢]

والذي يبدو بالنظر أنه لا مانع من الالتزام بما ورد من عرقبته فرسه، للجهة التي أشار إليها غير واحد من أنه لو غلب على ظن المقاتل أن العدو سينتفع بالفرس للتقوي ضد المسلمين، فإنه يجوز له عرقبته ومسح رجليه بالسيف وبهذه الجهة يرتفع النهي، وقد أشار إليه الشهيد الثاني في شرح اللمعة فقال في أحكام القتال في ذكر المكروهات « وأن يعرقب المسلم الدابة ولو وقفت به، أو أشرف على القتل، ولو رأى ذلك صلاحاً زالت (الكراهة) كما فعل جعفر بمؤتة. وذبحها أجود ».[٣]

هذا مع وجود رواية صريحة بفعله ذاك، فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال:(لما كان يوم مؤتة كان جعفر بن أبي طالب على فرس فلما التقوا نزل عن فرسه فعرقبها بالسيف، فكان أول من عرقب في الإسلام).[٤]

استشهد جعفر بن أبي طالب، ولم يكن يليق به غير ذلك، ولم يخلق هؤلاء الأفذاذ إلا ليكونوا قدوات للإنسان على مر التاريخ، في الفداء والتضحية. وحاز منزلة لم يسبقه بها أحد حتى ذلك الوقت، فقد عوضه الله جناحين يطير بهما في الجنة!

---

(١) العاملي؛ الحر: وسائل الشيعة ٢٤/ ٩١ (آل البيت).
(٢) العاملي: جعفر مرتضى: الصحيح من سيرة النبي الأعظم ٢٠/ ٣٠
(٣) الشهيد الثاني: الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية ٢ / ٣٩٤ طبعة السيد كلانتر.
(٤) الكليني؛ محمد بن يعقوب: الكافي ٥/ ٤٩ طبع دار الإسلامية وتهذيب الأحكام ٦/ ١٧٠. وهي معتبرة على مسلك القائلين بتوثيق رواة كامل الزيارات وتفسير القمي، وليس فيها من يتوقف فيه غير الحسين بن يزيد النوفلي، وقد رأى البعض قبول رواياته، بغض النظر عن مسلك التوثيق العام لما في الكتابين. وأما في مصادر مدرسة الخلفاء فتكاد لا تجد ذاكرا لمعركة مؤتة منهم إلا وذكر هذه القضية.

ويشير مولانا أمير المؤمنين ﵇ إلى هذه الخصيصة الثابتة لأهل البيت من الله عز وجل فيقول: «أوَ لا ترى أن قوما قطعت أيديهم في سبيل الله ولكلٍّ فضلٌ حتى إذا فعل بواحدنا ما فعل بواحدهم قيل الطيار في الجنة وذو الجناحين»؟[١]

سلام على أبي المساكين، ذي الجناحين، أخي الوصي أمير المؤمنين!

---

(١) الرضي؛ الشريف: نهج البلاغة (ط دار الكتاب اللبناني) ١/ ٣٨٦.

أم المؤمنين أم سلمة المخزومية: نصيرة الولاية

تعتبر أم سلمة واسمها: هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية عند الإمامية في المرتبة الثانية[1] في الفضيلة بعد خديجة بنت خويلد بين نساء النبي ﷺ وأمهات المؤمنين.

ويعتبرونها بالإضافة إلى قربها من أهل البيت: فاطمة وعلي والحسنين، راوية حديث الولاية والتمسك بعلي أمير المؤمنين عليه السلام، واعتبارها إياه خليفة النبي ووصيه. فلنكن معها من البدايات حيث كانت زوجة لعبد الله بن عبد الأسد المخزومي، آمنا بالنبي ﷺ،وقبلا دعوته من البداية في مكة وعندما اشتد أذى الكفار على المسلمين الأوائل أمرهم النبي بالهجرة إلى الحبشة فكانت أم سلمة وزوجها ممن هاجر إلى الحبشة، ليجدوا الأمان والاطمئنان فيها، وبعد مرور فترة أنجبت فيها عمر ابنها،

(١) الخوئي؛ أبو القاسم: معجم رجال الحديث ٢٤/ ٢٠٤ قال: ثم إن أم سلمة هذه اسمها هبد بن الحارث وهي أفضل نساء النبي بعد خديجة بنت خويلد، ذكره الصدوق فيما رواه بسنده عن أبيعبد الله جعفر بن مخمد الصادق عليه السلام؛ الخصال أبواب التسعة باب قبض النبي عن تسع نسوة الحديث ١٣ . وفيه بعد أن عدد نساء النبي قال ك وأفضلهن خديحة بنت خويلد ثم أم سلمة بنت الحارث.

شاعت أخبار بأن الأوضاع في مكة قد تغيرت[١] وأن المسلمين آمنون على أنفسهم ودينهم، فسارع قسم ممن اشتاق إلى أهله وبلده بالعودة إلى مكة، وإذا بالحال لا تزال كما تركوها، ولا يزال المسلمون في اضطهاد وأذى المشركين، وكانت أم سلمة وزوجها من العائدين ليواجهوا هذا الواقع المر! فلم يستقروا بمكة إلا بجوار من أبي طالب عم رسول الله[٢] ﷺ وهو خال أبي سلمة.

بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، أراد أبو سلمة وزوجته الهجرة فمنعه قومها وها هي أم سلمة تنقل معاناتها مع قومها لما منعوه اصطحابها: قالت: «لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحل بعيرا له وحملني، وحمل معي ابني سلمة، ثم خرج يقود بعيره. فلما رآه رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه؟ علامَ تُترَك تسير بها في البلاد؟ ونزعوا خطام البعير من يده، وأخذوني. وغضبت عند ذلك بنو عبد الأسد، وأهووا إلى سلمة وقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. فتجاذبوا ابني سلمة حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، وحبسني بنو المغيرة عندهم. وانطلق زوجي أبو سلمة حتى لحق بالمدينة، ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي، حتي أمسى سنة أو قريبها. حتى مر بي رجل من بني عمي، من بني المغيرة، فرأى ما بي، فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا تُخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها، فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. ورد

(١) الحميري؛ ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٢ «... وَبَلَغَ أصحابَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّذِينَ خَرَجُوا إلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، إسلام أَهْلِ مَكَّةَ، فَأَقْبَلُوا لِمَا بَلَغَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى إذَا دَنَوْا مِنْ مَكَّةَ، بَلَغَهُمْ أَنَّ مَا كَانُوا تَحَدَّثُوا بِهِ مِنْ إسلام أَهْلِ مَكَّةَ كَانَ بَاطِلًا، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إلَّا بِجِوَارٍ أَوْ مستخفيًا...».

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٣.

علي بنو عبد الأسد عند ذلك ابني، فرحلت بعيري ووضعت ابني في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله، فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي. حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار فقال: أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: أريد زوجي بالمدينة، فقال: هل معك أحد؟ فقلت: لا والله، إلا الله وابني هذا، فقال: والله ما لك من مترك. فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يقودني، فوالله ما صحبت رجلا من العرب أراه كان أكرم منه، إذ بلغ المنزل أناخ بي ثم تنحى إلى شجرة اضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعير فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي. فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقادني حتى ننزل. فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بي إلى المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية وكان أبو سلمة نازلاً بها فدخلتها على بركة الله تعالى، ثم انصرف راجعاً إلى مكة. وكانت تقول: ما أعلم أهل بيت أصابهم في الإسلام ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة». (١)

كان لقاؤها بزوجها في مدينة رسول الله، حيث الأمن على الدين والحياة، يعادل أعظم النعم، لكن النعم لا تدوم، وابتلاء المؤمنين هو بقدر إيمانهم، فأولى الناس بالبلاء الأنبياء ثم الأوصياء ثم المؤمنون الأمثل فالأمثل. ها هي أم سلمة ومعها أربعة من الأولاد (سلمة، وعمر، وزينب ودرّة) يستقبلون أبا سلمة المجاهد مع رسول الله في معركة أحد سنة ٣ للهجرة جريحاً، وبالرغم مما بذلت من العناية به وبمداواة جرحه إلا أنه انتقض عليه وتوفي على أثر ذلك بعد أقل من سنة.

اسودت الدنيا في عينيها، فلا أهل عندها هنا في المدينة، ولا زوج، ولا تستطيع العودة إلى مكة! لم يكن يؤنسها غير أحزانها وألمها. إلا أن باب الأمل لا بد أن يفتح

(١) ابن الأثير؛ عز الدين: أسد الغابة ٧/ ٣٢٩.

في نهاية النفق، فها هي تتذكر ما نقله زوجها عن النبي ﷺ وما كان يقول: «.قَالَتْ: أَتَانِي أَبُو سَلَمَةَ يَوْمًا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلًا سُرِرْتُ بِهِ، قَالَ: «لَا يُصِيبُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُصِيبَةٌ فَيَسْتَرْجِعُ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ «قَالَتْ أُمّ سَلَمَةَ: فَحَفِظْتُ ذَلِكَ».

فلما توفي أبو سلمة تذكرت هذا الحديث، واستعادته مسترجعة بالقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصبيتي واخلف لي خيراً منها.

هل تتوقع أن يحصل هذا بأن يعوضها الله خيراً من أبي سلمة ؟ ولكن من أين يأتي ذلك الأفضل من أبي سلمة ؟ مع ظروفها تلك ؟

تقول: «فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أَدْبُغُ إِهَابًا لِي، فَغَسَلْتُ يَدَيَّ مِنَ الْقَرَظِ، وَأَذِنْتُ لَهُ فَوَضَعْتُ لَهُ وِسَادَةَ أَدَم حَشْوُهَا لِيفٌ، فَقَعَدَ عَلَيْهَا، فَخَطَبَنِي إِلَى نَفْسِي، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ مَقَالَتِهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَنَا لَكَ بِكُفْؤٍ، وَمَا بِي إِلَّا يَكُونُ بِكَ الرَّغْبَةُ، وَلَكِنِّي امْرَأَةٌ فِيَّ غَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ، وَأَخَافُ أَنْ تَرَى مِنِّي شَيْئًا يُعَذِّبُنِي اللهُ بِهِ، وَأَنَا امْرَأَةٌ قَدْ دَخَلْتُ فِي السِّنِّ، وَأَنَا ذَاتُ عِيَالٍ، قَالَ: «أَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْغَيْرَةِ فَسَوْفَ يُذْهِبُهَا اللهُ عَنْكِ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ السِّنِّ فَقَدْ أَصَابَنِي مِثْلُ الَّذِي أَصَابَكِ، وَأَمَّا الَّذِي ذَكَرْتِ مِنَ الْعِيَالِ فَإِنَّمَا عِيَالُكَ عِيَالِي» قَالَتْ: فَقَدْ سَلَّمْت يَا رَسُولَ اللهِ، فَتَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ أُمّ سَلَمَةَ: فَقَدْ أَبْدَلَنِي اللهُ بِأَبِي سَلَمَةَ خَيْرًا مِنْه».(١)

وبالرغم من أن أم سلمة لم تبق مع النبي ﷺ غير فترة قصيرة من عمره الشريف (من منتصف سنة ٤ للهجرة إلى أول سنة ١١) إلا أنها مع ذلك كانت في الذروة

(١) الاصفهاني؛ أبو نعيم: معرفة الصحابة ٦/ ٣٢١٩.

السامقة التي لم تصل لها بقية زوجات النبي باستثناء خديجة عليها السلام.

وكنت قد ذكرت في احدى المحاضرات أن النبي صلى الله عليه وآله قد أشار إلى أم سلمة أن تعتني بفاطمة في تحضيرها للزواج، وأن تخبرها عن مسائله، فكانت تقول إنها ما علمتها بشيء إلا ووجدت الزهراء أعلم به منها. وإني لا أذكر الآن مصدر هذه المعلومة، ولكن حين الكتابة تأملت قليلا فيها فوجدت فيها جهات للمناقشة أهمها أن زواج النبي بأم سلمة على المشهور هو في سنة ٤ للهجرة، وكانت أم سلمة لا تزال في عصمة زوجها أبي سلمة بن عبد الأسد الذي كان لا يزال على قيد الحياة، ومعه يبعد أن تكون العلاقة بين النبي وأم سلمة مفتوحة إلى هذا المقدار! كما أن تكليف النبي أم سلمة بتوجيه فاطمة في أمور الزواج يخالف ما نعتقده من أن المعصوم ومنهم فاطمة أعلم من غيرهم (ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم)، إلا أن يقال هنا أن النبي كان يريد أن يظهر للناس من خلال أم سلمة، منقبة للسيدة الصديقة الزهراء عليها السلام. نعم هناك قول ضعيف بأن النبي قد تزوج أم سلمة في سنة ٢ للهجرة وأن زوجها أبا سلمة كان قد جرح في بدر وتوفي بعدها بانتقاض جرحه عليه، وآنئذ يمكن القول بإمكان أن تمارس أم سلمة وقد أصبحت زوجة للنبي مثل هذا الدور. على تأمل فيه.

أو أن يقال بأنها كانت تفعل ذلك بغض النظر عن كونها زوجة للنبي، مثلما ذكر في تجهيز بيت الزهراء عليها السلام للزواج. فإنه ينقل عنها دور مهم في ذلك.

مدخل على قضية اجتماعية:

وينبغي أن نشير هنا إلى قضية اجتماعية مهمة، وهي الرجال والنساء الذين يتوفى عنهم شريك حياتهم، فإنه ينبغي على الأولاد بنين وبنات أن يقدروا حاجة هذا الباقي

إلى الشريك الجديد، فالمرأة التي مات عنها زوجها تحتاج إلى استمرار حياتهما مع زوج مناسب، ولا يصح أن يقوم الأولاد كما نجد في بعض البيئات الخاطئة بمنع أمهم من التطلع إلى زواج جديد، بزعم أنهم سيقومون بكل شؤونها!! فهم إن صدقوا واستطاعوا القيام بشؤونها المادية، فهل سيستطيعون ذلك بالنسبة لحاجتها النفسية، لا سيما إذا كبروا وتزوجوا؟ وهَب أنهم استطاعوا ذلك، فهل سيقومون بحاجتها الجنسية؟ لا سيما إذا كانت ليست طاعنة في السن!![1] من الطبيعي أنه لا، ولذلك نعتبر ما يقوم به بعض الأولاد من (منع) أمهاتهم من الزواج بعد وفاة أبيهم يعتبر عقوقا، بل اعتداء غير مبرر!. وهكذا الحال بالنسبة للآباء فإنه قد حصلت حالات أن (منع) الأولاد (بنين أو بنات) أباهم من الزواج بعد وفاة أمهم، بزعم أنهم لا يريدون امرأة أخرى تحل محلها! وقد تكون ظروف الأب لا تسمح له بمواجهة اختيارهم وقرارهم فهذا أيضا من العقوق، والظلم!

أم سلمة مع النبي في معاركه:

وينقل المؤرخون أن النبي ﷺ قد اصطحب معه أم سلمة بعد أن خرجت القرعة عليها في عدد من الغزوات والسرايا وخيبر والحديبية، والخندق، وفتح مكة، وحنين.

وما بعد خيبر فقد نقل أن بعض نسائه نازعنه ﷺ على المال، ويشير القمي في تفسيره إلى أنه لما رجع رسول الله ﷺ من غزاة خيبر وأصاب كنز آل أبي الحقيق،

(١) نقلوا أن أم سلمة توفيت عن ٨٤ سنة وقيل ٩٠ وكان وفاتها بين سنة ٥٩ أو ٦٢ للهجرة، والثاني هو الأرجح. ويفترض أن تكون عندما استشهد عنها زوجها، وتزوجها النبي ﷺ في سن الرابعة والثلاثين تقريبا، ولعل قولها للنبي فيما ورد حين ارادت الاعتذار للنبي عن الزواج بأنها كبيرة السن، ناظر إلى ما هو متعارف في ذلك الزمان من أن المرأة بنت الحادية عشرة ونحوها تتزوج.

قلن أزواجه أعطنا ما أصبت، فقال لهن رسول الله ﷺ قسمته بين المسلمين على ما امر الله فغضبن من ذلك وقلن لعلك ترى انك ان طلقتنا ان لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوجونا فانف الله لرسوله فأمره ان يعتزلهن فاعتزلهن رسول الله ﷺ في مشربة أم إبراهيم تسعة وعشرين يوما، حتى حضن وطهرن ثم انزل الله هذه الآية وهي آية التخيير فقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١] فقامت أم سلمة وهي أول من قامت[٢]وقالت قد اخترت الله ورسوله فقمن كلهن فعانقنه وقلن مثل ذلك فأنزل الله (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ)[٣].

كما يذكر أنه في الحديبية، استمع النبي ﷺ لمشورتها، ربما ليظهر أن النساء الكاملات ينبغي الأخذ برأيهن. وأن(جنس) الإنسان ليس بمانع عن مشاورته أو الأخذ برأيه الصحيح.

ففي قضية الحديبية لما توافق النبي مع القرشيين على أن يرجعوا هذه المرة عن العمرة إلى مكة وأن يأتوها في ما بعد، واصطلحوا على ذلك مع تشكيك عدد من المسلمين في هذا وأنه كيف وعدهم النبي بل الله بأن يدخلوا المسجد الحرام وإذا بهم يرجعون عنه؟ فأمر النبي بذبح الهدي في ذلك المكان لكي يتحللوا من إحرامهم!

«فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قضيته قال لأصحابه قوموا فانحروا ثم احلقوا قال فو الله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم

---

(١) الأحزاب ٢٨/ ٢٩.
(٢) القمي؛ علي بن إبراهيم: تفسير القمي ٢ / ١٩٢.
(٣) الأحزاب ٥١.

يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت له أم سلمة يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى فعل ذلك نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غما».[١]

وقد ذكر مشورة أم سلمة على النبي أكثر من تعرض لحادثة صلح الحديبية، إلا أن المرحوم[٢] المحقق السيد مرتضى العاملي قد تأمل في قبول هذه الناحية لأنها تنتهي إلى الاعتقاد بأن أم سلمة قد التفتت إلى شيء غفل عنه النبي وهو مما لا يمكن قبوله.[٣]

وفي نقاشنا مع المحقق العاملي نقول: أنه تم ذكر هذه القصة في روايات الإمامية بسند معتبر (القمي صاحب التفسير بسند معتبر عن ابن سنان عن الصادق).[٤]

ومع كون الرواية صحيحة فلا مناص من الالتزام بها، وما أشار إليه المحقق العاملي يمكن الجواب عنه بأن النبي ربما كان في صدد كشف من يسارع إلى أمره ومن يبطئ ومن يعصي فلو حلق من أول الأمر وذبح لما تبين للناس معصية أولئك وبطؤهم! وقد يكون ذلك لإظهار فضيلة خاصة لأم سلمة أمام الناس، وبالقياس إلى سائر الزوجات وهي أن النبي اعتنى بكلامها ورتب عليه الأثر، خصوصا وأنها

(١) الطبري؛ ابن جرير: تاريخ الطبري ٢/ ٢٨٣.
(٢) حين كتابة هذه الأسطر يكون قد مرعلى وفاته ٨ أيام حيث انتقل إلى رضوان الله مع ذكرى وفاة جده المصطفى رسول الله ﷺ في ٢٨ صفر ١٤٤١.
(٣) العاملي؛ السيد جعفر مرتضى:الصحيح من سيرة النبي الأعظم ١٦/ ١٤٤
(٤) البروجردي؛ السيد حسين: جامع احاديث الشيعة ١٠/ ٣٩٦ وقد وصفها السيد الخوئي في كتابه الحج ٥/ ٤٢٧ بالصحيحة. فلا مناص من الالتزام بها.

في المستقبل ستذكر أحاديث فضائل أهل البيت ومناقب أمير المؤمنين بل ستقف الموقف الحازم إلى جانبه، وستخطّىء الخلافة في موقفها من الزهراء، كما ستخطّئ موقف قادة معركة الجمل (ولو كان فيهم زوجة النبي) فمثل هذه الأمور كفيلة بأن يظهر فضل لها ومنقبة أمام الناس، ولهذا نظائر ليست قليلة، فقد قال النبي في حق أم أيمن؛ بركة الحبشية أنها من أهل الجنة، وهذا ليس فقط من أجل أن يتسهل زواجها، وإنما بالإضافة إلى ذلك سيكون لها موقف في الشهادة لفاطمة الزهراء عليها السلام ستحتاج فيه إلى مثل ذلك القول النبوي[1] ونظير ذلك أيضا يقال في اقتراح سلمان حفر الخندق حول المدينة، فلا نعتقد أن النبي كان غافلا عنه، حتى يحتاج إلى سلمان المحمدي واقتراحه إياه، ولكن ربما لإظهار هذه الفضيلة لسلمان، أو لغير ذلك من الأغراض.

أم سلمة: فقد النبي ومواساة فاطمة:

من خلال ما سمعته أم سلمة من رسول الله صلى الله عليه وآله، في حق علي ومناقبه، فقد صارت تؤكد على معانٍ أراد الخط القرشي الآخر طمسها، وهي وإن لم تعلن المعارضة الظاهرة الواضحة، ولعلها رأت عليا يتخذ موقفا (فرأيت الصبر على هاتا أحجى). فسكتت كما سكت باقي خلص الأصحاب إلا من شذرات هنا وهناك. فها هي تؤكد في حديث عنه أن آخر الناس عهدا برسول الله وألصقها بهم، وآخر وصاياه كانت لعلي عليه السلام. وهذا خلاف ما روته بعض زوجات النبي من أنه مات في حجرها!! فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ إِنْ كَانَ عَلِيٌّ لأَقْرَبُ النَّاسِ عَهْدًا

(١) الجوهري؛ أبو بكر: السقيفة وفدك ١/ ١١٠ «...فأتته فاطمة فقالت: أن رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاني فدك، فقال لها: هل لك على هذا بينة ؟ فجاءت بعلي عليه السلام فشهد لها، ثم جاءت أم ايمن فقالت: ألستما تشهدان اني من أهل الجنة، قالا: بلى: قال أبو زيد: يعني انها قالت لأبي بكر، وعمر، قالت: فأنا أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاها فدك...»

بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَ قُبِضَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم غَدَاةً بَعْدَ غَدَاةٍ، يَقُولُ: جَاءَ عَلِيٌّ؟ مِرَارًا، قَالَتْ: وَأَظُنُّهُ كَانَ بَعَثَهُ فِي حَاجَةٍ، قَالَ: فَجَاءَ بَعْدُ، فَظَنَنَّا أَنَّ لَهُ إِلَيْهِ حَاجَةً، فَخَرَجْنَا مِنَ الْبَيْتِ، فَقَعَدْنَا عِنْدَ الْبَابِ، فَكُنْتُ مِنْ أَدْنَاهُمْ، فَأَكَبَّ عَلَيْهِ عَلِيٌّ فَجَعَلَ يُسَارُّهُ وَيُنَاجِيهِ، ثُمَّ قُبِضَ مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ.(١)

حتى إذا تم للقوم في السقيفة ما أرادوا، وخطبت فاطمة الزهراء عليها السلام تلك الخطبة البليغة في مسجد رسول الله احتجاجا عليهم. ورد عليها الخليفة الأول، بقوله: مثل ثعالة شهيده ذنَبه!(٢)وهو في ذلك يعرّض ويتهكم على شهادة فاطمة لأمير المؤمنين ودفاعها عنه، فقالت أم سلمة: أ لمثل فاطمة يقال هذا؟!وهي الحوراء بين الإنس، والانس للنفس، ربيت في حجور أمهات الأنبياء، وتداولتها أيدي الملائكة، و نمت في المغارس الطاهرات، نشأت خير منشأ وربيت خير مربّى، أ تزعمون أن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم حرم عليها ميراثه ولم يعلمها؟!وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ اَلْأَقْرَبِينَ﴾ أ فأنذرها وجاءت تطلبه وهي خيرة النسوان، وأم سادة الشبان، وعديلة مريم ابنة عمران، وحليلة ليث الأقران، تمت بأبيها رسالات ربه، فو اللّه لقد كان يشفق عليها من الحرّ والقرّ فيوسّدها يمينه ويدثّرها بشماله، رويدا فرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بمرأى لأعينكم وعلى اللّه تردون، فواها لكم وسوف تعلمون، أنسيتم قول رسول اللّه «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» وقوله: «إني تارك فيكم الثقلين» ما أسرع

---

(١) المصدر السابق.

(٢) قال في خطبته: أيها الناس ما هذه الرعة إلى كل قالة ؟!لئن كانت هذه الأماني على عهد رسول اللّه فمن سمع فليقل ومن شهد فليتكلم، إنما ثعالة شهيده ذنبه، مُربٍ (مقيم) لكل فتنة هو الذي يقول: كرّوها جذعة بعد ما هرمت يستعينون بالضعفة ويستنصرون بالنساء كأم طحال أحب أهلها إليها البغي! ألا إني لو أشاء أن أقول لقلت، ولو قلت لبحت، إني ساكت ما تركت! موسوعة التاريخ الإسلامي لليوسفي ٤/ ٧٨.ومعنى المثل : الثعلب يشهد له ذيله !

ما أحدثتم وأعجل ما نكثتم.[١]

وبعد معاناة الزهراء النفسية والبدنية فقد ذهبت إليها أم سلمة تواسيها وتخفف عليها فسألتها لها كيف اصبحتِ يا بنت رسول الله؟ فقالت لها يا اماه اصبحت بين كمد وكرب فقد النبي وغصب الوصي. ثم استرسلت في حديثها معها.

ومرت أدوار الخلافة الثلاثة كما يقول أمير المؤمنين (فصبرت على طول المدة وشدة المحنة). حتى إذا جاءت الخلافة لأمير المؤمنين وقفت موقفا إيجابيا مشرفا فانها دفعت اولا أبناءها لبيعه أمير المؤمنين وقالت لابنها عمر قم وبايع فوالله مابايعت احدا بعد نبيك كبيعة علي أبي طالب!

ونكثت نكَثَة الجمل البيعة وأعلنوا الحرب على أمير المؤمنين، واتجهت جموعهم إلى البصرة، ولما كانت أم سلمة آنئذ هي أوجه زوجات النبي فقد قصدتها عائشة زوجة النبي لاستمالتها إلى جانبها! ولأن الحوار الذي دار بين زوجتي النبي فيه الكثير من المعاني والاشارات والحقائق فقد آثرنا أن ننقله كما ذكره ابن أبي الحديد، ونعلق على بعضه! في الهامش.

قال: أبو مخنف جاءت عائشة إلى أم سلمة تخادعها على الخروج للطلب بدم عثمان فقالت لها يا بنت أبي أمية أنتِ أول مهاجرة من أزواج رسول الله وأنت كبيرة أمهات المؤمنين و كان رسول الله يقسم لنا من بيتك[٢] و كان جبريل أكثر ما يكون في منزلك![٣]

فقالت أم سلمة: لأمر ما قلتِ هذه المقالة ؟

(١) اليوسفي؛ محمد هادي: موسوعة التاريخ ٤/ ٧٩.
(٢) في هذه الفقرات إثبات لعدد من فضائل أم سلمة تميزت بها!
(٣) وهذه الفقرة تخطئة لما زُعم عن النبي أنه ما نزل الوحي عليه إلا وهو في لحاف عائشة!

فقالت عائشة: إن عبد الله (بن الزبير) أخبرني أن القوم استتابوا عثمان فلما تاب قتلوه صائما في شهر حرام! وقد عزمت على الخروج إلى البصرة ومعي الزبير وطلحة فاخرجي معنا لعل الله أن يصلح هذا الأمر على أيدينا بنا!!

فقالت أم سلمة: إنك كنت بالأمس تحرضين على عثمان! وتقولين فيه أخبث القول و ما كان اسمه عندك إلا نعثلا[1] وإنك لتعرفين منزلة علي بن أبي طالب عند رسول الله ﷺ أ فأذكرك ؟

قالت: نعم! قالت: أ تذكرين يوم أقبل ونحن معه حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال خلا بعلي يناجيه فأطال فأردت أن تهجمي عليهما، فنهيتك فعصيتني فهجمت عليهما فما لبثت أن رجعت باكية؟.

فقلت: ما شأنك ؟ فقلت: إني هجمت عليهما وهما يتناجيان فقلت لعلي: ليس لي من رسول الله إلا يوم من تسعة أيام أ فما تدعني يا بن أبي طالب و يومي؟ فأقبل رسول الله ﷺ علي وهو غضبان محمر الوجه فقال: ارجعي وراءك والله لا يبغضه أحد من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان فرجعت نادمة!

قالت عائشة: نعم أذكر ذلك!

قالت: وأذكرك أيضا كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ وأنت تغسلين رأسه وأنا أحيس له حيساً وكان الحيس يعجبه فرفع رأسه وقال: يا ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأذنب تنبحها كلاب الحوأب ؟ فتكون ناكبة عن الصراط فرفعت يدي من الحيس فقلت أعوذ بالله ورسوله من ذلك!

---

(١) النعثل: يعني الشيخ الأحمق، وكان اسم يهودي طويل اللحية في المدينة.

ثم ضرب على ظهرك وقال إياك أن تكونيها ثم قال: يا بنت أبي أمية إياك أن تكونيها!! يا حميراء أما أنا فقد أنذرتك.

قالت عائشة: نعم أذكر هذا قالت وأذكرك أيضا كنت أنا وأنت مع رسول الله في سفر له وكان علي يتعاهد نعلي رسول الله فيخصفها ويتعاهد أثوابه فيغسلها فنقبت له نعل فأخذها يومئذ يخصفها وقعد في ظل سمرة وجاء أبوك ومعه عمر فاستأذنا عليه فقمنا إلى الحجاب ودخلا يحادثانه فيما أراد ثم قالا: يا رسول الله إنا لا ندري قدر ما تصحبنا فلو أعلمتنا من يستخلف علينا ليكون لنا بعدك مفزعا ؟

فقال لهما: أما إني قد أرى مكانه ولو فعلت لتفرقتم عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن هارون بن عمران فسكتا ثم خرجا فلما خرجنا إلى رسول الله ﷺ قلتِ له وكنتِ أجرأ عليه منا من كنتَ يا رسول الله مستخلفا عليهم ؟

فقال: خاصف النعل فنظرنا فلم نر أحداً إلا عليا فقلت يا رسول الله ما أرى إلا عليا فقال هو ذاك!

فقالت عائشة: نعم أذكر ذلك!

فقالت فأي خروج تخرجين بعد هذا فقالت إنما أخرج للإصلاح بين الناس! وأرجو فيه الأجر إن شاء الله.

فقالت: أنت ورأيك فانصرفت عائشة عنها و كتبت أم سلمة[١] بما قالت وقيل لها إلى علي.[٢]

ولم تكتف بذلك بل أرسلت للإمام عليه السلام (... ولولا ما نهانا اللهُ عنه من الخروج،

---

(١) هذا يظهر مدى تبنيها إمامة الإمام والدفاع عن خلافته.

(٢) المعتزلي؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٦/ ٢١٨.

وأمَرَنا به لزومَ البيت. لم أدَعِ الخروجَ إليك والنُّصرةَ لك، ولكنّي باعثةٌ نحوك ابني عِدْلَ نفسي عمرَ بنَ أبي سلمة، فاستَوصِ به يا أمير المؤمنين خيراً...).

الحسين وأم سلمة:

عندما عزم الإمام الحسين عليه السلام على الخروج من المدينة المنورة سنة ٦٠ هـ إلى مكة بعدما دعاه والي المدينة الأموي إلى البيعة ليزيد، وأعلنها الإمام آخر الأمر: مثلي لا يبايع مثله، اتجه لوداع قبر رسول الله وأمه الزهراء، عليهما السلام ثم انعطف إلى دار أم سلمة لوداعها وهذا يكشف عن مدى احترامه لها ومحبتها له، فكان أن أخبرته مشفقة عليه أن النبي قد أخبرها بأن مصرع الحسين في العراق، في كربلاء وأنه قد أعطاها تربة منها تحتفظ بها في قارورة، وأخبرها أنها ستصبح دما عبيطا عند مقتل الحسين. فأجابها الحسين على ذلك بالتصديق. وفي روايات الإمامية أن الإمام الحسين عليه السلام أودع كتب العلم عند أم سلمة وأخبرها أن تسلمها لابنه زين العابدين عند رجوعه.

جابر يستشير أم سلمة:

وبعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام، وقيام الأمويين بغزو المدينة، قام قائدهم مسرف (مسلم) بن عقبة، بأخذ البيعة من كبار أصحاب النبي على أنهم عبيد ليزيد، أو القتل فاختفى بعضهم كما حصل لجابر بن عبد الله الأنصاري، فأخذ مسرف القائد الأموي عائلته رهينة! فجاء جابر إلى أم سلمة يستشيرها ماذا يصنع؟ فأخبرته بأنها ولو كانت بيعة هذا بيعة ضلال إلا أنه ينبغي البيعة حفاظاً على الحياة والعائلة!

حديث أم سلمة عن النبي:

ذكر مترجمو حياتها رضوان الله عليها أنها روت عن النبي قريباً من ثلاثمائة وثمانين حديثاً، وهذا يلفتنا إلى أمرين:

أحدهما: أنه سيلقي بضوء على ما ادعي من رواية بعض الأصحاب آلاف الأحاديث عن النبي، كما نقلوا أن أبا هريرة الدوسي روى عن النبي (٥٣٧٤) حديثا مع أنهم ذكروا أنه لم يصحب النبي غير سنة وسبعة أشهر. هذه أم سلمة التي عاشت مع النبي مدة سبع سنوات وكانت معه في الكثير من غزواته المهمة. ينقل عنها دون أربعمائة حديث.

وثانيهما: أن أحاديثها في الغالب كانت تركز على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وترتبط بأهل البيت ومودتهم. وقد يكون هذا أحد الأسباب التي جعلت من لا يعجبه (مضمون) أحاديثها يتغافل عن نقل تلك الأحاديث! وفي هذا يتبين اتجاهها واعتقادها، فإن نوعية روايات الراوي بالإضافة إلى مواقفه تبين اعتقاداته ومنهجه في الحياة، ويمكن لنا بحق أن نطلق على أم سلمة (راوية حديث الولاية لآل محمد).

نظرة على مضامين أحاديثها:

١. حديث الكساء: يعتبر حديث الكساء مهمّاً في الجهة العقائدية نظراً لأنه سيعين عنوان (أهل البيت) ويحدد مصاديقه بدقة، لا تحتمل المجاملة! وسيفسر ما جاء في القرآن من تطهير أهل البيت، ويبين من هم أهل البيت الذين جعلهم النبي الثقل الآخر المعادل للقرآن! وتعددت الصيغ التي نقلتها أم سلمة عن حديث الكساء، ولكن يجمع كل تلك الصيغ: التأكيد على أن الذين ضمهم الكساء . العباءة (اليماني أو الخيبري) هم مع النبي ابنته فاطمة

وصهره علي والحسنان، وأنها لم تكن منهم مع أنها سألت النبي الدخول معهم لكنه قال لها إنها إلى خير!

فعنها أنها قالت، أَنّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم غَطَّى عَلَى عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَحَسَنٍ وَحُسَيْنٍ كِسَاءً، ثُمَّ قَالَ: هَؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتِي، إِلَيْكَ لا إِلَى النَّارِ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَنَا مِنْهُمْ؟ قَالَ: لا،(١) وَأَنْتِ عَلَى خَيْرٍ.(٢)

٢. حديث الغدير: يحتل حديث الغدير المشهور حين وقف النبي ﷺ في آخر حجة له في غدير خم في طريق الرجوع من مكة إلى المدينة، آخذاً بيد علي وقال: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا بلى: قال: فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصرمن نصره. ويحتل هذا الحديث مكانة عظمى(٣) في بيان إمامة علي عليه السلام بعد النبي مباشرة وولايته على الناس، وقد روته أم المؤمنين أم سلمة رضوان الله عليها فيمن رواه.

٣. عليٌّ وعليٌّ: أكثرت أم سلمة من رواية فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، ولعله لهذا السبب لم ينقل عنها مخالفو الإمام كل أحاديثها، ومع ذلك فما جاء عنها هو كثير: فمن ذلك: حديث المنزلة: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله

(١) يلاحظ الناظر إلى أن هذا الحديث ليس في صالح أم سلمة للوهلة الأولى، حيث نفى عنها أن تكون من أهل البيت، ومع ذلك فإنها قد نقلته وفي مواضع متعددة، مما يدل على تمام ورعها وصدقيتها. وأنها بالفعل حتى وإن لم تكن من أهل البيت الذين تترتب لهم وعليهم أحكام خاصة إلا أنها إلى خير.

(٢) الموصلي؛ أبو يعلى: المسند الصغير. وقد أخرج فيه عن أم سلمة ١٥٢ (بحسب النسخة الالكترونية) وقد عُرف أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي الموصلي، أبو يعلى، بأنه حافظ من علماء الحديث، ثقة مشهور، نعته الذهبي بمحدث الموصل، ولد في ٣ شوال سنة (٢١٠هـ)، وعمر طويلًا حتى ناهز المائة، وتفرد ورحل الناس إليه، وتوفي بالموصل سنة (٣٠٧هـ).

(٣) لبيان مصادر الحديث ومعاني كلماته يمكن مراجعة موسوعة الغدير للمرحوم العلامة الشيخ عبد الحسين الأميني.

عليه وسلم، قَالَ لِعَلِيٍّ: أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ غَيْرَ أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي؟

ومن ذلك عَنْهاَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِعَلِيٍّ: لا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ، وَلا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ.

ومن ذلك عنها ما رواه الحاكم النيسابوريّ: قال أبو عبد الله الجدليّ: حَجَجتُ وأنا غلام، فمَرَرتُ بالمدينة وإذا الناس عُنقٌ واحد، فاتّبعتُهم، فدخلوا على أمّ سلمة، فسمعتها تقول: يا شبيب بن رِبعيّ. يُسَبّ رسولُ الله ﷺ في ناديكم ؟! قال: وأنّى ذلك! قالت: فعليُّ بن أبي طالب؟ قال: إنّا لَنقولُ أشياءَ نريد عَرَض الدنيا. قالت: فإنّي سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول: مَن سَبَّ عليّاً فقد سَبَّني، ومَن سَبَّني فقد سَبَّ اللهَ تعالى.

ومنها: علي مع الحق. فعن أبي ثابت مولى أبي ذر قال: كنت مع علي رضي الله عنه يوم الجمل فلما رأيت عائشة واقفة دخلني بعض ما يدخل الناس فكشف الله عني ذلك عند صلاة الظهر فقاتلت مع أمير المؤمنين فلما فرغ ذهبت إلى المدينة فأتيت أم سلمة فقلت إني والله ما جئت أسأل طعاما ولا شرابا ولكني مولى لأبي ذر فقالت مرحباً فقصصت عليها قصتي فقالت: أين كنت حين طارت القلوب مطائرها قلت: إلى حيث كشف الله ذلك عني عند زوال الشمس قال: أحسنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: علي مع القرآن و القرآن مع علي لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض.(١)

ومنها حديث التربة والحسين: عنها أيضا؛ ان رسول الله ﷺ اضطجع ذات ليلة للنوم فاستيقظ وهو حائر ثم اضطجع فرقد ثم استيقظ وهو حائر دون ما رأيت به

(١) النيشابوري؛ الحاكم: المستدرك على الصحيحين ج١ /ح ٤٦٢٨.

المرة الأولى ثم اضطجع فاستيقظ وفي يده تربة حمراء يقبلها فقلت ما هذه التربة يا رسول الله قال أخبرني جبريل (عليه الصلاة والسلام) ان هذا يقتل بأرض العراق للحسين فقلت لجبريل أرني تربة الأرض التي يقتل بها فهذه تربتها.[١]

ولقد كانت ﷺ ترى ذلك اليوم عظيما لن تستطيع البقاء بعده إلا يسيرا وهذا ما حدث بالفعل. فقد أخرج عنها،[٢]أنها قالت: كان الحسن والحسين رضي الله عنهما يلعبان بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتي، فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إن أمتك تقتل ابنك هذا من بعدك. فأومأ بيده إلى الحسين، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضمَّه إلى صدره، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وديعةٌ عندَكِ هذه التُّربةُ». فشمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «وَيْحَ كَرْبٍ وبَلَاءٌ». قالت: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أَمَّ سلمةَ، إذَا تحوَّلتْ هذه التُّربةُ دَمًا فاعْلَمِي أنَّ ابني قد قُتِل». قال: فجعلتها أم سلمة في قارورة، ثم جعلت تنظر إليها كل يوم وتقول: إن يومًا تَحَوَّلين دمًا ليومٌ عظيمٌ.

لذا فما أن رأت ذات يوم تلك القارورة قد صارت دما عبيطا حتى انفجرت بالبكاء، واخبرت الناس أن الحسين بن رسول الله قد قتل في كربلاء، ولم تلبث بعده إلا سنة حتى غادرت الدنيا إلى حيث تلتحق بالنبي في جنة الله.

---

(١) المصدر نفسه ٤/ ٣٩٨.

(٢) الطبراني؛الحافظ سليمان بن أحمد: المعجم الكبير ٣/ ١٠٨.

مارية القبطية وابنها إبراهيم بن النبي

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(إِذَا افْتَتَحْتُمْ مِصْرًا فاستوصوا بالقبط خَيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا).[1]

هذا الحديث المروي في مصادر المدرستين؛ يذكرُ عادةً في موضعين:

الموضع الأول: يذكر في الاستشهاد على صحة أقوال رسول الله ﷺوإنباءاته التي تحققت بعد قوله إياها بسنواتٍ وهي من علائم النبوة، ذلك أنّ النبي أخبر عن حوادث ستجري في المستقبل، وقد تحقق ما قالهُ النبي ﷺ.

الموضع الثاني: وأيضا يُذكر هذا الحديث عندما يجري ذكرُ مارية بنت شمعون القبطية أم إبراهيم التي أُهديت إلى رسول الله ﷺ من قِبل المقوقس حاكم الإسكندرية و النائب العام للدولة البيزنطية في مِصر.

(١) الحديث مشهور في كتب مدرسة الخلفاء فقد جاء في التاريخ الكبير للبخاري وفي المستدرك على الصحيحين للنيسابوري وفي صحيح مسلم، وفي المعجم الكبير للطبراني، وكنز العمال للمتقي الهندي، وغيرهم في غيرها من الكتب، وأما في مصادر الإمامية، فالذي وجدته هو في كتاب مناقب آل أبي طالب ١/ ٩٥ لابن شهراشوب، والبحار١٨/ ١٢٩ناقلا عنه، وفي كشف المراد شرح العلامة على تجريد الاعتقاد أشار إليه بالمعنى ضمن ذكر معجزات النبي في الإخبار عما تحقق في المستقبل.

جاءت مارية القبطية والدة إبراهيم بنِ رسُول الله إلى المدينة من مصر أوائل السنة الثامنة للهجرة وتوفيت في وقتٍ مبكرٍ بعد ثمانِ سنوات من مجيئها إلى المدينة أي في سنة ستة عشر من هجرة النبي ﷺ.

ولجهة ارتباط هذا المجيء بنتائج صُلح الحديبية، سنجد أنفسنا مضطرين للحديث الموجز عنه. كيف حصل وما هي ظروفه ونتائجه.

في شهر ذي القعدة من السنةِ السادسة للهجرة توجه النبي ﷺ ومعه المسلمون قاصدين مكة للعمرة، فلما وصلوا إلى ذي الحليفة أحرم النبي وأمر المسلمين بالإحرام للعمرة، فتجهز المشركون للقتال، فأرسل النبي لهم يخبرهم أنه لم يأت وأصحابه لقتال وإنما جاؤوا معتمرين! وكانت قريش مع إظهارها الاستعداد للقتال إلا أنها كانت أضعف من أن تخوضه، عسكرياً ونفسياً واستراتيجياً، وكان أهم شيء عندهم أن لا يقتحم عليهم النبي والمسلمون مكة، هذه المرة بالرغم منهم فإنه يورثهم ذلاً شاملاً، فكانوا مستعدين لأي شيء دون ذلك!!

وهذا سّرع من حركة التوجه للمصالحة، والابتعاد عن الخيار العسكري، فتم الاتفاق الذي وقعه سهيل بن عمرو عن المشركين، وكتبه علي أمير المؤمنين، وأمضاه رسول الله وأهم بنوده كانت:

- أن توضع الحرب بينهما عشر سنين.
- أن يرجع رسول الله ﷺ عامه هذا، فإذا كان العام المقبل قدمها، فخلّوا بينه وبين مكة، فأقام فيها ثلاثا ألا يدخلها إلا بسلاح الراكب، والسيوف في القرب، لا يدخلها بغيره.
- أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه وإن كان على دين محمد رده إلى

وليه، ومن أتى قريشا ممن اتبع محمداً لم يردوه عليه.

- أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل.[1]

أهم نتائج صلح الحديبية:

اعترض بعضُ المسلمين على مواد الصلح لعدم تقديرهم للآثار والنتائج المهمة التي تضمنها وتلك التي ستترتب عليه ومنها:

أولًا: حقق هذا الصلح اعترافاً من قريش بمكانة رسول الله والمسلمين كطرفٍ في المفاوضات على قدم المساواة مع قريش، فليسوا الآن جماعة من المتمردين والمارقين و أنهُم لابد أنْ يتم القضاء عليهم! إن الكثير من الجهات تقاتل وتبذل أقصى الجهود لكي يعترف بها كطرف يتفاوض معه على قدم المساواة مع الطرف الآخر!! وهذا قد حصل عليه النبي والمسلمون بدون كل ذلك!.

ثانيًا: أن النبي ﷺ أَمِن جانب قريش لمدة عشر سنوات وقيدهم بهذه الاتفاقية كي لا يتحالفوا مع أعداء دعوته من العرب واليهود، وبهذا لن يستطيعوا مهاجمة المسلمين لو فرضنا أنه تعرض لسائر اعدائه! لأنهم أصبحوا محكومين بهذه الاتفاقية.

لذا تفرغ النبي ﷺ بعد ذلك لباقي أعدائه، حيثُ أتاحت له هذه المعاهدة فرصة القضاء على اليهود في المدينة الذين ما فتئوا يتآمرون على دعوة النبي ودولته، فما أن عقد اتفاقيته مع قريش في شهر ذي القعدة السنة السادسة للهجرة حتى بادر

---

(١) العاملي؛ جعفر مرتضى: الصحيح من سيرة النبي الأعظم ١٦/ ٥٢.

النبي لقتال اليهود في خيبر في محرم من السنة السابعة.كان آمنًا أن قريشا ما دامت محكومة بالاتفاقية لن تعين اليهود، ولا يستطيع اليهود أن يستعينوا بها.

ثالثا: الآن وقد أصبحَت الجهة الداخلية آمنة والمدينة قد طهرها من اليهود، وقد أمن النبي قبل ذلك قريشا أصبحت الأمور مهيأة تماماً لنشر الرسالة على مستوى العالم، فبدأ بإرسال الرسائل والوفود إلى ملوك العالم. فأرسل إلى النجاشي في الحبشة أوائل السنة السابعة رسالة يدعوه فيها إلى التعرف على الإسلام، والإيمان بالرسالة وتعاضد وصول الرسالة مع جهود جعفر بن أبي طالب عليه السلام ونشاطه إبان وجوده فيها في إيمان النجاشي وقناعته برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وبالطبع لم تكن كل تلك الرسائل والوفود على مستوى واحد من التجاوب، بل كان بعض أولئك مثل كسرى ملك الفرس سيء الرد، إلى حد أنه مزق رسالة النبي كما قيل، فدعا النبي عليه بأنّ (اللهم مزّق مُلكه) فمزق مُلكهُ شر ممزق.[1]

كما أرسل إلى قيصر الروم في الشام،[2] وقد صادف أن أبا سفيان بن حرب كان موجوداً في الشام عندما جاء رسول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فاستدعاه القيصر وسأله أسئلة عن النبي: حدثني عن هذا الذي خرج بأرضكم ما هو؟

قلت: شاب، قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب،

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أ يزيدون أم ينقصون؟ قلت: لا بل يزيدون،

(١) الميانجي؛ الأحمدي: مكاتيب الرسول ٢/ ٣٢٨.

(٢) البعض يرى أنه الوالي العام على الشام من طرف القيصر، بينما رأى بعض آخر أنه ملك الروم هرقل والذي كان قد جاء ليزور الأماكن المقدسة لدى المسيحيين هناك.

قال: فهل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له؟ قلت: لا! قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا قال: فهل يغدر؟ قلت: لا.

قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال!

قال: كيف عقله ورأيه؟ قلت: لم نعب له عقلا ولا رأيا قط. قال: كيف حسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو حسب.

قال لترجمانه: قل له: فما يأمركم به؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة، وأن نعبد الله وحده لا شريك له، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة والطهارة.

فقال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها، وسألتك هل كان في آبائه ملك فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت: رجل يطلب ملك آبائه، وسألتك عن أتباعه أ ضعفاؤهم أم أشرافهم فقلت: بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل، وسألتك هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله، وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطة له فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، وسألتك هل يزيدون أو ينقصون فزعمت أنهم يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك هل قاتلتموه فزعمت أنكم قد قاتلتموه فيكون الحرب بينكم وبينه سجالا، ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله فزعمت أن لا، فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله قلت: رجل

ائتم بقول قيل قبله قال ثم قال: إن يكن ما تقول حقا فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم، ولو أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي، قال: ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله فقرأه.[١]

وبعض المؤرخين يرى أن قيصر آمن برسول الله وكتم إيمانه خصوصًا لجهة تخوفِهِ من ثورة القساوسة وأرباب الكنيسة عليه، ويقيمون على ذلك قرائن.

كما أرسل النبي ﷺ أيضا رسالةً إلى المقوقس، وقد كان مسيحيا وهو الوالي على مصر من قبل الروم، فلما ذهب رسول النبي وهو حاطب بن أبي بلتعة بكتابه إلى مصر قيل له إن المقوقس في الإسكندرية فذهب إليه، وسلمه رسالة النبي. ويذكرون صفات جيدة عنه في التفاهم والحوار. فأعجب به[٢] وقرأ الكتاب الذي أرسله له النبي، ويظهر أنه كان قد قرأ عن صفات رسول الله والبشائر التي كانت حوله في الكتب السابقة، فأرسل مع حاطب هذه الرسالة التي نصها:

(إلى محمد بن عبد الله[٣] من المقوقس عظيم القبط، أما بعدُ فقد قرأتُ كتابك و

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٠٣.

(٢) ذكروا عنه حواره مع المقوقس؛ فقد قال لحاطب: ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم. فقال له حاطب: ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله؟ فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى رفعه الله إليه؟ قال: أحسنت أنت حكيم من عند حكيم.

(٣) يلاحظ أن تقديمه اسم النبي على اسمه بالقول: إلى محمد بن عبد الله من المقوقس فيه جانب تكريم واحترام

ولك أن تلاحظ الفرق بين (أدب) المقوقس وتكريمه اسم رسول الله وبين (سوء أدب) كسرى ابرويز الذي تشنج غاية التشنج عندما رأى اسم رسول الله متقدما على اسمه كما قالوا! ولم يكمل قراءة بقية الكتاب !

فهمت ما ذكرت فيه و ما تدعو إليه، و قد علمتُ أن نبيًا بقى و كنت أظنُ أنه سيخرج بالشام و قد أكرمتُ رسولك و بعثتُ إليك بجاريتين لهما مكانٌ عظيمٌ في القبط و بثيابٍ، وأهديت إليك بغلةً لتركبها و السلام)[١]. أما الجاريتان فهما مارية وأختها سيرين والبغلة هي التي عرفت بالدلدل وكان النبي يركبها في المدينة.

جاءت الجاريتان إلى المدينة مع حاطب، الذي حدثهما عن الإسلام خلال الطريق فأسلمتا ووصلتا إلى المدينة أوائل السنة الثامنة للهجرة. أخذ النبي[٢]مارية القبطية[٣]وأعطى حسّان بن ثابت الجارية الأخرى سيرين.

وقعت مارية من النبي ﷺ موقعاً حسناً، فإنها كانت شديدة الاحترام لرسول الله ومعظمة لمقامه، وكانت بالإضافة إلى ذلك جميلة الشكل وقد أسكنها النبي ﷺ قريباً من منزله في بيتٍ أهداه إليه أحد أصحابه و هو حارثة بنُ النعمان، مما اثار غيرة بعض زوجات النبي التي لم ترتح لقدوم مارية، لا سيما وهي بقربهن،[٤]الأمر الذي

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٢٤.

(٢) استشهد بهذه الحادثة الإمام الخوئي (أعلى الله مقامه) في كتابه (مصباح الفقاهة ٢/ ٣٢٤) على عدم اعتبار الموالاة بين الإيجاب والقبول، حيث إنه وقع في هذه القصة فصل طويل بين إيجاب الهدية وقبولها، ومع ذلك لم يحكم النبي بفسادها فيكشف من ذلك عدم اعتبار الموالاة.

أقول: قد وهم المحشي على الكتاب في تعليقه على الحادثة، فقال: إن النجاشي ملك الحبشة بعدما تشرف بالإسلام بعث إلى النبي بهدايا وبعث إليه مارية القبطية أم ابراهيم وبعث إليه بثياب وطيب وفرس. واعتمد في ذلك على ما جاء في البحار ١٨/ ٤١٦ ناقلا إياه عن تفسير القمي، وهو مخالف لما ذكره المؤرخون.

(٣) واقترن بها بملك اليمين لا بعقد النكاح.

(٤) ابن سعد؛ محمد: الطبقات الكبرى ٨/ ١٧١: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ إِلا دُونَ مَا غِرْتُ عَلَى مَارِيَةَ. وَذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ جَمِيلَةً مِنَ النِّسَاءِ جَعْدَةً. وَأُعْجِبَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَكَانَ أَنْزَلَهَا أَوَّلَ مَا قُدِمَ بِهَا فِي بَيْتٍ لِحَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ فَكَانَتْ جَارَتَنَا فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ عَامَّةَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ عِنْدَهَا حَتَّى فَرَغْنَا لَهَا فَجَزِعْتُ فَحَوَّلَهَا إِلَى الْعَالِيَةِ فَكَانَ يَخْتَلِفُ إِلَيْهَا هُنَاكَ. فَكَانَ ذَلِكَ أَشَدَّ عَلَيْنَا. ثُمَّ رَزَقَ اللَّهُ مِنْهَا الْوَلَدَ وَحَرَمَنَا مِنْهُ.

جعل النبي يفرد لها مكانا بعيدا نسبيا، فكان مأوى راحته هناك.

رؤية حول تعدد زوجات النبي ﷺ

يقول المرحوم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (رضوان الله عليه):[1]«هناك الكثير من العبر والعظات في مسألة تعدد زوجات النبي:

أولا: يتبين لها من خلال ذلك قدرة النبي في تطبيق العدالة بين زوجاته، فقد كان يعدل بين تسع زوجات كانت لديه، في الوقت الذي نرى أن البعض لا يستطيع إدارة زوجة واحدة ومنزل واحد فكيف بتسع؟ وهؤلاء كن في بيتٍ واحد ولكل وحدة مطالب، وكل واحدة منهن على حالة ليست عليها الأخرى من حيث العمر والنضج والكفاءة. الخ.

وثانيا: وهو الأهم أنّه قد يتصور البعض: أنّ النبي وقد أدار تسع نساء بهذه الكفاءة. يتصور أنّه كان متفرغا لهذه القضية، بينما هو قائد حُروب ومدير دولة وهو إلى ذلك عابد من العبّاد قال الله عزّ وجل فيه: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ أيّ أنّه طوال الليل يعبد ربه، وهو الذي لا يبارى في عمل الخير. إن قيامه بكل هذه الأعمال عسير حتى لو كان عنده زوجة واحدة!! فكيف إذا كان عنده هذا العدد من الزوجات؟ ومع ذلك فقد أعطى كل شيءٍ قدرهُ وحقه!».

بل وأحيانًا كان يتحمل أشياء إضافية كما في قوله تعالى «تَبْتَغِي مَرْضَاتَ

---

(١) الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء(ت ١٣٧٣ هـ) فقيه إمامي، وفيلسوف بارز، وشاعر متألق له حوالي ثمانين مؤلفاً في فنون مختلفة، كالفقه والأصول والحكمة والسياسة والتعريف بأصول الشيعة وعقائدهم.من أهم أساتذته الحاج آقا رضا الهمداني، والمحدث النوري والسيد محمد كاظم اليزدي والآخوند الخراساني.

أَزْوَاجِكَ» هذا فخر لرسول الله ﷺ.

إن النبي لما رأى غيرة بعض نسائه من مارية، بدل أن يحل المسألة بالعنف أو الطلاق، قام وأخذ مارية إلى نخلٍ المعروف الآن بِـ (مشربة أم إبراهيم) وهو بستان أهداه إليه (مخيريق اليهودي) الذي اهتدى للإسلام ببركات ما قرأ من الكتب وآمن برسول الله، وقبل أن يخرج إلى أُحد حيث استشهد فيها أوصى الناس وقال لهم: آمنتُ برسول الله فإذا حدث بي حدثٌ فحوائطي السبعة هي هديةٌ لرسول الله محمد ﷺ! فأصبحت خالصة للنبي كان ينفق منها على نفسه وعلى فقراء المسلمين وأسكن في واحدٍ منها عُرف فيما بعد بمشربة أم إبراهيم، مارية.

قانون القَسم بين الزوجات:

في الشريعة الإسلامية: أن من يتزوج أكثر من زوجة يجب عليه أن يقسم مبيته بين زوجاته بحيث تنال كل واحدة ليلة، فإذا كن اثنتين جعل لكل منهما ليلة، وإن كن ثلاثا فكذلك. وهكذا ويسمى هذا بحق القَسْم يعني أن يبات ليلة عندها من الليل إلى الفجر. ولا يعني القسم: المقاربة الجنسية بالضرورة، وإنما يكونُ في منزلها هذا الوقت ولذلك فإنها لو مثلًا كانت حائضاً - لا يجوز مقاربتها - مع ذلك حق القسم ثابتٌ لها وكذا لو كان هو أو هي لا يرغبان في الممارسة الجنسية لسبب أو آخر مع ذلك يبقى حقُ القسمِ ثابتا. هذا بالنسبة للمرأة التي تتزوج بعقد النكاح الدائم. وأما المرأة التي تنكح بعقد الزواج المنقطع (المتعة) فلا حق لها في القسمة تلك.

وهكذا الحال بالنسبة للمرأة التي تُنكح بملك اليمين فهذه أيضا لا يجب على الزوج القَسم لها.

وبالرغم من ذلك إلا أنه ذكر أن النبي ﷺ قسم لها ليلةً من الليالي مع أنه ليس واجبًا عليه! وهذا يشير إلى أن المرأة (أيّة امرأةٍ) تستطيع أن تأخذ من زوجها بحسن الخلق في التبعل ما لا تستطيع أن تأخذه بالقانون والفقه.

فبقيت مارية في مشربة أم إبراهيم وهذه المنطقة بعيدة نسبيا عن مركز المدينة ومع ذلك لم تقلْ مارية مثلا: أني غريبة وقد رمى بي في هذا المكان! وإنما تبَعَّلت حسن التبعل فزادت منزلتها عند رسول الله ﷺ وفي نهاية السنة الثامنة تقريبا (في شوال على رواية، وذي الحجة على أخرى)، ولدت مارية القبطية إبراهيم لرسول الله ﷺ وسرّ النبي سروراً كثيرًا لولادة إبراهيم!

فإنه ﷺ قد ذرف على الستين من العمر، والذكور من أبنائه من خديجة قد توفوا، بل حتى البنات كان آخرهُنّ موتاً زينب زوجة أبي العاص بن الربيع والدة أمامة وتوفيت أوائل سنة ثمانية هجرية وما بقي عند النبي إلا فاطمة الزهراء عليها السلام.

حادثة الإفك (الكذب)

يأتي ذكر مارية القبطية أيضا في سيرة النبي في موضوع (حديث الإفك)الذي أشار إليه القرآن بقوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإفك عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإثم وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

فإنه توجد روايتان في هذا الموضوع.

الرواية الأولى: هي الرواية المشهورة والتي يتبناها بل يكاد يجمع عليها محدثو

---

(١) النور / ١١.

ومؤرخو مدرسة الخلفاء ومختصرها كما روتها أم المؤمنين عائشة: عندما قفل النبي من غزوة متجها للمدينة ونزلوا في موضع، قامت عائشة لحاجة عندها، ولما رجعت وجدت عقدها قد انقطع فرجعت تبحث عنه، فحمل الموكلون هودجها من دون أن يلتفتوا إلى أنها ليس فيه! ولما وجدت العقد ورجعت رأتهم قد ارتحلوا عنها! ووجدت صفوان بن المعطل هناك وقد تأخر عن القوم! فأركبها على دابته، وجاء حيث لحق بالنبي والمسلمين! فتكلم أناس في ذلك وخاضوا في الإفك والإثم ونسبوا لها والعياذ بالله الفاحشة معه! ولا سيما زعيم المنافقين: عبد الله بن أُبَي! وتأثرت طريقة النبي مع زوجته فلم تكن ترى ذلك اللطف السابق! ولم تكن تعرف السبب ولا ما يدور في المدينة بين الناس من حديث الإفك والاتهام الباطل! إلى أن عرفت ذلك من خلال أم مسطح، فلما عرفت استأذنت النبي أن تذهب لبيت والدها، ومرضت على أثر ذلك الاتهام وكانت كثيرة البكاء والتألم من تهمة الإفك تلك! ولم تزل هكذا حتى نزلت الآيات المباركات التي تبرؤها فيه من التهمة،[1] وتشير إلى أن هذا الإفك ليس في ضرر المسلمين، بل ستكون نتيجته في صالح المسلمين.

لأنه قد أنزل الله قرآناً يطهر النبي و يبرئ زوجاته عن هذا الأمر، وفيه نفعٌ لأنه كشف هؤلاء أيضاً بأنهم يتحدثون ضد النبي، وفيه نفعٌ أيضا لأنه يعلم المسلمين كيف ينبغي التعامل مع الشائعات والأكاذيب التي تنتشر في المجتمع!

وإلى هذا الرأي وأنه نزلت الآيات بعد هذه القضية ذهب عدد من أعلام الإمامية

(١) الطبري؛ ابن جرير: تفسير جامع البيان ١٩/ ١٢٠.

منهم الشيخ محمد بن الحسن الطوسي،[١] والشيخ الطبرسي[٢]صاحب مجمع البيان. ومن المعاصرين السيد محمد صادق الروحاني في جواب استفتاء له مصور ومنشور على الانترنت[٣]صرح فيه بنزول الآية في هذا المورد، وكذلك الشيخ جعفر السبحاني فإنه أرجع في احد استفتاءاته إلى ما ذكره الشيخ الطبرسي وقال: رأينا في الموضوع هو ما ذكره أمين الإسلام الطبرسي في مجمع البيان في تفسير سورة النور.

في مقابل هذا رأى آخرون أن حادثة الإفك إنما ترتبط بمارية القبطية. ويقولون بأن مارية لما جاءت إلى المدينة كان معها خادم (قيل إنه من أقاربها واسمه مابور)، وكان يسعى في حوائج مارية، ويشتري لها ما تحتاجه، فبدأ منافقون يثيرون كلاماً، في أن بين ذلك الخادم وبين مارية ما لا يرضي الله سبحانه! بل زادوا في طنبور الافتراء نغمةً فقالوا: إن إبراهيم ليس ولداً للنبي وإنما ولد ذلك الخادم!

يقولون فأمر رسول الله ﷺ عليًا عليه السلام أن يذهب و يتحقق من الموضوع فإن صح ذلك فليضرب عنقه! والنبي وإن كان يعرف حقيقة الأمر إلا أنه يرتب النتائج على مقدماتها الظاهرية، وليكون أعذر للناس، ولما رأى ذاك الخادم عليًا مقبلًا و بيده السيف وقد وصلت الأمور إلى مثل هذا الحد، وعرف أنه هو المقصود لما كان

(١) الطوسي؛ محمد بن الحسن ت ٤٦٠ هـ عرف بشيخ الطائفة، وهو مؤلف اثنين من الكتب الأربعة التي يعتمدها الإمامية وهما (تهذيب الأحكام، والاستبصار) تلمذ على يد الشيخ المفيد والشريف المرتضى، وتخرج على يده فيما قيل ثلاثمائة مجتهد، وكان له الدور الأكبر في بناء المدرسة الفقهية والاصولية الإمامية، وأسس الحوزة العلمية في النجف الأشرف بجوار قبر الإمام علي، بعد أن خرج إليها من بغداد حيث كانت مدرسته وطلابه قبل انتشار الفوضى فيها وخروجه إلى النجف.

(٢) الطبرسي: الفضل بن الحسن ت ٥٤٨ هـ مفسر، محدث، فقيه، متكلم، أديب، وأحد مؤلّفاته تفسير مجمع البيان الذي يعدّ من التفاسير المهمة عند الشيعة. قال بعضهم إنه ينسب الطبرسي إلى تفريش وتلفظ الطَبرِسي فيما قال آخرون إنه منسوب إلى طبرستان.

(٣) http://www.aqaedalshia.com.aqaed.nesaaalnabi.index.htm

يدور في تلك الأجواء. استلقى وشغر برجليه وكشف عن موضع عورته!! فإذا به ممسوحٌ مجبوب[١](أي مقطوع العضو الذكري). وكان ذلك كافيا لاثبات براءته مما رمي به!

ويعتمد القائلون بنزول الآيات في حق مارية على رواية[٢]حاصلها ما تقدم ذكره! وأيّاً كان فإن الرأي المحقق عند علماء المسلمين من الفريقين هو براءة أمهات المؤمنين وزوجات النبي من الفاحشة والخيانة الزوجية ولا يصغى إلى من يقول بخلاف ذلك. وسيأتي تفصيله.

بقيت مارية مع رسول الله ﷺ مدة ثلاث سنوات فقط وبقيت بعد النبي حوالي خمس سنوات حيث توفيت السنة السادسة عشر للهجرة. وتوفي ابنها إبراهيم قبل السنة العاشرة، بعد أن بلغ من العمر ١٨ شهراً، وقد تأثر النبي ﷺ كثيراً لوفاته، ومن الطبيعي أن تتأثر هي أيضا لوفاة ابنها الوحيد الصغير.

تأثر النبي بلغ حد البكاء على الولد الصغير، وقال بعض أصحاب النبي ممن لا يفهمون عمق المشاعر الإنسانية، وأن البكاء والحزن هو الحالة الطبيعية للإنسان السوي في مثل هذه المواقف قالوا للنبي: يا رسول الله أتبكي ؟

فقال: (تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون)[٣]بلى، إن العين لتدمع و إن القلب ليحزن. إذا كانت هذه عيناً طبيعية

(١) (في لسان العرب ١/ ٢٦١: المجبوب: هو الخصي الذي قد استؤصل ذكره وخصياه. وقد كانوا يفعلون ذلك بعبيدهم عندما يريدون أن يجعلوهم في خدمة البيوت ومع النساء! أقول: بالطبع هو من الناحية الشرعية حرام، لكن هذا الخادم عندما جاء كان هكذا منذ مجيئه!

(٢) ابن سعد؛ محمد: الطبقات الكبرى ٨/ ١٧٢.

(٣) العاملي؛ الحر: وسائل الشيعة ٣/ ٢٨٠ وفي صحيح البخاري ٨٥. وابراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله ؟ فقال يا بن عوف إنها رحمة.

فلا بد لها أن تدمع، وإذا كان قلباً سليماً لابد أن يحزن، ولكننا لا نقول إلا ما يرضي ربنا، نقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، نقول: صبراً على قضائك و تسليماً لأمرك و لكن قلوبنا موجوعة و أعيننا تتدفق بالدمع و قلوبنا تستشعرُ الحزن في المصائب، ونحن لسنا رجالًا من فلزات، إنما أناسٌ مخلوقون من عواطف نبيلة ومشاعر جياشة ونفوس تتأثر، قد لا تتأثر لنفسها ولكن تتأثر لغيرها وفي هذا سموٌ ونبلٌ ما بعده سموٌ و نبل.

ثم أوصى النبي أمير المؤمنين عليه السلام أن يُنزل إبراهيم في القبر ويلحده وكره أن يُنزل (الوالدُ الولدَ) في قبره وعندما سئل: لماذا ؟ قال: (إني أخشى أن يلعب به الشيطان).[1]

ثم قال النبي ما تقدم ذكره في المتن. ولم تكن هذه الحالة الأولى للنبي من بكائه على أعزته وأحبته فقد نقل (أنه حين جاءته وفاة جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة كان إذا دخل بيته كثر بكاؤه عليهما جدا) الوسائل سابق الذكر.

(١) العاملي؛ الحر: وسائل الشيعة ٣/ ١٨٥عن أبي الحسن موسى: لما قبض ابراهيم بن رسول الله، قال يا علي انزل فألحد ابني فنزل عليه السلام فألحد ابراهيم في لحده فقال الناس: إنه لا ينبغي لأحد أن ينزل في قبر ولده إذ لم يفعل رسول الله، فقال لهم رسول الله: يا أيها الناس إنه ليس عليكم بحرام أن تنزلوا في قبور أولادكم ولكني لست آمن إذا حل أحدكم الكفن عن ولده أن يلعب به الشيطان فيدخله عند ذلك من الجزع ما يحبط أجره.

أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية

خاطب النبي محمد ﷺ، زوجته ميمونة بنت الحارث فقال: (صدقت إنك صديقة امتحن الله قلبك للإيمان).[1]

ميمونة بنت الحارث الهلالية هي آخر زوجة تزوجها رسول الله وكان ذلك في أواخر السنة السابعة للهجرة النبوية وكان عمرها في ذلك الوقت ستة وعشرين سنة بينما كان عمره الشريف يقترب من الستين.

وبالرغم من تأخر زواج النبي بها إلا أن موقعها بين نسائه كان متقدماً، كيف لا وقد وُصفت هي وأخواتها أنهن من أهل الجنة، فيما نقله الشيخ الصدوق في الخصال،[2] وكذلك أيضا هو منقول عن مصادر مدرسة الخلفاء كما ذكره السيد

---

(١) المحمودي؛ ضياء الدين (تحقيق): الأصول الستة عشر من الأصول الأولية. أصل جعفر بن محمد الحضرمي. والتستري؛ الشيخ محمد تقي: قاموس الرجال ١٢/ ٣٤٦ (بدون كلمة صديقة) وكذلك الشيخ علي النمازي في مستدركات علم رجال الحديث ٨/ ٦٠٠.

(٢) الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: الخصال ١/ ٣٦٣ عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: رحم الله الأخوات من أهل الجنة فسماهن: أسماء بنت عميس الخثعمية وكانت تحت جعفر بن أبي طالب عليه السلام، وسلمى بنت عميس الخثعمية وكانت تحت حمزة، وخمس من بني هلال: ميمونة بنت الحارث كانت تحت النبي ﷺ، وأم الفضل عند العباس اسمها هند، والغميصاء أم خالد بن

الخرسان في كتابه:[١] فقد نقل عن ابن حجر في الإصابة عن الزبير بن بكار وغيره انّ النبيّ ﷺ وسلم قال: «الأخوات الأربع مؤمنات: أم الفضل، وميمونة، وأسماء، وسلمى، وفي رواية البلاذري: «قال ﷺ وسلم: أحبهنّ لإيمانهنّ». وأخرج أيضا عن الواقدي بسنده عن كريب: «ذكرت ميمونة وأم الفضل وأخواتها لبابة وهي بكر وعزة، وأسماء، وسلمى فقال رسول الله ﷺ وسلم إنّ الاخوات مؤمنات».

كذلك نقل الشيخ الصدوق في ذيل حديث الخصال المتقدم «أن أفضل نساء النبي: خديجة بنت خويلد، ثم أم سلمة، ثم ميمونة!.

كانت ميمونة زوجة لعمير الثقفي، ثم أبي رهم بن عبد العامري كما قيل، وتم طلاقها ولا تزال في السادسة والعشرين، وعندما جاء النبي ومعه المسلمون في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة، للعمرة في مكة وهي التي تسمى بعمرة القضاء، فقد أرسل النبي ابن عمه جعفر بن أبي طالب يخطب ميمونة بنت الحارث، ففوضت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، حيث أنه زوج أختها أم الفضل، وعندما قضى النبي عمرته وخرج من مكة، تزوجها ودخل بها كما قالوا في (سرف) على بعد عشرة كيلومترات تقريبا من مكة.

وبناء على هذا فإن ميمونة لم تبق مع النبي إلا فترة قصيرة، هي من نهاية السنة السابعة إلى أوائل السنة الحادية عشر! ومع ذلك فقد كان موقعها متقدما إلى الحد الذي يجعلها في الفضيلة في المرتبة الثالثة بعد خديجة وأم سلمة كما مر في حديث الخصال.

الوليد، وعزة كانت في ثقيف الحجاج بن غلاظ، وحميدة ولم يكن لها عقب.
بعض هذه الأخوات من الأب والأم وبعضهن من الأم فقط.

(١) الخرسان؛ محمد مهدي: موسوعة ابن عباس ١/ ١٦٦.

ونشير هنا إلى نقطة اجتماعية وهي أن التفاوت في العمر ليس مانعا من السعادة والاستقرار، فقد يكون الزوجان متقاربين في السن ويحققان السعادة، وقد لا يكون وربما يكونان متفاوتين فيه ويمكن أن يحققا السعادة والاستقرار.

وبالرغم من دخولها في زوجية النبي ﷺ متاخرة إلا أن ذلك لم يكن يعني أنها كانت غريبة عن أجواء المدينة والتوجهات الموجودة فيها، فهي من البداية قد التفت إلى اختصاص النبي ﷺ عليا من بين سائر الأصحاب، والتفتت أيضا إلى أن عليا مع اختصاص النبي إياه إلا أنه لا يجد قبولاً من قسم من أصحاب النبي، وأن الأكثر منهم لا يسلمون له بميزاته! وإنما القليل والصفوة هم الذين يوالونه ويناصرونه وأخبرته أنها تحب عليا لحب النبي إياه!

فقد سمعت النبي ﷺ يقول: لا ينجو من النار وشدة تغيظها وزفيرها وحميمها من عادى علياً وترك ولايته، وأحب من عاداه! فقالت: ما أعرف في أصحابك من يحب علياً إلا قليلا، فقال النبي ﷺ: القليل من المؤمنين كثير. ومن تعرفين منهم ؟ قالت: أبا ذر والمقداد وسلمان وقد تعلم أني أحب علياً بحبك إياه! فقال: صدقتِ إنك أمتحن الله قلبك للإيمان.(١)

ينبغي أن نشير إلى أن هذا هو جوهر عقيدة الإمامية، وذلك أن علاقتهم بالإمام علي ليست علاقة شخصية وإنما علاقتهم به لأنه ولي الله وأفضل أصحاب رسول الله وأكثرهم مناقب ولأن النبي أمر بحبه وموالاته، واتباعه وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه. ولو فُرض أن شخصاً آخر كان له هذه الصفات والمناقب لكانوا يتولونه ويتبعونه لكنها لم تتوفر إلا في علي بن أبي طالب.

وينقل عن ميمونة أنها منذ أن بدأت المواجهات بين القرشيين ورسول الله ﷺ،

---

(١) التستري؛ محمد تقي: قاموس الرجال ١٢/ ٣٤٦.

وكانت زوجة لأبي زيد العامري، وهي بقلبها تؤيد النبي، وتفرح كلما انتصر النبي والمسلمون، وهذا كان يغضب زوجها الذي كان بطبيعة الحال مؤيداً للقرشيين، ويريد من زوجته أن تكون كذلك، حتى في عواطف قلبها. ولكنها لم تكن مثله، ولذلك يرى بعض الباحثين أنه ربما كان هذا أحد الأسباب التي عجلت في طلاقه إياه ومفارقته لها.

وينقل أنها في إحدى زياراتها لأختها لبابة (أم الفضل بنت الحارث) زوجة العباس بن عبد المطلب والتي كانت من المؤمنات السابقات، ولكن إيمانها كان سرياً كما كان زوجها حيث لا يزالان يعيشان في مكة، ومقتضى ذلك أن يستسرا بإسلامهما! في ضمن تلك الزيارات تمنت لو أن تكون زوجة لرسول الله ﷺ، يقال: إن العباس نقل هذه الرغبة لرسول الله ﷺ عندما جاء لعمرة القضاء.[1]

وأيّاً كان فقد تشرفت بالاقتران برسول الله ﷺ. بعد أن أحل من عمرة القضاء، خلافا لما ذهب إليه بعض محدثي وعلماء مدرسة الخلفاء،[2] من القول بأن النبي تزوجها وهو محرم، أو عقد عليها وهو محرم ثم دخل بها بعدما أحل!! الصحيح هو ما ذهب إليه علماء الإمامية وجمع غفير من علماء مدرسة الخلفاء، وروي عنها

(١) هناك رواية أخرى تشير إلى أن النبي هو الذي بادر بإرسال جعفر بن أبي طالب، ويمكن أن يكون في الأمر نوع من التزامن والتقارن .يلاحظ أن جعفر هو زوج أختها لأمها (أسماء بنت عميس) والعباس زوج أختها لأبيها وامها.

(٢) ذكر الصالحي الشامي في سبل الهدي والرشاد ١١ / ٢٠٧ بعض أقوالهم، فقال: روى ابن أبي خيثمة عن ميمونة – رضي الله تعالى عنها – قالت: تزوجني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ونحن حلالان بسرف. وروى الترمذي وحسنه عن أبي رافع – رضي الله تعالى عنه – قال: تزوج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ميمونة وهو حلال وأنا كنت الرسول بينهما.

بينما روى الستة عن ابن عباس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تزوج ميمونة وهو محرم، وكذلك روى الإمام أحمد قال: تزوج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ميمونة وهو محرم.

أقول: الصحيح هو الأول

أيضا من أن زواجها (من عقد وزفاف) كان في حالة الاحلال من العمرة. وذلك أن من محرمات الإحرام: عقد النكاح والمقاربة الجنسية مع الزوجة.

ويظهر أن النبي ﷺ وقد رأت محبتها لآل بيته، فقد كان يظهرها على بعض مقامات وكرامات المعصومين مما قد لا يتحمل تصديقه بعض نسائه فضلاً عن نقله للغير، لكن ميمونة مؤهلة لذلك فقد قال لها النبي ذات مرة: اذهبي بهذا الصاع إلى فاطمة تطحنه لنا، فبينما هي تطحن إذ غلبتها عينها، فذهب بها النوم، فقال نبي الله ﷺ: قد أبطأ علينا طعامنا، فانظري ما حبسها، فذهبت ميمونة، فاطلعت من الباب، فإذا الرحى تدور وإذا فاطمة نائمة، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: رأيت فاطمة نائمة والرحى تدور، فقال: ما أحد يديرها؟ قالت: ما أحد يديرها، فقال: رحم الله جل جلاله أمَته حيث رأى ضعفها فأوحى إلى الرحى فدارت، فجاءت ميمونة إلى طعامها، وقد فرغ الرحى من طحنه.[1]

ولا تذكر الكتب المؤلفة في السيرة مواقف لميمونة من قضية الخلافة، فهل هذا راجع إلى ما قلناه في الحديث عن أم سلمة أيضا، حيث لم يعهد لها موقف استثنائي مع معرفتها بحق الإمام عليه السلام. هل يرجع موقفهما وأمثالهما من نساء النبي العارفات بحق علي إلى أنهن رأين ان الإمام قد اختار موقف (الصبر على هاتا أحجى) وأنه لم يشأ التصعيد خوفا على الإسلام؟ أو أنه كان لهن دور ظاهر لم تذكره كتب التاريخ والحديث مثلما اغفلت كتب الحديث ما نقل بواسطتهن عن النبي من مناقب لأمير المؤمنين علي ؟

نعم تسجل هذه الكتب عن ميمونة موقفها الواضح في نصرة الإمام علي عليه السلام في قضية حرب الجمل، والتصريح بحقانية موقفه وضلال مخالفيه!

(١) النجفي؛ السيد شهاب الدين المرعشي: شرح احقاق الحق ١٠/ ٣١٧.

وهو ما نقل عن جري بن سمرة[١] فقد قال: لما كان من أهل البصرة الذي كان بينهم وبين علي بن أبي طالب انطلقت حتى أتيت المدينة فأتيت ميمونة بنت الحارث وهي من بني هلال (عامرية)، فسلمت عليها فقالت: ممن الرجل؟ قلت: من أهل العراق!

قالت: من أي أهل العراق؟ قلت: من أهل الكوفة!

قالت: من أي أهل الكوفة ؟ قلت: من بني عامر!

قالت مرحباً قرباً على قرب ورحباً على رحب! فمجيء ما جاء بك ؟

قلت: كان بين علي وطلحة الذي كان فأقبلت فبايعت علياً!

قالت: فالحق به فو الله ما ضَل ولا ضُل به. حتى قالتها ثلاثاً. إلى هنا نقل الطبراني الحديث في معجمه. لكن للحديث تتمة نقلها غير واحد من المحدثين[٢]وهي التالية:

قلت: يا أماه فهل أنت محدثتي في علي بحديث سمعتِه من رسول الله؟

قالت: اللهم نعم، سمعت رسول الله يقول: علي آية الحق وراية الهدى، علي سيف الله يسله على الكفار والمنافقين، فمن أحبه فبحبي أحبه ومن أبغضه فببغضي أبغضه، ألا ومن أبغضني أو أبغض عليا لقي الله عز وجل ولا حجة له.

---

(١) هكذا ضبط اسمه الطبراني في المعجم الكبير٢٤/ ٩ ونقل الحديث فيه. وكذا ابن حبان في كتابه الثقات.

(٢) أمالي الطوسي ٥٠٦ / مجلس ١٨ ح ١٥ وغاية المرام ٥/ ٢٩١.

موقف النساء المؤمنات من أهل الجنة:

ويظهر أن موقف النساء الأخوات المؤمنات اللاتي وصفهن النبي ﷺ أنهن مؤمنات وأنهن من أهل الجنة كما مر في سطور سابقة، كان واضحا إلى جانب ولاية علي بن أبي طالب، ولعل هذا يفسر لنا وجه اختصاص النبي إياهن بالثناء عليهن بأنهن من أهل الجنة، فقد نقل ابن عباس عن ميمونة (خالته) أن رسول الله قال: الأخوات مؤمنات يعني ميمونة بنت الحارث وأم الفضل بنت الحارث وسلمى امرأة حمزة وأسماء بنت عميس.(١)

ولا سيما فيما يرتبط بحرب الجمل حيث كان أكثرهن على قيد الحياة أثناءها، فإذا كانت ميمونة تذكر لمن يسألها عن الموقف أن لا يترك علياً وأنه ما ضل ولا ضل به، فتلك أختها أم الفضل بنت الحارث قد بادرت وكتبت إلى علي عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله علي أمير المؤمنين من أم الفضل بنت الحارث، أما بعد؛ فإن طلحة والزبير وعائشة قد خرجوا من مكة يريدون البصرة، وقد استنفروا الناس إلى حربك، ولم يخِفّ معهم إلى ذلك إلا من كان في قلبه مرض، ويد الله فوق أيديهم، والسلام.

قال: ثم دفعت أم الفضل هذا الكتاب إلى رجل من جهينة له عقل ولسان، يقال له: ظفر، فقالت: خذ هذا الكتاب، وانظر أن تقتل في كل مرحلة بعيراً وعليَّ ثمنُه، وهذه مائة دينار قد جعلتها لك، فجد السير حتى تلقى علي بن أبي طالب، فتدفع إليه كتابي هذا.

قال: فسار الجهني سيرا عنيفا حتى لحق أصحاب علي عليه السلام وهم على ظهر

---

(١) الطبراني: المعجم الكبير ٢٤/ ١٩.

المسير، فلما نظروا إليه نادوه من كل جانب: أيها الراكب ما عندك؟ فنادى الجهني بأعلى صوته شعراً يخبر فيه قدوم عائشة وطلحة والزبير.[١]

ينقل عن ميمونة عدد من الأحاديث، أوصلها بعضهم إلى ستين حديثا، جاء في بعضها أن النبي ﷺ كان يصلي على خُمرة،[٢]وهي ما يسف من الخوص. بالطبع لا بد أن يحمل ذلك على الصلاة المستحبة وإلا فإن النبي يصلي الواجبة في المسجد جماعة، وعندما تنقل ميمونة هذا عن النبي كأنها تشير إلى أن الأصل أنه لا يسجد على قماش أو سجاد أو بساط، فلا بد لمن يسجد على هذه الأمور أن يأتي بدليل واضح. وأما من يسجد على التراب (أو التربة) والاحجار وكذلك على الخمرة وهو السعف والنبات، فلا يحتاج إلى شيء لأنه يقتدي في فعله برسول الله وهو ما يفعله الشيعة الإمامية من التزامهم بعدم السجود على القماش والسجاد وما شابه، ويصرون على السجود على الأرض أو ما أنبتت من غير المأكول والملبوس.

وفاتها:

يختلف المؤرخون في تاريخ وفاة أم المؤمنين السيدة ميمونة اختلافاً واضحاً، فمن قائل إنها توفيت سنة ٣٦ هـ ومن قائل إن تاريخ الوفاة كان سنة ٥٢ هـ، وقول بأنه كان في سنة ٦٣ هـ، ورابع بأنه في سنة ٦٦ هـ، كما اشار إلى ذلك ابن كثير في البداية والنهاية.

ومع قول ابن سعد في الطبقات أنها يوم توفيت كان لها ثمانون سنة، فإننا نستبعد

(١) الكوفي؛ أحمد بن أعثم: كتاب الفتوح ٢/ ٤٥٦.

(٢) قال في لسان العرب ٦/ ٢٥٠ الخُمرة: حصير صغير يسجد عليه، وفي الحديث ان النبي كان يسجد على الخمرة، وهو حصير صغير قدر ما يسجد عليه ينسج من السعف/ وسميت خمرة لأنها تستر الوجه من الأرض.

بشكل كامل القول بانها توفيت سنة ٣٦ هـ إذ يقتضي هذا أن تكون حين تزوجها النبي، لها من العمر ٥٠ سنة، وهذا مخالف لإجماع المؤرخين. الذين ذكروا أنها كانت حين زواجها بالنبي ﷺ، في حوالي الرابعة والعشرين من العمر.

فالأوفق بالنظر مع ملاحظة أنها تزوجها النبي ابنة ٢٤ سنة وكان ذلك في سنة ٧ للهجرة، ومجموع عمرها هو ثمانون سنة كما ذكر، فالذي يقوى بالنظر أنها توفيت في سنة ٦٣ هـ.

إلا أنه قد نقل بعضهم أن عائشة أم المؤمنين قد أبنتها وأثنت عليها بعد موتها ومن المعلوم أن عائشة قد توفيت قبل سنة ٦٠ هـ، ولهذا استقرب أن تكون وفاتها سنة ٥٢ هـ. لكن هذا يخالف ما ذكروه بالاتفاق من أن ميمونة هي آخر نساء النبي وفاة. ويخالف أيضا ما ذكر من أنها كانت بنت ثمانين، وحين تزوجت كانت بحدود ٢٤ من العمر.

هذا من حيث الحسابات، لكن يبقى في النفس سؤال يعتمل وهو أين كانت هذه السيدة الجليلة خلال هذه المدة من بعد حرب الجمل الذي كان لها موقف واضح في نصرة الإمام إلى ما بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام ؟ حيث لا نجد لها ذكراً خلال مدة تتجاوز خمسة وعشرين سنة ؟

فهل لمكان سكنها في مكة، حيث كانت مكة بعيدة عن المعترك السياسي والديني الذي انتقل إلى المدينة والكوفة، دخل في ذلك؟ وهل أنها أساساً سكنت مكة أو أن قولهم أنها توفيت بمكة، وبالذات في سرف: المنطقة التي تعتبر خارج مكة بعشرة كيلومترات على الأقل، هل كان ذلك على سبيل المصادفة والاتفاق؟

أو هل أن الأمر هو الحالة الطبيعية لأمهات المؤمنين حيث أنه للزوم حفاظهن على شأن الرسول واحترام مقامه ينبغي أن لا يكن في واجهة المجتمع وإنما ما حدد

لهن القرآن الكريم ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾.[1] وأن ممارسة الأدوار السياسية والعسكرية ومحاولة قيادة المجتمع والكون في مركز الحدث الاجتماعي هو الحالة غير الطبيعية لهن ؟.

أسئلة لا نجد لها أجوبة واضحة في مصادر التاريخ والحديث بمقدار ما راجعنا!

(١) الأحزاب ٣٣.

نقاط في موقف الشيعة الإمامية من زوجات النبي ﷺ

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا، وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا، يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

تتميز سورة الأحزاب بأنها اهتمت بذكر ما يرتبط بزوجات النبي ﷺ ونسائه وتحدثت عما ينبغي لهن من العمل وما ينبغي لهن من الاجتناب، وسنتناول من خلال هذه الآيات الكريمات موقف الشيعة الإمامية من زوجات النبي وتنزيههم إياهن.

ولا يخفى أهمية هذا الموضوع وبالذات في هذا الزمان حيث تتجاذب الساحة الإسلامية الكثير من النظريات المتعارضة، وسيتم استعراض هذا الموقف من خلال ما نفهمه من القرآن الكريم وروايات المعصومين ثم مواقف علماء الطائفة العظام. في نقاط:

الأولى: أنه لابد من الفصل بين زواج النبي ﷺ كحالة بشرية لها ظروفها الشخصية أو الاجتماعية والسياسية، وبين الجانب الغيبي. بمعنى أن الأصلِ في زيجات رسول الله ﷺ بالنساء تلكم (وطلاقهن) هو الجانب البشري بحسب تقديرات النبي ﷺ ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾.(١)

ويشهد لذلك أيضا قصة تخيير النبي نساءه واعتزاله إياهن!

فالأصل في ذلك أنها لم تكن ضمن إطار الوحي الالهي بمعنى أن يأتي جبرائيل فيأمر النبي أن يتزوج فلانة أو أن يترك فلانة. بل كل حالة من هذهِ الحالات لها ظروفها ومبرراتها الخاصة بها. نعم لو ثبت بدليل معتبر أن النبي قد أمره الله من خلال الوحي بأن يتزوج امرأة أو يتركها، لجهة من الجهات (كما حصل بالنسبة لزينب بنت جحش في قضية زيد بن حارثة)، نقبله ونسلم به لكنّ هذا هو الاستثناء وليس الأصل.

ولذلك يرى باحثون أنه ما نقل من أحاديث في أن جبرئيل قد جاء بقطعة حرير فيها صورة إحدى النساء لكي يتزوجها، فبالإضافة إلى أنه مروي عن صاحبة الصورة المفترضة، دون غيرها، وفي هذا ما يجعل الناظر يتأمل فيه، كذلك فهو على خلاف الأصل الذي ذكرناه. ولم يثبت ذلك حتى لخديجة بنت خويلد(٢) وهي بإجماع المسلمين أفضل نساء النبي ﷺ، وقد قال فيها النبي ﷺ ما قال وقد مر الحديث حول شخصيتها عليها السلام فهل يعقل ثبوته لغيرها ؟ ولم يكن هناك مصلحة خاصة تترتب عليه كما سيأتي في موضوع زينب بنت جحش.

---

(١) الأحزاب / ٥١.

(٢) نعم يعتقد الشيعة الإمامية أن أمهات المعصومين، ومنهن السيدة خديجة، تم اختيارهن في علم الله عز وجل من الأرحام الطاهرة والطيبة، لكن هذا أمرٌ غير ما نحن فيه .وهو أيضا لا يشمل كل نساء النبي وإنما خصوص والدة المعصوم وقد انحصرت بخديجة عليها السلام.

نعم ثبت في الوحي القرآني أن الله سبحانه زوّج النبيَّ زينبَ، ولم يكن هذا لأجل فضيلة زينب الاستثنائية ولذلك لا نعتقد أن افتخار زينب على سائر نساء النبي بأن تزويجها كان من السماء ،إذا كان المقصود منه أنها أفضل منهن لهذه الجهة فلا وجه له، وإن كان المقصود شيئاً آخر فلا بأس به.

ذلك أن القرآن الكريم قد حدد الغاية التي من أجلها تم التزويج ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.[١]

فمجيء التعليل ﴿زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ فالغرض هو بيان عملي لحكم شرعي كان المجتمع بحاجة إليه، ذلك أن المجتمع القرشي كان ينظر إلى الأولاد بالتبني على أنهم أولاد يثبت لهم ما ثبت للأولاد الحقيقيين ويستنكرون أن يتزوج الوالد زوجة ولده بالتبني، فكانت إحدى طرق بيان هذا الحكم وأنه لا حرج ولا مشكلة في ذلك، ولأجل رفع الاستيحاش والاستنكار، أن يتزوج النبي زوجة زيد الذي كان معروفا بزيد بن محمد. فبعد التأكيد في موضع آخر أن ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾،[٢] كانت هناك حاجة لممارسة عملية تنفي الأحكام المتوهمة[٣] بين الوالد والولد بالتبني.

---

(١) الأحزاب / ٣٧.

(٢) الأحزاب / ٥.

(٣) ومن العجب عند القرشيين والجاهليين، أنهم كانوا يعيبون من يتزوج زوجة ابنه بالتبني، بينما كانوا يتزوجون نساء آبائهم الحقيقيين، كما ذكر المفسرون في تفسير آية (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) قال القرطبي في تفسيره ٥ / ١٠٣: (وقد كان في العرب قبائل قد اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه، وكانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة مع التراضي. ألا ترى أن عمرو بن أمية خلف على امرأة أبيه بعد موته فولدت له مسافرا وأبا معيط، وكان لها من أمية أبو العيص وغيره؛ فكان بنو أمية إخوة مسافر وأبي معيط وأعمامهما. ومن ذلك صفوان بن أمية بن خلف تزوج بعد أبيه امرأته فاختة بنت الأسود بن المطلب بن أسد، وكان أمية قتل عنها. ومن ذلك منظور بن

ومع أنه قد ورد في بعضهن مناقب عالية جداً، ووصفت بأنها من سيدات نساء الجنة كما هو في خديجة، أو غيرها مما ثبت عن النبي ﷺ، وصدّقته سيرتها الخارجية، إلا أن هذا لا يعني بالضرورة أن زواجه بهذه أو تلك كان من السماء، أو أنه كان مأمورا بالزواج منها شخصياً بأمر رباني!

بالطبع فإن كل شيء هو بأمر الله (العام) وبإذنه ولا يخرج عن دائرة علم الله، وتدبيره سبحانه وهو بهذا كسائر الأشياء صغيرها وكبيرها إذ ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.[(١)]

النقطة الثانية: التي تتفرع من الأولى هي أننا نجد الظروف التي تزوج فيها النبي بتلك الزوجات ظروفاً مختلفة، وشخصيات وأعمار الزوجات متباينة، وأهداف تلك الزيجات متعددة!

ففيما تزوج خديجة بنت خويلد ومكث معها خمسة وعشرين سنة، لم يتزوج غيرها في عز شبابه وهو ابن الخامسة والعشرين، حتى بلغ الخمسين. مع أن مقتضى الرغبة البشرية المعتادة هو أن تتعدد الزوجات في هذه الفترة لا سيما وهو يحل له أكثر من سائر الناس!! وكانت نعم العون على الدعوة والرسالة. حتى إذا توفيت خديجة، تزوج سودة بنت زمعة، وهي امرأة كبيرة السن لا يطمع في مثلها، وكان زواجه إياها أشبه بنوع من الكفالة بعد أن توفي زوجها وترك عليها خمسة أو ستة من الصبية!

زبان خلف على مليكة بنت خارجة، وكانت تحت أبيه زبان بن سيار. ومن ذلك حصن بن أبي قيس تزوج امرأة أبيه كبيشة بنت معن. والأسود بن خلف تزوج امرأة أبيه. وقال الأشعث بن سوار: توفي أبو قيس وكان من صالحي الأنصار فخطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت: إني أعدك ولداً، ولكني آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأمره؛ فأتته فأخبرته فأنزل الله هذه الآية).

(١) سبأ / ٣.

وتزوج بعائشة بنت أبي بكر في وقت مبكر، قيل إنه عقد عليها ولما تبلغ تسع سنين، حتى إذا جازت التسع في المدينة تزوجها،[١] ومن الواضح أن زيجة بين النبي الذي كان عمره قد تجاوز الخمسين وبين بنت صغيرة في العاشرة[٢]، لا يشبه الزواج بامرأة ناضجة ذات عشرين سنة أو ثلاثين سنة كما هو الحال في مثل ميمونة أو أم سلمة!! ولكن هذا حصل، والزواج بهما أيضا حصل!

وهكذا زواجه بحفصة بنت عمر. فقد مات عنها زوجها وبقيت أيّماً فعرضها أبوها على الخليفة أبي بكر، مع أنه أكبر من عمر بحوالي عشر سنوات فلم يرد عليه جواباً بالإيجاب وعرضها على عثمان وقال ليس لي رغبة في النكاح، فعرضها على رسول الله ﷺ وضمن تقديرات رسول الله ﷺ، تزوجها النبي.

وهكذا الحال بالنسبة لباقي النساء من زوجاته.

ونحن لا نستطيع أن نحيط بكل الأسباب التي تدعو من يعاصرنا ونعرفه ونعرف ظروفه، إلى الاقتران بفلانة من النساء دون غيرها، أفهل ترانا قادرين على ذلك

---

(١) من الناحية الشرعية يجوز العقد بمعنى إجراء صيغة العقد من وليها على فتاة لم تكمل تسع سنين عند المذاهب الأربعة وعند الإمامية إذا كان ذلك في مصلحتها، لكن لا يجوز الدخول بها إلا إذا أكملت تسعا عند الإمامية، وإذا قدرت على الممارسة الجنسية عند المذاهب وهو يختلف باختلاف الأشخاص والبيئات والأزمنة. هذا بشكل عام لكن في إجابات المرجع الديني السيد علي السيستاني على أجوبة وجهتها هيئة الإذاعة البريطانية في ضمن تحقيق عن موضوع الزواج في العراق. وُجّه سؤال عن تزويج الصغيرات في هذه الأزمنة والمناطق وهل أنه يؤيد السيد ذلك، فكان الجواب بحسب ما نشر عن مكتبه بتاريخ ٢٦/ المحرم/ ١٤٤١هـ):(. أنه ليس لولي الفتاة تزويجها الا وفقاً لمصلحتها، ولا مصلحة لها غالباً في الزواج الا بعد بلوغها النضج الجسمي والاستعداد النفسي للممارسة الجنسية، كما لا مصلحة لها في الزواج خلافاً للقانون بحيث يعرّضها لتبعات ومشاكل هي في غنى عنها.) نشر على موقعه https://www.sistani.org.arabic.archive/26347.

(٢) نص على ذلك السن في البخاري وهو المشهور في مدرسة الخلفاء، لكن هناك آراء جديدة ترفض هذا وتقول إنها كانت قد تجاوزت الستة عشر عاما!

بالنسبة للرسول الذي يفصلنا عنه مئات السنوات؟

النقطة الثالثة: لا ريب أن نساء النبي ينبغي احترامهن وتكريمهن باعتبار علقتهن بالنبي واضافتهن إليه فإن المكان الذي يضاف إليه كبيت، والأداة التي يستخدمها، وغير ذلك مما هو جماد يكتسب شرفا لكونه لرسول الله، فكيف بنسائه؟

ومع هذا فقد كن مختلفات في الفضل والكرامة الذاتية، وهذا من القضايا البديهية، فإنه لا يتشابه اثنان في جميع الأعمال والصفات الأخلاقية، حتى في الأشقاء والشقيقات، فضلا عن الأغراب. ولا ينكر ذلك أحد من المسلمين.

إلا أن الاختلاف هو في المصاديق، وترتيب الأفضلية، فأتباع مدرسة الخلفاء يقدمون عائشة أم المؤمنين على باقي زوجات النبي باستثناء خديجة وإن كان القليل منهم يقدمها حتى على خديجة! ويستشهدون بما رووه عن النبي (وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام)! بينما يرى أتباع أهل البيت أن خديجة هي أفضل نسائه على الإطلاق، ويجعلون أم سلمة في المرتبة الثانية بعدها. ويستشهدون بما ورد من روايات عن أهل البيت في ذلك.

هل هن أفضل النساء المسلمات لكونهن نساء النبي ؟

ليس بالضروة ذلك، بل هو غير ثابت. نعم ثبت في بعضهن كخديجة أنها احدى سيدات نساء أهل الجنة، وحيث أن سيدات نساء الجنة يقتضي أن يكن سيدات الكل، فلا مجال لأن تتسيد امرأة في الجنة ولم تكن مستحقة لذلك بعملها.

باستثناء من مر، لم تكن نساء النبي أفضل النساء لا في زمان رسول الله «صلى الله عليه وآله» ولا في ما بعد ذلك الزمان. ولعل إشتراط القرآن في الآية (لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء) بأنهن ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾. فهذا يشير إلى القانون العام في التفاضل وهو

التقوى، وأن عنوان (الزوجية) للنبي لا يقتضي بذاته تفضيلاً على الغير، والشاهد على ذلك أنه في سورة التحريم المباركة قد أورد نموذجين من زوجات الأنبياء كانتا مثلا للذين كفروا، وانتهى بهما الأمر إلى أن دخلا النار مع الداخلين. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾.[١]

وقد صرح القرآن الكريم بعد قضية التخيير ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾،[٢] صرح بأنه يوجد هناك خير من نساء النبي الفعليات سواء كن ثيبات أو أبكارا. ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾.[٣]

ومن عناصر التفاضل بين تلكم النساء، كما يعتقد الإمامية. شدة الاحترام للنبي، وأن لا تتعامل معه كزوج بحيث تلاحيه وتعلي صوتها عليه، أو تنازعه كما تصنع سائر النساء مع أزواجهن العاديين، وإنما تحفظ (لزوجها النبي) موقع النبوة والرسالة، وأنه أفضل خلق الله عز وجل! ولا تسقط الكلفة بينها وبينه! وأيضا فإنها تطيعه في كل ما أمر انطلاقا من قوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾.

ولقد فهم هذا أصحاب النبي، ولذلك كان آباء زوجاته يغلظون لهن القول لو فعلن ذلك! هذا في حياة النبي.

---

(١) التحريم/ ١٠.
(٢) الأحزاب / ٢٨.
(٣) التحريم / ٥.

وأما بعد النبي ﷺ، فرعاية العنوان الذي صار لهن وهو أنهن (أمهات المؤمنين) كما قال الله تعالى ﴿وأزواجه أمهاتهن﴾. فلا بد من ملاحظة هذا، وأن لا يقمن بعمل لا يتناسب مع هذا العنوان! ولا سيما مع تأكيد القرآن في حقهن بمجموعة من التعاليم التي تعرضت لها سورة الأحزاب.[١]

ومن رعاية العنوان ذاك كما يعتقد الإمامية، الإنسجام الأكبر مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» ولذلك قدم الإمامية أم سلمة وميمونة على من عداهما من زوجات رسول الله ﷺ لانهما كانتا أكثر وضوحاً في مواقفهما المؤيدة لأمير المؤمنين والمعترفة بحقه والناشرة لفضائله.

وذلك لأن نساء النبي مخاطبات كسائر الناس بإتباعهِ والإئتمار بأوامرهِ. فكما خاطب النبي الرجال في حق علي بأنه: (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ). فالنساء مخاطبات كذلك ومنهن نساء النبي وزوجاته. لا فرق بينهن وبين غيرهن في هذه الجهة. وهذا ما أشارت إليه ميمونة بنت الحارث من أنها نقلت عن النبي: «علي آية الحق و راية الهدى فمن أحبه فبحبي أحبه، ومن ابغضه فبغضي أبغضه».[٢]

النقطة الرابعة: في معنى ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾

---

(١) سورة الأحزاب / ٣٠ـ ٣٤، ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۞ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۞ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۞ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾

(٢) مصدره في ترجمة أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث.

بعدما بيّن القرآن أن نساء النبي لسن كسائر النساء، وإنما موقعهن الاعتباري يقتضي منهن العمل الصالح ولذلك ستؤتى أجرها مرتين، وفي المقابل لو أتين بفاحشة مبينة سيكون عليها العذاب ضعفين، فينبغي أن يتقين الله سبحانه. بعد ذلك جعلهن بمنزلة الأمهات للمسلمين. وربما يشتبه البعض فيتصور أنه يجب طاعتهن كما يجب عليه طاعة الوالدة! لكنه غير صحيح، فإن للأم أحكاماً كثيرة، وتنزيل نساء النبي بمنزلة الأمهات لاحظ قسما من تلك الأحكام، وهي بالدرجة الأساسية تعظيمهن وحرمة نكاحهن، وقد صرح بذلك بالإضافة إلى مفسري مدرسة الخلفاء، العلامة الطباطبائي في الميزان فقال: (وأزواجه أمهاتهم) جعل تشريعي أي انهن منهم بمنزلة أمهاتهم في وجوب تعظيمهن وحرمة نكاحهن بعد النبي ﷺ كما سيأتي التصريح به في قوله: (وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا) فالتنزيل انما هو في بعض آثار الأمومة لا في جميع الآثار كالتوارث بينهن وبين المؤمنين والنظر في وجوههن كالأمهات وحرمة بناتهن على المؤمنين لصيرورتهن أخوات لهم وكصيرورة آبائهن وأمهاتهن أجداداً وجدات وإخوتهن وأخواتهن أخوالًا وخالات للمؤمنين.[1] ولهذا لا تتخالف هذه الآية المثبتة أن زوجات النبي هن أمهات المؤمنين مع آية ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾،[2] لأن الأولى لا تثبت الأمومة الحقيقية، وإنما تنزلهن بمنزلة الأمهات في حرمة النكاح، فكما أنه يحرم على الإنسان نكاح أمه، كذلك يحرم عليه نكاح زوجة النبي لأنها جعلت شرعاً بمنزلة الأم في هذا.

النقطة الخامسة: تنزيه زوجات النبي عن الخيانة والفاحشة:

يعتقد الشيعة الإمامية أن نساء النبي وأمهات المؤمنين منزهات عن الخيانة الزوجية، أثناء حياة النبي وبعد وفاته، كرامة من الله تعالى لنبيه. ولا يجوز أن

---

(١) الطباطبائي؛ محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن ١٦/ ٢٧٧.
(٢) المجادلة / ٢.

ينسب إلى أي واحدة منهن ما يطعَنُ في شرفهن، بل يترقون إلى الاعتقاد بأن نساء سائر الأنبياء والمرسلين جميعاً لم يصدر منهن خيانة بهذا المعنى الجنسي. لأدلة يقيمونها ويلتزم بها علماؤهم، ويصرحون بها.

فإنهم غالبا عند الحديث عن آية الإفك وأيضا في ذيل الآية المباركة: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[١]. يصرحون بهذا المعنى.

وسواء كان مورد نزول آية الإفك هو في قضية أم المؤمنين عائشة التي يتبناها أتباع مدرسة الخلفاء وقسم كبير من علماء الإمامية كما مر الحديث فيها أو كانت في مورد مارية القبطية، وهو ما يتبناه بعض علماء الإمامية، فإن النتيجة الأصلية واحدة وهي براءة زوجات النبي من الفاحشة والخيانة.

كذلك فإنهم ينقلون في تفسير آية سورة التحريم، ما يؤكد هذا المعنى.

ولو أردنا أن نعرض كل ما ذكره علماء الإمامية في هذا لطال المقام، ولكننا نشير إلى بعضهم من المتقدمين وبعض المتأخرين:

١. فقد ذكر السيد الشريف المرتضى رحمه الله[٢]، في كتابه الأمالي[٣]: (لأن الأنبياء

---

(١) التحريم / ١٠.

(٢) علي بن الحسين بن موسى الموسوي (ت ٤٣٦ هـ)المعروف بـالشريف المرتضى وعلم الهدى. فقيه إمامي ومتكلم بارع، وشاعر مجيد، ومرجع الطائفة بعد أستاذه الشيخ المفيد. ومن تلامذته: شيخ الطائفة الطوسي، والقاضي بن البراج، وسلار الديلمي وأبو الصلاح الحلبي.له كتب كثيرة من أهمها في الكلام: الشافي في الإمامة، وتنزيه الأنبياء، وفي الفقه: الانتصار والناصريات وفي الأصول: الذريعة إلى أصول الشريعة.

(٣) المرتضى؛ الشريف: الأمالي ٢ / ١٤٥.

عليهم الصلاة والسلام يجب أن ينزهوا عن مثل هذه الحال لأنها تعُرُّ وتشين وتغض من القدر وقد جنب الله تعالى أنبياءه عليهم الصلاة والسلام ما هو دون ذلك تعظيماً لهم وتوقيراً ونفى كل ما ينفر عن القبول منهم، وقد حمل ابن عباس ظهور ما ذكرناه من الدلالة على ان تأول قوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما على ان الخيانة لم تكن منهما بالزنا بل كانت احداهما تخبر الناس بانه مجنون والأخرى تدل على الأضياف والمعتمد في تأويل الآية هو الوجهان المتقدمان).

٢. ومثله ذكر تلميذه شيخ الطائفة الطوسي،[١] في تفسيره التبيان[٢] فقال: وقوله ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال ابن عباس: كانت امرأة نوح وامرأة لوط منافقتين (فخانتاهما) قال ابن عباس: كانت امرأة نوح كافرة، تقول للناس انه مجنون، وكانت امرأة لوط تدل على أضيافه، فكان ذلك خيانتهما لهما، وما زنت امرأة نبي قط، لما في ذلك من التنفير عن الرسول وإلحاق الوصمة به، فمن نسب أحدا من زوجات النبي إلى الزنا، فقد أخطأ خطأ عظيماً، وليس ذلك قولاً لمحصلٍ.

(١) محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) المعروف بشيخ الطائفة، من أهم أساتذته الشيخ المفيد والسيد المرتضى.وابن الغضائري وارتقى حتى أسند إليه الخليفة العباسي كرسي كلام بغداد.هاجر أواخر حياته للنجف وأسس فيها الحوزة العلمية المباركة، له عدد كبير من الكتب في مواضيع الفقه والأصول والرجال والعقائد والتفسير، أهمها في الحديث: تهذيب الأحكام والاستبصار وهما من الكتب الأربعة التي يعتمد عليها فقهاء الإمامية في الاستنباط، وله في التفسير: التبيان. وفي الفقه: الخلاف، والمبسوط، والنهاية .للتفصيل يراجع كتابنا: من أعلام الإمامية.

(٢) الطوسي؛ محمد بن الحسن: التبيان ١٠ / ٥٢.

٣. ومن المحدّثين قال الشيخ الكاشاني[١] ﵀ في تفسيره الصافي:[٢] (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا) بالنفاق والتظاهر على الرسولين مثل الله حال الكفار والمنافقين في أنهم يعاقبون بكفرهم ونفاقهم ولا يجابون بما بينهم وبين النبي ﷺ والمؤمنين من النسبة والوصلة بحال امرأة نوح وامرأة لوط وفيه تعريض بعائشة وحفصة.

ومن المعاصرين الشيخ ناصر مكارم الشيرازي حيث قال في التفسير:[٣] «وعلى أية حال فإن هاتين المرأتين خانتا نبيين عظيمين من أنبياء الله. والخيانة هنا لا تعني الانحراف عن جادة العفة والنجابة، لأنهما زوجتا نبيين ولا يمكن أن تخون زوجة نبي بهذا المعنى للخيانة، فقد جاء عن الرسول ﷺ وسلم (ما بغت امرأة نبي قط).

كما استدلوا بوجه عقلي، وهو لزوم حصول نفرة الناس من النبي أي نبي لو كانت زوجته ترتكب جريمة الزنا.

أشار إلى ذلك المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين[٤]في كتابه مسائل جار

---

(١) الملا محسن، الملقب بالفيض الكاشاني، (ت١٠٩١ هـ) حكيم ومحدث ومفسر للقرآن وفقيه شيعي، ينتمي الى المدرسة الإخبارية، من أهم أساتذته الملا صدرا، والشيخ البهائي، والمير داماد. ومن تلامذته: العلامة المجلسي، والسيد نعمة الله الجزائري وغيرهم. له مؤلّفات في مجال الفقه والحديث والتفسير والفلسفة والأخلاق والعرفان، أهمها في التفسير: الصافي وفي الحديث: الوافي.

(٢) الكاشاني؛ محسن الفيض: تفسير الصافي ٥ / ١٩٧.

(٣) الشيرازي؛ ناصر مكارم: تفسير الأمثل ١٨/ ٢٩٤.

(٤) السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي (ت ١٣٧٧ هـ) فقيه، ومتكلم إمامي، من أهم أساتذته: الآخوند الخراساني، والسيد كاظم اليزدي، وشيخ الشريعة الاصفهاني، والميرزا النوري، وغيرهم. يعد من رواد محاربة الاستعمار ومن الداعين إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية، وتثبيت عقائد الإمامية بالدليل العلمي والحوار المنهجي .له الكثير من الكتب ضمن المحورين من أهمها: المراجعات، والنص والاجتهاد، والمسائل الفقهية، وأجوبة جار الله .وغيرها . للتفصيل يراجع كتابنا

الله:

«وكتب الإمامية قديمها وحديثها شاهد عدل بما أقول، على أن أصولهم في عصمة الانبياء تحيل ما بهتها به أهل الإفك بتاتاً، وقواعدهم تمنع وقوعه عقلاً ولذا صرح فقيه الطائفة وثقتها أستاذنا المقدس الشيخ محمد طه النجفي أعلى الله مقامه بما يستقل بحكمه العقل من وجوب نزاهة الأنبياء عن أقل عائبة ولزوم طهارة أعراضهم عن أدنى وصمة فنحن والله لا نحتاج في براءتها الى دليل ولا نجوز عليها ولا على غيرها من أزواج الأنبياء والأوصياء كل ما كان من هذا القبيل».

النقطة السادسة: إن تنزيه نساء النبي عن الفاحشة لا يعني عصمتهن في أعمالهن، وأن كل ما يقمن به صحيح وينبغي متابعته!

فالأول ثابت بلا ريب كما ذكرنا ذلك في النقطة السابقة، وأما الثاني فهو مما تشهد به الأخبار التاريخية وإليه أشار القرآن معرضا بل وموبخا في أكثر من موضع.

وهذا الموقف هو الموافق للإنصاف والتعقل، فلا اتهام يصل إلى الطعن في شرفهن ونسبة الخيانة لهن أو لبعضهن، ولا تقديس يصل إلى حد الاغماض عن أخطاء ومواقف بعضهن، بل والتبرير لذلك، من دون انتقاد تلك المواقف.

هذان موقفان لا يصح أي منهما.

ونرى كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في تحليله لموضوع حرب الجمل، وموقف أم المؤمنين عائشة منه. (وأما فلانة فأدركها رأي النساء، وضِغْن غلا في صدرها كمرجل القين، ولو دعيت لتنال من غيري ما أتت إلي لم تفعل، ولها بعد حرمتها

: من أعلام الامامية

الأولى والحساب على الله تعالى).[١]

هذا هو الموقف الذي يلتزم به الإمامية، تحليل واضح لمنشأ المشكلة، ولكن لها حرمتها الأولى لكونها زوجة النبي، والحساب يكون على الله يوم القيامة!

وقد تجلى احترامه لها، ورعاية حرمة النبي في حقها بما ذكره المؤرخون من أنه كلف أخاها محمد بن أبي بكر أن يتولى أمرها، وسير معها حراسة نسائية حتى بلغها المدينة! إلى آخر ما ذكروه.

(١) الإمام علي؛ نهج البلاغة ١/ ٢١٨.

صفية بنت عبد المطلب
عمة النبي ﷺ

تتناول هذه الصفحات شخصية من شخصيات الأسرة النبوية، تعد متفردة في بعض أعمالها ولم تتثنَّ وهي صفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمة رسول الله ﷺ، حيث أنها المرأة الاولى التي قتلت بمفردها رجلا من اليهود كان يريد أن يهتك ستر النساء أو أن يجد ثغرة في الحصن الذي كانوا فيه.

صفية بنت عبد المطلب قريبة العمر من رسول الله ﷺ وربما تكبره بسنة فإنها عندما توفي أبوها عبد المطلب قيل أن عمرها كان ٩سنوات في وقت كما هو المشهور كان النبي ﷺ في تلك الفترة عمره ثمان سنين، وتوفيت بعد وفاة رسول الله بحوالي تسع سنين أي في سنة ٢٠ للهجرة.

بداية شبابها لم يكن شيئا ذا بال قبل البعثة وتزوجت كما يتزوج غيرها وكان زوجها أخاً لأبي سفيان يسمى الحارث بن حرب، مات قبل البعثة وقبل بدء الإسلام فخلف عليها بعد ذلك وتزوجها العوام بن خويلد والد الزبير بن العوام بن خويلد فهو زوج صفية وأخ خديجة بنت خويلد.

انجبت ثلاثة من الذكور: الزبير، والسائب وقد شهدا الإسلام وأسلما، وأما عبد الرحمن فقد قتل في (حروب الفِجار)[١] كما قتل فيها زوجها.

كان إسلام صفية في وقت مبكر بعد بعثة النبي ﷺ، وربما تزامن ذلك مع إسلام شقيقها حمزة بن عبد المطلب (حيث أنهما من أم واحدة هي هالة بنت وهيب، وقد مر بعض الحديث عن هذا فيما سبق).

والعادة أن يرد ذكر لصفية في كتب السيرة عند الحديث عن يوم الإنذار حين نزلت الآية المباركة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[٢]. والمعروف أنه كان في السنة الثالثة للبعثة النبوية، فجمع النبي عشيرته ليبلغهم الدعوة بصورة جماعية. وقد روي بأكثر من عبارة وطريقة، من المهم الوقوف على طريقة رواية الحديث والفقرات التي انتخبت منه ومناقشة كل طريقة. وحديث الانذار في المصادر الحديثية له طريقتان في الرواية:

الطريقة الاولى: ما نقله كتب مدرسة الخلفاء ومنها بعض صحاحهم وحاصل الحديث فيها هكذا: ان النبي ﷺ جمع أبناء عبد مناف وأبناء بني هاشم وعندئذ خطب فيهم وقال لهم: يا بني هاشم يا بني عبد مناف يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب خذوا من مالي ما شئتم لا أمنعكم منه ولكني لا أغني عنكم من الله شيئاً.[٣]

(١) حروب الفِجار.. معارك عسكرية في الجاهلية استمرت لمدة عشر سنين، في خمس مراحل بين قبيلتي كنانة (ومنها قريش) وبين قبائل قيس عيلان (ومنهم هوازن وغطفان وثقيف). وسميت وذلك لأن هذه الحروب كانت تحصل في أيام الأشهر الحرم ولأجل أن المتحاربين لم يلاحظوا حرمة هذه الأشهر كان ذلك فِجارا.

(٢) الشعراء / ٢١٤.

(٣) صحيح مسلم، ومسند أحمد، وغيرهما كالسيوطي بغية الوعاة ٢ / ٤١٢عَن عَائِشَةَ رَضِي الله تَعَالَى عَنْهَا، قَالَت: لما نزلت: وأنذر عشيرتك الْأَقْرَبين قَامَ النَّبِي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ: «يَا فَاطِمَة

وقد درس العلامة السيد مرتضى العسكري في كتابه عن (أحاديث أم المؤمنين عائشة) هذا الحديث بطرقه المختلفة، واثبت أنه لا يمكن أن يصح إسناده إلى رواته، فقال: «أجمع العلماء والمفسرون ان آية: (وأنذر عشيرتك الأقربين) من سورة الشعراء المكية نزلت في العام الثالث بعد البعثة. وينتهي سند الرواية الاولى إلى أم المؤمنين عائشة، وقد ولدت في السنة الرابعة بعد البعثة فأنى لها أن تتحدث عن خبر آية نزلت قبل ولادتها بعام!؟ وتنتهي الرواية الثانية والثالثة إلى الصحابي أبي هريرة، والرابعة إلى الصحابي ابي موسى الاشعري، وكلاهما ورد المدينة في السنة السابعة بعد الهجرة وبعد فتح خيبر. والرواية الخامسة عن ابن عباس وقد ولد في شعب أبي طالب وقبل الهجرة.»[1] هذا فضلا عن باقي من نسبت لهم هذه الرواية من مجاهيل أو من لم يعلم دركهم للنبي فضلا عن أوائل بعثته.

وأما ما يرتبط بالملاحظات على متن الرواية الرسمية في مصادر مدرسة الخلفاء:

١. فأولا قد ذكر فيها الخطاب للسيدة فاطمة الزهراء، والمحقق أن ولادتها كانت في السنة الخامسة للبعثة وتكون حادثة يوم الإنذار قبل ولادتها بسنتين، بل حتى على القول بولادتها قبل البعثة بسنة أو سنتين فهي في وقت الحادثة ستكون من بنات أربع أو خمس سنوات وليست محلا للتكليف! فأي معنى للقول: لا أغني عنكم من الله شيئاً؟

٢. كذلك فإننا نلاحظ تخصيص (فاطمة وصفية) في هذه الروايات بأنه لا يغني عنهم من الله شيئاً، وأنه إن أرادوا أن يأخذوا من ماله فليأخذوا. ولنا أن نتساءل ما هو الوجه في التأكيد على أن قرابة النبي (ونسب النبي) لا ينفع المنتسبين

بنت مُحَمَّد، يَا صَفِيَّة بنت عبد الْمطلب، يا بن عبد الْمطلب؛ لَا أملك لكم من الله شَيْئا، سلوني من مَالِي مَا شِئْتُم.

(١) العسكري؛ السيد مرتضى: أحاديث أم المؤمنين عائشة ٢ / ٢٩٦.

إليه. وهذا من أول أيام البعثة؟ وهل لهذا ارتباط بما سيكون فيما بعد من خط تنكر لموقع الأسرة النبوية، ورفض حقها سواء في التكريم والاحترام أو في القيادة السياسية أو في العطاء الاقتصادي (نصيبهم في الخمس)؟ والذي قد مر الكلام عنه في أول صفحات الكتاب.[١]

الطريقة الثانية: ما تلتزم به الإمامية وربما شاركها في ذلك بعض مصادر الجمهور[٢](في كل أو بعض ألفاظ الرواية) وهو ما يروى عن أمير المؤمنين علي عليه السلام وهو شاهد العيان الحاضر، والشريك في الحدث، حيث شهد يوم الانذار ما يمكن عده أول تعيين من النبي وتنصيب للإمام علي كوصي وخليفة وقائم بالأمر بعده، وهذا الموضوع هو الذي تنكرت له الكثير من المصادر.

وحاصل تلك الرواية أن النبي صلى الله عليه وآله دعا بني هاشم وقال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادي أكنتم مصدقي؟ قالوا بلى ما جربنا عليك كذباً قال: فإني

(١) في عنوان (الرافضون تكريم الأسرة النبوية)، وقد ورد فيه عن مجمع الزوائد ٨/ ٢١٦عن ابن عباس قال: توفي ابن لصفية، عمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فبكت عليه وصاحت، فأتاها النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال لها: " يا عمة، ما يبكيك ؟ «. قالت: توفي ابني. قال: " يا عمة، من توفي له ولد في الإسلام فصبر بنى الله له بيتا في الجنة «. فسكتت.

ثم خرجت من عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاستقبلها عمر بن الخطاب فقال: يا صفية، قد سمعت صراخك، إن قرابتك من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لن تغني عنك من الله شيئا. فبكت فسمعها النبي – صلى الله عليه وسلم – وكان يكرمها ويحبها فقال ":يا عمة، أتبكين وقد قلت لك ما قلت ؟ «. قالت: ليس ذاك أبكاني يا رسول الله، استقبلني عمر بن الخطاب فقال: إن قرابتك من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لن تغني عنك من الله شيئا. قال: فغضب النبي – صلى الله عليه وسلم – وقال: «يا بلال، هجر بالصلاة «. فهجر بلال بالصلاة، فصعد المنبر النبي – صلى الله عليه وسلم – فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال أقوام يزعمون أن قرابتي لا تنفع ؟ كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي، فإنها موصولة في الدنيا والآخرة.

(٢) كالطبري، وابن عساكر، وابن الأثير، وابن كثير، والمتقي الهندي.

لكم نذير من عذاب يوم عظيم إن الله قد بعثني برسالته فقال أبو لهب: تباًّ لك. ألهذا جمعتنا؟ فانفض المجلس في اليوم الأول

وفي اليوم الثاني عمل لهم طعاماً لم يكن يكفي الواحد والاثنين لكنه كفاهم جميعا بعدما وضع فيه النبي يد بركته، وخاطبهم كخطاب اليوم الماضي، (يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شابا في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟ قال: فأحجم القوم عنها جميعا وقلت - وإني لأحدثهم سناً، وأرمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً -: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي، ثم قال: ان هذا أخي[١]ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له واطيعوا، قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع...).[٢]

فانظر إلى الفرق الكبير بين الطريقتين من الرواية، فبينما تنفي الطريقة المشهورة في مدرسة الخلفاء أي أثر لانتساب أحد إلى النبي، وأنه لا يغني شيئا ولا تشير لا من قريب ولا من بعيد إلى موضوع وجود الإمام علي أو خطاب النبي له بعد أن قام متصدياً. وبين الطريقة الثانية التي تثبت ذلك كله!

مع هجرة النبي إلى المدينة، وإيصائه علياً بأن يهاجر بعده بالفواطم والهاشميات، هاجرت صفية برفقة ابن أخيها علي، ومع هجوم كفار قريش ومحاولتهم إنهاء دعوة

---

(١) العجيب أن ابن كثير الدمشقي، في كتابه البداية والنهاية ٣/ ٥٣ عندما وصل إلى هذه الفقرة رآها لا تتسق مع مسلكه العقائدي فكتمها، وقال: «ثم قال إن هذا أخي وكذا وكذا »!! يعني حذف كلام النبي في وصاية علي وخلافته! وعندما نقل رواية الحادثة بسند آخر فإنه قال: أيكم يقضى ديني ويكون خليفتي في أهلي. بدل النص الأصلي.

(٢) مصادر الطبري ٢ / ٦٣ وابن الأثير ٢/ ٦٣ (وتوافق المصدرين في الجزء والصفحة طريف)

النبي في بدر كانت ممن خرج إلى بدر لمداواة الجرحى والاهتمام بالمرضى.

ومع افتراض أن عمرها كان في ذلك الوقت قد تجاوز الخمسين،[١] ومع ملاحظة ظروف غزوة بدر المكانية، حيث تبعد عن المدينة حوالي ١٣٠ كيلومتر، لنا أن نفترض أن صفية وهي التي قيل عن مشاركتها بذلك النحو، نفترض أنها كانت امرأة شديدة وقوية!.

وما انتهت معركة بدر حتى جاءت معركة أحد لتُنكب بشهادة أخيها حمزة ﵇، ولا سيما بعد ما مثل بحمزة حيث لم يكتف وحشي برميه بالحربة بل شق صدره وبطنه واستخرج كبده ونقل أنه مُثّل به وجدع انفه واذنيه فتأثر النبي تأثراً كبيراً.

بل قيل إن النبي ﷺ، لم يكن يحب أن تراه أخته صفية على هذه الحال.

فأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتلقي نظرة الوداع على شقيقها الشهيد حمزة فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير القها فأرجعها! لا ترى ما بأخيها فلقيها الزبير وقال: أي أمه إن رسول الله يأمرك ان ترجعي قالت: ولم ؟

فقد بلغني انه مثل بأخي وذاك في الله فما أرضانا بما كان من ذلك لأصبرن ولأحتسبن إن شاء الله!

فلما جاء الزبير إليه فأخبره قول صفية، قال: خل سبيلها! فأتته فنظرت إليه واسترجعت واستغفرت له. وقيل ان النبي استدعاها وسأل الله (سبحانه وتعالى) لها الصبر والتحمل فهدأت لذلك عندما ذهبت الى جسد حمزة قالت: انا لله وانا اليه راجعون عند الله نحتسبه وصبراً على قضاء الله!

(١) بناء على أنها توفيت سنة ٢٠ للهجرة وعمرها ٧٣ سنة، تكون في أيام بدر بداية الهجرة بحوالي ٥٢ سنة.

فهل استخدم النبي ﷺ، قدرته الخاصة في جعل الصبر في قلبها؟ حيث نعتقد أن الله يمكن النبي والإمام من ذلك إذا اقتضت الحكمة؟ هذا احتمال.

الاحتمال الآخر: أن القضية هي ضمن الأطُر الطبيعية، فإن من يصاب بمصيبة أو تحدث له مشكلة أو يتعرض الى اعتداء يحتاج الى دعم نفسي كبير. والا فمن الممكن ان ينهار.

مدخل إلى قضية اجتماعية:

نجد أنه يحصل أحيانا اعتداء على طفل او اغتصاب لفتاة. ويأتي الطفل أو الفتاة إلى محيط الأهل ينتظر الحماية منهم فإذا بذلك الأب يغضب ويضرب الابن ويشتمه: لماذا تركتهم يفعلون بك هذا يا جبان وياكذا!!

وهذا من أسوأ ما يمكن أن يقابل به الوالد ولده المعتدى عليه! ذلك أن الطفل يكون في هذه الحالة محطماً من الناحية النفسية، ويحتاج إلى من يرمم له ما تحطم في داخله، ويعيد بناء ما تهشم من نفسه. ولا ريب أن هذا التوبيخ والتقريع والضرب والاهانة تزيد من تهشيم نفسه!

وهكذا الحال بالنسبة الى الفتاة عندما يعتدى عليها، من قبل مجرم، فإنها تعاقب وكأنها هي التي اعتدت واغتصبت! وتهان وتضرب كأنها هي المجرم لا الضحية!

وبالإضافة إلى الهم النفسي والانهيار الداخلي الذي تحقق لها على أثر اغتصابها، وتفكيرها في المستقبل وسوداويته بالنسبة لها، إلى الحد الذي قد تصاب بحالة اكتئاب ربما يؤدي الى الانتحار تزداد ألما بهذه المواجهة من جهة أسرتها!!

الصحيح هنا أن يتم احتضانها، بمزيد من العطف والحنان والاحتواء. وإذا

كانت وهو الغالب تحتاج إلى معالجة نفسية لا بد من مراجعة المتخصص في هذا الشأن. ولعلك تلاحظ عزيزي القارئ أن الاغتصاب اليوم لا يعد ممارسة جنسية فقط، وإنما إذا كان في مناطق محتلة وتحت الارغام يعد من جرائم الحرب!!

فالحاجة إلى التعضيد النفسي والمساعدة في وقت المصيبة أو المشكلة من الأمور المهمة لا سيما بالنسبة للمرأة.

ولعله لهذا لم يشأ النبي في أول الأمر لصفية أن ترى شقيقها وأقرب اخوتها إليها بتلك الحالة! أما إذا كانت ستتجلد وتتصبر وتعتصم بذكر الله، فلم يمانع وأضاف إليها أن مسح على قلبها كما يقال.

وهناك جهة أخرى قد تلاحظ أيضا وهو أن الاتصال والملامسة المباشرة بين أبناء الرحم الواحد، له أثر في تهدئة النفوس وتخفيف الإضطراب الداخلي وهو ما أشار إليه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في لقائه مع هارون الرشيد العباسي. فقد يكون وضع النبي يده على صدر عمته صفية إن صح الخبر له هذه الفائدة.

وبالرغم من فداحة الخطب، وشدة المصيبة، وعنف منظر التمثيل بجسد حمزة أخيها إلا أنها لم تتوقف حياتها في هذه النقطة، وإنما عاشت حياتها بنحو ايجابي، وكانت شجاعتها وقوة قلبها مضرب المثل.

ففي الفترة التي تلت غزوة الخندق مباشرة، ومع تآمر يهود بني قريظة مع مشركي مكة على أساس أن يأتي القُرشيون من الخارج واليهود من الداخل، حيث أنهم يعرفون طرقات المدينة، وبإمكانهم أن يدلوا الكفار على عوراتها، بل إن استطاعوا السيطرة عليها، ما دام المسلمون مشغولين بالخندق والحرب فيه. وباتوا بنحو كما وصفه القرآن الكريم ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا

زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[١] ويقول بعضهم صرنا بحال لا تأمن المرأة فيه أن تخرج إلى الخلاء لقضاء الحاجة!! ولذلك أمر النبي ان تكون نساء المسلمين في الأعالي.

وجمع النساء والأطفال في حصن بني حارثة ليكونوا في مأمن، ولكي يفسد اليهود على المسلمين دفاعهم فقد أرادوا أن يهاجموا النساء والأطفال، داخل المدينة، فأرسلوا جماعة منهم ليستطلعوا عما إذا كان في الحصن رجال يحرسون النساء أو لا يوجد!

قالوا: «كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع حصن حسان بن ثابت يعنى في وقعة الخندق قالت وكان حسان معنا في الحصن مع النساء والصبيان حيث خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت صفية فمر بنا رجل يهودي فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون ان ينصرفوا إلينا عنهم ان أتانا آت قالت فقلت يا حسان ان هذا اليهودي يطوف بالحصن كما ترى ولا آمنه ان يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود فأنزل إليه فاقتله فقال يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا قالت صفية فلما قال ذلك ولم أر عنده شيئا احتجزت وأخذت عمودا ونزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته ثم رجعت إلى الحصن فقلت يا حسان انزل فأسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه الا انه رجل فقال ما لي بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطلب» ![٢].

وهي بهذا أول امرأة قتلت يهوديا من أعداء الدين.

---

(١) الأحزاب / ١١.

(٢) ابن الأثير؛ عز الدين: أسد الغابة ٥ / ٤٩٣.

عاشت صفية متفيئة ظلال رسول الله ﷺ ناصرة له في كل مواقفه، شديدة الإيمان به وبمنهجه، وعاشت أعظم الألم عندما حضرت رسولَ الله الوفاةُ، فرثته بشعر كثير جزل، وكانت شاعرة مجيدة فكان مما رثت النبي ﷺ به:

انا فقدناك فقد الارض وابلها ... واختل قومك فاشهدهم فقد نكبوا
قد كان بعدك انباءٌ وهنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

وهكذا تخاطب فاطمة الزهراء سلام الله عليها:

أفاطم بكّي ولا تسأمي ... لصحبك ما طلع الكوكب
هو المرء يُبكى وحقَّ البكاء ... هو السيد الماجد الطيب

وأيضا قالت: ويلحظ في شعرها الاشارة غير المباشرة إلى ما حدث بعد النبي، فهي تصفها في قصيدتها الأولى بالأنباء والهنبثة (وهي الأمور المختلطة غير الواضحة)، وأن هذه الأمور لم تكن لتحدث والنبي موجود. وهكذا في الأبيات الآتية فهي لا تبكي لمجرد موت النبي وإن كان فقده يكوي قلبها، إلا أنها تبكي على (هرج كان بعدك آتيا). وهو يفيد نفس الرسالة السابقة.

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا ... وكنت بنا براً ولم تك جافياً
وكان بنا براً رحيماً نبينا ... ليبك عليك اليوم من كان باكياً
لعمري ما أبكي النبي لموته ... ولكن لهرج كان بعدك آتياً
كأنّ على قلبي لفقد محمد ... ومن حبه من بعد ذاك المكاويا
أفاطم صلى الله ربُّ محمد ... على جدث أمسى بيثرب ثاويا
أرى حسناً أيتمته وتركته ... يبكي ويدعو جده اليوم نائيا
فدى لرسول الله أمي وخالتي ... وعمي ونفسي قصره وعياليا
صبرت وبلغت الرسالة صادقاً ... ومت صليب الدين أبلج صافيا

فلو أن رب العرش أبقاك بيننا سعدنا ولكن أمـره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحية وأدخلت جنات من العدن راضيا.

ويستفاد من مجمل حياتها أنها ربت الباقي من أبنائها وهو الزبير على خط الولاية لأهل البيت، ولهذا ينقل عن أمير المؤمنين علي ﵇ قوله: (ما زال الزبير منا أهل البيت حتى شب ابنه الميشوم عبد الله).[1]

ويشهد لذلك مواقف الزبير في زمان رسول الله ﷺ، حيث كان المبادر والسباق إلى ساحات القتال، ويذكر له أن أول سيف شهر للدفاع عن حق أمير المؤمنين علي ﵇ بعد وفاة النبي وحادثة السقيفة، كان سيف الزبير، حيث اعترض جماعة الخلافة الذين جاؤوا لإخراج الإمام قسراً، فتمت مواجهة بينه وبينهم وندر السيف من يده فأخذوه وضربوا به حجراً فتكسر. ولا ريب أن ذلك كان يقع موقع الرضا من صفية أمه وعمة علي ﵇.

إلى أن توفيت زمان الخليفة الثاني سنة ٢٠ للهجرة، وكان ابنه عبد الله قد كبر وأصبح وهو من الناحية العائلية لا يرتبط ببني هاشم، كما يرتبط أبوه بهم، بل يرتبط بخط الخلافة الرسمي، فأمه أسماء بنت أبي بكر، ويبقى تأثير الأم ملحوظا في شخصية ابنها. وجده هو الخليفة الأول فلم يكن معقولاً أن يتخذ خط بني هاشم المناوئ للخلافة!

(١) ابن الأثير؛ عز الدين: أسد الغابة ٣/ ٢٤١.

عبد الله بن عباس حبر الأمة

عن رسول الله ﷺ أنه قال: (علي مع القرآن والقرآن مع علي، علي مع الحق والحق مع علي).[١]

ولد عبد الله بن عباس بن عبد المطلب رضوان الله تعالى عليه قبل الهجرة بحدود ثلاث سنوات وتوفي في سنة ٦٨ للهجرة في الطائف وكان له أدوار مهمة تستوقف الناظر في التاريخ الإسلامي، وهو من الشخصيات القليلة التي عليها إجماع الطائفتين في جلالة الأمر وسعة العلم، أتباع مدرسة الخلفاء وأتباع أهل البيت عليهم السلام فلنكن معه من البدايات وإلى أن أصبح فيما بعد ما يشبه الناطق الرسمي باسم أمير المؤمنين سلام الله عليه.

كانت ولادته في مكة المكرمة قبل ثلاث من الهجرة، وبقي فيها إلى السنة السابعة لهجرة النبي حيث التحق هو ووالده برسول الله ﷺ.

(١) نقله الخرسان في كتابه موسوعة عبد الله بن عباس ٤/ ٢٠٢ عن الخطيب في تاريخ بغداد ١٤ / ٣٢٠، والحاكم في المستدرك ٣ / ١٢٤ وصححه الذهبي في التلخيص وصدقه، بالإسناد عن أبي ثابت مولى أبي ذر قال: دخلت على ام سلمة فرايتها تبكي وتذكر علياً وقالت: سمعت رسول الله ﷺيقول: (عليّ مع الحقّ والحقّ مع علي) (عليّ مع القرآن والقرآن مع علي).

في المدينة وحيث أصبح من أبناء عشر سنين فصاعداً عرف في وقت مبكر قيمة الحديث عن رسول الله فتتبع أحاديث النبي ونظراً لأن إحدى زوجات النبي كانت خالته وهي ميمونة بنت الحارث حيث أنها أخت لبابة والدة عبد الله بن عباس، سهل هذا الأمر عليه كثرةُ الاختلاط والذهاب الى بيت رسول الله ولربما بات ونقل كيفيات قيام رسول الله لصلاة الليل وماذا كان يصنع وكان أيضا يخدم النبي في اثناء بقائه هناك. في الأمور التي جرت خدمة أمثال سنه فيها مثل تقريب الماء والاتيان بالإبريق لكي يغسل رسول الله يديه وما شابه، فكان ان فاز من النبي بدعوة مباركة وجد أثرها في حياته كلها وهو ان النبي دعا له بقوله: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل.[١]

الفقاهة في الدين تعني المعرفة العميقة في الفقه، والعلم بالتأويل مرتبة عظيمة[٢]بمعنى أن يطلع هذا الإنسان على المعاني الباطنية وما وراء الحروف وتطبيق المبادئ على المصاديق الخارجية. وإلا فمعرفة معنى الألفاظ متيسر لأكثر الناطقين باللغة.

ويظهر أنه أوتي حافظة قوية وذكاءً جيداً ولذلك عندما رافق النبي في حجة الوداع التفت الى حركات النبي وأقواله وأفعاله فنقل عنه الفريقان كثيرا من الأحاديث في سنن الحج وأعماله كما ونقل عن النبي أيضا حديث الغدير لا مجرد رواية كما فعل غيره، عندما قال النبي من كنت مولاه فهذا علي مولاه وجاؤوا يبايعون الإمام، قال: لقد وجبت في اعناقهم يعني هذه بيعة مؤكدة وتامة وفي رقابهم. هذا مع حداثة سنه حينها حيث لا يفترض انه تجاوز ثلاثة عشر سنة من العمر.

---

(١) حنبل؛ أحمد: مسند أحمد: ١/ ٢٦٦ ومستدرك الحاكم ٣/ ٥٣٤.

(٢) في تعداد نعم الله على يوسف النبي قال الله تعالى في سورة يوسف / ٦ ﴿وكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

سجل أيضا ما حصل قرب وفاة رسول الله ﷺ وأطلق عليها (رزية الخميس) حيث عرفت في التاريخ بهذه التسمية التي سماها ابن عباس وهي حادثة اختلاف بعض الصحابة على رسول الله وعدم سماعهم كلامه بأن يأتوا له بدواة وكتف، وكان يتألم منها كثيراً ويقول الرزية كل الرزية يوم حالوا بين النبي وبين كتابة الكتاب.[١]

كيف جمع الأحاديث:

بالرغم من أن المنقول من أحاديث ابن عباس في مصادر مدرسة الخلفاء لا تتجاوز ثلث ما نقلوه عن أبي هريرة الدوسي الذي اشتهر بأنه روى عن النبي (٥٣٧٤ حديثا)، مع فارق أن أبا هريرة الذي جاء إلى المدينة سنة ٧ هـ لم يلبث أن غادرها إلى البحرين، ويحتمل بعض الباحثين أن مدة بقائه مع النبي لم تتجاوز سنة وستة أشهر، بخلاف ابن عباس الذي كان في طول تلك الفترة (من سنة ٧ إلى حين وفاة النبي) معه، مع ملاحظة أنه كان كثيرا ما يدخل بيت النبي ويكون معه ومع خالته ميمونة، بالرغم من ذلك يعتبر ابن عباس من المكثرين في نقل أحاديث رسول الله ﷺ.

ويرى آية الله الحكيم[٢]أن دعاء النبي له أكثر من مرة (اللهم فقهه في الدين وعلمه التاويل) بالإضافة إلى كونه مع النبي في فترة نمو القوى العقلية بين التاسعة والثانية عشرة وكذلك رعاية النبي الخاصة له وتعاهده بالمعرفة، وحرص ابن عباس

(١) البخاري؛ صحيح ٥/ ١٣٨ ومسلم النيشابوري في صحيحه ٥/ ٧٦.

(٢) السيد محمد تقي الحكيم: أصولي بارع ومجتهد محقق.(ت ١٤٢٣ هـ) أستاذ الدراسات العليا في كلية الفقه في النجف ، تربى على يده جيل من العلماء البارزين ، من تلامذة السيدين الحكيم والخوئي، والشيخ الحلي . له الكثير من الكتب أهمها الأصول العامة للفقه المقارن .ومنها كتابه عن عبد الله بن عباس .

الشخصي على اقتفاء آثار النبي وتتبع خطواته كما يستفاد من رواياته في وضوء رسول الله وقيامه الليل، مع تحريض والده العباس له على الالتصاق بالنبي، ووجود خالته أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث في بيت رسول الله.[١] كلها عوامل ساعدت ابن عباس على التلقي من رسول الله بذلك المقدار.

ويشير ابن عباس إلى كيفية اهتمامه بحديث النبي، في أنه سعى لجمع الحديث من أصحاب النبي وروايته عنهم، فقال لشاب من الأنصار في ذلك، فكنا نذهب إلى بيت الصحابي وننتظره حتى يفيق من قيلولته ـ نومة ما قبل الظهر ـ ونحن في الشمس حتى يفيق، ونأخذ عنه الحديث! فملّ صاحبي من ذلك وانصرف عني، وبقيت على ذلك.[٢]

وقد يكون هذا بالإضافة إلى صغر سنه أحد الأسباب التي تبرر لنا عدم الحضور السياسي الواضح لابن عباس في زمان الخليفة الأول، لكنه كان في هذه الفترة والتي تليها تحت التوجيه المباشر لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولكن الأمر سوف يتغير في أيام الخليفة الثاني حيث أصبح شاباً بعمر يقترب من سبعة عشر عاما، وقد أخذ عن صحابة النبي ولا سيما الإمام علي شيئاً كثيراً من

---

(١) الحكيم؛ السيد محمد تقي: عبد الله بن عباس شخصيته وآثاره ١/ ٥٧ ٦٤.

(٢) النيشابوري؛ الحاكم: المستدرك على الصحيحين ٣ / ٥٣٨ ونص الحديث هكذا: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرجل من الأنصار: (يا فلان هلم فلنسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم اليوم كثير فقال: واعجباً لك يا بن عباس أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من ترى؟ فتركت ذلك وأقبلت على المسألة فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه فتسفي الريح على وجهي التراب، فيخرج فيراني فيقول: يا بن عم رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلي فآتيك؟! فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث قال: فبقي الرجل حتى رآني وقد اجتمع الناس علي فقال: كان هذا الفتى أعقل مني).

حديث رسول الله، جعله يتفوق على كبار الصحابة ممن كان بعضهم في سن أبيه.

وألفت هذا الأمرُ الخليفةَ الثاني الى ذكائه وإحاطته العلمية فأقبل عليه وقربه، حتى أصبح يقدم كلامه وفتاواه على فتاوى وآراء الصحابة المعروفين آنذاك، وأشركه في ما يشبه مجلس الأحكام والمشاورة.

وقد فسر هذا الأمر حيث لم يكن متوقعاً، بتفسيرات متعددة:

- منها أن ابن عباس كان متميزا في بني هاشم من الناحية العلمية، ويجتمع عليه بنو هاشم فهو ابن العباس كبير الاعمام الباقين من أبناء عبد المطلب، من جهة، ومن جهة أخرى فهو التلميذ اللصيق والخاص بالإمام علي عليه السلام، فكأنّ الخليفة في إقباله عليه أراد أن يرد شيئاً لبني هاشم ومن خلاله يصل لنفوسهم تدريجيا كما يرى باحثون[1]ـ خصوصا وأن الخليفة قد اطمأن أن الإمام عليا عليه السلام قد اتخذ موقف المسالمة للخلافة وليس في صدد أن يدخل معركة معهم أو أن يقوم بانقلاب عليهم، فأراد بهذه الوسيلة أن يرد لبني هاشم شيئاً من حقهم من دون أن يصل ذلك إلى موضوع الخلافة.
- وهـناك احتمال آخر يراه غير هؤلاء، إذ يرون الأمر يدخل في إطار سياسي بمعنى أنه قرب عبد الله بن عباس لأن عبد الله كان أشبه بأمين سر الإمام ويعرف بالتالي ما يفكر فيه الإمام فإذا أتى به عنده ستكون الخلافة على علم بما يفكر فيه علي بن أبي طالب، وإذا كان للخليفة رسالة للإمام فأفضل طريق هو تلميذه وهكذا.
- البعض رأى أن المسألة مسألة علمية بحتة فقد أعجب الخليفة إعجاباً

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٨٠.

تاماً بأبن عباس، والخليفة نفسه لم يكن بمستوى عالٍ من المعرفة العلمية بالقياس الى مثل أمير المؤمنين عليه السلام بل ولا بالقياس بغيره من علماء الصحابة فكان يشيد به ويقدمه على من حضر.

هل كان الإمام راضيا ؟

يظهر أن أمير المؤمنين عليه السلام أنه لم يكن رافضاً لهذه العلاقة بين ابن عباس وبين الخليفة عمر بن الخطاب لأن ابن عباس قوي الحجة وكان صريحاً في ما يرتبط بأمير المؤمنين، لم يكن يجامل وما كان ضعيف الحجة بل يقول كلامه بشكل صريح ولكن مؤدب من غير تشنج. وينقل المؤرخون كثيرا من الحوادث بين الخليفة وبين ابن عباس.

ففي إحداها يقول ابن عباس: إنّي لأماشي عمر في سكة من سكك المدينة، يده في يدي. فقال: يا بن عباس، ما أظنّ صاحبك إلاّ مظلوما، فقلت في نفسي: والله لا يسبقُني بها.

فقلت: يا أمير المؤمنين، فارددْ اليه ظلامتَه، فانتزع يدَه من يدي، ثم مرّ يهمهم ساعة ثم وقف، فلحقته.

فقال لي: يا بن عباس، ما أظنّ القوم منعهم من صاحبك إلاّ أنّهم استصغروه.

فقلت في نفسي: هذه شرّ من الاولى، فقلت: والله ما استصغره الله حين أمرَه أن يأخذ سورة براءة من أبي بكر!

قال: فأعرض عني وأسرع، فرجعت عنه.[1]

---

(١) السقيفة للجوهري ص٧٠، وشرح النهج لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٤٥، كشف اليقين للحلي ص ٤٦١

لذلك نعتقد أن الإمام عليه السلام كان راضياً بالعلاقة واستمرارها بين ابن عباس وبين الخلافة ولا ريب ان ابن عباس كان ينقل لأمير المؤمنين ما كان يدور بينهم وبينه. بل ويوصل آراء أمير المؤمنين عليه السلام في المسائل المختلفة، بغض النظر عن أن الخلافة كانت ستأخذ بها أو لا ؟

وفي موقع آخر[1] ينقل عن ابن عباس قال: دخلت على عمر في أول خلافته، و قد ألقي له صاع (٣ كغم) من تمر على خصفة (حصيرة) فأكل حتى أكمل و دعاني فأكلت واحدة، ثم شرب من جرّة عنده ثم استلقى قال لي: يا عبد اللّه كيف خلّفت ابن عمّك؟

فظننته يعني عبد اللّه بن جعفر فقلت: يلعب!

فقال: إنما عنيت عظيمكم أهل البيت!

فقلت: خلّفته يمتح بالغرب (يسقي بدلو كبير) على النخل وهو يقرأ القرآن.

فقال: يا عبد اللّه! عليك دماء البُدْن إن كتمتني هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟

قلت: نعم، قال: أيزعم أن رسول اللّه نصّ عليه؟

ح ٥٦١، كشف الغمة ج٢ ص ٤٥. وقد رفض أغلب محدثي ومؤلفي مدرسة الخلفاء هذا الحديث وردوه لا لجهة مشكلة في السند، وإن كان فيه عمر بن الحسن الراسبي، وهو الوحيد الذي ضعف في السند. فإنه قد روى الحاكم النيسابوري أحاديث في مستدركه على الصحيحين وفي سندها عمرُ هذا. إلا أن الحديث لما كان فيه إدانة للطريقة التي تمت بها الخلافة بعد النبي، فإن إثبات صحته يحرج بلا شك هؤلاء، وقد صرح بعضهم بالقول أنه لو صح هذا وعلم الخليفة بظلم وقع على الإمام علي فكان لا بد عليه أن يزيل ذلك الظلم!

(١))اليوسفي؛ محمد هادي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٤/ ٢٧٢، وقد نقله عن شرح النهج عن ابن طيفور البغدادي (ت ٢٨٠ هـ) في كتابه (تاريخ بغداد).

قلت: نعم، و أزيدك أني سألت أبي فقال: صدق!

فقال عمر: لقد كان من رسول اللّه في أمره ذروٌ (ارتفاع) من قول لا يثبت حجة و لا يقطع عذرا! ولقد كان يرفع من أمره وقتاً ما، و لقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعت من ذلك! إشفاقا و حيطة على الإسلام! فعلم رسول اللّه أني علمت ما في نفسه فأمسك! وأبى اللّه إلاّ إمضاء ما حتم! ولا وربّ هذه البنية (الكعبة) لا تجتمع قريش عليه أبداً! ولو وليها لانتقضت العرب عليه من أقطارها.

وتكثر المناقشات والمحاورات بينهما، ويبدي الخليفة الثاني ما كان في رأي الخط القرشي من تعمد إبعاد الخلافة عن أمير المؤمنين عليه السلام، ومسوغات ذلك كما ظنها وفي المقابل يبدي ابن عباس ذكاء ملحوظاً وجوابا قوياً لا نعتقد أنه بعيد عن تلقين وتعليم الإمام علي إياه. وفي نفس الوقت يبدي شجاعة أدبية في تخطئة الخليفة والأفكار التي يحملها.

وقد أحسن ابن أبي الحديد إذ حفظ هذه المناقشات والمحاورات، في شرح النهج، فمنها [١]ما ذكره في أنهم ذكروا أبياتاً من المدح العالي، فقال الخليفة عمر: ما أرى هذا المدح يصلح إلا لهذا البيت من بني هاشم لقرابتهم من رسول الله. فشكره ابن عباس وكان جالسا في المجلس، فالتفت إليه الخليفة وقال:

يا بن عباس؛ أ تدري ما منع الناس منكم؟

قال: لا يا أمير المؤمنين!

قال: لكني أدري! قال: ما هو يا أمير المؤمنين؟

قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة و الخلافة فيجخفوا جخفا (يتكبروا)

---

(١) المعتزلي؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١٢/ ٥٣.

فنظرت قريش لنفسها فاختارت ووفقت فأصابت.

فقال ابن عباس: أيميط أمير المؤمنين عني غضبه فيسمع؟

قال: قل ما تشاء!

قال: أما قول أمير المؤمنين إن قريشا كرهت فإن الله تعالى قال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[١] وأما قولك إنا كنا نجخف فلو جخفنا بالخلافة جخفنا بالقرابة ولكنا قوم أخلاقنا مشتقة من خلق رسول الله الذي قال الله تعالى فيه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢]وقال له ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.[٣]

وأما قولك فإن قريشا اختارت فإن الله تعالى يقول﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَة ﴾[٤]وقد علمت يا أمير المؤمنين أن الله اختار من خلقه لذلك من اختار فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لها لوفقت و أصابت قريش.

فقال عمر: على رسلك يا بن عباس أبت قلوبكم يا بني هاشم إلا غشّاً في أمر قريش لا يزول وحقداً عليها لا يحول!

فقال ابن عباس: مهلا يا أمير المؤمنين لا تنسب هاشما إلى الغش فإن قلوبهم من قلب رسول الله الذي طهره الله وزكاه وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى لهم﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهل البيت وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٥] و أما

---

(١) سورة محمد / ٩.
(٢) سورة ن / ٥.
(٣) سورة الشعراء / ٢١٥.
(٤) سورةالقصص / ٦٨.
(٥) سورة الأحزاب / ٣٣.

قولك حقدا فكيف لا يحقد من غُصب شيؤه و يراه في يد غيره.

فقال عمر: أما أنت يا بن عباس فقد بلغني عنك كلام أكره أن أخبرك به فتزول منزلتك عندي!

قال: وما هو يا أمير المؤمنين أخبرني به فإن يك باطلًا فمثلي أماط الباطل عن نفسه و إن يك حقاً فإن منزلتي عندك لا تزول به.

قال: بلغني أنك لا تزال تقول أخذ هذا الأمر منكم حسداً وظلماً قال أما قولك يا أمير المؤمنين حسداً فقد حسد إبليس آدم فأخرجه من الجنة فنحن بنو آدم المحسود.

وأما قولك ظلما فأمير المؤمنين يعلم صاحب الحق من هو.

ثم قال: يا أمير المؤمنين ألم تحتج العرب على العجم بحق رسول الله واحتجت قريش على سائر العرب بحق رسول الله ص فنحن أحق برسول الله من سائر قريش.

فقال له عمر: قم الآن فارجع إلى منزلك!

فقام فلما ولى هتف به عمر أيها المنصرف إني على ما كان منك لراع حقك.!

فالتفت ابن عباس فقال: إن لي عليك يا أمير المؤمنين وعلى كل المسلمين حقاً برسول الله فمن حفظه فحق نفسه حفظ و من أضاعه فحق نفسه أضاع ثم مضى.

والحق يقال: أنه لم يكن أحد بعد المعصوم يستطيع أن يؤدي هذا الأداء البديع، من قوة الحجة وشجاعة الموقف والقدرة على النفوذ إلى الأسباب الحقيقية، ونقض أفكار الخصم، كما أدّاه ابن عباس! كيف لا وهو تلميذ علي عليه السلام، وحامل علمه؟

ابن عباس أيام عثمان:

تشكى الخليفة عثمان من ابن عباس أمام والده العباس،[١] متهما إياه بأنه يتماشى مع علي في قطيعة رحمه وأنه يحرض عليه، وأنه لقرابته من بني هاشم ينبغي أن لا يكونوا معه أقل مما كانوا مع الخلفاء السابقين!!

ولا ريب أن ابن عباس كسائر أصحاب النبي الواعين كانوا يرون مخالفات الخليفة عثمان أمام أعينهم، سواء تلك التي ترتبط بتغيير بعض الأحكام الشرعية من غير دليل واضح، كإتمامه الصلاة في منى للحجاج بعد ست سنوات من خلافته وغير ذلك من الأحكام، أو تلك التي ترتبط بالحكم كتوزيع أموال المسلمين مع إيثار أقاربه وقومه بالنصيب الأوفر واعتباره بيت المال خزانة للخليفة وأقاربه. أو تلك العقوبات التي عاقب بها بعض أصحاب النبي وعدت مجحفة. وهكذا. فكان من الطبيعي لابن عباس وهو الخبير بالأحكام من جهة والمطلع على طريقة[٢] توزيع السابقين للمال. أن ينتقد الخليفة عثمان وهو ما عدّه هذا تأليباً للناس عليه.

كانت نهاية خلافة عثمان بما وصفه بشكل دقيق ومختصر الإمام علي عليه السلام (إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث عليه فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته).

---

(١) البلاذري؛ أنساب الأشراف ٥/ ٤٩٨ قال: (إن عثمان شكى عليا إلى العباس فقال له: يا خال إن عليا قد قطع رحمي وألب الناس ابنُك والله لئن كنتم يا بني عبد المطلب أقررتم هذا الأمر في أيدي بني تيم وعدي،فبنو عبد مناف أحق أن لا تنازعوهم فيه ولا تحسدوهم عليهم).

(٢) الإمام علي؛ نهج البلاغة / الخطبة الشقشقية رقم ٣.

في عهد أمير المؤمنين عليه السلام:

عندما جاءت الخلافة إلى أمير المؤمنين عليه السلام مزهوة كان ابن عباس ينتظر هذا اليوم ويكافح بلسانه وحجته للوصول إليه، فها هو في طليعة أنصار أمير المؤمنين بل ومستشاريه وهو الخطيب في الأيام الأولى الداعي للناس إلى الإسراع في بيعة الإمام والنهوض معه.

وبعد ان أغرى معاوية الزبير وطلحة بكتاب زعم أنه بايع للزبير ومن بعده لطلحة، وما عليهما إلا أن يسيطرا على الكوفة والبصرة، فإن الشام مستوسقة لهما تحت إدارته كما زعم!! جاء الزبير وطلحة يطلبان من الإمام أن يوليهما الكوفة والبصرة! وقد قيل إن أمير المؤمنين عليه السلام عرض هذا الأمر على ابن عباس وكان في ذلك الوقت يقارب الأربعين من العمر، فهو بالإضافة إلى الناحية العلمية التي كان متميزا فيها، هو كذلك من الناحية العقلية ولديه تجربة في العمل السياسي ومتابعة الأوضاع خلال ثلاثة عقود من الزمان.

نعم نحن نعتقد أن المعصوم كالنبي والإمام حيث أنهم أكمل الخلق عقلاً ورأياً، لا يتوقف صواب رأيهم على المشاورة، ولكن حتى يدربوا المسلمين عليها[1] ويجنبوهم الاستبداد بالرأي كانوا يشاورون المسلمين، فقد استشار النبي المسلمين في مواجهة الكفار في معركة الاحزاب، وانتهى إلى الخندق، على الرأي المشهور بإشارة سلمان الفارسي ..

(١) آل سيف؛ فوزي: رؤى في قضايا الاستبداد والحرية: وأيضا :«كان موسى بن جعفر رأيه ممن يوازن به الجبال وربما شاور الأسود من غلمانه فقيل له: تشاور مثل هذا ؟! فقال: إن الله تبارك وتعالى ربما فتح على لسانه .كما نقل عنه ابنه علي بن موسى الرضا، الذي كان بدوره يشاور أصحابه، فقد قال معمر بن خلاد: هلك (مات) مولى لأبي الحسن الرضا فقال: أشر علي برجل له فضل وأمانة، قلت: أشير عليك ؟ قال: نعم إن رسول الله كان يستشير أصحابه ثم يعزم على ما يريد».

فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين البصرة والكوفة هما عين الخلافة، وبهما كنوز الرجال ومكان طلحة والزبير من الإسلام ما قد علمت ولست آمنهما إن وليتهما أن يحدثا أمراً» وبعبارة أخرى، العراق كله البصرة والكوفة، فإذا كانت الشام عند معاوية وأخذ البصرة والكوفة طلحة والزبير. ما الذي يتبقى لك؟

وعندما خرج الزبير وطلحة لتنشب حرب الجمل، أرسل الإمام علي ابن عباس ضمن الوفد الذاهب للكوفة لعزل أبي موسى الأشعري، وتحشيد الناس للخروج للحرب إلى جانب الإمام ذلك أن أبا موسى الأشعري كان مخالفاً للإمام عليه السلام من الأصل، ولم يكن يرتضي خلافته، وفوق هذا كان يعتقد أن حرب الجمل هي فتنة غائمة وليست حرباً عادلة، ليس قضية حق وباطل، وإنما هي باطل مع باطل فلا ينبغي له أن يساهم فيها ولا يعين عليها، وكان يحدث فيما زعم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما قال: أنه ستكون بعدي فتنة القاعد فيها خيرٌ من القائم والنائم فيها خير من القاعد، ونسي هنا ما رواه الخاص والعام من قول النبي (حربك حربي وسلمك سلمي) ومن (علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار) وأمثال ذلك من الأحاديث المتواترة والصريحة في أن مفارق علي ضال وباغ.

وبعد عزل الأشعري خطب ابن عباس في الكوفة كما خطب الإمام الحسن عليه السلام واستحثوا الناس للخروج لنصرة أمير المؤمنين عليه السلام وقاتل أهل الجمل، خرج بعدها مع أمير المؤمنين في حرب الجمل، خرج من الكوفة وأمير المؤمنين عليه السلام خرج من المدينة والتقيا في الطريق قبل الوصول إلى البصرة، وهناك الإمام أوكل إليه أول مهمة وهي مهمة المفاوضة مع الزبير وقال له: يا بن عباس لا تلقَ طلحة أي لا تتفاوض معه، فإنك أن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه هذا التعبير موجود في نهج البلاغة في دلالة على العناد وعدم الحكمة يركب الصعب ويقول هو الذلول، ولكن القَ الزبير وقل له: يقول لك ابن خالك علي عرفتني في الحجاز وأنكرتني

في العراق، فماذا عدا مما بدا؟

أنت في الحجاز في المدينة كنت تراني أفضل الناس، وكنت تستل سيفك على خلافة الاوائل مدافعاً ومناصراً لي في ذلك الوقت مع عدم النصير، الآن وقد اجتمعت الناس كلها عليَ أنكرتني وخرجت علي، فما الذي حصل ؟

يقول الشريف الرضي في شرح النهج: وهذا أول ما سمع من علي عليه السلام هذه الكلمة -ماذا عدا مما بدا؟- لم تسمع من قبل أمير المؤمنين عليه السلام.

فسكت الزبير -حيث لا يملك جواباً- ورجع. والتقى به الإمام نفسه مرة أخرى، وذكره ببعض المواقف التي جمعته مع علي ورسول الله وذكّره بأن النبي قال له: لتقاتلنه وأنت له ظالم! وكان عزمه أن ينسحب لكن عبد الله أبنه ومن أتى معه قالوا له: خفت سيوف بني عبد المطلب!! فتراجع عن قراره.

فأول مهمة أوكلها إليه مهمة المفاوضة مع الزبير، وقيل إن الإمام عليه السلام قال له: أنا أعرف بك حيث بعثتك.

ومهمة التفاوض الثانية التي لم تتم، كانت في ما بعد صفين، حيث انتهى الأمر إلى التحكيم، وكان رأي الإمام أن يفاوض عنه ابن عباس لا سيما وأن طرف معاوية كان عمرو بن العاص وهو داهية معروف! إلا أن أصحاب الجباه السود والعقول الغُفل، أصروا بدوافع قبلية وجاهلية أن لا يحكم فيهم كما قالوا مضريان! (عمرو وابن عباس) ولأن يحكم فيهم يمني بما يكرهون أحب إليهم من أن يحكم فيهم مضري بما يحبون!! وكان ذلك الرفض تحت غائلة التمرد واعلان الحرب على الإمام وعددهم لم يكن بالقليل! ومرشحهم في هذا هو أبو موسى الأشعري وهو وإن كان (لا يهتدي ضرب أخماس بأسداس) كما وصفه الشاعر، إلا أن ميزته كان أنه من أهل اليمن!!

فرك عمرو بن العاص يديه جذلاً لما رأى أبا موسى الأشعري، فهو يستطيع أن يصعد به للسماء أو يهوي به إلى مكان سحيق!! ولم تجدِ نصائح وتوجيهات بل تلقينات عبد الله بن عباس إياه في الاحتجاج ورد الشبهة نفعا في الأشعري الذي كان هواه في غير علي بن أبي طالب!

وبدأت المسرحية الهزلية، فقال أبو موسى لعمرو اصعد المنبر فتكلم! فقال عمرو بن العاص: ما كنت لأتقدمك وأنت أفضل مني فضلا وأقدم هجرة وسناً!

فصعد المنبر، وقال:. إنا قد نظرنا فيما يجمع فيه ألفة هذه الأمة ويصلح أمرها، فلم نر أبلغ في ذلك من خلع هذين الرجلين علي ومعاوية!!. وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من أحببتم!

(العجب أنه يرى خلع علي فيه مصلحة الأمة وألفتها، والقرآن يراه ولياً للمؤمنين ورسول الله يراه مولى الناس وسيدهم!!).

وصعد عمرو بن العاص خطيباً: أيها الناس إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ألا وإني قد خلعت صاحبه كما خلعه، وأثبتُّ صاحبي معاوية.

ضحك عمرو على لحية أبي موسى! وتشاتما فشبه أبو موسى عَمرا بالكلب، وعمرو شبهه بالحمار يحمل أسفارا!

وصدق القائل في هذه الواقعة:

لو كان للقوم رأي يعصمون به   من الضلال رموكم بابن عباس
لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن   لا يهتدي ضرب أخماس بأسداس

مهمة التفاوض الثالثة التي أرسله الإمام فيها، كانت مع الخوارج فهؤلاء بعد أن اضطروا الإمام عليه السلام لقبول التحكيم بدلا عن استمرار القتال وكان جيش الإمام

على قاب قوسين من الانتصار، لكن جهلهم بمكر وخداع عمرو بن العاص بفتنة رفع المصاحف على الرماح، وهم أنفسهم الذين أصروا على الإمام في أن يجعل أبا موسى الأشعري حكماً، كما تقدم قبل قليل، والآن بعد أن تكشفت لهم الخديعة بل خطيئتهم في ذلك، خرجوا على الإمام عليه السلام بزعم أنه حكّم في دين الله!! وأعلنوا العصيان العسكري والتمرد وقطعوا الطريق، فلم يجد الإمام بدّاً من مقاومتهم، لكن طريقة الإمام هي هي، ما كان يبدأ غيره بقتال. فأرسل إليهم لسانه ورسوله وتلميذه، ابن عباس وأوصاه بأن: لا تحاججهم بالقرآن فإن القرآن حمال ذو وجوه. «فقال ابن عباس: أي أمير المؤمنين فأنا أعلم بكتاب الله منهم. في بيوتنا نزل فقال علي: صدقت ولكن القرآن حمال ذو وجوه. تقول ويقولون ولكن حاجهم بالسنن فإنهم لن يجدوا عنها محيصا. فخرج ابن عباس إليهم وعليه حلة حبرة. فحاجهم بالسنن فلم تبق بأيديهم حجة».[(١)]

كما قام الإمام عليه السلام أيضا بمناقشتهم فيمَ الذي نقموه منه حتى خرجوا عليه؟ وأجاب على كل كلماتهم واشتباهاتهم، ولكن عمى البصيرة كان قائد الخوارج إلى القتال وكان هذا هو الذي حصل.

سيرجع الإمام عليه السلام هذه المرة إلى الكوفة ليتخذها عاصمة، فأراد أن يترك في البصرة أثره وثقته ابن عباس والياً، وقد سبق أن ذكرنا أن الكوفة والبصرة هما مصرا العراق الأعظم. وسيتهم بعض المؤرخين هنا ابن عباس بأخذ ما في بيت المال من البصرة والسيطرة عليها، وسيأتي بحث خاص لاحق بهذا الموضوع.

وحين عاد إلى الكوفة، وولد له مولود سماه الإمام باسمه (علي) وكناه بأبي الحسن، بعد أن زاره الإمام كان ذلك في يوم الثامن عشر من شهر رمضان، ليضرب

---

(١) ابن سعد؛ الطبقات الكبرى ١ / ١٨١.

في فجر ليلة التاسع عشر منه، ويجد ابن عباس من الألم ما لا يوصف بالبيان، لفقد إمامه ومعلمه وأبيه الروحي.

وقام ابن عباس مرة أخرى خطيبا في الناس ليعلن لهم عن خلافة الإمام الحسن المجتبى لأبيه أمير المؤمنين (عليهما السلام) وندبهم إلى بيعته، وعاد ابن عباس مرة أخرى إلى ولاية البصرة ليواجه مؤامرات معاوية في إرساله عملائه لبث الفتنة في البصرة وتخذيل الناس عن الإمام الحسن عليه السلام، بينما واجهها ابن عباس بتدابيره المختلفة. بقي والياً للإمام الحسن على البصرة إلى أن جرت الهدنة وتم الصلح وصارت الخلافة الظاهرية لمعاوية.

وبطبيعة الحال لم يكن معاوية يستطيع تحمل وجود ابن عباس في ولاية البصرة فلا بد أنه سيعزله، فانسحب ابن عباس من ولاية البصرة قبل عزله إلى المدينة.

تم الأمر إذن لمعاوية، الأمر الذي كان يتمنى أمثال ابن عباس أن يكون قد مات ولم يشهد ذلك

قد كنت أرجو أن أموت ولا أرى لبني أمية في المنابر خاطباً

لا سيما وقد بدأ معاوية الافصاح عن أفكاره لفظاً وطبقها عملاً، فها هو ينهى عن رواية فضائل آل محمد بين المسلمين قائلا لابن عباس:

فإنا قد كتبنا في الآفاق ننهى عن ذكر مناقب علي وأهل بيته، فكف لسانك.

فقال ابن عباس: يا معاوية أتنهانا عن قراءة القرآن؟!

قال: لا.

قال: أتنهانا عن تأويله؟!

قال: نعم.

قال: فنقرأه ولا نسأل عما عنى الله به؟ ثم قال: فأيهما أوجب علينا قراءته أو العمل به؟

قال: العمل به.

قال: فكيف نعمل به ولا نعلم ما عنى الله؟!

قال: سل عن ذلك من يتأوله غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك.

قال: إنما أنزل القرآن على أهل بيتي فأسأل عنه آل أبي سفيان يا معاوية أتنهانا أن نعبد الله بالقرآن بما فيه من حلال وحرام؟! فإن لم تسأل الأمة عن ذلك حتى تعلم تهلك وتختلف.

قال: اقرأوا القرآن وتأولوه ولا ترووا شيئا مما أنزل الله فيكم، وارووا ما سوى ذلك.

قال: فإن الله يقول في القرآن: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾.(١)

قال: يا بن عباس أربع على نفسك، وكف لسانك، وإن كنت لا بد فاعلا فليكن ذلك سراً لا يسمعه أحد علانية.

ثم رجع إلى بيته فبعث إليه بمائة ألف درهم، ونادى منادي معاوية أن قد برئت الذمة ممن يروي حديثاً من مناقب علي وفضل أهل بيته، وكان أشد الناس بلية أهل

---

(١) الصف / ٨.

الكوفة، لكثرة من بها من الشيعة.(١)

ويرى المحقق السيد الخرسان أن ابن عباس لم يستجب لطلب معاوية، واستمر على روايته الحديث في مناقب أهل البيت ولا سيما الإمام عليا عليه السلام. وأورد نماذج من وقائعه مع من كان يسيء القول في أمير المؤمنين عليه السلام، وكيف واجههم بما يعرف من فضل الإمام وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله في حقه.(٢)

وفي هذه الفترة -يعني أيام معاوية- ضعف بصره كثيرا حتى كان يستعين بقائد، وقد سجل معاوية هذا بقوله له: ما لكم يا بني هاشم(٣)تصابون في أبصاركم ؟ فأجابه ابن عباس على الفور: لكنكم يا بني أمية تصابون في بصائركم!

وينسب إليه أنه قال تعبيرا عن ذلك:

إن يأخذ الله من عيني نورهما   ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي زكي وعقلي ليس ذا دخل   وفي فمي صـارم بالحق مأثور

ويقدر بعض المحققين أن سبب ذلك كثرة البكاء على أمير المؤمنين عليه السلام ثم الحسنين، وأن بدايته كانت مع شهادة الإمام أمير المؤمنين، وفي ذلك يقول

(١) الطبرسي؛ أبو منصور: الاحتجاج ٢/ ١٧.

(٢) الخرسان؛ محمد مهدي: موسوعة عبد الله بن عباس ٥/ ٦٨: قال «من خلال متابعتي لمواقف ابن عباس مع أعداء الإمام تبيّن لي إنّه كان ابن جلاها وطلاع ثناياها في تحدي السلطة وإعلان معارضته، عن طريق التحدث بفضائل الإمام عليه السلام، وكلّ تلك المواقف تنتهي بفوزه على خصومه، وجملة منها كانت في أيام حكم معاوية، فهو لم تلن له قناة، ولم تقرع له صفاة، بل كان مشجاً يسيل غربا، واذا أردت عرض جميع ما وقفنا عليه فاحتاج إلى وقت طويل يعيقنا عن متابعة تاريخه ونحن بهذا السبيل، إلاّ أني أعرض بعض نماذج فيها تحدٍ تسافر لبيان السلطة وصاحبها، ولم أقف على مورد واحد فيه عقاب أو عتاب جوبه به، وهذا يعني أنّ ابن عباس في هذا الميدان كان أقوى من سلطة معاوية، وسلاحه فيه أمضّ وأمضى».

(٣) قيل إن والده العباس وجده عبد المطلب بن هاشم قد أصيبوا في أبصارهم أواخر أعمارهم.

المحقق الخرسان: «وما رجح عندي من كثرة بكائه على الإمام عليه السلام وعلى الحسن والحسين عليهما السلام، وما لم يرجح من إدخاله الماء في عينيه عند الوضوء. ومهما كان السبب، فهو في آخر حكم معاوية كان ضعيف البصر أو كفيفه تقريباً»[١].

وهذا بحسب الظاهر هو أحد الموانع التي جعلته لا يستطيع المشاركة في معركة كربلاء إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام.

وهو وإن لم يشارك في يوم عاشوراء كما تقدم، إلا أن موقفه كان حاسما وشديدا في ما يرتبط بحكم يزيد ويظهر ذلك من رسالته الجوابية على رسالة يزيد اليه وقد سجل في الجواب مخازي يزيد بحيث تصلح أن تبقى وثيقة تاريخية مهمة تشرح ظروف ثورة الحسين وحركته، وتبين تطورات تلك النهضة. وذلك أن ابن عباس رفض بيعة ابن الزبير فأرسل يزيد إلى ابن عباس رسالة، يشكره فيها على رفض بيعة ابن الزبير، ويعتبر ذلك علامة على بيعة ابن عباس له (ليزيد) فرد عليه بهذه الرسالة التي وإن كانت طويلة إلا أنها مهمة ونافعة، نص الرسالة هكذا:

«من عبد الله بن عباس الى يزيد بن معاوية. أمّا بعدُ: فقد بلغني كتابُك بذكر دعاء ابن الزبير إيّاي الى نفسه وامتناعي عليه في الذي دعاني إليه من بيعته، فإنْ يك ذلك كما بلغك فلستُ حمَدك أردتُ ولا وُدَّكَ، ولكنّ الله بالذي أنوي عليم، وزعمتَ أنّك لستَ بناسٍ ودّي فلعمري ما تؤتينا ممّا في يديك من حقّنا إلّا القليل، وإنك لتحبس عنّا منه العريض الطويل، وسألتني أن أحثّ الناسَ عليك وأخذّلهم عن ابن الزبير، فلا ولا سروراً ولا حبوراً، وأنت قتلت الحسين بن عليّ!، بفيك الكثكث، (التراب) ولك الأثلب (المثلبة ما يعاب به) إنّك إنْ تُمنّك نفسك ذلك لعازب الرأي، وإنّك لأنت المفند المهوّر.

---

(١) المصدر السابق ١٠/ ٢١٥ وقد بحث السبب بشكل مفصل في ٤/ ٣٠٢.

لا تحسبني، لا أباً لك، نسيتُ قتلك حسيناً وفتيان بني عبد المطلب، مصابيح الدجى، ونجوم الأعلام، غادرهم جنودك مصرّعين في صعيد، مرمّلين بالتراب، مسلوبين بالعراء، لا مكفَّنين، تسفي عليهم الرياح، وتعاورهم الذئاب، وتُنشي بهم عُرج الضباع، حتّى أتاح الله لهم أقواماً لم يشتركوا في دمائهم، فأجنّوهم في أكفانهم، وبي والله وبهم عززت وجلست مجلسك الذي جلست يا يزيد.

وما أنسَ من الأشياء فلستُ بناسٍ تسليطك عليهم الدعيَّ العاهر ابن العاهر، البعيد رحماً، اللئيم أباً وأمّاً، الذي في إدّعاء أبيك إيّاه ما اكتسب أبوك به إلّا العار والخزي والمذلّة في الأخرة والأولى، وفي الممات والمحيا، إنّ نبيّ الله قال: الولد للفراش وللعاهر الحجر. فألحقه بأبيه كما يُلحَقُ بالعفيف النقيّ ولدُه الرشيد! وقد أمات أبوك السُنّة جهلًا! وأحيا البدع والأحداث المظلّة عمداً!

وما أنسَ من الاشياء فلستُ بناسٍ اطّرادك الحسين بن عليّ من حرم رسول الله إلى حرم الله، ودسّك إليه الرجال تغتاله، فأشخصته من حرم الله الى الكوفة، فخرج منها خائفاً يترقّب، وقد كان أعزّ أهل البطحاء بالبطحاء قديماً، وأعزّ أهلها بها حديثاً، وأطوع أهل الحرمين بالحرمين لو تبوّأ بها مقاماً واستحلّ بها قتالًا، ولكن كره أن يكون هو الذي يستحلّ حرمة البيت وحرمة رسول الله فأكبر من ذلك مالم تكبر حيث دسست إليه الرجال فيها ليقاتل في الحرم، وما لم يكبر ابن الزبير حيث ألحد بالبيت الحرام وعرّضه للعائر وأراقل العالم.

وأنت! لأنت المستحلّ فيما أظنّ، بل لا شك فيه أنّك للمُحرف العريف، فإنّك حلف نسوة، صاحب ملاهٍ، فلمّا رأى سوء رأيك شخص الى العراق، ولم يبتغك ضراباً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

ثمّ إنّك الكاتب الى ابن مرجانة أن يستقبل حسيناً بالرجال، وأمرته بمعاجلته،

وترك مطاولته والإلحاح عليه، حتى يقتله ومن معه من بني عبد المطلب، أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرّهم تطهيرا، فنحن أولئك، لسنا كآبائك الأجلاف الجُفاة الأكباد (أشباه) الحمير.

ثمّ طلب الحسين بن عليّ إليه الموادعة وسألهم الرجعة، فاغتنمتم قلّة أنصاره، واستئصال أهل بيته، فعدوتم عليهم، فقتلوهم كأنّما قتلوا أهل بيت من الترك والكفر، فلا شيء عندي أعجب من طلبك ودّي ونصري! وقد قتلت بني أبي، وسيفك يقطر من دمي، وأنت أحد ثأري، فإن يشأ لا يُطلّ لديك دمي ولا تسبقني بثأري، وإن سبقتني به في الدنيا فقبلنا ما قُتل النبيّون وآل النبيين، وكان الله الموعد، وكفى به للمظلومين ناصراً، ومن الظالمين منتقماً، فلا يعجبنّك أن ظفرت بنا اليوم فو الله لنظفرنّ بك يوماً.

فأمّا ما ذكرت من وفائي، وما زعمت من حقّي، فإن يك ذلك كذلك، فقد والله بايعتُ أباك، وإنّي لأعلم أنّ ابني عمّي وجميع بني أبي أحقّ بهذا الأمر من أبيك، ولكنكم معاشر قريش كاثرتمونا، فاستأثرتم علينا سلطاننا، ودفعتمونا عن حقّنا، فبُعداً على من يجتريء على ظلمنا، واستغوى السفهاء علينا، وتولّى الأمر دوننا، فبُعداً لهم كما بعدت ثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، ومكذّبو المرسلين.

ألا ومن أعجب الأعاجيب، وما عشت أراك الدهرُ العجيبَ، حملك بنات عبد المطلب، وغلمة صغاراً من ولده إليك بالشام كالسبي المجلوب، تُري الناس أنّك قهرتنا، وأنّك تأمر علينا، ولعمري لئن كنت تصبح وتمسي آمناً لجرح يدي، إنّي لأرجو أن يعظم جراحك بلساني ونقضي وإبرامي فلا يستقرّ بك الجدل، ولا يمهلك الله بعد قتلك عترة رسول الله إلّا قليلًا، حتّى يأخذك أخذاً أليماً، فيخرجك

الله من الدنيا ذميماً أثيماً، فَعِش لا أباً لك فقد والله أرداك عند الله ما اقترفت، والسلام على من أطاع الله.»[١].

(١) النجفي؛ نجم الدين: مع الركب الحسيني ١/ ٢٥٠.

ابن عباس وأموال البصرة

نقل الشريف الرضي رضوان الله عليه في كتابِ نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام في فصل الكتب: من كتاب له إلى بعض عماله فقال: إني كنت أشركتك في أمانتي و جعلتك شعاري و بطانتي و لم يكن رجلٌ من أهلي أوثق منك في نفسي لمواساتي ومؤازرتي وأداء الأمانة إلي فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلِب و العدو قد حرِب وأمانة الناس قد خزيت قلبت لابن عمك ظهر المجن ففارقته مع المفارقين وخذلته مع الخاذلين وخنته مع الخائنين فلا ابن عمك آسيت ولا الأمانة أديت.[١]

وقد وقع هذا الكتاب محلاً للكلام بين الرجاليين والمؤرخين وأنه من هو المقصود به ولمن وجهه أمير المؤمنين سلام الله عليه؟

ويمكن أن نرى أن هناك ثلاثة آراء:

الأول: إثبات أن المخاطب هو عبد الله بن عباس، وسيأتي الحديث في أدلتهم. وهؤلاء ينقسمون إلى قسمين: مصرح بتوبته عن خطئه وزلته (مع حذف المبالغات

(١) نهج البلاغة كتاب ٤١.

التي رويت في حجم المال والكتب قيل أنها تبودلت بين ابن عباس والإمام والتي يظهر فيها شدة وخشونة من الطرفين). وآخر: ترك هذا الجانب ولم يصرح فيه بنفي أو إثبات.

الثاني: الرافض لكون المخاطب عبد الله بن عباس! لما يسوقه من الأدلة.

الثالث: المتوقف في الإثبات والنفي، لعدم ترجح جانب منهما لديه.

أما الأول:وهو الرأي المثبت

ذهب البعض بل قيل إنه المشهور- إلى أن المقصود والمخاطب في هذا الكتاب هو عبد الله بن عباس والي الإمام على البصرة وتلميذه ومفاوضه في كثير من المواضع. ويقول هؤلاء بأنه لا ريب أن أمير المؤمنين عليه السلام كان شديداً في مراقبة ولاته وأمانتهم إلى حد أنه عندما سمع عن عثمان بن حنيف الأنصاري أنه استجاب إلى دعوة أحد الأغنياء (وهي مجرد استجابة للدعوة مع أنها ليست حراما من الناحية الشرعية) مع ذلك أخذ الإمام جانب التهذيب الأخلاقي لابن حنيف فأرسل إليه رسالة جاء فيها: وما ظننت أنك تجيب إلى دعوة قوم عائلهم مجفوٌّ وغنيهم مدعوٌّ. وأضاف: ألا وإن لكل مأموم إماما يقتدي به و يستضيء بنور علمه ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه و من طعمه بقرصيه.

فإذا كانت مراقبة الإمام لولاته، هي لهذا الحد الذي ذكرناه، فمن الطبيعي أن يوجه مثله وأشد منه لو حصلت خيانة من ابن عباس!! والذي يتابع فقرات الكتاب إلى آخرها يرى فيها شدة في العتاب والتقريع، فالشخص الذي تم توجيه الكتاب إليه: ابن عم الإمام وهو ليس شخصا عاديا بل هو شعاره وبطانته ومطلع على كل أحواله وقضاياه ومشارك له في كل أموره! فلما تغيرت الأمور على الإمام وكان المتوقع في مثل هذه الأوقات أن تكون معونته للإمام أعظم وإذ به ينقلب عليه

ويأخذ الأموال، مختطفا إياها اختطاف الذئب دامية المعزى ويحملها إلى الحجاز كأنه قد حمل إلى أهله تراثاً من أبيه وأمه!!

وقد ذهب كما ذكرنا المعظم إلى هذا، ومنهم الشيخ علي بن ميثم البحراني[١]يقول: هو ابن عباس و هذا هو المشهور عند الناس وكذلك ذهب إليه الشيخ محمد جواد مغنية[٢]ومنهم السيد محمد مهدي الخرسان صاحب موسوعة ابن عباس ، ومنهم السيد محسن الأمين[٣]ومنهم: الشيخ محمد باقر المحمودي[٤]، ومن خلال نقل مختصر أقوالهم سيتبين أدلتهم على هذا الرأي:

أما الشيخ ميثم البحراني فإنه بعد نقل كلام ابن أبي الحديد في شرح النهج، قال «المشهور أن هذا الكتاب إلى عبد الله بن عباس».[٥]

(١) الشيخ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٩٩ هـ) محدث وفقيه ومتكلم شيعي عاصر الخواجة نصير الدين الطوسي والعلامة الحلي وأخذ منهما وأخذا منه، ودرس على المحقق الحلي صاحب الشرائع، له مؤلفات كثيرة منها: اختيار مصباح السالكين، وقواعد المرام في علم الكلام، كما له ٣ شروح على نهج البلاغة الصغير والوسط والكبير.

(٢) الشيخ محمد جواد مغنية عالم من جبل عامل بلبنان، ولي رئاسة القضاء الجعفري، وهو مؤلف مكثر ومجيد في الموضوعات الإسلامية والاجتماعية، له أكثر من ٦٠ كتابا تنوعت بين الفقه والفقه المقارن وأصوله والتفسير وشرح نهج البلاغة والعقائد والكتابات الاجتماعية والثقافية، وراجت كتبه في الستينات والسبعينات الميلادية بين الشباب لا سيما تلك التي تجادل الفلسفات الوافدة والاشكالات العقائدية الجديدة .توفي سنة ١٤٠٠ هـ.

(٣) السيد محسن الأمين العاملي (ت ١٣٧١ هـ) فقيه مجتهد، وأديب محقق شيعي. له الكثير من الكتب لكن (أعيان الشيعة) أهم مؤلفاته، وهو موسوعة كبيرة تتضمن ترجمة لحياة اعلام الشيعة. من أهم أساتذته الشيخ محمد طه نجف، والآقا رضا الهمداني، والآخوند الخراساني.

(٤) الشيخ محمد باقر المحمودي؛ عالم دين من إيران توفي ١٤٢٧ هـ، حقق الكثير من الكتب أكثرها في فضائل الأئمة المعصومين ﷺ، وله عدة مؤلفات أهمها نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة (١٤) مجلدا.من تلامذة المرجع السيد محسن الحكيم والسيد عبد الهادي الشيرازي، والشيخ حسين الحلي.

(٥) البحراني؛ الشيخ ميثم: شرح نهج البلاغة ٥/ ٨٦٨.

وتوسع الشيخ محمد باقر المحمودي في بيان بعض الوجوه التي اعتمد عليها فقال: «قد استفاضت الأخبار من طريق الشيعة وأهل السُنّة أنّه رضي الله عنه أخذ ما في بيت مال البصرة، وأغضب أمير المؤمنين عليه السلام بفعله هذا، بل الأخبار في هذا المعنى متواترة تواتراً إجمالياً.

فإن قيل: إنّ جلالة ابن عبّاس وتفانيه في ولاء أمير المؤمنين عليه السلام واستقامته على ولائه حتّى مات مانعة من الأخذ بهذه الأخبار، فلا تعويل عليها حتّى على فرض صحّتها، مع أنّها بين مرسلات مجهولة الرواة، وبين مسندات ضعاف السند.

قلنا: قد أشرنا أنّ الأخبار متواترة إجمالاً، ولا يعتبر في الخبر المتواتر عدالة المخبر، أو كونه ثقة، فإنّ التواتر يفيد العلم، ولو لم يكن من يخبر به من أهل الثقة.

والحاصل، إنّ في مقام الإثبات والاحتجاج في أيدينا أخبار كثيرة مروية من طريق الشيعة وأهل السُنّة أنّ ابن عبّاس رضي الله عنه أخذ من بيت المال زائداً عن عطائه ونصيبه، ولا استحالة في ذلك في مقام الثبوت، ولا الإثبات معاً، فيتعيّن الأخذ بها، ولا موجب لردّها.

والحاصل، إنّ في مقام الإثبات والاحتجاج في أيدينا أخبار كثيرة مروية قد نقلت كتب عديدة عنهما عليهما السلام في هذا الموضوع، ولكن لا يصحّ جميعها كما أنّها ليست بباطل جميعاً، بل بعضها صحيح أي مطابق للواقع وصدر منهما، لا أنّه صحيح السند وبعضها ممكن، وبعضها باطل، فالصادر منها المطابق لنفس الأمر، الأربعة المذكورة هنا مع جوابها عن ابن عبّاس، فإنّها قد استفيض نقلها عن الثقات وغيرهم، ويكون الكلام فيها من سنخ كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

وأمّا الباطل منها، فهو ما ذكره السبط بن الجوزي، وابن أبي الحديد، والكشي، وجعلوه آخر كتاب لابن عبّاس إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وهو: أمّا بعد، فإنّك قد

أكثرت عليَّ، ووالله لأن ألقى الله قد احتويت على كنوز الأرض كلّها ذهبها وعقيانها ولجينها أحبّ إليَّ من أن ألقاه بدم امرئ مسلم، والسلام». (١)

وإلى نفس النتيجة انتهى السيد محمد تقي الحكيم في كتابه عبد الله بن عباس فإنه بعد أن عرض إلى مناقشة الروايات المثبتة ولم يقبلها بعرضها العريض وتفاصيلها، قال: «على أن هناك ملابسات غير ما ذكرنا تمنع من تصديقها أشار إليها ابن أبي الحديد. على أننا لو حاكمنا نصوصها تاريخياً وجدنا ما بأيدينا من الروايات المسندة إلى مشاهديها تنتهي إلى أبي الكنود. فلو صححنا الجميع كانت الجهالة في الجماعة كافية لوهن الحديث. والطريق إلى الكشي رجل يماني، وجهالته كافية في وهن ما يرويه. فلهذه الاعتبارات لا نستطيع الإيمان بهذا التفصيل كما لا نستطيع الإيمان بأنها مختلفة من الأساس.

والطبيعي أن نقول إن يده امتدت لأي اعتبار إلى بيت المال فتجاوزت حدودها المرسومة من قبل الإمام عليه السلام وإن أبا الأسود كتب بذلك إلى إمامه والإمام كتب إله مؤنباً لأن الإمام لم يعود عماله السكوت على هناتهم وهم المسؤولون عن حقوق الناس! ثم دارت بينهما بعض المكاتبات انتهت بإرجاع ما أخذ من مال ورضا الإمام عليه السلام عنه وبقائه على موضعه بالبصرة. والسند التاريخي لذلك هو ما ورد في كتاب اليعقوبي». (٢)

وكذلك ذهب إلى نفس الرأي السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة حيث قال: إنكار أخذ ابن عباس المال من البصرة وإنكار كتاب أمير المؤمنين ع إليه المقدم ذكره صعب جداً بعد ملاحظة ما تقدم ولا يحتاج فيه إلى تصحيح روايات الكشي

(١) المحمودي؛ محمد باقر: نهج السعادة ٥/ ٣٤١، ٣٤٥.
(٢) الحكيم؛ محمد تقي: عبد الله بن عباس شخصيته وآثاره ١/ ٣٩٤.

وبعد ما ذكرناه من الشواهد على اشتهار الأمر في ذلك كما أن إخلاص ابن عباس لأمير المؤمنين ع وتفوقه في معرفة فضله لا يمكن إنكاره والذي يلوح لي ان ابن عباس لما ضايقه أمير المؤمنين عليه السلام في الحساب عما اخذ ومن أين اخذ وفيما وضع كما يقتضيه عدله ومحافظته على أموال المسلمين وعلم أنه محاسب على ذلك أدق حساب وغير مسامح في شيء سولت له نفسه اخذ المال من البصرة والذهاب إلى مكة وهو ليس معصوم وحب الدنيا مما طبعت عليه النفوس فلما كتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام ووعظه وطلب منه التوبة تاب وعاد سريعاً. وعدم نص المؤرخين على عوده لا يضر بل يكفي ذكرهم انه كان بالبصرة عند وفاة أمير المؤمنين كما دل عليه كتابه السابق إلى معاوية اما الجواب الأخير الذي زعموا انه أجاب به أمير المؤمنين فمعاذ الله ان يصدر منه والله العالم بحقائق الأحوال.[١]

الرأي الثاني: الرافض للقصة:

وقد استبعد قسم من العلماء القصة، لمكانة ابن عباس من الإمام أولا، ولبقائه في ولاية البصرة واليا من الإمام إلى وفاته ثانيا، ولضعف أسانيدها ثالثاً، ولما جاء في عبارات بعض رسائلها مما لا يمكن صدوره من ابن عباس لإمامه علي، ولا العكس رابعاً، ودور الأمويين في تشويه سمعة أصحاب الإمام عليه السلام وابن عباس في طليعة أصحابه خامساً. وسيأتي في عرض آرائهم بعض أدلتهم:

فممن رفض هذه القصة جازماً، السيد ابن طاووس كما نقل عنه في الأعيان،[٢] بقوله في حق ابن عباس: حاله في المحبة والإخلاص لمولانا أمير المؤمنين وموالاته والنصر له والذب عنه والخصام في رضاه والمؤازرة له مما لا

---

(١) الأمين؛ السيد محسن: أعيان الشيعة ١/ ٥٢٣.
(٢) نفس المصدر والصفحة.

شبهة فيه ثم قال معرضا بأخبار الذم، ومثل الحَبر موضع أن يحسده الناس ويباهتوه: كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغياً إنه لدميم. ولو ورد في مثله ألف رواية أمكن أن تعرض للتهمة فكيف بهذه الأخبار الضعيفة الركيكة ؟

ويظهر من السيد الخوئي أيضا عدم قبوله لتلك الروايات: بعد أن عرضها وناقشها سندا قال[١]: « هذه الرواية (التي نسب فيها إليه تعيير أمير المؤمنين بأنه قتل المسلمين الأبرياء!) وما قبلها من طرق العامة، وولاء ابن عباس لأمير المؤمنين(عليه السلام)وملازمته له هو السبب الوحيد في وضع هذه الأخبار الكاذبة و توجيه التهم و الطعون عليه، حتى إن معاوية لعنه الله كان يلعنه بعد الصلاة! مع لعنه عليا عليه السلام والحسنين عليهما السلام وقيس بن عبادة والأشتر!! كما عن الطبري وغيره، وأقل ما يقال فيهم أنهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف كان يلعنهم ويأمر بلعنهم»!!.

وانتهى في المعجم أخيرا إلى القول: «والمتحصل مما ذكرنا أن عبد الله بن عباس كان جليل القدر، مدافعا عن أمير المؤمنين عليه السلام والحسنين عليهما السلام، كما ذكره العلامة و ابن داود».

وكذلك انتهى العلامة الشيخ محمد تقي التستري في كتابه (قاموس الرجال)[٢] إلى التشكيك في تلك الرواية بل الروايات القادحة لابن عباس، ووصمها بأنها موضوعة، وكتب في ذلك (٧٤) صفحة مشحونة بالدفاع عنه، فردّ أولًا على ابن أبي الحديد في توقفه في تكذيب النقل حيث أطبق الرواة كما قال على نقله، فرد عليه بأنه عندما يتعارض النقل مع العقل نقدم العقل.[٣]وإذا كان معلوما ملازمته

(١) الخوئي؛ السيد أبو القاسم: معجم رجال الحديث ١١/ ٢٥٤.

(٢) التستري؛ الشيخ محمد تقي: قاموس الرجال ٦/ ٤٢٦ و٤٣٣.

(٣) لا سيما وأن المعروف عن ابن أبي الحديد أنه معتزلي وهم يقدمون العقل على النقل إذا عارض هذا ذاك.

للإمام في حياته وبعد مماته، ولا استماله معاوية مع انتهازه فرص ذلك. قطعنا بأن النقل باطل! فلو كان النقل اتفاقيا مع معارضته العقل لما قبلناه. فكيف إذا لم يكن اتفاقيا وقد أنكره جمع منهم عمرو بن عبيد؟

وقد ألف السيد جعفر مرتضى العاملي،[١] رسالة خاصة في هذا الموضوع بعنوان ابن عباس وأموال البصرة، انتهى فيها إلى القول: «نحن نعتقد: إن هذه الرواية بتمامها من نسج الخيال، لأننا نجد في الدلائل والشواهد التاريخية ما يدل على أنها لا يمكن أن تصح، وما يمكن أن يصح - لو كان لهذه القضية أصل - هو رواية ابن أعثم الكوفي الآتية».[٢]

وبعد هذا عاد ليسجل الملاحظات التاريخية على مجموع الروايات، فقال ما مختصره:

١. سن ابن عباس حين وقوع القصة المفترضة كان يناهز ٤٣، وقد وصل من ناحية العلم والحكمة إلى درجته العالية حتى قيل فيه هو رأس الناس بعد علي عليه السلام، أفتراه يقدم على ما يشين أمره بهذا النحو ؟

٢. رواة هذه الروايات بين مجاهيل ومنحرفين عن الإمام،

٣. بعضها يدين فيه ابن عباس قتل الإمام للناس بينما هو يدافع عنه ويراه لتشييد الحق وكان مشاركا في تلك الحروب.

٤. التشكيك في إمكانية تبادل حوالي ١٣ رسالة بين الإمام وابن عباس في سنة

---

(١) السيد جعفر مرتضى العاملي: مؤرخ محقق، وعالم مدقق توفي ٢٧ صفر ١٤٤١ هـ له أكثر من ١٠٠ كتاب ورسالة أهمها: الصحيح من سيرة النبي الأعظم (٣٥ مجلدا) والصحيح من سيرة الإمام علي (٥٣ مجلدا)، والحسين في السيرة والتاريخ والأدب.

(٢) العاملي؛ جعفر مرتضى: ابن عباس وأموال البصرة ٢٧.

٤٠ وهي التي يفترض أن السرقة المزعومة حصلت فيها، مع استشهاد الإمام في شهر رمضان منه يعني خلال ٩ أشهر! ويفترض أن ابن عباس قد ذهب إلى مكة، فالمسافة بينها وبين الكوفة بعيدة!

ومن الرافضين الشيخ محمد محمدي ري شهري: فقد أشار في الموسوعة[١] إلى اختلاف أنظار الباحثين حول القضية، ونوه إلى: «النقطة المهمة التي ينبغي ألا ننساها في مثل هذه الموضوعات هي دور المفتعلين للحوادث والمرجفين. وقد وقف حسن بن زين الدين المشهور بصاحب المعالم على دور الأمويين في اختلاق هذه الحادثة، وأكده باحثون مثل السيد جعفر مرتضى العاملي.

وسيتيسر علينا فهم هذه النقطة إذا عرفنا أن ابن عباس - نظراً إلى مكانته السامية وسمعته العلمية التي لا تنكر - كان المدافع الشجاع عن علي وآل علي (عليهم السلام) في ذلك العهد الأموي الأسود، كما كان المنتقد الجريء للأمويين والكاشف عن فضائحهم. علما أننا لا نقول بعصمته، ولا ننكر احتمال خطئه، بيد أنا نستبعد قبول جميع ما جاء في كتب التاريخ حول هذا الموضوع، ولا نراه لائقا بشأن ابن عباس».

الرأي الثالث: التوقف

وفيما عرضنا مواقف للمثبتين وأخرى للرافضين فإن هناك من توقف في الموضوع ولم يتخذ جانب الايجاب أو السلب، لعدم ترجح جانب عنده على الآخر، وسنعرض بعض أقوالهم؛ فمنهم ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح النهج؛ فإنه بعد أن رد على القطب الراوندي في قوله أن الكتاب هو لعبيد الله بن العباس لا عبد الله، رد عليه بأن عبيد الله لم يكن في البصرة بل في اليمن قال:

(١) الري شهري؛ محمدي: موسوعة الإمام علي ١٢/ ١٩٩.

«وقد أشكل علي أمر هذا الكتاب فإن أنا كذبت النقل وقلت هذا كلام موضوع على أمير المؤمنين عليه السلام خالفت الرواة فإنهم قد أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه وقد ذكر في أكثر كتب السيرة وإن صرفته إلى عبد الله بن العباس صدني عنه ما أعلمه من ملازمته لطاعة أمير المؤمنين في حياته وبعد وفاته وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى من أصرفه من أهل أمير المؤمنين عليه السلام والكلام يشعر بأن الرجل المخاطب من أهله ومن بني عمه فأنا في هذا الموضع من المتوقفين».[١]

وقريب من هذا الموقف ما ذهب إليه الشيخ حسين علي المنتظري[٢]في كتابه ولاية الفقيه: فإنه قال أولا: يشهد لكونه ابن عباس التعبيرات الواردة من الكتاب ثم أورد رواية تنتهي إلى الزهري، ثم نقل قصة شيخ من أهل اليمامة عن كتاب رد فيه ابن عباس على كتاب الإمام، ورد الإمام الأشد عليه ثم رد ابن عباس كأنه يشكك في حروب الإمام بقوله لأن يلقى الله بجميع ما في الأرض أحب من القى بدم رجل مسلم. ثم يقول إن من يعرف حال ابن عباس في المحبة والإخلاص لإمامه. كيف يمكن أن يصدر منه هذه الخيانة؟ لا سيما وأن معاوية كان يستميل الأشخاص بالمال كما استمال أخاه ولم يسمع ميل عبد الله له، فيعلم بذلك طهارة ذيله وكذب القصة. على أن الروايات التي نقلت من الكشي ضعاف ويعلم عداوة بعض رواتها لأهل البيت. فلا يعتمد عليها.

ثم يقول: إن ما يسهل الخطب أنه ليس معصوما مع جلالته، ولعله بعدما يئس من استقرار الأمور لإمامه فكر في ادخار شيء من المال لبني هاشم والنفس

(١) ابن أبي الحديد؛ شرح نهج البلاغة ١٦ / ١٧٣.

(٢) الشيخ حسين علي منتظري: فقيه من اصفهان، كان له دور مهم في حركة السيد الخميني ضد نظام الشاه، يعد الشيخ عبد الكريم الحائري والسيد حسين البروجردي أهم أساتذته في مدينة قم، ويعتبر كتاب (ولاية الفقيه فقه الدولة الإسلامية) أهم كتبه. توفي سنة ١٤٣١ هـ.

أمارة بالسوء! ثم قال بعد اللتيا واللتي يشكل الجزم بكون المخاطب عبد الله بن عباس».[١]

(١) المنتظري؛ حسين علي: ولاية الفقيه ٢/ ٦٧٥.

عبد الله بن جعفر الطيار

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللهم أخلف جعفرًا في ولده، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه»

رافق الاعلان عن نتيجة معركة مؤتة سنة ٨ للهجرة، من قبل رسول الله ﷺ، عدد من الحوادث:

- فقد لاحظ المسلمون التأثر الشديد الذي اعترى رسول الله، والحزن العميق الذي طبع يوم النبي، حتى قيل إنه كان يدخل بيته ويبكي جعفراً وزيداً، حتى قال له بعضهم: لطالما بكيتَ عليهما أي بكيت كثيرًا على هذين الشخصين، فقال: بلى كانا يؤنساني ويحدِّثاني، فذهبا جميعًا.
- كذلك فقد اتجه النبي إلى بيت جعفر الطيار وطلب من زوجته أسماء أن تحضر أبناءه، فجاءته بهم فذرفت عيناه، وعزاها بزوجها، وإذا بفاطمة الزهراء تدخل وهي تبكي وتنادي: وا عماه! فقال النبي ﷺ: على مثل جعفر فلتبكِ البواكي!

- وأمر بيوت بني هاشم أن يصنعوا لآل جعفر (زوجته وأولاده) الطعام، لانشغالهم بمصيبتهم!!
- أخذ بيد عبد الله بن جعفر وقال: اللهم اخلف جعفرا في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه! (ثلاث مرات).[١]

في ذلك الوقت كان عمر عبد الله حوالي سبع سنوات، وقد طوقه النبي بدعائه عموما وخصوصا، فقد عمه بالطلب من الله أن يخلف جعفرا في أهله، وأهله يشمل أولاده ومنهم عبد الله، وخصه بدعائه أن يبارك الله له في صفقة يمينه وتجارته! ووجد عبد الله أثر ذلك الدعاء في حياته، حيث كانت حياة رخية من الناحية المالية

توفر لعبد الله في صباه أفضل بيئة ممكنة، وذلك أنه بعد شهادة أبيه تزوجت أمه أسماء بنت عميس بأبي بكر لمدة قصيرة إلى حين وفاته في سنة ١٣ للهجرة، لتنجب له محمدا، ومن ثم تزوجها أمير المؤمنين علي عليه السلام وبقيت معه إلى ما قبل شهادته بسنتين حيث توفيت سنة ٣٨ هـ. فكان عبد الله تحت رعاية أمير المؤمنين عليه السلام، وفي معية الحسنين، ونجد الكثير من القصص والروايات تجمع هذا الثلاثي المتقارب في السن! ويأتي ذكر عبد الله في الحوارات مع معاوية وعمرو بن العاص.

فإنه يسجل له التاريخ خروجه مع أمير المؤمنين والحسنين، لتوديع أبي ذر الغفاري عندما أمر عثمان بتسفيره وإخراجه من المدينة، وقال لمروان! أخرجه ولا تدع أحداً يكلّمه! فحضر مروان على ناقة ومعه جمل ليحمله وأهله، وحضر أمير المؤمنين علي عليه السلام ومعه الحسنان وعبد الله بن جعفر وعمّار بن ياسر ليشيّعوه، فلمّا بصر أبو ذرّ بعليّ عليه السلام ومعه الحسنان قام إليه فقبّل يده وبكى، وقال: إنّي إذا رأيتك ورأيت ولدك ذكرت قول رسول الله فيكم فلا أصبر حتّى أبكي، فبدأ عليّ عليه السلام

(١) الطبري؛ أحمد بن عبد الله: ذخائر العقبى ٢٢١.

يكلّمه، فقال له مروان وهو على ناقته: إنّ أمير المؤمنين، قد نهى أن يكلّمه أحد! فرفع عليّ السوط وضرب به وجه ناقة مروان، وقال له: تنحّ! نحاك الله إلى النّار.(١)

وهكذا فأنت ترى وقع خطوات عبد الله بن جعفر على موضع قدم أمير المؤمنين عليه السلام، فقد نقلوا أنه هو الذي أجرى على الوليد بن عقبة حد شرب الخمر أيام عثمان بعدما شهد عليه الشهود،

ويقال أن عبد الله كان مع الحسنين في فترة دفاعهما عن عثمان حتى لا يقتحم قصره وتهتك حرمة أهله وكان ذلك بأمر الإمام علي عليه السلام.(٢)

لما صارت الخلافة إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام شارك عبد الله بن جعفر في حروب الإمام جميعها، وكان بالإضافة إلى ذلك أحد مستشاريه إلى جنب الحسنين عليهما السلام، وزاد من قربه بالإضافة إلى كونه تحت رعاية الإمام وفي بيته نظرا لكون والدته أسماء زوجة للإمام عليه السلام، أن الإمام علياً زوجه كبرى بناته زينب العقيلة، ونحن وإن لم نعرف بالضبط تاريخ ذلك الزواج إلا أن العادة كانت جارية على التبكير في الزواج في ذلك المجتمع لأسباب دينية تشير فيها الروايات إلى استحباب التزويج للبنت وهي صغيرة!! ولأسباب اجتماعية كان فيها المجتمع العربي يرى زواج البنت صغيرة هو الأفضل.

---

(١) (اليوسفي؛ محمد هادي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٤/ ٣٧١.

(٢) من هذه الأسطر القليلة ترى عزيزي القارئ كيف أن عليا مع الحق والحق معه، فهو في نفس الوقت الذي يشايع أباذر ويودعه من غير أن يعلن التمرد الظاهري الشامل، ينصر الحق فلا يعتني بنهي عثمان عن تشييعه، لأنه ظلم. إلا أنه في نفس الوقت لا يستسلم لحالة الغضب والموقف الناقم على عثمان، فهو يصد عنه هجمة الثائرين عليه لكيلا تهتك حرمة منزله وأهله، وإن كان يراه خاطئا في تصرفاته وإدارته، ولكن هذا لا يمنعه من إقامة الحد على الوالي الوليد بن عقبة بعدما ثبت عليه شرب الخمر، وتردد الحاكم في إقامة الحد عليه!!

وعلى أي حال فقد أضافت هذه المصاهرة عنصرا جديدا لارتباط عبد الله بن جعفر بالإمام علي عليه السلام، فهو عمه: أخ أبيه، وزوج والدته، ووالد زوجته! ومثل ذلك أيضا صار في مصاحبته للحسنين عليهما السلام.

واستمر في هذا الاتجاه إلى أن استشهد أمير المؤمنين عليه السلام فكان من أوائل من بايع الحسن المجتبى بالخلافة ودعا لبيعته! وخرج معه حتى انتهى الأمر إلى المهادنة بين الإمام الحسن ومعاوية، وعاد كما عاد بقية بني هاشم من الكوفة إلى المدينة.

ومن هنا وجدنا العديد من الروايات التي يشترك فيها الثلاثة: الحسنان وعبد الله بن جعفر، فمنها ما يذكر عادة في باب مناقب الحسنين وعبد الله، مما روي عن أبي الحسن المدائني قال: خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجا، ففاتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا، فمروا بعجوز في خباء لها، فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم.

فأناخوا بها، وليس لها إلا شويهة في كسر الخيمة، فقالت: احلبوها وامتذقوا لبنها! ففعلوا ذلك. وقالوا لها: هل من طعامٍ ؟ قالت: لا، إلا هذه الشاة، فليذبحنها أحدكم حتى أهيئ لكم شيئا تأكلون! فقام إليها أحدهم فذبحها، وكشطها ثم هيأت لهم طعاما فأكلوا، ثم أقاموا حتى أبردوا، فلما ارتحلوا قالوا لها: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا فإنا صانعون إليك خيراً.

ثم ارتحلوا، وأقبل زوجها وأخبرته عن القوم والشاة، فغضب الرجل وقال: ويحك! أتذبحين شاتي لأقوام لا تعرفينهم ثم تقولين: نفر من قريش؟ ثم بعد مدة ألجأتهم الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها وجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه ويعيشان منه، فمرت العجوز في بعض سكك المدينة فإذا الحسن على باب داره

جالس، فعرف العجوز وهي له منكرة، فبعث غلامه فردها، فقال لها: يا أمة الله! أتعرفينني ؟ قالت: لا.

قال: أنا ضيفك يوم كذا وكذا.

فقالت العجوز: بأبي أنت وأمي! لست أعرفك! فقال: فإن لم تعرفيني فأنا أعرفك، فأمر الحسن فاشترى لها من شاء الصدقة ألف شاة، وأمر لها بألف دينار! وبعث بها مع غلامه إلى أخيه الحسين، فقال: بكم وصلك أخي الحسن؟ فقالت: بألف شاة وألف دينار! فأمر لها بمثل ذلك! ثم بعث بها مع غلام إلى عبد الله بن جعفر.

فقال: بكم وصلك الحسن والحسين ؟ فقالت: بألفي دينار وألفي شاة، فأمر لها عبد الله بألفي دينار وألفي شاة، وقال: لو بدأت بي لأتعبتهما، فرجعت العجوز إلى زوجها بذلك.[١]

وبالرغم من سعي الأمويين ليفصلوا بين عبد الله وبين الحسنين بمختلف الوسائل، إلا أنهم لم يفلحوا في ذلك، ومن تلك الوسائل (تعظيم) شأن عبد الله بن جعفر، واعتباره ندا للحسنين وبالتالي فمن المناسب أن لا يكون مطيعا لهما، وسائرا في ركابهما! وبالطبع هذا سينفع الأمويين حيث أن تعدد مراكز القوة والشخصيات في بني هاشم يمنع من تركزها في يد الحسن أو الحسين. فكان معاوية كثيرا ما يشير إلى عبد الله بأن أباه جعفرا الطيار لا يقل منزلة عن والد الحسنين، وأنه لا يقل عنهما شأنا! بل هو سيد بني هاشم!

فمن ذلك ما نقل عنه: قال عبدالله بن جعفر بن أبي طالب: كنت عند معاوية

(١) نسبه بعضهم إلى المستجاد من فعلات الأجياد «للقاضي التنوخي البصري أبو علي (المتوفى: ٣٨٤هـ)، وفي البحار للعلامة المجلسي ٤٣/ ٣٤٨ ناقلا عن كشف الغمة للاربلي.

ومعنا الحسن والحسين عليهما السلام وعنده عبدالله بن عباس فالتفت إليّ معاوية فقال: يا عبدالله ما أشدَّ تعظيمك للحسن والحسين؟! وما هما بخير منك ولا أبوهما خير من أبيك، ولولا أن فاطمة بنت رسول الله لقلت ما أمك أسماء بنت عميس بدونها.

فقلت: والله إنّك لقليل العلم بهما وبأبيهما وبأمِّهما، بل والله لهما خيرٌ منّي، وأبوهما خيرٌ من أبي، وأمهما خير من أمي.

يا معاوية، إنك لغافلٌ عمّا سمعته أنا من رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فيهما وفي أبيهما وأمّهما، قد حفظته ووعيته ورويته.

قال: هات يا بن جعفر فو الله ما أنت بكذّاب ولا متَّهم ؟

فقلت: إنَّه أعظم مّما في نفسك.

قال: وإن كان أعظم من أحدٍ وحِراء جميعا، فلست أبالي إذا قَتَل الله صاحبك،[1]وفرَّق جمعكم وصار الأمر في أهله، فحدِّثنا فما نبالي بما قلتم ولا يضرُّنا ما عدمتم.

قلت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وقد سُئل عن هذه الاية:﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ إنّي رأيت اثني عشر رجلاً من أئمّة الضلالة[2] يصعدون منبري وينزلون، يردّون أمَّتي على أدبارهم القهقرى

---

(١) يقصد أمير المؤمنين عليه السلام، والمعنى أنه ما دام الحكم لنا فلا يهمني ما تقولونه!

(٢) من ناحية العدد يعد المؤرخون ١٤ حاكما من حكام الأمويين من زمان معاوية إلى انتهاء دولتهم، ويمكن أن يكون الحديث ناظرا إلى الاشخاص الذين حكموا بالفعل لمدة معقولة، وحينها لا بد أن يستثنى حاكمان: معاوية بن يزيد بن معاوية، المعروف بمعاوية الثاني حيث لم يمكث في الحكم غير أربعين يوما، وابراهيم بن الوليد الذي لم يكن له حكم إلا في مدينة دمشق فقط وكانت مدة حكمه سبعين يوما.

وسمعته يقول: إنَّ بني أبي العاص إذا بلغوا خمسة عشر رجلاً جعلوا كتاب الله دخلاً، وعباد الله خولاً، ومال الله دولاً.

يا معاوية: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر وأنا بين يديه وعمر بن أبي سلمة، وأسامة بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وسلّمان الفارسي، وأبو ذر، والمقداد، والزبير بن العوام، وهو يقول: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ فقلنا: بلى. يا رسول الله، قال: أليس أزواجي أمَّهاتكم؟!

قلنا: بلى يا رسول الله.

قال: مَن كنت مولاه فعليٌّ مولاه، أولى به من نفسه، وضرب بيده على منكب عليّ فقال: اللهمَّ وال مَن والاه، وعاد من عاداه، أيّها الناس، أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ليس لهم معي أمر، وعليٌّ من بعدي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ليس لهم معه أمر، ثمّ ابني الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ليس لهم معه أمر، ثمّ عاد فقال: أيّها الناس، إذا أنا استشهدت فعليّ أولى بكم من أنفسكم، فإذا استشهد عليٌّ فابني الحسن أولى بالمؤمنين منهم بأنفسهم، فإذا استشهد الحسن فابني الحسين أولى بالمؤمنين منهم بأنفسهم، فاذا استشهد الحسين فابني علي بن الحسين أولى بالمؤمنين منهم بأنفسهم ليس لهم معه أمر، ثم أقبل عليّ عليه السلام فقال: يا علي، إنك ستدركه فأقرأه مني السلام، فإذا استشهد فابني محمد أولى بالمؤمنين منهم بأنفسهم، وستدركه أنت يا حسين فأقرأه مني السلام، ثم يكون في عقب محمد رجال، واحد بعد واحد، وليس منهم أحد إلاّ وهو أولى بالمؤمنين منهم بأنفسهم ليس لهم معه أمر، كلّهم هادون مهتدون.

(الى أن قال): فقال معاوية: يا ابن جعفر، لقد تكلّمت بعظيم ولئن كان ما تقول حقّاً لقد هلكت أُمّة محمد ﷺ من المهاجرين والانصار غيركم أهل البيت وأولياؤكم

وأنصاركم ؟ فقلت: والله إنّ الّذي قلتُ حقٌّ سمعته من رسول الله ﷺ.

قال معاوية: يا حسن ويا حسين ويا بن عباس ما يقول ابن جعفر ؟! فقال ابن عباس: إن كنت لا تُؤمن بالذي قال فأرسل إلى الّذين سماهم فاسألهم عن ذلك.

فأرسل معاوية إلى عمر بن أبي سلمة، وإلى أسامة بن زيد فسألهما، فشهدا أنّ الذي قال ابن جعفر قد سمعناه من رسول الله ﷺ كما سمعه.

فقال معاوية: يابن جعفر قد سمعناه في الحسن والحسين وفي أبيهما، فما سمعتَ في أمهما؟! ومعاوية كالمستهزئ والمُنكِر! فقلت: سمعت من رسول الله ﷺ يقول: ليس في جنّة عدن منزل أشرف ولا أفضل ولا أقرب إلى عرش ربي من منزلي، ومعي ثلاثة عشر من أهل بيتي أخي عليّ وابنتي فاطمه وابناي الحسن والحسين، وتسعة من ولد الحسين، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، هداة مهتدون، وأنا المبلغ عن الله، وهم المبلغون عني، وهم حجج الله على خلقه، وشهداؤه في أرضه، وخزّانه على علمه، ومعادن حكمته، من أطاعهم أطاع الله، ومن عصاهم عصى الله، لا تبقى الارض طرفة عين (إلاّ) ببقائهم، ولا تصلح إلاّ بهم، يخبرون الامة بأمر دينهم، حلالهم وحرامهم، يدلّونهم على رضا ربهم، وينهونهم عن سخطه، بأمر واحد ونهي واحد، ليس فيهم اختلاف ولا فرقة ولا تنازع، يأخذ آخرهم عن أولهم إملائي وخط أخي علي بيده، يتوارثونه إلى يوم القيامة، أهل الارض كلّهم في غمرة وغفلة وتيهة وحيرة غيرهم وغير شيعتهم وأوليائهم، لا يحتاجون إلى أحد من الأمة في شيء من أمر دينهم، والأمة تحتاج إليهم، هم الذين عنى الله في كتابه وقرن طاعتهم بطاعته وطاعة رسول الله، فقال: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم).

فأقبل معاوية على الحسن والحسين وابن عباس والفضل بن عباس وعمر بن

أبي سلمة وأسامة بن زيد، فقال: كلّكم على ما قال ابن جعفر ؟! قالوا: نعم.[١] إلى آخر ذلك الحوار.

لم يتوقف الأمر فقد عند حدود المفاخرة وبيان مثالب الأمويين واستحقاق العلويين، بل تعمد عبد الله أن لا يقطع أمراً دون اطلاع الحسنين، حتى في الأمور التي تعتبر من صلاحياته في الدائرة العائلية الضيقة. وذلك ما جرى عندما حاول معاوية أن يخطب ابنة عبد الله بن جعفر لابنه يزيد! فقد أوكل عبد الله الأمر للإمام الحسن عليه السلام، بالرغم من محاولات مروان المستميتة في أن يتخذ عبد الله بن جعفر القرار بنفسه! وكأن معاوية أراد أن يحقق أهدافا بالجملة في هذه الخطوة، فإن قبل عبد الله ذلك الزواج فقد أنهى الخلاف الأموي الهاشمي بأيسر السبل! وإذا خالفه الحسنان في ذلك تنكدت العلاقة بينه وبينهما! وإذا وافقوه فهو المطلوب!! إلا أن عبد الله بن جعفر أوكل الأمر إلى الحسن بالرغم من أن عبد الله أكبر سنا من الحسن، والقضية ترتبط به أكثر مما ترتبط بالحسنين! هلمّ لنرَ ما يقوله المؤرخون!

كتب معاوية لواليه على المدينة مروان «أن يخطب ليزيد ابنة عبد اللّه بن جعفر من زينب: أمّ كلثوم لصلح الحيّين بني اميّة و بني هاشم، و على قضاء ديون ابن جعفر و حكمه لصداق ابنته.

فبعث مروان إلى ابن جعفر يخطب إليه، فقال عبد اللّه: إن أمر نسائنا إلى الحسن بن علي فاخطب إليه. فأتى مروان الحسن عليه السّلام خاطبا، فقال له الحسن عليه السّلام: اجمع من أردت، فأرسل مروان فجمع الحيّين بني أمية وبني هاشم.

و تكلم مروان فحمد اللّه و أثنى عليه ثمّ قال: أما بعد، فإن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن أخطب (أم كلثوم) بنت عبد اللّه بن جعفر ليزيد بن معاوية على صلح

(١) الأنصاري، محمد باقر: كتاب سليم بن قيس١ / ٣٦٢.

الحيّين بني أمية و بني هاشم، و على حكم أبيها في الصداق وقضاء دينه بالغا ما بلغ! ويزيد بن معاوية كفؤ من لا كفؤ له! و لعمري لمن يغبطكم بيزيد أكثر ممّن يغبط يزيد بكم! فيزيد ممّن يستسقى بوجهه الغمام! وسكت.

فتكلم الحسن عليه السّلام فحمد اللّه وأثنى عليه ثمّ قال: أما ما ذكرت من حكم أبيها في الصّداق؛ فإنا لم نكن لنرغب عن سنة رسول اللّه ﷺ في أهله وبناته! وأما قضاء دين أبيها؛ فمتى قضت نساؤنا بمهورهن ديون آبائهن؟! وأما صلح الحيّين؛ فنحن عاديناكم للّه وفي اللّه، فلا نصالحكم للدنيا! وأمّا قولك: يزيد كفؤ من لا كفؤ له؛ فأكفاؤه اليوم أكفاؤه بالأمس لم يزده سلطانه! وأما قولك: من يغبطنا بيزيد أكثر ممن يغبطه بنا؛ فإن كانت الخلافة قادت النبوّة فنحن المغبوطون، وإن كانت النبوّة قادت الخلافة فهو المغبوط بنا، وأما قولك: إن الغمام يستسقى بوجه يزيد، فإن ذلك لم يكن إلاّ لآل رسول اللّه ﷺ.

ثمّ قال: فاشهدوا جميعا: أني قد زوّجت أمّ كلثوم بنت عبد اللّه بن جعفر من ابن عمها القاسم بن محمد بن جعفر على أربعمائة و ثمانين درهما، و قد انحلتهما ضيعتي بأرض العقيق، و إن غلتها في السنة ثمانية آلاف دينار، ففيها لهما غنى إن شاء اللّه». [١]

وينبغي أن ننبه إلى نقطة مهمة، وقد حاول الأمويون استغلالها في السابق، وحتى اليوم فإن أتباع الخط الأموي لا يزالون يحاولون الاستفادة منها وهي قضية التزاوج بين البيت العلوي الهاشمي والبيت الأموي، وخلاصة ما يهدفون إليه، بيان أن لا مشكلة بين هذين البيتين والخطين! وتتطور المسألة في زماننا هذا ليبشر أصحاب هذا النهج به، بل ويزيدون في الطنبور نغمة حاصلها أنه لما سمى أهل البيت بعض

(١) اليوسفي؛ محمد هادي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ٥٥٧.

أبنائهم بأسماء بعض الخلفاء أو السلاطين الأمويين فهذا يدل على أن لا مشكلة بينهم، وإنما الانسجام والوئام حاكم!

وكم أريق من الحبر على الصفحات، وسودت المقالات والكتب، واستلم كاتبوها أجورهم عداً ونقداً في سبيل إثبات هذا الأمر! وهذا بالإضافة إلى أنه تبسيط شديد للأمر إلى الحد الذي يغدو استخفافاً بالعقول، فقضية المبادئ والأفكار لا يحلها زواج فلان بفلانة، ومبيتهم على سرير واحد! والرؤية المختلفة للدين والعقيدة لا يغيرها أن يقوم شخص بانتخاب اسم صادف أن أحد مخالفيه قد تسمى به أو سمى أحد أولاده به! وكأنّ الاسم أصبح ملكا لذلك المخالف فلا يجوز لأحد أن يستفيد منه إلا بإجازته أو طيبة نفسه ورضاه!!

على أن الأمر في صغراه غير ثابت. فلا التزاوج كان بينهم ظاهرة طبيعية! ولا التشارك في الأسماء كان كثيرا![1] فضلا عن أنه لو كان لما دل!

وقد أشار الإمام الحسن المجتبى إلى هذا المعنى عندما قال: وأما صلح الحيين (القبيلتين بني هاشم وأمية) فنحن عاديناكم للّه وفي اللّه، فلا نصالحكم للدنيا!!

ويمكن لنا أن نلحظ تركيز الخط الأموي قديما وحديثا على ثلاث نقاط لتمييع مسافة الخلاف بين الخط العلوي والخط الأموي في فهم الإسلام وتطبيقه:

١. محاولة التركيز على ان أهل البيت قد سموا بعض أبناءهم وبناتهم بأسماء الخلفاء الأوائل وبناتهم، والسلاطين الأمويين وهذا يدل بزعمهم على عدم وجود اختلاف بين الفريقين والفئتين.

٢. أن بني هاشم تزاوجوا مع بني أمية، وبني تيم وبني عدي، وبالعكس وهذا

---

(١) للتفصيل يراجع الكتاب القيم للمحقق السيد علي الشهرستاني: التسميات بين التسامح العلوي والتوظيف الأموي.

يشير إلى أنهم كانوا يرتضون دينهم وطريقتهم ولم يكونوا يختلفون عنهم، فما يقوله بعض علماء الشيعة من اختلافات بينهم لا تصح.

٣. بل حاول الكتاب والمؤلفون السائرون في الركب الأموي أن يجعلوا سيرة بعض شخصيات أهل البيت متقاربة مع سيرة شخصيات بني أمية، وقبائل قريش، وأنه لا يوجد تميز استثنائي في الأسرة الهاشمية، وضمن هذا الإطار فقد نسبوا مثلا إلى عبد الله بن جعفر الطيار أنه كان يقعد مع المغنيات ويصرف عليهن الأموال ويستمع إلى غنائهن![1] ومثل هذا وأكثر نسب إلى سكينة بنت الإمام الحسين عليها السلام.[2]

والغرض من ذلك هو أن يقال: لا تعيبونا بالغناء، فالذي عندنا هو عندكم! ولا تعيبونا بالتهتك ورفع الحواجز بين النساء والرجال، فهذا عندكم!! وهكذا.

والأعجب من كل هذا!! ما يقرب من النكتة والطرفة. أنهم ينقلون عن الأصمعي:[3] أن معاوية كان يعيب على عبد الله بن جعفر سماع الغناء (!!) وأن معاوية مر في المدينة على منزل عبد الله في الليل فسمع عنده غناء على أوتار، فقال: استغفر الله أستغفر الله!! وأن عبد الله بن جعفر فيما بعد حاول (اقناع) معاوية بأن الغناء لا بأس به ولا مشكلة فيه!

هذا يقال لعبد الله بن جعفر الذي هو نتاج تربية أمير المؤمنين علي عليه السلام منذ سنوات صباه! وعاصر معاركه مع معاوية! ومعلومٌ هو موقف أهل البيت والأئمة[4] من الغناء

---

(١) الأندلسي؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد ٧ / ١٨.

(٢) لبيان الكذب وعدم المصداقية في هذه المرويات يمكن مراجعة ما كتبه السيد عبد الرزاق المقرم وغيره عن السيدة سكينة.

(٣) عبد الملك بن قريب بن أصمع الباهلي؛ من أئمة اللغة والشعر والأدب توفي سنة ٢١٦ هـ.

(٤) البروجردي؛ السيد حسين: جامع أحاديث الشيعة ١٧ / ٢٠٦ في حديث وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام يا

وما يرتبط به، من تحريمه وتحريم شراء المغنية، وتحريم أكل كسبها.

وبغض النظر عن هذا فلنا أن نتساءل متى جاء معاوية إلى المدينة واجتمع مع عبد الله بن جعفر على جلسات الغناء ؟ التي أقنعه عبد الله بـ (لطافة الغناء)؟

فإن الناظر للتاريخ يجد أن معاوية جاء إلى المدينة ثلاث مرات: وكلها لا يمكن أن يحدث فيها ما ذكر آنفا؛ الأولى كانت بعدما سمي بعام الجماعة، وبعد المهادنة مع الإمام الحسن عليه السلام ولا تزال أجواء الحرب هي الحاكمة بينه وبين الهاشميين والأخرى كانت بعد عام ٥٠ الهجرة حيث بلغ التصعيد الأموي ذروته في محاربة وتتبع أنصار أمير المؤمنين، وطمس مناقبه والتهديد لمن نشرها، وقضيته مع ابن عباس معروفة حينما نهاه عن الحديث وتفسير القرآن، وأشاع ذلك. الأمر الذي دعا الإمام الحسين عليه السلام أن يعقد مؤتمراً عاماً في حج ذلك العام لنشر فضائل الإمام عليه السلام،[1] وأما المرة الثالثة فقد جاء مهدداً متوعداً من يعارض تولية يزيد بعده

علي ثلاث يقسين القلب استماع اللهو وطلب الصيد واتيان باب السلطان.

وعن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال استماع الغناء واللهو ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع.

وعنه أيضا: الغناء أخبث ما خلق الله عز وجل والغناء أشر ما خلق الله الغناء يورث الفقر والنفاق. وان رجلا سأله عن سماع الغناء فنهاه عنه وتلا قول الله عز وجل ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾ ثم قال يسأل السمع عما سمع والفؤاد عما عقد والبصر عما أبصر.

(١) اليوسفي؛ موسوعة التاريخ الإسلامي ٦/ ٣٩ روى سليم بن قيس الهلالي: أنّ الحسين عليه السّلام حجّ قبل موت معاوية بسنة، ومعه ابنا عمّيه عبد اللّه بن عباس وعبد اللّه بن جعفر، فلما كانوا بمنى جمع إليه من حجّ من بني هاشم رجالهم ونساءهم ومواليهم و«شيعتهم» ومن يعرف من أهل بيته والأنصار. وأرسل رسلا وقال لهم: لا تدعوا أحدا ممّن حجّ العام من أصحاب رسول اللّه المعروفين بالصلاح والنسك إلاّ أن تجمعوهم لي: فاجتمع إليه في سرادقه نحو من مئتي رجل من أصحاب النبي، وأكثر من سبعمئة رجل من التابعين وغيرهم. ثمّ قام فيهم الحسين عليه السّلام خطيبا:

فحمد اللّه وأثنى عليه ثمّ قال: أما بعد، فإن هذا الطاغية (معاوية) قد فعل بنا و«شيعتنا» ما قد رأيتم وعلمتم وشهدتم! وإني أريد أن أسألكم عن شيء فإن صدقت فصدّقوني وإن كذبت فكذّبوني!

وكانت قبل وفاته بأربع سنوات اي حوالي سنة ٥٦ للهجرة. ففي كل هذه السفرات الثلاث كانت الأجواء مشحونة بالتوتر بينه وبين بني هاشم. فحتى لو سلمنا جدلاً أن عبد الله بن جعفر كشخص كان يقوم بهذا ولا نسلم به لأن تربيته وأجواءه الدينية لا تسمح له. ولو تنزلنا جدلا فإن الظروف العامة لم تكن تساعد على مثل هذه!

عبد الله بن جعفر وواقعة كربلاء:

من المعروف أن عبد الله بن جعفر لم يشارك في واقعة كربلاء بنفسه، حاله في ذلك حال عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية وآخرين غيرهما. فلماذا ؟

وهناك إجابات تنتهي في الغالب إلى إعذاره، ووجود مبرر له في عدم المشاركة، سنشير إليها، ولكن في البداية ينبغي أن نتساءل عن أنه هل كان يجب شرعاً على كل من علم بخروج الإمام الحسين من المدينة إلى مكة أن يخرج معه ؟ ومن مكة إلى كربلاء ؟

وفي نفس السياق: هل أنه صدر من الإمام الحسين عليه السلام ما يفيد المعنى المتقدم؟ من أمر أو خطاب شخصي أو عام ؟ ولنعبر عن السؤال الأول: لزوم الخروج مع الإمام في مرحلة الثبوت. ونعبر عن الثاني بلزوم الخروج في مرحلة الاثبات.

أسألكم بحقّ اللّه عليكم وحقّ رسول اللّه وحقّ قرابتي من نبيّكم! لما سبرتم مقامي هذا ووصفتم مقالتي، ودعوتم من أنصاركم في قبائلكم من أمنتم من الناس ووثقتم به، فأدعوهم إلى ما تعلمون من حقّنا، فإنّي أتخوّف أن يدرس هذا الأمر ويذهب الحق ويغلب! وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَو كَرِهَ الْكَافِرُونَ ثمّ قال:

أتعلمون أن رسول اللّه صلى الله عليه وآله فضّل (عليا) على جعفر وحمزة حين قال لفاطمة: «زوّجتك خير أهل بيتي: أقدمهم سلما، وأعظمهم حلما وأكثرهم علما» قالوا: اللهم نعم.

قال: أتعلمون أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله قال: «أنا سيّد ولد آدم، وأخي سيد العرب، وفاطمة سيدة نساء أهل الجنّة، وابناي الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة» قالوا: اللهم نعم!. إلى آخر خطابه عليه السلام.

والاجابة عن السؤالين لو كانت بالإيجاب فلا بد من التماس العذر أو المبرر الشرعي لعدم الخروج، إذ أنه يكون تخلفاً عن واجب شرعي. بخلاف ما إذا كانت بالنفي في المرحلتين أو في المرحلة الثانية على الأقل. فحينها لا حاجة ملحة لالتماس العذر لأن ما حصل هو تفويت فضل ومنزلة.

والموجود في الارتكاز العام لدى شيعة أهل البيت لا سيما في العصور المتأخرة أنه كان يجب على الجميع ممن عرف بخروج الإمام الحسين أن يخرج معه مناصراً ومدافعاً.

لكن يمكن لمن يتبنى وجهة النظر الأخرى أن يجادل بأنه لم نجد في كلمات الإمام عليه السلام التي قالها في المدينة أو مكة ما يفيد هذا المعنى، فأهم وصية تركها في المدينة وبين فيها سبب خروجه، كأنها خالية عن الدعوة العامة للمسلمين فضلا عن الشخصية للأفراد أن يخرجوا معه، فانظر إلى وصيته لمحمد بن الحنفية، وهكذا الحال في خطبه مكة. فإن ما فيها هو أنه سيفوت على من يتخلف: الفتح (من لحق بنا استشهد ومن تخلف عنا لم يدرك الفتح).

نعم هناك كلمات مختلفة في كربلاء، حاصلها أن من يكون هناك ويسمع واعية الحسين واستنصاره ثم لا يجيبه مع قدرته على ذلك يكبه الله في نار جهنم!

وربما يكون لهذا السبب وجدنا أنه لم يخرج مع الإمام الحسين عليه السلام من المدينة سوى أهل بيته المقربين؛ كأبي الفضل العباس وأشقائه من أم البنين، وأبنائه، وأبناء أخيه الحسن المجتبى، وأبناء عمه عقيل وجعفر وأمثالهم! وفي مكة عند الخروج صار العدد أكبر على أثر مراسلات الإمام لأهل البصرة والكوفة والاعلان العام في الناس (ألا ومن كان باذلا فينا مهجته وموطنا على لقاء الله نفسه فليرحل معنا).

ولا ريب مع ما تقدم أن الخروج والكون في ركاب الإمام عليه السلام منزلة عالية، وأن

من لم تتحقق منه مهما كان، لا يصل إلى منزلة من خرج معه.

وعلى أي حال فإن الاجابات التي قدمت أو يمكن أن تقدم في تبرير وتوجيه عدم خروج عبد الله مع الحسين هي التالية:

١. قيل إن السبب سبب صحي فقد كان كفيف البصر، ومن الواضح أنه لن يستطيع فعل شيء مهم إذا كان كفيفاً. غير أن المصادر التاريخية لا تذكر عن فقدانه البصر في سنة ٦١ هـ. بل ولا بعدها خاصة وأن المشهور أنه عمر طويلا، فقد نسب له أنه توفي عام ٨٠ للهجرة.

٢. وقيل إنه ربما أبقاه الإمام الحسين عليه السلام في المدينة لكي يخبره عما يجري فيها، ويكون عينه المفتوحة هناك! وهو نفس ما قيل في شأن محمد بن الحنفية الذي أوصى إليه الحسين قبل أن يخرج. ونفس الكلام السابق يجري هنا، فإنه لا توجد قرائن واضحة على مثل هذا الأمر.

٣. وهناك من يرى أن عبد الله بن جعفر بمقدار ما كان في الموضوع العقائدي قويا ومبدئيا للغاية، فإنه كان في الموضوع السياسي أقرب إلى (الواقعية السياسية) لو صح التعبير عنها، ولذلك لم يكن يرى حتى للحسين أن يمضي في المواجهة إلى آخرها. ولعل بعض بني هاشم وغيرهم كانوا يشاركونه في هذا، من أن الحسين ليس له قوة على إزالة الحكم الأموي وأن أهل الكوفة غير صادقين في دعوة الإمام عليه السلام فالأفضل في هذه الحالة أن يبقى الإمام الحسين في المدينة أو مكة أو حتى أن ينتظر حتى تحين الفرصة الأنسب، أو أن يذهب إلى اليمن ففيها أنصار أبيه. إلخ. وأن الحسين لو قتل فسيخسر الإسلام خسارة عظيمة بمقتله.

وقد غفل هؤلاء أن الإمام عليه السلام لم يكن ينظر إلى الموضوع ضمن الاطار السياسي،

وإنما كان ينظر إليه بالمنظور السياسي (وعلى الإسلام السلام إذا بليت الأمة براع مثل يزيد)، وضمن عقيدة (من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرام الله، عاملا في عباده بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا بقول كان حقا على الله أن يدخله مدخله).

وقد نقل بعض المؤرخين أن عبد الله بن جعفر قد ذهب إلى عمرو بن سعيد الأشدق وطلب منه كتاب أمان للحسين ﵇، فكتب له كتاباً. إلخ ما قيل. والناظر إلى لغة الكتاب و(الأمان) يستنكر جداً أن يكون عبد الله بن جعفر يقبل كتاباً بتلك الصياغة للإمام الحسين ﵇، ويعتقد أنه من جملة ما سطره الأمويون في التاريخ، من إظهار الحسين ﵇، تارة بمظهر الذي تورط في أمره، ويبحث عن مخرج فلا يجده! أو مظهر الشخص الذي (عصى) كلام كل الناصحين، ولم يستمع إلى (حكمة الحكماء من بني هاشم وغيرهم، و(ضيع) على نفسه فرصة النجاة!! ومن الواضح أن الإمام ﵇ لم يكن في هذا الموضع ولا تلك الحالة!

ومهما يكن من أمر فإن عبد الله بن جعفر، ترك زوجته العقيلة زينبا تخرج مع أخيها الحسين ﵇ إلى كربلاء، ولم يمنع ابنيه الذين خرجا والتحقا بالحسين في بعض الطريق، لكي يشهدا الواقعة ويستشهدا فيها.

وقد أعرب عن موقفه الصريح عندما رجع ركب السبايا بعد واقعة كربلاء من الشام، ودخل المدينة فإذا بأحد غلمانه يقول متذمراً على أثر مقتل أبناء عبد الله: محمد وعون؛ وعلى أثر سبي العقيلة زينب ــ: هذا ما لقينا من الحسين بن علي!!؛ فحذَفه عبدُ اللهّ بن جعفرٍ بنعلِه ثمّ قالَ: يا بن اللَخْناءِ، أَلِلحسيَنِ تقولُ هذا؟! واللهِّ لو شَهِدْتُه لأحببْتُ ألا أفارقَه حتّى أُقتلَ معَه، واللّهِ إنّه لَمِمّا يُسَخِّي بنفسي عنهما ويُعَزِّيني عنِ المُصاب بهما أَنّهما أُصِيبا معَ أَخي وابنِ عمِّي مواسِيَيْنِ له، صابرَينِ

معَه. ثمّ أَقبلَ عَلى جُلسائه فقالَ: الحمدُ للهِّ، عزّ عليّ مصرع الَحسين، إنْ لا أكُنْ آسيتُ حسيناً بيدي فقد آساه ولدي.(١)

وقد ورد التسليم على ابنيه في زيارة الشهداء المنسوبة للإمام الحجة (السَّلامُ عَلى عَونِ بنِ عَبدِ اللَّهِ بنِ جَعفَرٍ الطَّيّارِ فِي الجِنانِ، حَليفِ الإيمان، ومُنازِلِ الأَقرانِ، النّاصِحِ لِلرَّحمنِ، التّالي لِلمَثاني وَالقُرآنِ، لَعَنَ اللَّهُ قاتِلَهُ عَبدَ اللَّهِ بنَ قُطبَةَ النَّبهانِيَّ. السَّلامُ عَلى مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ اللَّهِ بنِ جَعفَرٍ، الشّاهِدِ مَكانَ أبيهِ، وَالتّالي لِأَخيهِ، وواقيهِ بِبَدَنِهِ، لَعَنَ اللَّهُ قاتِلَهُ عامِرَ بنَ نَهشَلٍ التَّميمِيَّ). وبالرغم من اختلاف كتاب السيرة والمؤرخين في اسم والدتي الشهيدين إلا أنهم لا يختلفون في أن عبد الله بن جعفر كان له ولدان شهيدان مع الإمام الحسين في كربلاء.

وقد ذكروا أنه توفي في سنة ٨٠ للهجرة، قالوا: كان جوادا سخيّا، و مات بدعائه: إذ أتاه آت يسأله معونته على أمره ولم يكن يحضره ما يعينه به، فخلع ثيابه عليه ثمّ دعا فقال: اللهمّ إن نزل بي بعد اليوم حقّ لا أقدر على قضائه فأمتني قبله! فمات في يومه ذلك.(٢)

(١) المفيد؛ الشيخ محمد بن النعمان: الارشاد ٢/ ١٢٤ وتاريخ الطبري ٤/ ٣٥٧ وقد ذكر الغلام تارة باسم أبي السلاسل، وأخرى بأبي اللسلاس.

(٢) اليوسفي؛ محمد هادي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٦/ ٤٦٩.

المصادر

بعد القرآن الكريم.

(تم الاعتماد على النسخ الالكترونية لهذه المصادر)

١. أحاديث أم المؤمنين عائشة ، السيد مرتضى العسكري ، المجمع العلمي الاسلامي ١٤١٨ هـ.

٢. الاحتجاج ؛ أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، مطابع النعمان ، النجف الأشرف ١٣٨٦ هـ .

٣. أسد الغابة ؛ ابن الأثير علي بن محمد الشيباني، دار الكتاب العربي – بيروت.

٤. الاستغاثة ، أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي.

٥. الأقسام القرآنية الشيخ ناصر مكارم الشيرازي دار نشر الامام على بن ابى طالب ١٤٣٠هـ.

٦. أمالي الطوسي ، الشيخ محمد بن الحسن الطوسي ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، قم ١٤١٤ هـالأمالي علي بن الحسين الموسوي الشريف المرتضى، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي . قم.

٧. الإمامة والسياسة عبد الله بن مسلم الدينوري ، دار الأضواء بيروت ١٤١ هـ.

٨. إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع ، تقي الدين المقريزي ، دار الكتب العلمية الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ؛ ناصر مكارم الشيرازي: مدرسة أمير المؤمنين قم ١٤٠٤هـ.

٩. أنساب الأشراف أحمد بن يحيى البلاذري دار الفكر بيروت ١٤١٧هـ إيمان أبي طالب وسيرته ؛ الشيخ عبد الحسين الأميني.

١٠. بحار الأنوار ، العلامة محمد باقر المجلسي ، مؤسسة الوفاء . بيروت.

١١. بحوث في الملل والنّحل . الشيخ جعفر السبحاني . مؤسسة النشر الاسلامي، قم.

١٢. بداية المجتهد و نهايه المقتصد . محمد بن أحمد بن رشد القرطبي . دار الفكر بيروت ١٩٩٥م.

١٣. البداية والنهاية اسماعيل بن كثير الدمشقي ، دار الفكر بيروت.

١٤. تاريخ الأمم والملوك (الطبري) محمد بن جرير الطبري مؤسسة الاعلمي للمطبوعات / بيروت.

١٥. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن اسحاق اليعقوبي . دار صادر . بيروت.

١٦. التبيان في تفسير القرآن، الشيخ محمد بن الحسن الطوسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

١٧. تعليقة على العروة الوثقى ؛ السيد علي السيستاني.

١٨. تفسير الصافي، الشيخ محسن الفيض الكاشاني، مكتبة الصدر – طهران ١٤١٦ هـ.

١٩. جامع أحاديث الشيعة ، السيد حسين البروجردي ؛ دار الصحف ، ١٤١٥هـ.

٢٠. الجامع الصحيح (صحيح مسلم) بن الحجاج النيسابوري. دار الفكر. بيروت.

٢١. جواهر الكلام في شرح شرائع الاسلام ، الشيخ محمد حسن النجفي ، مؤسسة النشر ـ جماعة المدرسين قم ١٤٣٢هـ.

٢٢. الحياة السياسية للإمام الرضا؛ السيد جعفر مرتضى العاملي جامعة المدرسين في قم ١٣٩٧هـ.

٢٣. الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي مؤسسة الامام المهدي . قم المقدسة.

٢٤. الخصائص الكبرى، عبد الرحمن بن أبي بكر، (جلال الدين) السيوطي دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٥. الخصال ، محمد بن علي بن بابويه (الصدوق) منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.

٢٦. الخمس في عصر الغيبة ، السيد أحمد الاشكوري، مركز الدرسات التخصصية في الامام المهدي ، قم ١٤٣٩هـ.

٢٧. دلائل النبوة الحافظ أبو نعيم الاصفهاني دار النفائس بيروت ١٤١٢هـ.

٢٨. ذخائر العقبى في مودة ذوي القربى ، محب الدين الطبري ، دار الكتاب الاسلامي ، قم ١٤٢٨هـ.

٢٩. الرافد في الأصول السيد منير السيد عدنان القطيفي : نشر مكتب آية الله العظمى السيد السيستاني قم ١٤١٤هـ.

٣٠. الروض الانف (شرح سيرة ابن هشام) الشيخ عبد الرحمن السهيلي. دار احياء التراث العربي . ١٤٢١هـ.

٣١. الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية ، الشهيد الثاني زين الدين الجبعي العاملي، انتشارات داوري ، قم ١٤١٠هـ.

٣٢. سبل الهدي والرشاد ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

٣٣. سفينة البحار ؛ الشيخ عباس القمي . دار الأسوة للطباعة والنشر . قم ايران .

٣٤. سيد المرسلين ؛ الشيخ جعفر السبحاني، مؤسسة النشر الاسلامي ـ جماعة المدرسين ـ قم.

٣٥. سير أعلام النبلاء ، شمس الدين الذهبي ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٥ هـ السيرة الحلبية ، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي.

٣٦. السيرة المحمدية، الشيخ جعفر السبحاني مؤسسة الامام الصادق قم ١٤٢٠هـ .

٣٧. السيرة النبوية؛ عبد الملك بن هشام الحميري، طباعة مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة.

٣٨. شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار للقاضي أبي حنيفة النعمان المغربي مؤسسة النشر الاسلامي قم.

٣٩. شرح احقاق الحق ؛ السيد شهاب الدين المرعشي النجفي ، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي قم.

٤٠. شرح نهج البلاغة ؛ عبد الحميد بن أبي الحديد، مكتبة آية الله العظمى

المرعشي النجفي . قم.

٤١. صحيح البخاري محمد بن اسماعيل البخاري ، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠١ هـ .

٤٢. صحيح شرح العقيدة الطحاوية حسن بن علي السقاف الحسيني دار الامام النووي الأردن ١٤١٦هـ.

٤٣. الصحيح من سيرة النبي الأعظم السيد جعفر مرتضى العاملي ، دار الحديث قم ١٤٢٦هـ.

٤٤. الطبقات الكبرى محمد بن سعد البغدادي دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٠هـ.

٤٥. العقائد الإسلامية ، مركز المصطفى للدراسات الإسلامية ، إشراف الشيخ علي الكوراني.

٤٦. عبد الله بن عباس شخصيته وآثاره ، السيد محمد تقي الحكيم ، دار الهادي بيروت ١٤٢٢هـ.

٤٧. عيون أخبار الرضا ؛ محمد بن علي بن بابويه (الصدوق) . مؤسسة الأعلمي . بيروت.

٤٨. غاية المرام وحجة الخصام ، السيد هاشم البحراني.

٤٩. الفصول المهمة في معرفة الائمة ؛ علي بن محمد المالكي . دار الحديث . قم ١٣٧٩ هـ ش.

٥٠. فضائل أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) المنسوبة لغيره الدكتور جواد كـاظم منشد النصر الله ، منشورات الرافد ، قم ١٤٣٠هـ.

٥١. قاموس الرجال الشيخ محمد تقي التستري ، مؤسسة النشر ـ جماعة المدرسين ـ قم ١٤١٥هـ.

٥٢. الكافي ، الشيخ محمد بن يعقوب الكليني . منشورات دار الحديث . قم ايران ١٣٧٩ هـ ش.

٥٣. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جار الله الزمخشري شركة مكتبة ومطبعة الحلبي مصر ١٣٨٥ هـ .

٥٤. كشف الغمة في معرفة الأئمة ، ابو الفتح علي بن عيسى الأربلي ، دار الأضواء بيروت ١٤٠٥هـ.

٥٥. كفاية الطالب في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الشافعي الكنجي ؛ دار إحياء تراث أهل البيت ، طهران ١٤٠٤ هـ .

٥٦. كنز الفوائد ، أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي.

٥٧. كتاب الفتوح ، أحمد بن محمد بن أعثم الكوفي.

٥٨. مجمع البيان الفضل بن الحسن الطبرسي مؤسسة الأعلمي بيروت ١٤١٥هـ.

٥٩. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد علي بن أبي بكر الهيثمي . دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٨هـ.

٦٠. المسائل السروية ؛ محمد بن النعمان التلعكبري المفيد ، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ١٤١٤هـ.

٦١. المستطرف في كل فن مستظرف ؛ محمد بن أحمد الأبشيهي ، عالم الكتب للنشر والتوزيع.

٦٢. المستدرك على الصحيحين الحاكم أبو عبد الله النيشابوري، دار المعرفة بيروت.

٦٣. المعجم الأوسط الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني ؛. دار الحرمين ، القاهرة ، مصر ١٤١٥هـ.

٦٤. معجم رجال الحديث؛ السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي ، مؤسسة الخوئي الاسلامية.

٦٥. مع الركب الحسيني في مكة ، نجم الدين الطبسي النجفي ، مركز الدراسات الاسلامية ، طهران ١٤٢١هـ.

٦٦. مفاهيم القرآن : الشيخ جعفر السبحاني . مؤسسة الامام الصادق . قم . ايران.

٦٧. المفصل في تاريخ العرب ، الدكتور جواد علي . دار الساقي ١٤٢٢هـ.

٦٨. مكاتيب الرسول ، علي الأحمدي الميانجي ، دار الحديث قم ايران.

٦٩. مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لابن المغازلي.

٧٠. مناقب آل أبي طالب محمد بن علي بن شهراشوب المازندراني ، المكتبة الحيدرية . النجف ١٣٧٦ هـ .

٧١. منظومة حقوق العترة النبوية بين التطبيق والنظرية ،محمد هاشم المدني ، إصدار المجمع العالمي لأهل البيت من لا يحضره الفقيه ، الشيخ محمد بن علي بن بابويه الصدوق ، جماعة المدرسين في قم المقدسة.

٧٢. المنمق في أخبار قريش محمد بن حبيب البغدادي.

٧٣. منهاج السنة أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ؛ دار الكتب العلمية . بيروت.

٧٤. منهاج الصالحين . السيد ابو القاسم الموسوي الخوئي . مؤسسة الخوئي الإسلامية.

٧٥. منهاج الصالحين السيد علي السيستاني.

٧٦. موسوعة التاريخ الإسلامي الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي ، مجمع الفكر الاسلامي قم ١٤١٧هـ.

٧٧. موسوعة عبد الله بن عبّاس ، السيد محمد مهدي الخرسان ؛ نشر مركز الأبحاث العقائدية . النجف الأشرف.

٧٨. الميزان في تفسير القرآن ، السيد محمد حسين الطباطبائي ، نشر جماعة المدرسين في قم.

٧٩. النخليون في المدينة المنورة ؛ حسن بن مرزق الشريمي النخلي (نسخة الكترونية).

٨٠. نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار . السيد علي الميلاني . قم.

٨١. نهج البلاغة ، خطب الامام علي ؛ جمع الشريف الرضي . دار الكتاب اللبناني . بيروت.

٨٢. وسائل الشيعة . الحسن بن الحر العاملي . مؤسسة آل البيت . قم .

٨٣. وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، نور الدين السمهودي ، مكتبة السيد المرعشي النجفي ، قم.

الفهرس

إهداء

يهدى ثواب هذا الكتاب لروح المرحوم

الحاج علي أحمد المحسن

سيهات

قنوات التواصل مع الشيخ

الايميل	fawzialsaif@gmail.com
الموقع الالكتروني	www.al-saif.net
قناة اليوتيوب	m.youtube.com/user/Fawzialsaif
تطبيق آيفون	bit.ly/alsaifapp
تطبيق أندرويد	bit.ly/1zPHwFh
قناة التلغرام	bit.ly/1M8Lzhk
المجموعة الصوتية الكاملة على دروبوكس	goo.gl/VMmT7X
روابط المقاطع القصيرة	goo.gl/XkTvmj
قناة الساوند كلاود	m.soundcloud.com/fawzialsaif
تطبيق الكتب اندرويد	play.google.com/store/apps/details?id=net.alsaif.books
ايفون وايباد	appsto.re/us/_ptClb.i
الموقع الرديف	al-saif.app
الانستغرام	instagram.com/fawzialsaif_shortclips?igshid=195mov23vh9mx
قناة بودكاست الشيخ فوزي آل سيف لجوالات الايفون	apple.co/310qGiO